فرضيات الفجوة الثقافية والتوطن القديم في اليمن*

دراسة تحليلية نقدية

د. عبده عثمان غالب
قسم الآثار - جامعة صنعاء

مقدمة

أدت التحريات الأثرية في السنوات الماضية إلى زيادة معلوماتنا عن المجتمعات ونظم الزراعة والري والفنون والعمارة والحياة الاجتماعية القديمة التي كانت سائدة في الألف الأول قبل الميلاد في اليمن (Arnaud 1845a, 1845b; Halevy 1873; Glaser 1889,1890; Albright 1952,1982; Van Beek 1952, 1956, 1969a, 1969b; Rossi 1953; Beeston 1954, 1971, 1972, 1976; Phillips 1955; Pirenne 1955a, 1955b, 1956, 1961, 1974; Bowen 1958; Cleveland 1960, 1965; Harding 1964; Van Beek and et. Al.,1964; Jamme1964; Wissmann 1964; Geukens 1966; Doe 1971, 1983; Asmaev 1968; Serjeant 1967; Reza-ur-Rahim 1971; Western 1972; Dayton 1975, 1979; Ripinsky 1975; Riggs 1977; Roberts 1977; Abdullah 1979a, 1979b; Wade 1979; Al-Ansary 1981; توفيق 19؛ فخري 1951-52).

على أنه ما يزال هناك كثير من المشكلات الثقافية تستدعي الوقوف عندها ، ولعل من أهم تلك المشكلات الاعتقاد بأن السكان الذين عاشوا قبل الألف الأول قبل الميلاد كانوا يعيشون حياة البداوة وبأنهم لم يعرفوا بعد حياة المدن أو القرى الحضرية ، وأنهم حتى الألف الأول

* نشرت هذه الدراسة في مجلة التاريخ والآثار ، العددان الثاني والثالث 1993-1994 . ومنذ ذلك الوقت توالت الأعمال والاكتشافات الأثرية في اليمن . وجميعها تؤكد صحة المعلومات العلمية والأدلة الأثرية التي وردت في المقالة لدحض تلك الفرضيات. ولأهمية تلك المعلومات والأدلة الأثرية . والطريقة التي اتبعت في عرضها نعيد نشرها للاستفادة من المعلومات والأدلة الواردة فيها والمنهج العلمي الأثري الذي استخدم في عرضها . وقد أضفنا هنا بعض الصور والأشكال لتقريب الصورة وإيضاح الرؤية.

قبل الميلاد ظلوا يمارسون الجمع والصيد كنشاطات اقتصادية أساسية، ولم يكونوا قد عرفوا الزراعة أو مارسوا أي شكل من أشكال إنتاج الطعام ، أسهم هذا الاعتقاد في بلورة نظريات تسلم بوجود فجوة في الثقافات القديمة في اليمن (Van Beek 1952, 1956, 1969a; Pirenne 1955, 1956, 1975; Albright 1952; Knauf 1988, 1989) امتدت لتشمل الفترة من الألف الرابع قبل الميلاد حتى الألف الأول قبل الميلاد ، وهي الفترة التي تعارف علماء الآثار على تسميتها بـ «العصر البرونزي المبكر ، والمتوسط ، والمتأخر» . وكان ذلك الاعتقاد قد بني بسبب عدم عثور الباحثين الأثريين الأوائل على مناطق سكنية تعود إلى الفترة الزمنية التي سبقت الألف الأول قبل الميلاد في المواقع التي أجريت فيها أعمال مسح أو تنقيب أثري قبل نهاية السبعينات من القرن العشرين .

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التحليلية التي هدفت إلى الكشف عن دلائل ومعلومات جديدة ومفيدة تساعدنا على فهم العمليات المتصلة بنمو وتطور ثقافات المجتمعات اليمنية في هذه الفترة الزمنية التي تمتد من الألف الرابع قبل الميلاد حتى الألف الأول قبل الميلاد ؛ ولتحقيق هذا الهدف ، الذي يمكن أن يفيد البحث الأثري في اليمن ، سوف نناقش أراء تلك النظريات حول الفراغ الثقافي والاستيطان الحضري في اليمن خلال هذه الفترة بالإضافة إلى العرض التحليلي للمعلومات والدلائل التي تضمنتها ومقارنتها بالمعلومات والحقائق الأثرية التي يحتويها السجل الأثري في محاولة ربما نتوصل من خلالها إلى استنتاجات عامة تساعد على تحقيق الهدف النهائي وهو معرفة خصائص الثقافات التي ظهرت خلال تلك الفترة التاريخية التي سبقت الألف الأول قبل الميلاد ، من خلال دراسة نتائج الأعمال الأثرية والجيمورفولوجية التي أجريت مؤخراً في بعض مناطق المرتفعات الجبلية ووديان الأراضي السهلية (Ghaleb 1990, 1993; Glanzman and Ghaleb 1987; Blakely, Sauer, and Toplyn 1985; Brunner 1983; Schmidt 1982; de Maigret 1981, 1984, 1990; Breton 1978; Bowen 1958a, 1958b) والخروج بتصور واضح عن أصول وملامح الثقافات التي ازدهرت في الألف الأول قبل الميلاد .

تفسير النظريات القديمة للفجوة

تدعونا مناقشة نظريات الفجوة في الثقافات والاستيطان الحضري قبل الألف الأول قبل الميلاد في اليمن إلى عرض سريع لمفاهيم تلك النظريات ومحاولاتها تفسير ظاهرة غياب المستوطنات التي تنتمي لفترة العصر البرونزي في وديان الأرض السهلية ؛ وسنبسط في الصفحات التالية أهم ما ورد في هذه النظريات.

يعد كل من فان بيك "Van Beek" (1952, 1956, 1969a, 1969b) و "بيرين « (1955a, 1955b, 1956, 1961 1974) أول من نادى بهذه النظريات ، والذي يمكن تلخيص رؤاها في أن تاريخ الاستيطان الحضري في اليمن يعود إلى حوالي الألف الأول قبل الميلاد ، وأن العناصر الأساسية للثقافات التي نمت في المستوطنات التي نشأت خلال هذه الفترة لها أصول أجنبية ، وأن الازدهار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي شهد ته تلك المستوطنات لم يكن انعكاساً لتحولات حدثت في البنى الاقتصادية - الاجتماعية للمجتمعات المحلية ولكنه نتيجة لفاعلية النظم المتطورة التي أدخلت إلى اليمن من الخارج في مجال الزراعة والري والتجارة والتعدين وصناعة الفخار ، وهي نظم وتقنيات لم تكن معروفة في اليمن حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد في رأي فان بيك (Van Beek 1956, 1969a, 1969b) أو القرن الخامس أو

السادس قبل الميلاد في رأي بيرين (Pirenne 1955, 1956).

لماذا؟ وكيف؟ انقسمت النظريات إلى قسمين

النظرية الأولى: هي نظرية فان بيك (Van Beek 1952, 1956, 1969a, 1969b). تتمسك بالترتيب الزمني الأعلى (High Chronology) للفترة التاريخية في اليمن وتحاول تثبيت الاعتقاد بأن العناصر الأساسية لحضارة اليمن التي كانت سائدة في الألف الأول قبل الميلاد لم تكن محلية، فهي أجنبية جلبت من بلاد الهلال الخصيب عندما خرجت أفواج من سكان بلاد الهلال الخصيب الذين أجبرتهم ظروف التغيرات المناخية والكثافة السكانية على ترك أوطانهم والاتجاه نحو اليمن التي استقروا فيها واتخذوها وطناً جديداً لهم.

وفي هذا المجال يقول فان بيك "Van Beek" انه في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد وصلت من بلاد الهلال الخصيب أعدادا كبيرة من المهاجرين إلى اليمن واستوطنت الأجزاء الشرقية منها وبمجيء هذه المجموعات وبسبب تأثيرها تبدأ الفترة التاريخية لليمن القديم، وأن العصور الطويلة التي سبقت نهاية الألف الثاني قبل الميلاد تنحصر ضمن فترة ما قبل التاريخ. وكان المستوطنون الجدد قد سيطروا على السكان الأصليين في الأجزاء التي استوطنوها وادخلوا إليها ثقافاتهم المتطورة التي حلت محل الثقافات المحلية، ونجحوا في إقامة المستوطنات الحضرية ومارسوا فيها نظماً مختلفة في مجال التجارة والزراعة والصناعة والفنون، وأقاموا صلات تجارية خارجية مع شعوبهم في أوطانهم الأولى أسهمت في تطور وازدهار مستوطناتهم الجديدة في اليمن اقتصادياً وثقافياً.

النظرية الثانية: وهي نظرية بيرين (Pirenne 1955,1956)، تتمسك بالترتيب الزمني الأدنى (low chronology) للفترة التاريخية في اليمن، وترى هذه النظرية أن الازدهار الذي شهد ته اليمن في الألف الأول قبل الميلاد كان نتيجة للصلات التجارية التي أقامها اليمنيون مع شعوب بلدان الشرق الأدنى القديم وبلاد اليونان. قبل هذه الفترة كان السكان يمارسون نشاطات ثقافية واقتصادية بدائية هي من مميزات ثقافات عصور ما قبل التاريخ.

وفي هذا الصدد تقول بيرين (Pirenne 1955: 88، 196-، 1975: 261) إن التطور الثقافي والاقتصادي لليمن حدث بعد انتهاء النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد عندما وسع اليمنيون صلاتهم التجارية خارج اليمن حيث أسهمت في عمليات التطورات الثقافية التي حدثت خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، فقد استوردت عناصر ثقافية وتقنيات متطورة في مجال الفنون المعمارية والتشكيلية والزراعة والكتابة والصناعة من بلدان الشرق القديم واليونان كان لها أثر مباشر في تحديد وجهات التطور الثقافي وصياغة أنماطه، في اليمن.

ولكننا نتساءل بخصوص المعلومات والأدلة التي أوردها فان بيك "Van Beek" وبيرين «Pirenne» والتي على أساسها بني بنيت هذه النظريات .وفي محاولتنا البحث في مصادر معلوماتهم لاستكشاف الحقيقة وجدنا أن مصادر معلوماتهم هي: ملاحظات المستشرقين الذين زاروا اليمن في الماضي وكتبوا عن مدنها ومعالمها الأثرية والتاريخية، والنقوش اليمنية القديمة، نتائج أعمال الاستطلاعات والتنقيبات الأثرية المحدودة التي أجريت في معبد «ذات بعدان» في منطقة حقة همدان (Rathjens and Wissman 1932) وفي حريضة في حضرموت (Caton-Thompson 1944) ، وهجر بن حميد وتمنع في بيحان ومعبد أوام في مارب (Phillips 1955; Van Beek 1969a; Bowen 1958; Cleveland 1965). وكان فان بيك وبيرين قد قاما

بدراسة مقارنة للمعلومات والدلائل التي كشفت عنها أعمال الاستطلاع والتنقيب، مثل النقوش والفخار وفنون العمارة والنحت والتعدين وأقنية الري. فخرجوا باستنتاجات عامة تتعلق بأصول الثقافات التي كانت سائدة في اليمن في الألف الأول قبل الميلاد. فكانت تلك الاستنتاجات الأسس التي بنى عليها كل من فان بيك «Van Beek» وبيرين «Pirenne» نظريات الفجوة الثقافية.

ولم يقف ردنا عند هذا القول، فنحن على يقين بأن مناهج ونظريات ووسائل البحث الأثري التي استخدمت في انجاز تلك الأعمال الأثرية لم تكن في ذلك الوقت قد بلغت مستوىً متقدماً في مجال الكشف والتحقيق والتفسير للمعلومات والمواد الأثرية للخروج بصورة مكتملة وواضحة تفيد الباحث في التعرف على خصائص الثقافات التي كانت سائدة في الألف الأول قبل الميلاد والحكم بما إذا كانت تلك الخصائص محلية أو هي مستوردة. وهنا ينبغي علينا أن نشير إلى أنه بالرغم من غياب النظرية في تفسير المواد والمعلومات الأثرية التي كشفت عنها الأعمال الأثرية التي أنجزت حتى نهاية العقد السادس من هذا القرن (1)، توجد نسبة كبيرة من المعلومات الصحيحة يمكن الاستفادة منها في تحقيق أهداف البحث الأثري في اليمن.

وفي مثل هذه الوضعية المنهجية والنظرية للبحث الأثري في اليمن ينبغي التأكيد على ان اي رأي أو فرضية في الدراسات الأثرية تعتمد على الملاحظات المدونة والمعلومات العامة أو حتى على المادة العلمية التي عثر عليها خلال الاستطلاع أو المسح الأثري للمواقع الأثرية لا يمكن ان توصل الباحث إلى معرفة واسعة بتاريخ الاستيطان القديم في اليمن أو نوع الثقافات التي نمت فيها والتسلسل الزمني لها ما لم يكن هناك مادة علمية متنوعة ومكتملة يكون الحصول عليها من خلال المسح الأثري والتنقيب الاستراتيجرافي المنظم والمنتظم. وأن الحديث عن فراغ استيطاني وثقافي في الفترة من الألف الرابع قبل الميلاد حتى الألف الأول قبل الميلاد تاريخاً مطلقاً للفترة التاريخية لليمن دون توسع البحث الأثري في اليمن، يبدو خطيراً. وهذا تأكيد للرأي أن نظريات الفجوة نشأت في الغالب من الاستنتاجات أو التعميمات العامة، لم تجر لها الاختبارات المطلوبة للارتقاء بها إلى المستوى الجيد من حيث تحليلها لظاهرة استمرار ثقافة العصور الحجرية حتى الألف الأول قبل الميلاد أو الظهور الفجائي للمدن الحضرية الكبيرة والثقافات التي نمت فيها، وكانت المعلومات والمواد الأثرية التي اعتمدت قد استخدمت دون تصنيف دقيق وتحليل علمي للحد من المعلومات غير الصحيحة. تجاهل هذه الإجراءات اضعف حجج تلك النظريات وما توحي به وهو أن ما أوردته من معلومات تنطبق في أفضل الأحوال على تلك الظاهرة. ومن الأدلة على ضعفها قلة أدلتها الأثرية.

التحليل الموضوعي المقارن للمواد الأثرية

بعد العودة لدراسة سجل المعلومات والأدلة الأثرية المختلفة التي تُكَوِّنُ في مجموعها مادة التقويم الزمني للثقافات القديمة في اليمن، في محاولة ربما نتوصل من خلالها إلى دلائل وظواهر جديدة تقدم دعماً لمزاعم نظريات الفراغ الاستيطاني والثقافي، وجدنا أن الجزء الأعظم منه يحتوي على معلومات تؤكد استمرارية الاستيطان والتوالي الثقافي في الفترة من الألف الرابع قبل الميلاد حتى الألف الأول قبل الميلاد.

(1) القرن العشرين باعتبار أن الدراسة أعدت ونشرت عام 1994م.

وكان أول عمل في دراستنا التحليلية لسجل المعلومات والأدلة الأثرية هو محاولة تحديد المناطق والمسالك التي مر منها المهاجرون ، ووجدنا أن الشريط الساحلي الموازي لسلسلة الجبال الغربية الممتدة من جنوب بلاد الشام إلى عدن ، والوديان الداخلية في الأراضي السهلية التي تقع إلى الشرق من هذه الهضبة الجبلية ، كانت من أكثر المناطق والمسالك ملاءمة للمرور منها إلى اليمن . بعد العودة لدراسة السجل الأثري في شمال وشمال غرب شبه الجزيرة العربية وجدنا أن نتائج الدراسات الأثرية التي أجريت في هذه المناطق تشير إلى أن الاستيطان هناك يعود إلى نهاية العصر البرونزي وبداية عصر الحديد ، وأن الفخار الذي عثر عليه في قرية وتيماء و ديبان والمواقع المؤآبية والادومية الأخرى يشبه بعض أنواع الفخار الايجي وفخار فلسطين الذي ينسب إلى هذه الفترة ، ويتميز بألوانه والرسومات التي تمثل أشكالاً هندسية وطيوراً ، ورغم ذلك لم تشر نتائج تلك الدراسات إلى أن سكانها مهاجرون وفدوا إليها من الأقاليم المجاورة ، وهو ما كنا نتوقع أن يحدث عند خروج أفواج المهاجرين من بلاد الهلال الخصيب (Parr, Harging, and Dayton 1968; Par 1977; Winnett and Reed 1970) . وكان العمل الآخر في دراستنا التحليلية هو دراسة نتائج الأعمال الأثرية التي أجريت في اليمن بهدف جمع المعلومات والدلائل الأثرية التي تفيد في التعرف على النشاطات الاقتصادية والثقافية والاستيطان في فترة العصر البرونزي وعصر الحديد ، هذه المعرفة سوف تسهم في توضيح الصورة حول التاريخ الثقافي وبداية الاستيطان الحضري في اليمن . فالمعلومات والأدلة الأثرية والجيمورفولوجية والمناخية تشير إلى أن اليمن كانت منطقة ملائمة للزراعة والاستقرار في فترة العصر البرونزي ، فقد عثر مؤخراً على بقايا أنظمة للزراعة والري والمساكن والأدوات المنزلية كالفخار والرحى في مناطق خولان والحدأ (de Maigret 1984, 1990) وتهامة (Tosi 1985) وقانيا ووعلان ووادي الجوبة وبدبدة (Ghaleb 1990, 1992) ووادي بيحان (Bowen 1958) ومارب (Brunner 1983) أوضحت نتائج التحقيقات والدراسات التي أجريت عليها أنها تنتمي لثقافات العصر البرونزي وهي ثقافات حضرية لمجتمعات مارسوا إنتاج الطعام وصناعة الفخار والتعدين ، وأنها تمتلك خصائص ومميزات تعكس أصالتها المحلية ومراحل نموها المختلفة ، رغم أنه كان نمواً بطيئاً ، لكنه كان طبيعياً ومتواصلاً .

ولأن المعلومات والأدلة التي زودتنا بها تلك المكتشفات تفيد في التعرف على مميزات وخصائص ثقافات العصر البرونزي في اليمن وتدعم رأينا أن المعلومات والاستنتاجات التي بنيت عليها نظريات الفجوة في الثقافات القديمة في اليمن ناقصة وغير أساسية ، لذلك ينبغي علينا عرض نتائجها في الآتي:

في وادي بيحان

تركزت الأعمال الأثرية التي قام بها باون Bowen عام 1950 في منطقتين من أهم المناطق الأثرية القديمة في وادي بيحان هما منطقة هجر بن حميد ومنطقة المبلقة (Bowen 1958) . وكانت عملية التنقيب التي أجراها باون قد تركزت في الجزء الغربي من مستوطنة هجر بن حميد القديمة ، فقد حفر باون في قناة الري التي تبلغ 1200م طولا ، وكان باون يهدف من وراء عملية التنقيب في هذه القناة إلى التعرف على مراحل نمو وتطور نظام الري في وادي بيحان كخطوة أساسية تسهم في تحقيق الهدف النهائي وهو تحديد بداية نظم الزراعة والري في وادي بيحان وتتبع مراحل تطورها وانهيارها .

وكان باون قد توصل في دراسته لتلك النظم إلى معرفة بعض المعلومات والأدلة الأساسية

حولها ، وخرج بعد التحليلات والتحقيقات التي أجراها حولها إلى استنتاجات هامة ، منها ، أن نظام الري في وادي بيحان ، وتحديدا منطقة هجر بن حميد ، مر بثلاث مراحل من التشييد : مرحلة مبكرة ، ومتوسطة ، ومتأخرة .

ويحدد باون بداية العمل بهذا النظام بحوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وكان هذا النظام قد توقف العمل به عندما بلغ المرحلة الأخيرة من مراحل بنائه التي حددها باون بحوالي القرن الثالث بعد الميلاد . ويرى باون أن توقف العمل بهذا النظام قد تزامن مع توقف النشاط الزراعي والاستيطان في منطقة هجر بن حميد .

وكانت الدراسة التي أجراها باون في منطقة هجر بن حميد قد شملت دراسة سُمك ونوع ومحتويات طبقات الإرساب في القناة الرئيسية والقنوات الفرعية والحقول الزراعية ووجد أن سُمك الإرساب كان قد بلغ حوالي «6 متر» عندما توقف العمل بنظم الزراعة والري ، من الستة الأمتار متران هما الإرساب الطبيعي السابق للنشاط الزراعي في المنطقة ، والأربعة الأمتار هي إرسابات التربة الزراعية التي تشكلت نتيجة لفاعلية تلك النظم التي كان معمولاً بها منذ بداية الاستيطان في المنطقة وممارسة المستوطنين للنشاط الزراعي فيها .

أما تحديد باون القرن الثالث قبل الميلاد كتاريخ لتوقف هذا النظام فقد بني على أساس نتائج دراسته لطبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين المظهر الأخير لقنوات الري والمظهر الاستيطاني الثاني (المستوى الأعلى) في منطقة هجر بن حميد .

ورغم أن باون (Bowen) قد حرص في أثناء دراسته لنظم الري والزراعة في وادي بيحان تحري الدقة وجمع أكبر قدر من المعلومات والدلائل الأثرية المفيدة التي أعتمدها في استنتاجاته ، فقد غلب على منهجه الطابع الوصفي والتعميم في التفسير لكن ذلك لا يقلل من أهمية المعلومات التي استخلصها من تحقيقاته الميدانية أو تلك الاستنتاجات التي توصل إليها في دراسته لنظم الري والزراعة في وادي بيحان . وفي حد ذاتها يمكن اعتبارها مدخلاً لدراسة تكنيكيكية وظيفية لمنظومة الزراعة والري في اليمن والتي بدأ برونر (Bronner 1983) ، جرولير (Grolier 1988) ، عبده عثمان غالب(Ghaleb 1990) ، و ويلكينسن (Wilkinson) العمل نحو تحقيقها في ثمانينات وتسعينيات القرن الماضي .

في مارب

تركزت الأعمال الأثرية والجيمورفولوجية التي قام بها برونر (Bronner 1983،1985) على دراسة الإرسابات الطمئية ومحتوياتها في منطقة أرض الجنتين القريبة من سد مارب القديم ، وقد زودتنا هذه الدراسة بمعلومات هامة تتعلق بنوع وخصائص طبقات إرسابات الطمئية ونظم الري والزراعة ولوظائف المتعددة لها .

وكان برونر (Brunner 1983، 1986) قد حدد تاريخاً لنظام الري والزراعة في حوض مارب يعود إلى حوالي بداية الألف الثاني قبل الميلاد أو بنهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو تاريخ أقدم بكثير من التاريخ الذي يعطيه فان بيك (Van Beek) وبيرين (Pirenne) وآخرون من الباحثين الذين يسلمون بصحة نظرياتهم . وقد توقف العمل تماماً بهذا النظام في حوالي بداية القرن السابع الميلادي (Brunner 1983، 1986) .

وقد أوضحت الدراسات الجيمورفولوجية والأثرية نوع وسمك ومحتويات شرائح التربة الطمئية التي ترسبت في الحقول الزراعية القريبة من السد ، وأظهرت أن تجمع التربات الطمئية تلك في

تراصفات منتظمة كان بنتيجة فاعلية العمل بنظام الري الذي كان متكيفاً مع الظروف الطبيعية والاقتصادية ، وأن تجمع هذه التربات كان يتم سنوياً بنسبة بلغت حوالي 1.1 سم (Brunner 1983، 1986) ، وهذا يعني أن هذا النظام كان قد أستغرق العمل به حوالي 2500 سنة حتى بلغ ذلك المستوى المعقد ، وأن إنجاز مثل هذا النظام ما كان ليتم لو لم يكن السكان قد حققوا مستوى متقدم في المعرفة بالمناخ والزراعة وتقنيات الري ، وأن تحقيق هذا المنجز الاقتصادي وضمان نموه واستمراره ما كان ليحدث أيضاً ما لم يكن هناك دولة مركزية تتحكم في عملية التوسع المستمر في الأرض الزراعية وتتولى إقامة مثل ذلك النظام و وتنظيم استخداماته والإشراف عليه ليستفيد منه كل المزارعين في حوض مارب .

وقد احتوت نتائج هذه الدراسة الأثرية الجيمورفولوجية لبرونر (Brunner 1982،1983) لإرسابات التربة ونظام الري في حوض مارب شرحاً تكنيكيا لمنظومة الري البسيطة والمعقدة ، وتوضيحاً وتحليلا لوظائفها ، كما تضمنت هذه الدراسة تحليلاً للعناصر الكيميائية – الطبيعية لشرائح تراصفات التربة ، وكذلك وشرحاً تفصيلياً لمستوياتها وشكل بنيتها ، بالإضافة إلى تحديد مراحل نمو نظم الزراعة والري ووصف أقنيتها المتنوعة .

في وادي الجوبة

تشير نتائج الدراسات الأثرية والجيمورفولوجية التي أجريت في وادي الجوبة إلى أن جزءاً كبيراً من طبقات الإرساب الطمئي في الوادي تتكون من التربة الناعمة والرملية والحصوية ، وهي لإرسابات صلبة مستوياتها التحتية (السفلى) كانت قد ترسبت طبيعياً خلال العصور الجيولوجية «بليستوسين» و «هولوسين» (Overstreet، Grolier، Toplyn 1988) ، تعلوا الإرسابات الطبيعية إرسابات العصر الهولوسيني الحديث التي تكون طبقات التربة الزراعية المختلفة ، وتفصل بين الإرساب الطبيعي وإرساب التربة الزراعية طبقة رمادية أو سوداء كانت قد تكونت خلال الفترة الرطبة خلال العصر الوسيط والحديث من عصر الهولوسين ، وقد أعطت نتائج تحليل عينات راديو كربون المشع تواريخ لهذه الطبقة تعود إلى الألف السابع والألف الخامس قبل الميلاد (Ghaleb 1990; Overstreet، Grolier، Toplyn 1988) .

المعلومات الجيمورفولوجية المنشورة عن إرسابات التربة الزراعية في وادي الجوبة لم تعط تواريخ محددة عن بداية النشاط الزراعي في الوادي لكنها تشير إلى أن الزراعة في الوادي كانت تمارس في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد (Overstreet، Grolier، Toplyn 1988) لكن نتائج تحليلات عينات راديو كربون المشع التي عثر عليها في حفريات هجر التمرة عام 1983 قد أعطت تاريخاً محدداً للاستيطان في الموقع يعود إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (نهاية العصر البرونزي المتوسط) (Blakely، Sauer، Toplyn 1985) ، كما تشير نتائج الدراسات الأثرية التي قام بها عبده عثمان غالب (Ghaleb 1990) في الوديان الفرعية للوادي أن النشاط الزراعي والاستيطاني يعود إلى حوالي المراحل الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد وهذا ما تؤكده نتائج التحقيقات والدراسات الأولية التي قام بها عبده عثمان لبقايا أنظمة الري والحقول الزراعية والأدوات الفخارية والحجرية وبقايا المساكن في منطقة الدراسة بوادي الجوبة (Ghaleb 1990) ، وهو تاريخ أقدم بكثير من التواريخ التي حددتها نظريات الفجوة .

مناقشات واستنتاجات

من واقع استعراضنا للنظريات التي تناولت ظاهرة الثقافات المتطورة التي كانت سائدة في

الألف الأول قبل الميلاد في اليمن ، وجدنا أنها وقعت في الخطأ عندما أعتقد أن تلك الثقافات لها أصول أجنبية وكذلك في تفسيرها لغياب ثقافات العصور البرونزية في مناطق الأراضي السهلية في اليمن ، بأنه كان «فجوة» في الثقافات اليمنية القديمة امتدت من الألف الرابع حتى الألف الأول قبل الميلاد . وجاء رفضنا التسليم بهذه النظريات تأكيداً للرأي بأن النمو الثقافي في اليمن في الفترة التي سبقت الألف الأول قبل الميلاد - رغم أنه كان بطيئاً - كان طبيعياً ومنتظماً ، وان الخصائص المميزة لتلك الثقافات التي أبرزتها الدراسات الأثرية الحديثة هي خصائص محلية ، وأن تفسير عدم تمكن البعثات أو الأفراد ، الذين أنجزوا أعمال المسح والتنقيب الأثري في الماضي ، من العثور على مستوطنات ومواد أثرية تنسب لفترة العصور البرونزية بأن هناك فجوة ثقافية امتدت لتشمل هذه الفترة ، علماً بأن مناطق الأرض السهلية القريبة من حدود رملة السبعتين ، وكان لغياب الإستراتيجية الواضحة للعمل الأثري في الماضي أثر في تحديد أهداف البحث الأثري وتوسيعه .

من منظور دراسة أللقى الأثرية والفنون المختلفة مثل الأدوات الفخارية والحجرية والمسكوكات والفنون المعمارية والتشكيلية واللغة ، التي عثر عليها أثناء التحريات الأثرية في العقود القليلة الماضية أو تلك التي وصلت إلى المتاحف بواسطة تجار الآثار ، فإن تلك اللقى والمواد الأثرية الأخرى لا تعرض خصائص فنية تخص حضارة واحدة أو حضارتان من تلك الحضارات التي ازدهرت في عدد من مناطق الشق الأدنى القديم وبلاد اليونان في الألف الأول قبل الميلاد . ولكنها تعرض عناصر فنية مختلفة تميزت بها عدد من الحضارات التي كانت معاصرة للحضارات التي نشأت في اليمن في هذه الفترة ، واتي يوجد الكثير من بقايا منتجاتها المادية تعرض أكثر من عنصر فني . ونحن هنا نفسر تعدد تلك العناصر الفنية في المنتج الواحد بأن الفنانون اليمنيون الذين أنتجوا تلك المواد والفنون كانوا يلجئون إلى تهجين منتجاتهم بخلط أكثر من عنصر فني . كانوا يقومون باستعارتها من حضارات مختلفة بحكم الصلات الثقافية الواسعة التي أقاموها مع مجتمعات مدن الشرق الأدنى القديم بعد تنشيط تجارتهم الخارجية وتكثيف صلاتهم بتلك المجتمعات الأجنبية في الألف الأول قبل الميلاد .

وهنا ينبغي علينا أن نشير إلى أنه رغم هذا الخلط في المنتج الواحد ، نلاحظ أن الفنانين اليمنيين كانوا يحرصون على بقاء الشكل المحلي الذي وجدناه يعكس الفكرة والأصالة المحلية للمنتجات اليمنية القديمة . كما وجدنا الخصائص المحلية التي تميزت بها الفنون المعمارية في منشآت الألف الأول قبل الميلاد في اليمن أقدم من المنشآت الأجنبية التي ظهرت عناصرها المعمارية والفنية بعض ملامح الفن الهيلينستي .

وكانت الدراسات الأثرية والجيمورفولوجية الجديدة قد كشفت لنا عن معلومات ومواد أثرية ومستوطنات سكنية ، تخبرنا نتائج التحقيقات والتحليلات التي أجريت عليها أن مناخ شبه الجزيرة العربية بدأ منذ الألف السادس قبل الميلاد يميل تدريجياً نحو الجفاف ، وأنه أستمر إلى ما بعد الألف الثالث قبل الميلاد (Grolier 1988: 350; Zarins et. ;31-Ghaleb 1990: 27 (MacClure 1976, 1978, 1984 ;55-Al. 1979: 10; Brice 1978: 51) . ومن الجائز أن يكون هذا التغير المناخي قد انعكس بدوره على حياة الناس والحيوان والنبات ، فالمعلومات المنشورة تشير إلى أن الإنسان لجأ في حوالي الألف الرابع قبل الميلاد وربما الألف الخامس قبل الميلاد إلى الاستقرار وإنتاج الطعام في مناطق المرتفعات الجبلية (Ghaleb 1990; de Maiget 1990) . وتوضح المعلومات والدلائل الأثرية والجيمورفولوجية التي جاءت من هذه المناطق في المرتفعات الجبلية أن السكان خلال هذه الفترة عاشوا في قرى زراعية على ضفاف

الوديان الرئيسية والفرعية التي كانت ملائمة للعيش وتتوفر بها المصادر الاقتصادية الأساسية . وكان السكان في هذه القرى يمارسون الزراعة وتربية الحيوانات وفق نظام اقتصادي – اجتماعي دقيق ، كشفت عنه الدراسات وتحليلات طبعات النباتات على الفخار وعينات عظام الحيوانات (Fedele 1984, 1990; Costantini 1990; Ghaleb 1990) ، كما أوضحت نتائج هذه الدراسات والتحليلات أن الزراعة في تلك المناطق كانت تعتمد على الأمطار الموسمية ، وأنه كان هناك موسمان للزراعة في السنة ، مارس السكان خلال الموسمين زراعة الشعير والذرة السكرية والحنطة والخن والشوفان ، وربما أيضاً مارسوا زراعة النخيل وفاكهة الشطب (Costantini 1984, 1990) . وقد عثر على بقايا أقنية الري البدائية والحقول الزراعية في عدد من مناطق المرتفعات الجبلية تؤرخ بحوالي الألف الرابع – الألف الثالث قبل الميلاد (Ghaleb 1990) .

وتشير الدراسات الأثرية إلى أن القرى الزراعية التي عثر عليها في هذه المناطق هي عبارة عن وحدات سكنية تتصل ببعض وتظهر درجة عالية من التكامل ، وهناك بعض المعلومات والدلائل تتعلق بالنمط التخطيطي والشكل والوظيفة لهذه المساكن تشير إلى أن هذه الوحدات ربما تطورت إلى وحدات سكنية كبيرة ، وتواصل تطورها نحو خلق مجتمعات مدن الألف الأول قبل الميلاد الأكثر تعقيداً ؛ وهي أيضاً تمثل مرحلة انتقالية من مجتمعات القرى الزراعية إلى مجتمعات المدن ذات الوظائف والنشاطات المتعددة التي تميزت بها مجتمعات المدن الحضرية الكبيرة التي ظهرت في الألف الأول قبل الميلاد في أودية الأراضي السهلية .

تؤكد هذا الرأي مجموعة الملتقطات الأثرية كالفخار وأحجار الرحى المصنوعة من أحجار التراكيت والجرانيت والرملية أو الأدوات الحجرية المصنوعة من الأوبسيديان وحجر الجرانيت والبازلت ، وهي أدوات كانت تستخدم لأغراض مختلفة ، فالفخار كان يستخدم لحفظ الحبوب والماء والسوائل وأعداد الطعام ، وأحجار الرحى كانت تستخدم لجرش أو طحن الحبوب ، واستخدمت شظايا الأوبسيديان والمدقات والفؤوس الصغيرة والمناقش الحجرية والمعدنية كأدوات زراعية لحرث الأرض وحصد المحاصيل الزراعية . وقد أوضحت نتائج الدراسات والتحليلات التي أجريت عليها أنها تعكس الاستمرار النمطي للثقافات المحلية التي شاعت في فترة العصر البرونزي ، وهي أنماط وجدنا أنها تبرز الظهور التدريجي للعناصر الأساسية المبكرة من تاريخ اليمن قبل الإسلام (Ghaleb 1990، 18, 1992; de Maigret 1984, 1988, 1990) .

وكما توقعنا ، فالفخار الذي عثر عليه في مواقع العصر البرونزي يختلف عن الفخار الذي عثر علي في مواقع الألف الأول قبل الميلاد من حيث شكل الأواني وتركيبة العجينة المستخدمة في صناعتها ، ووزنها النوعي العالي ، والمعالجة السطحية . وقد لوحظ في العينات الفخارية التي جمعت من مواقع العصر البرونزي المتأخر التشابه الكبير بينها وبين العينات الفخارية التي تنسب لثقافات الألف الأول قبل الميلاد في نوع الأواني والأشكال والمعالجة السطحية ؛ ويمكن تفسير هذا التشابه في أن الأشكال والأواني والزخارف التي شاع استخدامها خلال العصر البرونزي المتأخر كانت قد استمرت في الاستخدام خلال بداية فترة الألف الأول قبل الميلاد . وقد تميز فخار هذه الفترة بالسمك الكبير والخفيف ، والنوع السميك ممزوج بالقش أو المواد الصلبة ، بعضه خشن وذو لون أسود أو أحمر ، والنوع الخفيف في هذه المجموعة هو فخار مصقول وملمع ومطلي باللون الأحمر ويمثل أشكال مختلفة أكثرها شيوعاً النمط الحلقي . وكان الصناع قد أدخلوا بعض التحسينات على هذا النوع من الفخار كصناعة حوافي وقواعد بعض الأواني باستخدام العجلة الفخارية .

وكانت نتائج دراسات الملتقطات الأثرية وآثار النشاطات الإنتاجية في مواقع العصر البرونزي قد أكدت وجود نشاط تجاري محلي خلال فترة العصر البرونزي ، ويتبين هذا بشكل اوضح من وجود الأوبسيديان الأسود (الزجاج البركاني) وأحجار التراكيت والكوارتز والعقيق والنحاس في مواقع العصر البرونزي التي لا تتضمن مثل هذه المواد ، بالإضافة إلى بعض أنواع الفخار المزخرف بألوان كاللون البني الغامق والبني الفاتح والأحمر ، وهذا يدل على وجود علاقات متنوعة وصلات كانت تتم بين مستوطنات العصر البرونزي . وفي اعتقادنا أن وجود مثل تلك الصلات والتبادل في المنتجات بين مجتمعات تلك المستوطنات هو شكل من أشكال التجارة المحلية التي كانت تمارسه تلك المجتمعات عل نطاق محدود داخل اليمن إلى أن اهتدت إلى استخدام الجمل كحيوان ناقل للمنتجات والمواد الخام وقاموا بتنشيط التجارة المحلية التي توسعت وامتدت إلى مناطق بعيدة خارج اليمن لتشمل بلدان مختلفة في الشرق القديم واليونان في الألف الأول قبل الميلاد ، قد أسهم في خلق علاقات ثقافية متطورة .

مما تقدم نستطيع القول أن المعلومات والأدوات والمواد الأثرية والجيمورفولوجية التي كشفت عنها مؤخراً الدراسات العلمية وتضمنتها هذه الدراسة التحليلية النقدية ، جاءت لتؤكد صحة الرأي أن «الفجوة» لم تكن ثقافية بل هي فجوة في المعرفة الأثرية بثقافات العصر البرونزي في اليمن ، وأن هذه الفجوة في المعرفة الأثرية كانت قد نتجت عن إهمال الأثريين المهتمين بآثار الشرق الأدنى القديم إدخال اليمن ضمن إستراتيجية أبحاثهم الأثرية ، فقد كانوا ينظرون إليها على أنها منطقة صحراوية وجبلية وعرة ، وبالتالي فهي منطقة غير مهمة ، بالإضافة إلى عدم معرفة المؤسسات الرسمية في اليمن لأهمية البحث الأثري في الكشف عن ثقافات الماضي بحثاً عن أصول الحاضر فيها . وكان هذا التجاهل قد سبب نقصاً في السجل الأثري الذي يحتوي على أهم المعلومات والأدلة الأثرية عن ثقافات اليمن في فترة العصر البرونزي التي بلغت أوج ازدهارها في فترة العصر الحديدي (الألف الثاني – الألف الأول قبل الميلاد) .

ويرجح أن ذلك الازدهار الذي بلغته تلك الثقافات كان مرده تنشيط التجارة الخارجية الذي أرتبط بفاعلية النظم الزراعية واقنية الري المتطورة والتعدين وقيام دويلات المدن التي أرست قواعد النظم السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية ، والتي جاءت كنتيجة لتطور المراكز الإدارية والاقتصادية والسياسية التي نمت منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في أودية الأرض السهلية القريبة من الحدود الغربية لرملة السبعتين (Ghaleb 1990) ، وأن الثقافات التي ازدهرت في هذه المدن والمراكز الكبيرة هي ثقافات محلية تعود عناصرها الأساسية لثقافات العصر البرونزي في اليمن . كما أن مستوطني المدن والمراكز الكبيرة في أودية الأرض السهلية هم يمنيون كانوا يعيشون في مناطق المرتفعات الجبلية قبل انتقال أعداد منهم للعيش في هذه الوديان الكبيرة ، وكان التحول المناخي قد دفعهم إلى الهبوط من بيئتهم الجبلية إلى الاستقرار في أودية الأرض السهلية في حوالي نهاية الألف الثالث /بداية الألف الثاني قبل الميلاد (Ghaleb 1990; Brunner 1983) .

ولذا فمن المهم أن نوضح هذا الرأي الذي تدعمه نتائج الدراسات الأثرية والجيمورفولوجية الحديثة في اليمن . فقد تحقق لنا من هذه الدراسة التحليلية للمعلومات والأدلة الأثرية والجيمورفولوجية أعلاه من ناحية ظاهرة نمط المستوطنات وتراصف طبقات التربة الزراعية أو المواد الأثرية أن هناك احتمال قوي أن يكون السكان الذين عاشوا خلال المراحل الأخيرة من العصر الحجري الحديث في مناطق المرتفعات الجبلية قد مارسوا الزراعة كنشاط اقتصادي

بدائي إلى جانب الجمع والصيد التي ظلوا يمارسونها كنمط اقتصادي تخصصي إلى أن استكملوا معارفهم بالزراعة وتحولوا إلى ممارستها كنمط اقتصادي أساسي . فقد بينت نتائج تحليلات عينات التربة وطبعات النباتات على الفخار وراديو كربون المشع وأنماط التخطيط الهندسي للمساكن أن مناطق المرتفعات الجبلية كانت قد شهدت نشاطات استيطانية وزراعية وصناعة الفخار والتعدين في حوالي الألف الرابع قبل الميلاد ؛ وأن سكان تلك المناطق مارسوا نشاطات تخصصية في إطار النمط الاقتصادي البدائي (الجمع والصيد) ، وأنه في حوالي الألف الخامس قبل الميلاد عرف سكان هذه المناطق الزراعة وزادت ميولهم نحو ممارسة إنتاج الطعام فكثفوا من نشاطهم الزراعي وتحولوا تدريجياً إلى ممارستها كنمط اقتصادي إنتاجي حل محل النمط الاقتصادي البدائي السابق (الجمع والصيد) .

وأنه من مناطق المرتفعات الجبلية كان انتشار المعرفة بالزراعة تدريجياً نحو الأراضي المنخفضة إلى أن وصلت الوديان الكبيرة في الأراضي السهلية التي تقع على ارتفاع ألف متر من مستوى سطح البحر ، وكان وصول فكرة الزراعة إلى تلك الوديان الكبيرة في حوالي نهاية الألف الثالث/بداية الألف الثاني قبل الميلاد . وكان هذا الانتشار التدريجي للزراعة قد ارتبط بالارتفاع المستمر في الكثافة السكانية ، والمعرفة المتقدمة بالزراعة والمستوى الحسن الذي حققه السكان في إنتاج أدواتهم ، وكذلك التحول المناخي ، فقد تغيرت موجات المطر وأخذت في الاختفاء المتدرج منذ حوالي الألف الثالث قبل الميلاد . ومن هنا دفعتهم تلك الأسباب إلى الهبوط من بيئتهم الجبلية والاستقرار في تلك الوديان ، لهذا كانوا أجداد سكان المدن والقرى الكبيرة التي نشأت في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد في تلك الوديان الكبيرة ، والذين أطلقوا على أنفسهم أسماء السبئيين والقتبانيين والمعينيين والحضرميين والأوسانيين ، ووردت إشارات لهم في التوراة والنقوش الأشورية القديمة ، وفي المصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية ، وفي القرآن.

نحن هنا لا ننفي وجود إسهام ثقافي أجنبي ، وهو ما تشير إليه بعض تلك المصادر التاريخية والأثرية المذكورة أعلاه ، وإن وجد فهوا إسهام غير مباشر حدث بحكم الاتصالات المستمرة لليمنيين القدماء مع مجتمعات مدن الشرق الأدنى القديم واليونان ، لكنه لم يرتقى إلى مستوى الإسهام الفعلي في تشكيل الأنماط الثقافية التي ازدهرت في الألف الأول قبل الميلاد في اليمن أو في تحديد اتجاهاتها وتطورها . وأن تلك الصلات كانت فقط عاملا من عوامل التقارب بين الثقافات التي ظهرت في اليمن في الألف الأول قبل الميلاد والثقافات المعاصرة لها في بلدان الشرق الأدنى القديم وبلاد اليونان .

قائمة المصادر والمراجع

- تقرير مبدئي عن المسح والتنقيب . في منطقة بديهة . التاريخ والآثار ١ : ١٠ - ٢١ .

- أبودرك ، حامد إبراهيم ١٩٨٦ . مقدمة عن آثار تيماء ،
الرياض ، مطبوعات الإدارة العامة للآثار والمتاحف .

Abdullah, Y. 1979 . Mudawanat al-Nuqus al-Yamaniyyah al-Qadimah. Dirasat Yamaniyyah 2 : 47 - 75 .

........., 1979 . Mudawwanat al - nuqus al-Yamaniyyah al-Qadimah. Dirasat Yamaniyyah 3 : 29 - 61 .

Albright , F.P. 1952. The Excavation of the Temple of the Moon at Marib (Yemen) . Bulletin of the American Schools of Oriental Research 128 : 25 - 38 .

........., 1982 . The American Archaeological Expedition in Dhofar , Oman , 1952: 1953 . Publication of the American Foundation for the Study of Man , Vol. 6. Wahington , DC : American Foundation for the Study of Man .

Al-Ansary, A.R. 1981 . Qaryat al - Fau : A Portrait of Pre-Islamic Civilization in Saudi Arabia . New York : St. Martin's Press .

Arnaud, M. 1945a. Relation D'un voyage a Mareb (Saba) dans l'Arabie meridionale . entrepris en 1843 . Journal Asiatique 4(5-6) : 211 - 45 .

1845b. Pieces : Relatives aux inscriptions himyarites d'ecouvertes . Journal Asiatique 4 (5-6) : 309 - 45 .

Asmaev, L.R. 1968. Data on the Soils of the Southwestern Part of the Arabian Peninsula. In Geography and Classification of Soils in Asia, Eds. V.V.A.Hrsg. U.E.V. Kovda, 249-57 . Jerusalem : Lobora .

Bayle des Hermens , R. de. 1976 . Premiere mission de recherches prehistoriques en Republicque Arab du Yemen . L'Anthropologie 80 : 5 - 37 .

Beeston, A.F.L. 1954b. problems of Sabaean Chronology . Bulletin of the School of Oriental and African Studies 16 : 37 - 56 .

........., 1971. Functional Significance of the Old South Arabian "Town" . Proceeding of the Seminar for Arabian Studies 4 : 26 - 28 .

.........,1972a. kingship in Ancient South Arabia . Journal of the Economic and Social History 15 : 256 - 68 .

........., 1976b. Warfare in Ancient South Arabia . London ; Luzac and Company .

Blakely, J.A. 1985. The Stratigraphic Probe at Hajar at - Tamrah . In The Wadi al - Jubah Archaeological Project , Vol.2, Site Reconnaissance in North Yemen , 1983 . eds. J.A. Blakely , J.A. Sauer , M.R. Toplyn , 55-126 . Washington , DC : American foundation for the Study of Man .

Cleveland,R. 1960. The 1960 American Archaeological Expedition to Dhofar . Bulletin of the American Schools of Oriental Research 159 : 14 - 26 .

........., 1965. An Ancient South Arabian necropolis : Objects from the Second Campaign (1951) in the Timna Cemetery . Publication of the American foudation for the Study of Man , Vol.4 . Baltimore : Johns Hopkins Press .

Dayton, J.E. 1975. The Problem of Climatic Change in the Arabian peninsula . proceedings of the Seminar for Arabian Studies 8 : 33 - 60 .

........., 1979. A Discussion of the Hydrology of Marib. proceedings of the Seminar for Arabian Studies 12 : 124 - 29 .

de Maigret, A. 1981 . Two prehistoric Cultures and a new Sabaean Site in the Eastern Highlands of North Yemen . Raydan 4 : 194 - 8 .

Blakely, J.A., and Sauer , J.A. 1985 . The Road to the Wadi al-Jubah: Archaeology on the Ancient Spice Route in Yemen . Expedition 27(1) : 2-9 .

.... A.; Sauer , J.A.; and Toplyn, M.R. 1985. The Wadi al Jubah Archaeological Project Vol. 2, Site Reconnaissance in North Yemen , 1983 . Washington DC American Foundation for the Study of Man

Bowen, R.L. 1958a . Archaeological Survey of Beihan . In Archaeological Discoveries in South Arabia, eds. R.L.Bowen , and F.P.Albright , 3-33 . Publication of the American Foundation for the Study of Man, Vol.2. Baltimore : Johns Hopkins Press .

........., 1958b . Irrigation in Ancient Qataban (Beihan) . In Archaeological Discoveries in South Arabia . eds. R.L.Bowen, and F.P.Albright , 43-131 . Publication of the American Foundation for the Study of man , Vol.2 . Baltimore : Johns Hopkins Press

Bowen, R.L., and Albright , F.P. 1958 . Archaeological Discoveries in South Arabia . Publication of the American foundation for the Study of Man, Vol.2 . Baltimore : Johns Hokins Press .

Breton, J.F. 1978. Urbanisme et architecture a Shabwa . Raydan 1 : 143 - 47 .

Brice , W.C , 1978. The Environmental History of the Near and Middle East Since the Last ice Age . London : Academic Press .

Brunner, U. 1982 . Vorlaufiger Bericht uber morphologische untersuchungen in Raume Ma'rib . Archaologische berichte aus dem yemen

........., U.1983. Die Erforschung der antiken oase von Marib mit Hilfe geomorphologischer Untersuchungsmethoden Archaologische berichte aus dem Yemen . Bd. 2. Mainz am Rhein : Verlag Philip von Zabern .

........., U., and Haebner . H. 1986. The Successful floodwater farming system of the Sabeans, Yemen Arab Republic . Applied Geography 6 : 77 - 86 .

Caton-Thompson, G. 1944. The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut) . Reports of Research Committee of the Society of Antiquaries of London , NO.13. Oxford : Society of Antiquaries of London .

CIH 1889 - 1930 Corpus Inscriptionum semiticarum , inscriptiones Himyariticas et Sabaeas contines Vols. 1-3 . Paris : pars Quarta

Abdullah, Y. 1979 . Mudawanat al-Nuqus al-Yamaniyyah al-Qadimah. Dirasat Yamaniyyah 2 : 47 - 75 .

........., 1979 . Mudawwanat al - nuqus al-Yamaniyyah al-Qadimah. Dirasat Yamaniyyah 3 : 29 - 61 .

Albright , F.P. 1952. The Excavation of the Temple of the Moon at Marib (Yemen) . Bulletin of the American Schools of Oriental Research 128 : 25 - 38 .

........., 1982 . The American Archaeological Expedition in Dhofar , Oman , 1952: 1953 . Publication of the American Foundation for the Study of Man , Vol. 6. Wahington , DC : American Foundation for the Study of Man .

Al-Ansary, A.R. 1981 . Qaryat al - Fau : A Portrait of Pre-Islamic Civilization in Saudi Arabia . New York : St. Martin's Press .

Arnaud, M. 1945a. Relation D'un voyage a Mareb (Saba) dans l'Arabie meridionale . entrepris en 1843 . Journal Asiatique 4(5-6) : 211 - 45 .

1845b. Pieces : Relatives aux inscriptions himyarites d'ecouvertes . Journal Asiatique 4 (5-6) : 309 - 45 .

---------, 1984. A bronze Age for Southern Arabia. East and West 34 : 75 - 106.

---------, A.; Bulgarelli, G.M.; Fedele , F.G.; Marcolongo, B.; Scerrato, U.; and Ventrone, G.1984. Archaeological Activities in the Yemen Arab Republic, 1984. East and West 34 (4) : 423 - 54.

Doe, B. 1971. Southern Arabia. London : Thames and Hudson.

---------, 1983. Monuments of South Arabia. Cambridge : Oleander press.

El Azm, N.M. 1938. Rihleh fi Belad El Arabieh El Sa'ideh : Min Misr ela Sana'a Vols. 1-2. Cairo : no. P. (in Arabic).

Fakhry , A. 1951-52 . An Archaeological Journey to yemen (March - may , 1947). Vols. 1-3 . Cairo : Government Press.

Field, H.S. 1960. Carbon -14 Date for a "Neolithic" Site in the Rub' al-Khali Man 60 : 172.

Francesco, F.G. 1984 . Fauna of Wadi yana'im (Wyi), yemen Arab Republic . East and West 34(1-3) : 117 - 25.

Geukens, F. 1966. Geology of the Arabian Peninsula , Yemen . U.S. Geological Survey professional Paper 560 - B.

Ghaleb, A. 1990. Agricultural practices in Ancient Radman and Wadi Al-Jubah (Yemen). A Dissertation in oriental studies , 1990. University of Pennsylvania.

Glanzman, W. ; Ghaleb, O.; and Sauer , J. (in Progress) . The Wadi al-Jubah yemen , 1984 . Washington DC. American Foundation for the Study of Man.

Glaser, E. 1889. Skizze der Geschichte Arabiens Von den altesten Zeiten bis zum Propheten Muhammad . Vol.1 . Munich : n.p.

---------, 1890 . Skizze der Geschichte and Geographie Arabiens von den altesten Zeiten bis zum propheten Muhammad . Vols. 1-2 . berlin : Weidmann.

Grolier, M.J., and Overstreet , W.C. 1983 . Geological map of the yemen Arab Republic 1 : 500,000 . Reston , Virginia : U.S. Geological Survey.

---------, M.V., 1988 . " Geomorphology or the al-Jubah Quadragle , yemen Arab Republic : A Guide to teh Interpretation on Landforms in the Basin of Wadi al-Jubah " . In The Wadi al-Jubah Archaeological project Vol.4, Geological and Archaeological Reconnaissance in the yemen Arab Republic , 1985. Ed. W. overstreét et. al . Washington DC : American Foundation for the Study of Man , pp.289-357.

halevy , J. 1873. Etudes sabeennes . Journal Asiatique 7 ; 434-521.

Al-Hamadani, H. 1971. Sifat Jazirat al-Arab . Riyad : Dar al-Yamama (In Arabic).

---------, 1981 . The Antiquities of South Arabia . 9 Book 8) , tr. n. A. Faries , Westport, Ct : Hyperion Press.

Harding, G. L. 1964. Archaelolgy in the Aden Protectorates . London : Her Majesty's Stationery Office.

(Herodotus). 1954. The Histories . tr. A. de Selincourt . London : penquin.

Lorenzo, C. 1984. Plant Impressions in bronze Age Pottery From Yemen Arab Republic . East and West 34 (1-3) : 107 - 15.

Luckenbill, D.D. 1927. Ancient Records of Assyria and Babylonia. Vol 2 . Historical Records of Assyria From Sargon to the End . Chicago : University of Chicago Press.

McClure, H.A. 1976. Radiocarbon Chronology of Late Quaternary Lakes in theArabian Desert . Nature 263 : 755 -56.

Nami , K.Y. 1947 . Nugush Arabiya Jaubiya . Majallat Kulliyat al-'adab 9 : 1-13.

Naval, Intelligence Division (Hrsq.) : 1946. Western Arabia and Red Sea . Geographical Handbook Series . London.

Overstret , W.C.; Grolier , M.; and Toplyn, MR. (in progress) The Wadi al-Jubah Archaeological Project . Vol. 4, Geological Reconnaissance in North yemen , 1985 . Washhington , DC : American Foundation for the Study of Man.

Parr, P.J. ed. , 1977 . Archaeological Sources , from the Early History of N.W. Arabia . in The first International Symposium , on Studies in History of Arabia . University of Riyadh.

Parr, P.J.; Harding , G.L.; and Dayton , J.E. 1970. Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968. Bulletin of the Institute of Archaeology 8-9 : 194-242.

Parr,P.J. et. al., 1978. " Preliminary Report on the Second Phase of the Northern Province Survey " . Atlal 2 : 29 - 56.

(Periplus). 1980 . The Periplus of the Erythraean Sea, tr. and ed. G.W.B. Huntingford London : Haklut Society.

Phillips, W. 1955. Qataban and Sheba new york : Harcourt, brace.

pirenne, J. 1955. La Grece et saba . Paris : Academie des Inscriptions et belles-Lettres.

---------, 1956. Paleographie des inscriptions sud-arabes; contribution al la chronologie et al l'histoire de l'Arabie du Sud antique. Vol.1 . Des origines jusqu' al'epoque himyarite . Brussels : Paleis der Academien.

——, 1961. le royaume sud-arabe de Qataban et sa datation d'apres l'archeologie et les sources classiques jusqu'auperiple de la mer Erythree. Louvain : publications Universitaires.

——, 1974 / Mptes d'archeologie sud-arabe, ix. Hajar Bin Humeid. Syria 51 : 177-70.

——, 1975. Premiere mission archeologique francaise au hadramout (Yemen du sud) Comptes rendus des Seances de l'Academie des Inscriptions et Belles-Lettres (Janvier-Mars) : 261-79.

——, 1977. Corpus des Inscriptions et Antiquites Sud-arabes. Louvain : Peeters.

(Pliny). 1969. Natural History, Book 6. ed. h. Rackham. Cambridge, MA : harvard University Press.

Rathjens, C., and Wissmann, H. von. 1932. Vorislamische Altertumer. Hamburg : Hamburgische Universitat.

Reza-ur-Rahim, M. 1971. Agriculture in Pre-Islamic Arabia. Islamic Studies 10 : 53-65.

Riggs, h.C. 1977. A brief Investigation of the Surface Water Hydrology of yemen Arab Republic. Reston, Virginia : U.S. Geological Survey. (Open - File Report 77 - 150).

Ripinsky, M.M. 1975. The Camel in Ancient Arabia. Antiquity 49 : 295 - 98.

Roberts, N. 1977. Water Conservation in Ancient Arabia. Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 10 : 134 - 46.

Robin, C. 1982. Les hautes-Terres du Nord-yemen avant l'Islam 1. Rcherches sur la geographie tribale et religieuse de Hawlan Quda'a et du pays de hamdan. Istanbul : nederlands historisch-Archaeologish Institut.

Rossi, E. 1953. Note sull' irrigazione, l'Agricoltura e le Stagioni nel yemen. oriente Moderno 33 : 349-61.

Sauer, J.A. 1985. The Archaeological Remains in the Wadi al-Jubah and their Relationship to Near Eastern Archaeology. In The Wadi al-jubah Archaeological project. Vol.2, Site Reconnaissance in North yemen, 1983. eds. J.A. blakely; J.A. Sauer; and M.R. Toplyn, 147-56. Washington, DC: American Foundation for the study of Man.

al-Sayari, S.S., and Zotl. J.G., eds. 1978. Quaternary period in Saudi Arabia, Vol. 1. new york : Springer Verlag.

9Schmidt.J.,ed.). 1982. Archaologische berichte aus dem yemen, bd.1. mainz am Rhein: Verlag Phillip von Zabern.

Schoff, W.H.,ed. & tr. 1912. The Periplus of the Erythraean Sea. new york : Longmans, Green.

Serjeant. R.B. 1967. Some Irrigation Systems in the hadramaut. Bulletin of the School of Oriental and African Studies 27 : 33-76.

Soderstrom, Thomas R. 1969. Impressions of Cereals and other Plants in the Pottery of Hajar Bin humeid. In hajar bin Humeid : Investigations at a pre-Islamic Site in South Arabia. e. G.W. Van beek, 399-407.Publication of the American Foundation for the Study of man, Vol.5. Baltimore : Hohns hopkins press.

(Strabo). 1967. The Geography of Strabo, Books 3-6, ed. H.L.Jones. Cambridge, MA : [illegible]

Tawfik, M. 1951. Atar Ma'in fi Guf el yaman Cairo : Institut Francais d'Archeologie orientale inCairo.

Toplyn, M.R. 1984. The Wadi al-jubah Archaeological Project Vol.1. Site Reconnaissance in North yemen, 1982. Washington, DC : American Foundation for the Study of man.

Van beek, G.W. 1952. Recovering the Ancient Civilization of South Arabia. Biblical Archaeologist 15 : 2-18.

.........., 1956.A Radiocarbon Date for Early south Arabia. Bulletin of the American Schools of oriental Research 143 : 6-9.

.........., 1969a. Hajar Bin humeid : Investigations at a Pre-Islamic Site in South Arabia. Publications of the American foundation for the Study of Man, Vol.5. Baltimore : Johns Hopkins press.

.........., 1969b. The Rise and Fall of Arabia Felix. Scientific American 221 : 36 - 46.

Varisco, D.M. 1983. Irrigation in an Arabian Valley : A System of Highland Terraces in the yemen Arab Republic. Expedition 25 (2) : 26 - 34.

Wade, R. 1979. Archaeological Observations around Marib, 1976. proceedings of the Seminar for Arabian Studies 12 : 114 - 23.

Westem, s. 1972. The Classification of Arid Zone Soils : the Classification of Sedosols in Wouth Arabia. Journal of Soil Science 23(3) : 279-90.

Winnett, F.A. and Reed. W. 1970. Ancient Records Fromnorth Arabia. Toronto : University of toronto press.

Wissmann, H.von. 1964. Himyar, Ancient History. Le Museon 77 : 429-97.

Zarins, J.; Ibrahim, M.; Potts, D.; and Edens, C.1979. The Preliminary Report on teh Third phase of the Comprehensive Archaeological Survey program-The Central Province. Atlal 3 : 9-42.

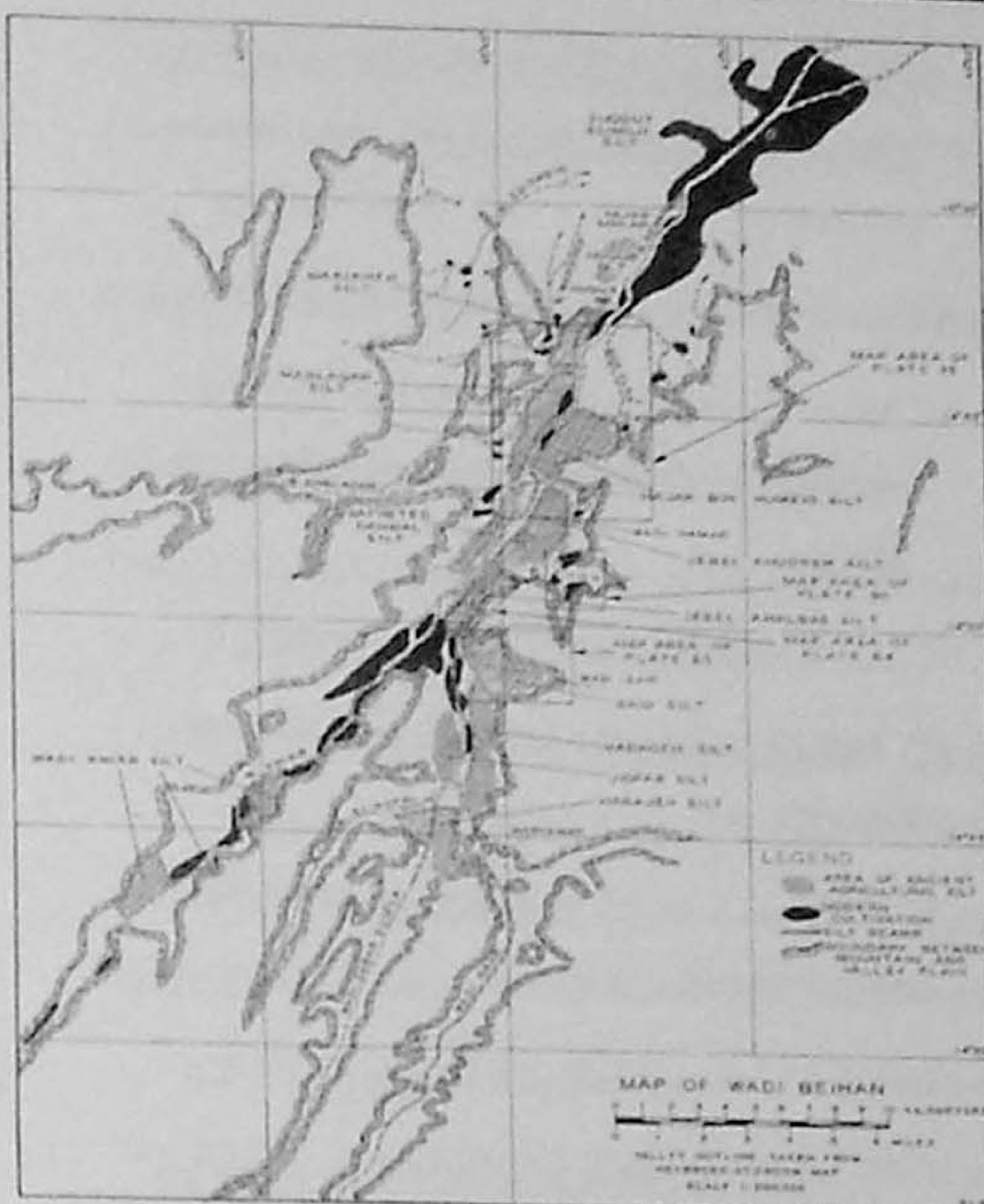
Irrigation in Ancient Qatabân (Beihân) 101



50. Section of canal to the east of sluice 51. Note the level strata of canal bottoms and the canal side sloping up to the left. Uncultivated field silt is in the background.



51. Segment of canal side (C2) near the [illegible] edge to the north of sluice 51 which can be seen in the right background. Photograph taken a little farther north than one above.



إرساب التربة في وادي بيحان

خريطة وادي بيحان





صورة لإرساب التربة في حوض مارب



صورة لحوض مارب

وادي الجوبة

وادي الهضبة

الازدهار والتواصل الحضاري القديم في منطقة تعز(المعافر)

بين الشواهد الأثرية والتحليلات التاريخية المقارنة

د. عبدالله أبوالغيث *

1. تمهيد:

سوف يركز الباحث من خلال بحثه هذا بالإجابة على سؤال متعدد الأوجه عادة ما يتردد بين دارسي التاريخ اليمني القديم، مفاده: ما الموقع الذي شغلته منطقة تعز في ذلك التاريخ بشقيه السياسي والحضاري؟، ولماذا يقل وجود الآثار والنقوش العائدة إلى هذا العصر في هذه المنطقة مقارنة لها ببقية مناطق اليمن الأخرى؟، وهل يعود ذلك إلى كونها كانت منطقة هامشية لم تهتم بها الدول اليمنية القديمة؟ أم يعود إلى قصور في توثيق الدور الذي لعبته هذه المنطقة كجزء هام على الرقعة الجغرافية التي امتدت عليها حضارة اليمن قبل الإسلام؟.

ومن أجل الإجابة عن السؤال أعلاه سيقوم الباحث بدراسة تحليلية مقارنة من خلال الأحداث التي شهدتها بلاد اليمن القديم وكذلك منطقة البحر الأحمر قبل الإسلام ؛ بغرض استكشاف دور منطقة تعز في تاريخ اليمن القديم وحضارته ، وذلك عن طريق تحليل تلك الأحداث والمقارنة فيما بينها ابتداءً من إخضاع المكرب السبئي كرب إيل وتر لبلاد المعافر(منطقة تعز) قبل توجهه للقضاء على دولة أوسان في مطلع القرن السابع قبل الميلاد ، وانتهاءً باختيار الصحابي الجليل معاذ بن جبل لمدينة الجند لتكون مقراً له كأول والي لدولة الإسلام الفتية على اليمن في مطلع القرن السابع الميلادي.

ويجدر بنا التنبيه هنا بأن مهمتنا في هذا البحث لن تتمثل في تناول تفاصيل كل الأحداث التي مرت بها المنطقة طوال هذه الفترة الزمنية الطويلة، لأن ذلك موضوع طويل أملنا أن تتكفل بتفاصيله الكثيرة بقية الأبحاث المقدمة إلى هذا المؤتمر[1]، والتي ستتناول جزئيات وفترات محددة من أحداث هذا العصر، أما نحن فستتركز مهمتنا حول الإجابة عن السؤال الذي طرحناه أعلاه، عن طريق الإشارة إلى الأحداث باختصار بمايخدم الفكرة التي أردنا من خلال بحثنا هذا دراستها وإيضاحها.

وقبل الخوض في ثنايا البحث نحب أن نوضح

* أستاذ التاريخ القديم المشارك جامعة صنعاء- كلية الآداب- قسم التاريخ

بأن المقصود بمنطقة تعز في بحثنا هي محافظة تعز الحالية إلى جانب المناطق المحاددة لها من المحافظات اليمنية المجاورة لها (إب، الحديدة، لحج، الضالع)، أي تلك

البلاد التي تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من اليمن ، وتطل على مضيق باب المندب وسواحل البحر الأحمر القريبة منه والتي عرفت في التاريخ القديم باسم المعافر.[2]

2. لمحة عن المواقع الأثرية في منطقة تعز:

سنقدم في البداية لمحة عن أهم المواقع الأثرية التي تنتشر في منطقة تعز وتعود إلى عصر ماقبل الإسلام، على النحو التالي:

مدينة السوا القديمة: كانت مدينة السوا في العصر الحميري -على الأقل- بمثابة الحاضرة الأولى لإقليم المعافر، وتعد البقايا الأثرية لهذه المدينة من أهم الآثار المعروفة في محافظة تعز حتى الآن، وتتمثل هذه الآثار في سور المدينة، وكذلك القصر وملحقاته، إلى جانب المنشآت السكنية والمقابر، وكذلك بعض المواقع الأثرية حول المدينة، مثل موقع الظهرة (السوق)، وموقع ضمدة، وموقع سد الأعدوف.[3]

الجدير بالذكر أن المدن التاريخية القديمة الأخرى المعروفة في منطقة تعز، مثل المخاء وموزع لم يتم العثور فيها حتى الآن على آثار ذات شأن يمكن إعادتها إلى عصر ماقبل الإسلام، رغم معرفتنا لها من النقوش المسندية والمصادر التاريخية القديمة.

أما مدينة جبأ التاريخية فقد تم العثور فيها على بعض الآثار القديمة عن طريق الصدفة، وقد تمثلت تلك الآثار بتمثال ثور من المرمر ومسرجة[4]. وسيأتي الحديث عن تاريخ هذه المدن في ثنايا فقرات البحث القادمة.

مواقع منطقة الحجرية: يوجد في قرية صبيرات ،مديرية الشمايتين، كهف عثر فوق جدرانه الداخلية على رسومات صخرية، وكتابات بخط المسند[5]، وكذلك عثر في قرية حاز،عزلة قدس،مديرية المواسط، على بعض الأواني الحجرية القديمة، وهي محفوظة في متحف صالة- تعز[6]

مواقع منطقة صبر: عثر في مديرية صبر الموادم على بقايا مستوطنات أثرية قديمة، إلى الشمال من حمام علي، وهي عبارة عن مستوطنات سكنية شبيهة بمواقع العصور الحجرية التي وجدت في منطقة خولان الطيال[7]، وكذلك تم العثور على العديد من التماثيل الحيوانية في قرية ثوجان، ومنطقة وتير، في مديرية المسراخ- صبر ، وهي محفوظة في متحف صالة- تعز[8].

مواقع منطقة شرعب: عثر في قرية كندة، مديرية شرعب السلام، على العديد من القطع الأثرية القديمة متمثلة في بعض الأواني الرخامية، وكذلك بعض التماثيل الآدمية والحيوانية، وهي معروضة في متحف صالة- تعز[9].

مواقع منطقة ماوية: عثر في جبل العسلة، مديرية ماوية، على موقع أثري قديم يحتوي على بقايا معبد قديم، وكذلك مبان سكنية، وأواني حجرية وفخارية، وبقايا أحجار عليها كتابات مسندية[10]. كما عثر في

قرية البيت، مديرية الحشا التابعة لمحافظة الضالع، وكانت تابعة لقضاء ماوية في محافظة تعز[11]،على موقع أثري قديم شيدت القرية على أنقاضه، حيث لوحظ وجود أساسات مباني مندثرة، إضافة إلى أحجار عليها كتابات بخط المسند، فضلاً عن صهاريج للمياه محفورة في الصخر[12].

مواقع منطقة العدين: تقع المنطقة في محافظة إب، محاددة لمحافظة تعز، وتعد من الناحية التاريخية جزءً من منطقة تعز، وتنتشر فيها بعض المواقع الأثرية القديمة، أهمها موقع قديم في مديرية فرع العدين، عبارة عن تلة كبيرة يعتقد أنها تشمل على بقايا مدينة قديمة، يتضح ذلك من خلال انتشار بعض المباني المهدمة التي طمرتها الرمال[13].

تجدر الإشارة إلى أن ما ذكرناه من مواقع أثرية لاتشمل كل الآثار القديمة المنتشرة في منطقة تعز، فهناك العديد من المواقع التي لم تشملها المسوحات السياحية والأثرية، ولم يصل إليها الباحثون، وحتى الآثار المكتشفة لم تحض بالدراسة الجادة لمعرفة العهود التاريخية التي تعود إليها، وبالتالي فالاستفادة التاريخية منها ماتزال محدودة. هذا إلى جانب أن المنطقة لم تشهد أي تنقيبات اثرية في مواقعها المعروفة حتى الآن، والتي لاشك انها تخبئ لنا مفاجئات مهمة ستساعد في إزالة الغموض الذي يكتنف تاريخ منطقة تعز قبل الإسلام.

3. تاريخ منطقة تعز قبل ظهور الدول اليمنية القديمة:

لا نعرف على وجه اليقين- وفق مانملك من مصادر- ماهي الأوضاع السياسية والحضارية لمنطقة تعز- مثلها مثل بقية المناطق اليمنية الأخرى- قبل ظهور الدول اليمنية القديمة في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، لكن البرديات الفرعونية حدثتنا عن رحلات تجارية كان يقوم بها قدماء المصريين إلى بلاد البونت التي تقع إلى الجنوب من الأراضي المصرية، خصوصاً تلك البعثة التي نُقشت تفاصيلها على جدران معبد الدير البحري في عهد الملكة حتشبسوت التي حكمت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد[14].

وقد دار خلاف بين الدارسين حول المقصود ببلاد البونت، بين قائل انها في جنوب جزيرة العرب(اليمن)، وقائل بأنها في شرق أفريقيا، وآخرين حاولوا التوفيق بين الرأيين فقالوا إن المقصود بالتسمية هي البلاد الواقعة حول مضيق باب المندب بضفتيه الأفريقية والأسيوية[15]، وبالتالي فإن منطقة تعز المطلة على باب المندب تعد جزءًا من بلاد البونت، ويكون هذا أول ذكر للمنطقة وتاريخها حتى الآن، ولكنه لايعني بالضرورة أول ظهور لتاريخها وحضارتها التي يرجح أنها تعود إلى ماقبل هذا التاريخ مثلها مثل بقية اراضي اليمن الأخرى، والتي لم نعرف حتى الآن التفاصيل الكاملة لعصور ماقبل التاريخ فيها، متى بدأت؟ ومتى انتهت؟ لتحل بدلاً عنها العصور التاريخية القديمة، التي مازال يكتنفها الغموض، ومازالت تقديرات المؤرخين والأثاريين حولها تتفاوت بدرجة كبيرة.

4. دولة أوسان وعلاقتها بمنطقة تعز قبل القرن السابع قبل الميلاد:

لا نعرف بالضبط متى خضعت منطقة تعز لنفوذ الدولة الأوسانية ، الذي يعتقد أنه يمثل أول ارتباط لهذه المنطقة بالدول اليمنية القديمة ، وذلك لأننا نكاد نجهل تاريخ نشوء وتطور الدولة الأوسانية نفسها وامتداد نفوذها إلى المناطق المجاورة لها بما فيها منطقة تعز. فنقش النصر الذي نعرف منه تبعية منطقة تعز(المعافر) لدولة أوسان هونفسه النقش الذي يحدثنا عن سقوط الدولة الأوسانية على يد المكرب السبئي كرب إيل وتر في مطلع القرن السابع قبل الميلاد.

ونفهم من حرص كرب إيل في السيطرة على منطقة المعافر قبل توجهه نحو مركز دولة أوسان وعاصمتها مدى الأهمية الآقتصادية التي كانت تمثلها المنطقة لدولة أوسان؛ سواء لذاتها أو من جراء سيطرتها على جزء من التجارة البحرية لأوسان، خصوصاً مع سواحل شرق إفريقيا ، التي يبدو أن نوعاً من السيطرة الأوسانية قد فرضت عليها. ندرك ذلك من إشارة وردت في الفصل الخامس عشر من كتاب الطواف حول البحر اللأرتيري، في القرن الثالث الميلادي تقريباً[16]، تُسمي الساحل الأفريقي شمال زنجبار بالساحل الأوساني[17].

وهذه الإشارة التي جاءت بعد قرابة ألف عام من انتصار سبأ على أوسان إنما تدل على عمق الأثر الذي خلفه الأوسانيون في تلك البقاع، وهو امر لا يمكن حدوثه إلا نتيجة لتاريخ طويل من الوجود المستمر والنشاط الفعال والنفوذ

الحقيقي[18]، أوربما هجرة بعض الجماعات الأوسانية إلى هذه السواحل ؛ ومن ثم أطلقت عليها هذه التسمية كما حدث من إطلاق مسميات يمنية على مناطق في الحبشة شهدت هجرات يمنية ممثالة خصوصاً من أراضي الدولة السبئية.

ونجد أن السيطرة اليمنية على المنطقة نفسها قد استمرت حتى القرن الثالث الميلادي، حيث يشير المصدر نفسه في فصله السادس عشر إلى أن منطقة (ربطة) التي تقع بالقرب من جزيرة زنجبار[19] (أي في منطقة الساحل الأوساني سالف الذكر) كانت تتبع حاكم ميناء موزع الواقعة على الساحل اليمني المطل على البحر الأحمر بالقرب من باب المندب، التابعة بدورها لقيل المعافر في السوا، الذي يتبع الملك الحميري في ظفار، وكان ذلك - حسبما ذكر صاحب كتاب الطواف- « وفقاً لاتفاقية قديمة قضت بأن يحكم هذا السوق ملك المملكة الأولى- أي المسيطرة- في الجزيرة العربية»[20]

فهل كانت تلك الاتفاقية القديمة تعود إلى عهد الدولة الأوسانية ؟؛ خصوصاً إنها كانت تعد الدولة الأولى في جنوب جزيرة العرب أثناء سيطرتها على المعافر قبل القضاء عليها من قبل السبئيين، وفي حالة ما إذا كان ذلك صحيحاً فهل كانت هذه المنطقة الأفريقية تتبع الدول اليمنية القديمة طوال هذه الفترة الزمنية؟، وهل كان حكام إقليم المعافر - عبر موزع- هم من يؤمن سيطرة الدول اليمنية القديمة -المتعاقبة على حكم إقليمهم - على السواحل الشرقية لأفريقيا؟. تلك أسئلة قد لا نملك عليها إجابات شافية وقاطعة، لكن لا مناص من القول بأنها تتبني على معطيات تحمل الكثير من الجدية والمصداقية.[21]

5. حملة المكرب السبئي كرب إيل وتر على أوسان وفرض السيطرة السبئية على منطقة تعز:

ذكرنا بأن المكرب السبئي كرب إيل وتر قد ذكر في نقش النصر أنه شن حملة عسكرية في مطلع القرن السابع قبل الميلاد تمكن خلالها من القضاء على الدولة الأوسانية. ومايهمنا من هذا النقش هو المقطع الذي يتحدث عن المعافر التي كانت وجهته الأولى قبل توجهه إلى مركز الدولة في وادي مرخة، حيث جاء في النقش ما يلي:

«ويوم قهر كرب إيل سأد ونقبة وأحرق كل مدن المعافر واستولوا على ظبر وظلم وأروي، وأحرق كل مدنهم، وقتل منهم (3000) وأسر (8000) وضاعف ضرائبهم، وفرض عليهم إلى جانب ذلك ما يجب تسليمه من بقر وغنم. وقهر ذبحان وقشر وشرجب، وأحرق مدنهم، واستولى على غُر عصمت ومنشآتهم المائية في صير وضمها إلى ألمقه وسبأ »[22]

وباستثناء مناطق ذبحان وشرجب التي مازالت أسمائها مستمرة كمسميات لمناطق في بلاد الحجرية حتى اليوم فإننا لا نعرف المقصود ببقية المسميات. والأسئلة التي تطرح نفسها هنا هي، أين مدن المعافر المختلفة التي تحدث عنها النقش؟ ولماذا إلى الآن لم يتم العثور عليها؟ وهل يعود ذلك إلى التدمير والإحراق الذي تحدث عنه النقش؟ أم يعود إلى البناء فوق أطلال تلك المدن من جديد في العصور اللاحقة؟ الأمر الذي أدي إلى إخفاء معالمها، وفي كلا الحالتين ماهي مسميات تلك المدن؟ لأنه من الواضح بأن الأسماء التي وردت في النقش هي غالباً مسميات لمناطق أو شعوب (قبائل) لكل منها مدنه المختلفة. تلك الأسئلة التي أوردناها من الصعوبة الإجابة عليها وفق المعطيات التي نملكها في الوقت الحالي؛ وإن كنا لا نستبعد أن تكون بعض المدن التي عرفناها بعد ذلك في منطقة المعافر من خلال النقوش من ضمن تلك المدن التي قصدها النقش، وهذه المدن هي

السوا وجبأ وموزع والمخاء.

تجدر الإشارة إلى إن النقوش والآثار قد تحدثت عن وجود يمني آخر في القارة الأفريقية غير ذلك الذي سبق ذكره في منطقة الساحل الأوساني، ونقصد به الوجود اليمني في بلاد الحبشة (أثيوبيا). ونعرف من النقوش المسندية التي عثر عليها في الحبشة انها ذات أصول سبئية ، وقد حوت على العديد من أسماء الأعلام والمعبودات الوثنية التي كانت انعكاساً لما هو معروف في دولة سبأ اليمنية القديمة ، الأمر الذي يدل على أن الهجرات اليمنية إلى بلاد الحبشة قد ارتبطت بالدولة السبئية بدرجة رئيسية.

وبما أن أقدم النقوش المسندية التي عثر عليها في بلاد الحبشة حتى الآن تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً وكانت ذات منشأ سبئي[23] ، نستطيع القول بأن تلك الهجرات ربما بدأت بالتدفق على الحبشة منذ سيطرة سبأ على منطقة تعز (بلاد المعافر) وانتزاعها لها من إيدي الأوسانيين ، وبالتالي تكون هذه المنطقة هي النافذة التي انطلق منها السبئيون نحو أراضي الحبشة، خصوصاً أنها تطل على مضيق باب المندب الذي يعد أقرب نقطة بحرية بين ضفتي البحر الأحمر العربية والأفريقية ، خصوصاً إذا افترضنا بأن النفوذ الأوساني في شرق أفريقيا المطلة على المحيط الهندي(منطقة ربطة شمال زنجبار) قد آل إلى الدولة السبئية لكونها قد أصبحت منذ هذا التاريخ الدولة الأولى في جنوب الجزيرة العربية، وذلك وفقاً للإتفاقية القديمة المذكورة آنفاً التي أشار إليها كتاب الطواف.

تجدر الإشارة إلى ان هناك من يرى أن هذه الهجرات قد بدأت قبل عهد كرب إيل الذي ضم منطقة المعافر إلى دولته، وذلك اعتماداً على ورود اسم (سمه علي)في أحد النقوش المسندية في الحبشة ،حيث عدوه بأنه هو نفسه المكرب سمه علي الذي حكم قبل كرب إيل [24]، من غير دليل واضح، وذلك لأن اسم (سمه علي) يعد واحداً من خمسة أسماء كانت بمثابة الأسماء الملكية لحكام الدولة السبئية قبل كرب إيل وتر وبعده، وبالتالي فسمه علي المذكور في نقوش الحبشة يمكن أن يكون إسماً لأحد الحكام السبئيين الذين حكموا بعد كرب إيل ، وذلك لأن النقش لايحمل تاريخاً محدداً.

6.امتداد النفوذ القتباني إلى منطقة تعز على حساب السبئيين:

ظلت الدولة السبئية محافظة على هيمنتها على بلاد جنوب جزيرة العرب - التي فرضها مكربها القوي كرب إيل وتر- قرابة مئة عام على الأقل عندما بدأت دولة قتبان في أنتزاع تلك الهيمنة منها، نتيجة لحروب عديدة دارت بين الدولتين منذ مطلع القرن السادس قبل الميلاد[25]. حيث نجد أن حكام الدولة القتبانية بدأوا خلال هذا القرن يتلقبون بلقب مكرب، في مقابل تخلي حكام سبأ عنه وتلقبهم بلقب ملك ابتداءً من منتصف هذا القرن تقريباً، الأمر الذي يعني بأن قتبان قد أصبحت الدولة الأولى في جنوب الجزيرة العربية؛ إنطلاقاً من القول المرجح بأن لقب المكرب لم يكن بالوسع حمله في مملكتين مختلفتين في الوقت نفسه إلا خلال فترات قصيرة من الصراع، وذلك لكونه يمنح حامله سلطة على مجموع بلاد جنوب الجزيرة العربية[26].

والسؤال المطروح هنا: هل امتد النفوذ القتباني إلى منطقة تعز؟ ولعل الإجابة بنعم هي المرجحة ، حيث لا يستبعد بأن دولة قتبان قد توسعت خلال هذا القرن والقرون التالية له نحو المناطق الساحلية التي كانت تابعة لدولة أوسان قبل القضاء عليها، وتدل الشواهد بأن سيطرة الدولة القتبانية قد امتدت إلى سواحل باب المندب والمناطق المجاورة لها[27]، إلى جانب إستيطان جماعة من القتبانيين في تلك المنطقة[28].

وهناك نقش دونته جالية من مدينة السوا

المعافرية تقيم في مدينة هربت القتبانية (حنو الزرير الحالية في وادي بيحان) تقرباً للمعبود القتباني (عم) ، وكان ذلك في عهد الملك القتباني ورو إل غيلان الذي حكم في القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً[29]. وقد عثر مؤخراً أيضاً على نقش قتباني في جبل العود (محافظة إب) ويعد شاهداً على وصول السيطرة القتبانية إلى الزاوية الجنوبية الغربية من اليمن[30].

إذا فالشواهد تتكاتف فيما بينها لتؤيد خضوع منطقة تعز بمعناها الواسع(المعافر) لدولة قتبان أثناء فترة الهيمنة القتبانية على منطقة جنوب الجزيرة العربية، وأنها استمرت كذلك حتى القرن الأول قبل الميلاد عندما تمكنت حمير من انتزاع مناطق قتبان الساحلية وتحويلها إلى دولة داخلية، الأمر الذي أضعف قتبان وأدى إلى إنهيارها التدريجي[31].

7.ضعف قتبان وتحول منطقة تعز إلى التبعية الحميرية:

كان الحميريون قد خضعوا لدولة قتبان منذ القرن الرابع قبل الميلاد، واستمروا كذلك حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد عندما تحالفت القبائل الحميرية في كيان واحد عام(115 ق.م) ، وبيتت النية على الإستقلال عن قتبان، وحققت هدفها خلال النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد وتمكنت من انتزاع المناطق الساحلية للدولة القتبانية [32]. وقد كانت بلاد المعافر (منطقة تعز) واحدة من المناطق المهمة التي انضوت في إطار الدولة الحميرية، وعبرها مارس الحميريون تحكمهم بالطريق البحري ، ومنها امتد نفوذهم عبر موزع إلى منطقة ربطة في شرق افريقيا حسبما ذكر لنا مؤلف كتاب الطواف فيما نقلناه عنه آنفا عند حديثنا عن تبعية المعافر لأوسان. وقد اشار كتاب الطواف في فصله الرابع والعشرين إلى إزدهار ورواج تجاري لمنطقة المعافر وموانئها التي كانت سوقاً رائجة ومحطة للتصدير والاستيراد مع عالم المحيط الهندي.

ونفهم من النقوش أن إقليم المعافر قد أصبح مقولة تابعة للحميريين، حيث عثر في مدينة السوا - حاضرة الإقليم آنذاك- على نقش هذا نصه:» كليب يهأمن محرج [33](عامل) شمر يهحمد بذي معافر وأجناد الأشاعر وجماعات الكلاع وعسيفر(عصيفرة) وذي حبيل(الحبيل) شيد وأقام معبد الإله ذي سماوي إله شعب(قبيلة) أمير (وذلك) في برحة(ساحة) الصيرات (الكائنة) أسفل مدينة السوا، فليتعهد الإله ذي سماوي كليب يهأمن بالسلامة والنجاة والحماية (وكذلك) شعبه(قبيلته) بني معافر سادة البيت(القصر) شبعان... «[34]. ويتضح لنا من خلال هذا النقش سعة المناطق التي كانت تتبع قيل المعافر والتي تشمل كل محافضة تعز الحالية وأجزاء كبيرة من محافظتي إب والحديدة.

ولعل كليب المذكور في هذا النقش هو نفسه كليب حاكم المعافر الذي أشار إليه مؤلف كتاب الطواف بصفته تابعاً للملك الحميري كرب إيل[35] ، الذي يعتقد أن المقصود به هو الملك كرب إيل أيفع خليفة شمر يهحمد المذكور في النقش السابق والذي حكم في منتصف القرن الثالث الميلادي[36].

وتتمثل الأهمية الإقتصادية للمعافر خلال هذه الفترة بوجود جالية من قبيلة أمير في حاضرتها مدينة السوا، وقد كان أهل أمير جمالة يقدمون جمالهم لخدمة القوافل التجارية، ولذلك كانوا يتواجدون في مختلف حواضر الدول اليمنية القديمة ومدنها ذات الأهمية الإقتصادية . ويبدو إن الأواصر التي ربطت بين المعافر وأمير في هذه الفترة كانت من القوة إلى درجة أصبح فيها الإله ذي سماوي إله قبيلة أمير إلها رسمياً لقبيلة المعافر[37].

ولعل الأهمية الإقتصادية لإقليم المعافر وسيطرة الدولة الحميرية بواسطته على الطرق البحرية هو ما جعل الأحباش يستجيبون لدعوة

الملك السبئي علهان نهفان الهمداني أواخر القرن الثاني الميلادي للتدخل في شؤن اليمن ودعمه في صراعه ضد الحميريين. وقد مكنهم ذلك التدخل من فرض سيطرتهم على المناطق الغربية من اليمن الممتدة عبر تهامة من نجران شمالاً إلى المعافر جنوباً[38]. وبعد أن تمكن الحميريون من إجلاء الأحباش عن اليمن وقاموا بتوحيد كل الأراضي اليمنية تحت سيطرتهم في أواخر القرن الثالث الميلادي عادت المعافر إلى السيادة الحميرية من جديد.

وقد عثر على نقش مسندي في منطقة حبيل سلمان(ضاحية من ضواحي مدينة تعز) يطلب فيه مدونه من الإله(المقه) أن يمنحه الرضى عند سيده كرب إيل وتر يهنعم ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة[39]، ويعود عهد هذا الملك إلى القرن الرابع الميلادي. تجدر الإشارة إلى أن أحد النقوش العائدة إلى عهد هذا الملك دونه (شرح عثت أشوع) عندما بعثه سيده الملك في سفارة إلى نجاشي الحبشة وأكسوم وعاد منها سالماً إلى مدينة مخون (المخاء)[40]. وكان هذا أول ذكر لهذه المدينة في النقوش المسندية المعروفة، الأمر الذي يؤكد ماسبق وذهبنا إليه من أن منطقة تعز بسواحلها قد مثلت منفذ اليمن نحو بلاد الحبشة والعكس.

وظلت منطقة المعافر بموقعها الإستراتيجي تمثل حجر الزاوية في علاقة الحميريين بالأحباش . وفي عهد الملك الحميري الأخير يوسف أسار يثأر(ذي نواس) مطلع القرن السادس الميلادي نجد أنه عندما نكل بالنصارى الموجودين في مملكته المرتبطين بالحبشة حرص على أن يتوجه بنفسه إلى سواحل منطقة تعز بمعناها الواسع وذلك لتطهيرها من الموالين للأحباش[41] وتحصينها أمام الغزو الحبشي المتوقع لبلاده، لأن منطقة تعز ستكون أول مناطق اليمن التي سيدهمها الأحباش أثناء عبورهم من باب المندب صوب العاصمة الحميرية ظفار ومناطق اليمن الأخرى. وقد تمثلت المناطق الساحلية التي شملتها حملة الملك ذي نواس حسبما ذكرتها نقوشه بالأشاعر والركب وشمير والمخا. والمندب وفرسان(غير جزر فرسان)[42].

وقد انتهى الأمر بهزيمة الملك الحميري عام (525م) تقريباً نتيجة للصراع الداخلي الذي كانت تعاني منه اليمن آنذاك ،إلى جانب وقوف البيزنطيين في صف الأحباش رغبة منهم في سيطرة حلفائهم الأحباش على اليمن ومن ثم الحجاز، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الطريق التجاري المار عبر الجزيرة العربية والذي يمتد من سواحل المحيط الهندي إلى سواحل البحر المتوسط ، وبالتالي يخففون من حجم المعاناة التي كانت تفرضها عليهم دولة الفرس الساسانيين جراء سيطرتها على طريق الحرير الذي يمتد من الصين إلى الى بيزنطة.

8. أوضاع منطقة تعز منذ سقوط الدولة الحميرية إلى ظهور الإسلام:

بعد الاكتساح الحبشي لليمن خضعت منطقة تعز لهذا الإحتلال مثلها مثل بقية المناطق اليمنية الأخرى ، واستمرت على ذلك الحال قرابة نصف قرن حتى تمكن الثائر اليمني سيف بن ذي يزن من طرد الأحباش من اليمن بمساندة فارسية عام(575م) . لكن الفرس سرعان ما تخلصوا منه وجعلوا اليمن ولاية فارسية[43] . وقد امتد الإحتلال الفارسي في بداية أمره ليشمل معظم انحاء اليمن ، ثم بدأ بالتقلص التدريجي حتى أنه في الفترة التي جاء فيها الإسلام مطلع القرن السابع الميلادي كان قد أصبح محصوراً في مدينتي صنعاء وعدن وماحولهما[44].

وبالنسبة لمنطقة تعز فعلى الرغم من عدم تبعيتها للفرس خلال الفترة المتأخرة لاحتلالهم إلا أنها قد شكلت منطقة اتصال بين منطقتي النفوذ الفارسي؛ صنعاء وعدن، وذلك لأن الطرق التي كانت تربط بين المدينتين خلال هذه الفترة كانت تمر عبر منطقة تعز[45].

وبعد ظهور الدعوة الإسلامية نجد أن أول

الرسائل التي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن كانت موجهة إلى الملوك الحميريين ، والمقصود بهم الأقيال الحميريين الذين ورثوا السيطرة على المناطق الجنوبية الغربية من اليمن ، الممتدة من مشارف صنعاء شمالا إلى مشارف عدن جنوباً ومن يافع شرقاً إلى تهامة غرباً[46] والتي تعد منطقة تعز بمثابة القلب لها. تجدر الإشارة إلى أن منطقة نفوذ الأقيال الحميريين هذه هي نفسها الأراضي التي قامت عليها الدولة الحميرية في عصرها الأول الذي امتد منذ نشوئها إلى أواخر القرن الثالث الميلادي، وذلك قبل أن تتمكن حمير من القضاء على دولتي سبأ وحضرموت وتوحد اليمن كله تحت سيطرتها. وقد كان الملوك(الأ قيال) الحميريون أول من كتب اليهم الرسول (ص) في اليمن وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة أي في نفس الوقت الذي بعثت فيه رسائل الرسول(ص) إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر[47] ، وهو ما يؤكد أهمية هذه المنطقة وثقلها السياسي والحضاري وتصدرها لمناطق اليمن الأخرى في هذه الفترة.

وكان أبناء عبد كلال (الحارث ونعيم وشرحبيل[48]) أبرز الأقيال الحميريين الذين كاتبهم الرسول(ص)، حيث بعث إليهم أكثر من رسالة، وكانت ديباجة إحدى رسائله اليهم على النحو التالي: « من محمد رسول الله إلى شرحبيل بن عبد كلال والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين ومعافر وهمدان»[49] . ولاندري لماذا وُصف الأخير منهم فقط بانه قيل لمناطق ثلاث رئيسية في اليمن هي: ذي رعين والمعافر وهمدان، بينما لم تحدد صفة أخويه المقدمين عليه في الخطاب، والسؤال الذي نطرحه هنا: هل حدث تصحيف في نقل رسالة الرسول(ص) وتكون كلمة قيل المفردة وردت بصيغة الجمع أو قصد بها الجمع ويكون كل من الإخوة الثلاثة قيل على منطقة/قبيلة من المناطق الثلاث المذكورة في الرسالة؟ ذلك أمرغيرمستبعد خصوصاً وأن المصادر التي أوردت هذه الرسائل تجعل صفة قيل ذي رعين ومعافر وهمدان لمن يرد اسمه أخيراً ؛ فمرة تجعلها لنعيم حسب نص الرسالة الذي أثبتناه ، وأخرى تجعلها للنعمان مع وجود اسم نعيم[50] ، وثالثة تجعلها لشريح الذي يحل بدلا عن النعمان[51] ،الأمر الذي يرجح بأنها صفة للأقيال الثلاثة وليس للأخير منهم.

ولأن منطقة تعز كانت بمثابة القلب لمناطق الأقيال الحميريين فقد أختارها معاذ بن جبل مبعوث الرسول (ص) إلى حمير[52] ليجعل مقره فيها ، حيث اتخذ من مدينة الجند الواقعة قرب مدينة تعز الحالية عاصمة له يدير منها مخلافه الذي حمل اسمها والذي شمل مواطن القبائل الحميرية. ونظراً لأهمية هذا المخلاف فقد جعل لوائيه معاذ بن جبل الولاية العامة على كل اليمن إلى جانب ولايته الخاصة على مخلاف الجند[53].

نُذكر أخيراً إلى أن مدينة جبأ كانت قد خلفت مدينة السوا لتصبح حاضرة للمعافر[54] ، وقد أثر ذلك سلباً على مدينة السوا وساعد على اندثارها[55] ، ثم مالبثت مدينة الجند أن أصبحت حاضرة المنطقة، خصوصاً منذ أن اتخذها معاذ بن جبل مقراً له رغم أن ازدهارها يعود إلى قبل ذلك، بدليل قيام سوق تجارية فيها تعد أحد أسواق العرب في الجاهلية حسبما يذكر الهمداني.

ويرى البعض بأن الجبنيتو- الذين تذكرهم المصادر المصرية- هم سكان مدينة جبأ في المعافر[56] ،ويرفض آخرون هذا الرأي ،ويذكرون أن المقصود بالجبنيتو إنما هم سكان مدينة قتبان[57] ، وهو مانميل إليه نظراً لعدم وجود نقوش مسندية تدل على إزدهار مدينة جبأ في تلك الفترة المبكرة من تاريخ اليمن.

9. خاتمة:

هكذا يتجلى لنا بعد هذه اللمحة السريعة عن تاريخ منطقة تعز قبل الإسلام أهمية الدور الذي قامت به هذه المنطقة خلال هذه الفترة من تاريخ اليمن. ساعدها على ذلك إستراتيجية موقعها الجغرافي المتميز ، الذي يطل على مضيق باب المندب وسواحل البحر الأحمر ، وهو ما مكنها لأن تصبح منفذ أهل اليمن نحو شرق القارة الأفريقية والحبشة منذ عصور مبكرة ، الى جانب مشاركتها المهمة في العلاقة التجارية التي ربطت اليمن بالهند ومناطق البحر الأحمر ، وذلك مايتضح لنا من خلال كتاب الطواف حول البحر الأرتيري الذي يصف لنا حجم الحركة التجارية الكبيرة التي كانت تعج بها موانئ منطقة تعز (موزع على وجه الخصوص) ، وحجم الواردات والصادرات التي كانت تتم عبرها خلال القرن الثالث الميلادي. ورغم البعد الإيجابي الذي شكله الموقع الجغرافي لمنطقة تعز إلا أنه قد تميز ببعد سلبي معاكس عندما أصبحت هذه المنطقة بمثابة الهدف الأول للغزوات الحبشية على اليمن ، وذلك لأن مضيق باب المندب الفاصل بين الجانبين كان في غالب الأحيان نقطة العبور المفضلة للأحباش نحو اليمن.

ولا شك بأن حجم الآثار المتبقية في هذه المنطقة لا يتناسب مع الدور التاريخي والحضاري الفاعل الذي قامت به، وغالباً فإن آثار هذه المنطقة مازالت تحت الأرض ، نظراً لخصوبة أراضي هذه المنطقة وارتفاع منسوب الأمطار فيها (محافظتي تعز وإب) مقارنة لها ببقية مناطق اليمن الأخرى، وقد جعلها ذلك منطقة جذب سكاني طوال عصورها التاريخية، حيث توافدت عليها الهجرات السكانية من مختلف أنحاء اليمن ، وهو ماجعل كثافتها السكانية تعد الأعلى على مستوى اليمن حتى وقتنا الحاضر.

وقد أدت هذه الكثافة السكانية المرتفعة إلى تزاحم المواقع السكنية ، وعدم هجر المواقع التاريخية إلى مواقع جديدة كما حدث في مناطق اليمن الأخرى ذات الكثافة السكانية المنخفضة. وبسبب ذلك تم هدم المواقع القديمة والبناء عليها ، أو على الأقل إختفائها تحت المواقع السكنية الجديدة ؛ وإلا إين هي المدن(الأهجر) التي تحدث المكرب السبئي كرب إيل وتر عن وجودها في منطقة المعافر في مطلع القرن السابع قبل الميلاد؟ ، وإيضاً أين هي الآثار المتبقية للحركة التجارية النشطة في الموانئ الساحلية للمنطقة قبل الإسلام المشار اليها في المتن؟ ، وكذلك إين هي نقوش الملك الحميري ذي نواس التي تتحدث عن صداماته العسكرية مع الأحباش والموالين لهم في سواحل منطقة تعز أسوة بالنقوش التي تركها قادته حول مدينة نجران أثناء حصارهم لها؟ ، وأخيراً أين هي المخلفات الأثرية لتلك النشاطات الإنسانية السياسية والحضارية النشطة التي شهدتها المنطقة عبر ألف وخمس مئة سنة قبل الإسلام والتي قدمنا شواهد مؤكدة عليها في متن البحث؟.

إذاً المنطقة بحاجة إلى مسح أثري شامل يحدد المواقع الأثرية المعروفة أو المتوقعة ، ومن ثم البدء بتنفيذ عملية تنقيب جادة في هذه المواقع؛ عندها فقط سندرك حجم الحراك السياسي والحضاري الكبير الذي عاشته المنطقة خلال عصورها التاريخية القديمة .

قائمة الهوامش والمرجع:

1 المقصود مؤتمر: تعزعبر العصور، الذي قدم إليه هذا البحث

2 هناك خطأ شائع يحصر المعافر في منطقة الحجرية الحالية الواقعة جنوب محافظة تعز، إلا إن الشواهد النقشية تؤكد بأن إقليم المعافر كان أوسع من ذلك بحيث يشمل محافظة تعز الحالية كاملة ويمتد إلي المحافظات المجاورة لها؛ فقد ورد في نقش لكليب قيل المعافر في عهد الحميريين بأن سلطته امتدت لتشمل بلاد الأشاعر(جنوب محافظة الحديدة) وبلاد الكلاع(محافظة إب ، وغيرها) ، وهو مايسوغ لنا المقابلة بين إقليم المعافر التاريخي من جهة ومنطقة تعز بمعناها الواسع المشار اليه من جهة أخرى، ومما يؤسف له أن اسم المعافر قد تم حصره مؤخراً ليصبح مجرد اسم لإحدى مديريات الحجرية، والخوف أن يأتي في المستقبل من يحدد المعافر التاريخية في تلك المديرية الصغيرة، وإذا كان المقصود من ذلك هو تخليد الإسم فالأحرى إطلاقه إسماً لكل محافظة تعز، ليحتفظ الإسم بمدلوله التاريخي.

3 عن تاريخ هذه المدينة وآثارها انظر: الشرعبي ،عبدالغني علي سعيد ، مدينة السوا؛دراسة تاريخية وأثرية ، وزارة الثقافة ، صنعاء ،2004م ، ص57-124.

4 الهمداني ، الحسن بن أحمد ، صفة جزيرة العرب ،تحقيق: محمد بن علي الأكوع،ط1، مكتبة الإرشاد ،صنعاء، 1990م ، هامش المحقق ، ص 99.

5 نتائج المسح السياحي ، ج6 ، محافظة تعز، وزارة الثقافة والسياحة ، 1999م، ص 72.

6 الشرعبي ، السوا ، ص177.

7 المسح السياحي ، تعز، ص 64.

8 الشرعبي ، السوا ، ص 173-175.

9 الشرعبي ، السوا، ص - 171 175.

10 المسح السياحي ، تعز، ص 83.

11 نشرة التقسيمات الإدارية ،ج4، محافظة تعز، من واقع التعداد السكاني لعام 1975م،الجهاز المركزي للتخطيط، ص 1-8.

12 المسح السياحي ، ج7، محافظة الضالع ، ص 10.

13 المسح السياحي ، ج6 ، محافظة إب ، ص71.

14 عن بعثة حتشبسوت انظر: المخلافي ،عارف أحمد إسماعيل، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ج3 ، مصر والسودان، ط1، دار الشوكاني للطباعة والنشر، صنعاء ، 2004م ، ص 104 ،تجدر الإشارة أن اسم بونت بدأ يظهر على الآثار المصرية منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (بركات ، أبوالعيون بونت بين المصادر المصرية واليمنية القديمة ، ، مجلة اليمن الجديد ، العدد الثاني ، السنة الخامسة عشرة ، فبراير 1986م ، ص84.

15 محمد،عبدالحكيم شايف،البحث عن بلاد بونت، بحث مقدم إلى المؤتمر السادس للحضارة اليمنية المنعقد في جامعة عدن، أبريل ، 2007م، ص 11-13.

16 هناك خلاف حول التاريخ الذي ألف فيه هذا الكتاب، وترجعه آخر التقديرات إلى القرن الثالث الميلادي انظر: الشرعبي،السوا، ص 23.

17 The periplus of the Erythraean sea: by: Wilfred schoff , New York , 1912.

18 بافقيه ، محمد عبدالقادر، تاريخ اليمن القديم ،المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، بيروت، 1985م، ص21،22.
وقد صححنا المدة الزمنية المذكورة في المرجع بناء على التاريخ الجديد المرجح لتأليف كتاب الطواف حسبما ذكرنا آنفاً.

19 عن موقع ربطة، إنظر: يحي، لطفي عبدالوهاب،العرب في العصور القديمة،ط2، دار النهضة العربية، بيروت،1979م، ص331.

20 الشيبة ، عبدالله حسن ، ترجمات يمانية، ط1 ، دار الكتاب الجامعي ، صنعاء،2008، ص 75.

21 تجدر الإشارة إلى أن هناك من يترجم الفقرة المشار إليها في كتاب الطواف على نحو مختلف، مفاده أن رئيس (ربطة) الذي ينتمي إلى أصل عربي جنوبي كان " يحكمها بمقتضى حق قديم يجعلها خاضعة لسيادة المدينة التي تصل إليها أول ماتصل إلى ساحل الجزيرة العربية (يقصد موزع) " ،انظر: (عبدالوهاب، العرب في العصور القديمة، ص 331)، وهذا يؤيد ماذهبنا اليه من استنتاج ولا يتعارض مع سياق الحديث الذي أوردناه.

22 العمري، حسين عبد الله (وآخرون)، في صفة بلاد اليمن عبر العصور: من القرن السابع قبل الميلاد إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ط1 ، دار الفكر المعاصر، بيروت ،1990م ، ص13.

23 الشيبة، عبدالله حسن، محاضرات في تاريخ الحبشة القديم ، دار الكتاب الجامعي ، صنعاء، 2006م، ص12.

24 Wissmann H. von, Die Mauer der sabaerhouptstadt Maryp, Leiden, 1976, pp41-49.

25 آفانزيني، اليساندرا،النفوذ القتباني (اليمن، في بلاد ملكة سبأ)،دارالأهالي، دمشق،1999، ص100.

26 روبان، كريستيان ،تأسيس امبراطورية،السيطرة السبئية على الممالك الأولى(اليمن، في بلاد ملكة سبا)،دارالأهالي، دمشق ،ص90.

27 آفانزيني ،النفوذ القتباني، ص100

28 الشرعبي،عبد الغني علي سعيد ،العلاقات اليمنية المصرية بن الشواهد الأثرية والأدلة التاريخية ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار،1995م، ص230.

29 الشرعبي، السوا،ص27.

30 آفانزيني ،النفوذ القتباني، ص100.

31 تجدرالإشارة أنه إلى فترة النفوذ القتباني هذه عثرعلى أقدم عملة قتبانية ويمنية قديمة حتى الآن، وتحديداً إلى مطلع القرن الرابع قبل الميلا(ألكسندر سيدوف ويربارا دفيد،سك النقود أو المسكوكات، اليمن، في بلاد ملكة سبا،دار الأهالي، دمشق،1999م،ص118.

32 الشيبة، عبدالله حسن، دراسات في تاريخ اليمن القديم، مؤسسة الوعي الثوري، تعز، 200،ص20،43.

33 نشير هنا إلى وجود نقش جديد عثر عليه مؤخراً في منطقة سامع-تعز يوصف فيه كليب هذا بأنه ذو معافر . ويرد اسمه بصيغة كليب بن يشمر يهحمد بدون لقبه المذكور في نقش السوا (يهأمن) . وبالمقابل أهمل نقش السوا اسم والده المذكور في نقش سامع (أحمد . مهيوب غالب ، نقش جديد من سامع- معلومات تاريخية جديدة « صنعاء الحضارة والتاريخ « ، مج1، المؤتمر الدولي الخامس للحضارة اليمنية ، صنعاء . 2005م . ص51،46.

34 الشرعبي،السوا،ص29.

35 The periplus p.30.

36 عبدالله، يوسف محمد،مدينة السوا في كتاب الطواف، مجلة ريدان،العدد الخامس،ص104.

37 يعتقد أن أهل المعافر كانوا يعبدون الإله السبئي (إلمقه) وذلك قبل تحولهم إل عبادة الإله(ذي سماوي)، نظراً لوجود رمزإلمقه (الثور والوعل) ضمن اللقى الأثرية التي عثر عليها في مدينة السوا. (الشرعبي،السوا،ص33).

38 هناك العديد من النقوش المسندية التي تتحدث عن هذا التدخل، انظر: ابوالغيث، عبدالله ،الأوضاع السياسية في دولة سبأ خلال القرن الثالث الميلادي، مجلة الإكليل، وزارة الثقافة ، صنعاء،العدد30،مارس2006م، ص50 . ولمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى: الأشبط ، علي عبدالرحمن، الأحباش في اليمن القديم ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، 2005م،ص85-98.

39 انظر نص النقش في: الشرعبي، السوا،ص170. ولاندري إن كان سكان بلاد المعافر قد عادوا لعبادة الإله (إلمقه) مرة أخرى أم إن عبادة الإله(ذي سماوي) كانت مقتصرة على أهل مدينة السوا فقط.

40 الإرياني ،مطهر، نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء، 1990م، ص182-186.

41 شملت عملية التطهير ضد النصارى الموالين للأحباش إلى جانب سواحل منطقة تعز العاصمة الحميرية ظفار ومدينة نجران.

42 الغريب في الأمر أنه لم يعثر حتى الآن على أي نقوش للملك ذي نواس في منطقة تعز بسواحلها تحكي قصة حملته عليها والتي قادها بنفسه كتلك النقوش التى دونها قادته خارج مدينة نجران عندما أرسلهم الملك لحصار المدينة الموالية للأحباش والتي عرفنا منها حملة الملك الساحلية.

43 ابوالغيث، عبدالله، الوحدة اليمنية في التاريخ..هل كانت الأصل أم الإستثناء؟،(الوحدة اليمنية والألفية الثالثة)، جامعة إب، ص111،116.

44 الشجاع، عبدالرحمن عبدالواحد . اليمن في صدر الإسلام، ط1، دار الفكر، دمشق،1987م، ص24،45.

45 عن هذه الطرق انظر: الهمداني، الصفة، ص305،306. وقد تحولت في العصر الإسلامي لتصبح طرقاً لحجاج اليمن.

46 العمري(وآخرون)، صفة بلاد اليمن، ص32. الشجاع، صدر الإسلام،ص29، 30. وقد أطلق سكان شمال الجزيرة العربية على أقيال اليمن اسم الملوك ظناً منهم بأن القيل تعني الملك بلغة أهل اليمن(إبن منظور، لسان العرب، ج7، دار الحديث، القاهرة،2003م، ص542).

47 الشجاع، صدر الإسلام،ص127.

48 هناك اختلاف حول اسم شرحبيل حيث يجعله بعضهم النعمان(ابن هشام، السيرة النبوية،مج2، ج4، دار المنارللطباعة والنشر، القاهرة،1990م، ص335.)، ويجعله البعض الآخر مسروح أوشريح (الشجاع، صدر الإسلام، ص130،133).

49 الأكوع، محمد بن علي ، الوثائق السياسية اليمنية من قبل الإسلام إلى سنة332هجرية، ط1،دار الحرية للطباعة،بغداد، 1976م،ص107،108.

50 ابن هشام، السيرة، مج2،ج4، ص535.

51 الشجاع، صدر الإسلام، ص133.

52 عن كون معاذ مبعوثاً إلى حمير انظر: الشجاع ، صدر الإسلام ، ص 161،164.

53 عن ولاية معاذ العامة على اليمن انظر: العمري(وآخرون) ، صفة بلاد اليمن ، ص32. وقد قسمت اليمن إثر دخولها في الإسلام إلى ثلاثة مخاليف لكل منها واليه الخاص ، وهذه المخاليف هي: مخلاف الجند الذي شمل المناطق الجنوبية الغربية من اليمن ، ومخلاف صنعاء الذي شمل المناطق الشمالية من اليمن ، ومخلاف حضرموت الذي شمل المناطق الشرقية من اليمن ، ثم أضيف إليها في فترة لاحقة مخلاف تهامة الذي تم فصله عن مخلاف الجند.

54 الهمداني ، الصفة ، ص194.

55 الشرعبي ، السوا ، ص 53.

56 الشرعبي ، العلاقات ،ص230.

57 عبد الحكيم شايف ، البحث عن بلاد البونت، ص12.٧

علماء التزكية ودورهم العلمي والدعوي في عهد الدولة الرسولية

القرن 7-9هـ/13-15م تقريبا

د/ محمد حسين الصافي *

مقدمة

شهد عصر الدولة الرسولية وعاصمتها تعز نهضة علمية وحضارية في مختلف نواحي الحياة ، حتى كانت مركز من مراكز الحضارة الإسلامية آنذاك ، كما أصبح ذلك معلوما عند الباحثين ، على أن هناك علما من علوم الدين لم يحض حتى الآن بالدراسة الكافية لإظهار ومعرفة دوره العلمي والدعوي . سواء سلبا أو إيجابا . ذلك هو علم تزكية النفس الإسلامي، أو ما عرف باصطلاح علم التصوف[2].

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد - كلية الآداب - جامعة صنعاء

(1)جاء لفظ التصوف كعلم أي علم التصوف في العديد من المصادر الإسلامية الأصلية. انظر على سبيل المثال: أبو طالب المكي ، محمد بن علي(ت386هـ): قوت القلوب، ب د، 224 ؛ الأصبهاني. أبو نعيم أحمد بن عبد الله(ت 430 هـ)،أخبار أصبهان ، ب د، 6/ 163، حلية الأولياء، 4/ 447؛ الخطيب البغدادي،أحمد بن علي(ت. 463هـ)؛ تاريخ بغداد، ب د ، 3/ 273، 5/ 375؛ الغزالي ، محمد بن محمد الطوسي(ت505هـ): المنقذ من الضلال، 18 ؛ ابن الجوزي ، أبو الفرج بن عبد الرحمن(ت 597هـ)؛ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ب د ، 4/ 203 ؛ ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت 774هـ/1371م) : البداية والنهاية ، ب د ،12/ 224، 13/ 182 ؛ الذهبي ، محمد بن أحمد (ت747هـ/1348م)؛ سير أعلام النبلاء ، ب د، 14/ 316، 16/ 237، تاريخ الإسلام، 5/ 222، 10/ 260 ؛ ؛ السخاوي ،شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م)؛ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ب د، 2/ 71، 140؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن(ت808هـ)؛ المقدمة، ب د ،280، 282 ، التاريخ، 1/ 467، 12/ 224 ؛ أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل (ت 732هـ/1331م) : المختصر في أخبار البشر المختصر ،ب د ، 1/ 279؛ أبو المحاسن ، يوسف بن تغري بردى (ت 874هـ/1470م)؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ب د ، 1/ 327، 2/ 50، 73 ؛ العيني ، بدر الدين محمود بن أحمد (ت 855هـ/1451م) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ب د ، 1/ 139؛ العيدروس ، محيي الدين عبد القادر بن شيخ (ت1038هـ/1628م) : النور السافر على أخبار القرن العاشر ، ب د ، 15، 58، 83 ؛ الشوكاني، محمد بن علي(ت1250هـ)؛ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ب د، 1/ 187، 357؛ فيض القدير، 6/ 361.

بل يشعر القارئ المنصف أن هناك إهمالا وتهميشا متعمدا لمعرفة ودراسة تاريخ التصوف ودوره في المجتمعات العربية والإسلامية ، بعيدا عن المواقف المسبقة. وسواء يتفق الباحث مع التصوف وأطروحاته أو يختلف فإن الأمانة العلمية تقتضي كشف جوانب دور رجاله علميا واجتماعيا ، بل وحتى سياسيا ، خاصة عند شيوع أحكام غير علمية على هذا العلم وأصحابه . مثل أنه انسحابي غير فاعل وغير مؤثر في المجتمع ، أو أنه مجرد دروشة وشعوذة . أو ان أصحابه هم أصحاب مقولة وحدة الوجود (التصوف الفلسفي) ، دون فهم وتمييز ودراسة وافية وأمينة لهذه القضية . وبهذا فإن هدف هذا البحث الصغير هو إلقاء الضوء على علماء التزكية (التصوف) ودورهم العلمي والدعوي في عهد الدولة الرسولية.

هذا من جانب ومن جانب آخر تعد قراءة سير الصالحين وأفذاذ الرجال من الرسل والأنبياء والمؤمنين أسلوب تربوي راقي في إعداد وتهيئة أجيال الأمة للنهوض بواجبهم الفكري والاجتماعي وحتى الاقتصادي، وهو منهج قرآني متبع. حيث بهذا يتحقق أحد أهداف دراسة التاريخ ، الهدف التربوي .

وهنا تكمن أهمية إعادة نشر وبعث بعض تراجم رجال الإسلام، ولو بمجرد عرض النص التاريخي للترجمة، لأن هؤلاء هم قدوة الأجيال الصاعدة فلا يمكن تربية الشباب دون معرفة قدوتهم من السلف الصالح، ولهذا لا يمكن ظهور خلف صالح إلا بالارتباط المعرفي والقلبي والتربوي بالسلف الصالح المتصل عبر سلسلة السند إلى رسول الأمة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، النبي الأمي الذي علم البشرية فهداها إلى طريق الله، طريق الحق والنور.

وبسبب عدم معرفة الخلف للسلف تشوهت معارفنا وانحرفت بنا تيارات الشرق والغرب مما سبب خطرا حقيقيا لاقتلاع هذه الأمة من جذورها.

يقول أحد العلماء((1))،« اعلم أن من أعظم العلوم نفعاً، وأكثرها لخيري الدنيا والآخرة جمعاً، وأشدها في حياة القلوب وقعاً، معرفة سير الأولياء العارفين، الذين بأفعالهم وأقوالهم على الله دالين، فيحصل بذلك حسن الظن بهم ومحبتهم، الموصلة إلى أعلى الرتب، لقوله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب» وجاء عن السلف الأولين «الرحمة تتنزل عند ذكر الصالحين».

المنهج العلمي للبحث

منهج البحث هو الاستقراء والتحليل (منهج لامبرخت) ، وذلك بهدف إظهار الحقيقة التاريخية. ثم منهج البحث في مشكلة تاريخية ، وهي هل كان هناك صراع بين الفقهاء والصوفية؟ (منهج كارل بوبر) . على أن الباحث استخدم قدر الإمكان عبارات التراجم التاريخية حفاظا على روح العصر (منهج كولنجوود).

علم التزكية ودوره في التاريخ الإسلامي

يُعرف التصوف أنه علم تزكية النفس النبوي للوصول بها إلى مقام الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ((2))، والتزكية هي إحدى مهام النبي مع المسلمين «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذ

---

(1) الحبشي ، أحمد بن زين (ت 1144هـ)؛ شرح العينية، سورا بايا، 1425هـ ، ص 72، 73 .

(2) القشيري، عبد الكريم بن هوازن (ت465هـ)؛ الرسالة القشيرية، بيروت 1423هـ، ص10 حاشية 4 للشيخ زكريا الأنصاري ؛ زروق، أبو العباس أحمد (ت 899هـ)؛ قواعد التصوف، ب د، ص6 ؛ أبو الحسن علي الندوي، ربانية لا رهبانية ، دمشق 2002م، ص33 .

بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» آل عمران (164)، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، أخذت العلوم الإسلامية تتبلور بشكل أكثر تخصصاً، ولهذا ضم الإسلام عدة علوم ومدارس، هي قوام العقيدة والفكر والحضارة الإسلامية ، منها مدرسة علوم القرآن والقراءات، وهو علم اختص بكيفية قراءة القرآن، وأسباب و تفسير النزول، واختلاف القراءات، ومنها علم ومدرسة الحديث، وهي مدرسة اختصت بجمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وتمحيص الصحيح من الموضوع، ومنها مدرسة وعلم الفقه، وهو علم استنباط واستخراج الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، ومنها مدرسة وعلم النحو والصرف، وهي مدرسة علوم اللغة العربية وآدابها، حفظاً لها من اللحن والتشويه ومعيناً لفهم الدين، ومنها مدرسة وعلم التاريخ، وهو علم اختص بتسجيل ودراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والتاريخ عموماً، ومنها مدرسة علم التزكية، وهو علم تزكية النفس والباطن وأحوال القلب((1)). يقول المولى عز وجل « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ».البقرة(284) . وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، حيث كانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وضع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك((2)).

ولهذا تعددت التعاريف التوضيحية للتصوف، وكلها تصب في هذا الجانب. مثل « التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني » و «التصوف كله خلق، فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف». أو «التصوف صفاء ومشاهدة» ((3)).

ولأنه من علوم الشريعة الإسلامية فقد كان علماؤه «مجمعون على تعظيم الشريعة متصفون بسلوك طريق الرياضة مقيمون على متابعة السنة غير مخلين بشيء من آداب الديانة، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتوناً هلك في نفسه، وأهلك من اغتر به»((4)).

يقول القاضي الشوكاني (ت1250هـ) في كتابه الفتح الرباني((5)) : «اعلم أن معنى التصوف المحمود يعني: علم الباطن هو الزهد في الدنيا حتى يستوي عنده ذهبها وترابها ثم الزهد فيما يصدر عن الناس من المدح والذم حتى يستوي عنده مدحهم وذمهم ثم الاشتغال بذكر الله وبالعبادة المقربة إليه فمن كان هكذا فهو الصوفي حقاً وعند ذلك يكون من أطباء القلوب فيداويها بما يمحو عنها الطواغيت الباطنية من الكبر والحسد والعجب والرياء وأمثال هذه الغرائز الشيطانية التي هي أخطر المصاحب وأقبح الذنوب. ثم يفتح الله له أبواباً كان عنها محجوباً كغيره لكنه أماط عن ظاهره وباطنه في غشاوة صار حينئذ صافياً عن

---

(1) انظر: السراج، أبي نصر عبد الله بن علي (ت378هـ)، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، بيروت 1421هـ - 2001م، ص 11- 17، 327 ، 324 ، انظر أيضاً، ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، 469 ، أبو الحسن علي الندوي: ربانية لا رهبانية، 33 وما بعده ، الأصفهاني ، أبو نعيم: الأربعون على مذهب المحققين من الصوفية، ب د ، ص1.

(2) ابن خلدون: المقدمة، 469.

(3) عبد الحليم محمود: المنقذ من الضلال، قضية التصوف، القاهرة ب د، ص43 .

(4) القشيري: الرسالة ، 37 .

(5) انظر: صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم تحقيق / عبد الجبار زكار، بيروت 1987 ، 2/ 370.

ثوب الكدر مطهراً عن دنس الذنوب فيبصر ويسمع ويظهر لحواس لا يحجبها عن حقائق الحق حاجب.. إلى أن يقول : وإذا فرضنا ثاني في المدعين للتصوف والسلوك من لم يكن بهذه الصفات وعلى هذا الهدى القويم فإن بدا منه ما يخالف هذه الشريعة المطهرة وينافي منهجها الذي هو الكتاب والسنة فليس من هؤلاء.... ولا يقدح على هؤلاء الأولياء وجود من هو هكذا فإنه ليس معدوداً منهم ولا سالكاً طريقتهم ولا مهدياً بهديهم. فاعرف هذا فإن القدح في قوم بمجرد فرد أو أفراد منسوبين إليهم نسبة غير مطابقة للواقع لا تقع إلا ممن لا يعرف الشرع ولا يهتدي بهديه ولا يبصر بنوره..» . وهذه فتوى شرعية كبيرة في حق التصوف والصوفية.

ويقول ابن تيمية (1) (ت 728هـ) في كتاب التصوف من مجموع الفتاوى((2)):» والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أولا يتوب.. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً فإن أكثر مشايخ الطرق أنكروه وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد..».

ويقول عنهم في ذلك الإمام الغزالي (ت505هـ) رحمه الله ((3))، « إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم اصوب طريق، وأخلاقهم أزكى أخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

وعلى ذلك فإن التصوف علم يعمل على البناء الروحي والنفسي الباطني للمؤمن، من خلال إتباع السنة في المجاهدة والرياضة والاقتداء العملي على يد شيخ مربي يحول المفاهيم والتعاليم الشرعية في الفقه والحديث والتفسير من الجانب النظري إلى الجانب العملي والتطبيقي من خلال سلوك الشيخ نفسه ومن خلال إشرافه على سلوك المريد (التلميذ) في الأعمال الظاهرية، والدعاء له بالصلاح والحفظ في دياجير الليل باطناً وبهذا فإن التصوف هو المرتبة الثالثة في الدين (الإسلام –الإيمان – الإحسان)، وهو علم من علوم النبي صلى الله عليه وسلم.

وبفضل هذه التربية الروحية يكون المولى عز وجل عند الصوفي هو المحور الوجودي الكلي، يمتلك عليه كل شعوره وعواطفه وحواسه وأفعاله. فلا يرى شيئا إلا يرى فيه مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية، ولا يوجد غيرها((4)). فأصبح الصوفية صفوة مختارة،

(1)) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، من فقهاء الحنابلة ، ظهر في القرن الثامن الهجري ، صدرت منه فتاوى خالف فيها جمهور علماء المسلمين ، منها إنكاره شد الرحال لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، واتهامه بالتجسيم في حق الله عز وجل ، فصدر ضده حكم بالحبس ، ثم خرج منه ولم يلبث أن عاد إليه وتوفي رحمه الله في السجن. دافع عن التصوف السليم وهاجم ما اسماهم صوفية الأرزاق والرسوم ، وشرح أهم كتاب في التصوف ، فتوح الغيب للإمام عبد القادر الجيلاني. للمزيد انظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ،1/46. مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج11ص50 وما بعدها.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع النجدي الحنبلي، ب د ، المجلد الحادي عشر كتاب التصوف، ص18.

(3) المنقذ من الضلال، بيروت، 1988م، ص139.

(4) انظر ، وليد منير، التصوف وسيكولوجية الحضور المتسامي بين الدافع والغاية – دراسة استكشافية

تقدم بسلوكها نماذج عليا للسلوك ومثلاً للاستلهام والتأسي قدر الطاقة((1)).

وعندما عم الترف والغني الفاحش أمة الإسلام بعد الفتوحات ، وتعرض المجتمع المسلم لتهديد خطير في كيانه ،كان أهل الصلاح والعبادة والزهد متميزين في المجتمع لسلوكهم في إتباع السنة ولذلك عرفوا باسم الصوفية للبسهم الصوف بشكل عام كما هو الراجح(2)). على أن كثيرا منهم كانوا لا يلبسون الصوف ولا يحبون أن يتميزوا بلباس معين، منعاً للشهرة وتواضعاً لله((3)).

يقول الإمام الحاكم((4)): « وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الطائفة بما خصهم الله تعالى به من بين الطوائف بصفات فمن وجدت فيه تلك الصفات استحق اسم التصوف». ويقول كذلك((5)):» تأملت هذه الأخبار الواردة في أهل الصفة فوجدتهم من أكابر الصحابة رضي الله عنهم ورعاً وتوكلا على الله عز وجل وملازمة لخدمة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، اختار الله تعالى لهم ما اختاره لنبيه صلى الله عليه وسلم من المسكنة والفقر، والتضرع لعبادة الله عز وجل وترك الدنيا لأهلها، ، وهم الطائفة المنتمية إليهم الصوفية قرناً بعد قرن، فمن جرى على سننهم وجدهم على ترك الدنيا والأنس بالفقر، وترك التعرض للسؤال فهم في كل عصر بأهل الصفة مقتدون وعلى خالقهم متوكلون».

– مجلة إسلامية المعرفة، العدد 36، السنة التاسعة ربيع 1425هـ، 2004م، ص25 وما بعدها..

(1) عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، القاهرة، 1993م، التصدير.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، ب د ، ص467..

(3) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، القاهرة، ب د ، 43 .

(4) المستدرك على الصحيحين ، رقم4260.

(5) المستدرك على الصحيحين رقم 4259.

ثم تطور هذا العلم مثله مثل كل علوم الملة مثل الفقه والحديث واللغة ، وتأسست في علم التصوف الطرق التربوية السلوكية، كما تأسست المذاهب في الفقه. وهي طرق تتفق في الأصول، على الكتاب والسنة، وتختلف في بعض الفروع، مثل الأذكار ومجالسها((6)).

وكان للتصوف دور في مواجهة الفكر الفلسفي اليوناني ضد الإسلام(7)، كما كان له دور أساسي في نشر الإسلام في وسط آسيا وبلاد القوقاز وفي وسط أفريقيا وشرقها وغربها إضافة إلى جنوب شرق آسيا(8)، كذلك كان للتصوف دور مهم وفعال في الجهاد ضد الصليبيين والاستعمار الحديث ، سواء من دورهم مع صلاح الدين الأيوبي حتى عمر المختار وعبد القادر الجزائري مرورا بمحمد الفاتح(9). على أن علم التصوف ككل العلوم الإسلامية لم يخل من المندسين فيه والمحرفين والمنحرفين(10).

(6) انظر: عبد الحافظ بن علي المالكي: هداية الراغبين، القاهرة، ب د، ص 7 وما بعدها.

(7) انظر : أبو الحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، الكويت 1969م، ص162وما بعدها.

(8) انظر على سبيل المثال : القلقشندي ، صبح الأعشى 309/4 ، هدى درويش ، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز ، القاهرة 2004 ، ص97وما بعدها .

(9) انظر : أسعد الخطيب ، البطولة والفناء عند الصوفية ، دمشق ب د ، ص 110 وما بعدها ؛ عاصم رزق، خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمماليكي (567-923هـ/1141-1517م) ، القاهرة ، ج1 ص128 وما بعدها ؛ ممدوح الزوبي ، الطرق الصوفية ، ظروف النشأة وطبيعة الدور ، دمشق 2004 ، ص150وما بعدها ؛ ماجد عرسان الكيلاني ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، عمان 2003 ، ص177وما بعدها .

(10) انظر : ابن تيمية ، المجلد 10 / 11وما بعدها ؛ الأهدل ، بدر الدين أبو عبد الله الحسين (ت 855هـ)، تحفة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق / عبد الله محمد الحبشي ، بيروت 1986م ، ص289،290 .

وكان أهل التصوف هم من تصدى لهؤلاء وبينوا زيفهم وحذروا الناس منهم(1). وادعى بعض الباحثين أن التصوف مجلوب من العقائد الهندوسية والنصرانية وغيرها إلا أن باحثين آخرين ردوا على هذه الشبهات وبينوا أن التصوف علم إسلامي أصيل مأخوذ من الكتاب والسنة النبوية .(2)

علماء وفقهاء التزكية ودورهم العلمي والدعوي في عهد الدولة الرسولية

يستطيع الاستقراء التاريخي لتراجم عشرات من علماء التزكية – ما يربو عن ستين ترجمة- أن يقدم صورة كلية عامة عن أهمية هؤلاء العلماء ودورهم ، وكثير من الحقائق التاريخية العامة :

1 – كان علماء التزكية (التصوف) علماء مبرزون وأحياناً يترأسون كثير من العلوم الأخرى سواء الشرعية أو غير الشرعية، مثل علم الفقه، وهو الشرط الأساسي للتصوف أن يتفقه المريد، وعلم القراءات والأصول والكلام و الفرائض والحديث والحساب والفلك وغيرها((3)). والمعتاد أنهم يبدءون بالفقه ثم يتخصصون أكثر في التصوف والتزكية((4)).بعد أن يتلقوا علومهم من كبار علماء عصرهم(5). والجدير بالذكر أنه ورد عن الإمام مالك قوله: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق»((6)). ولهذا كانت القاعدة الأساسية هي في الجمع بين الفقه والتصوف.

2 – كان المنهج المتبع للتعلم و التعليم في علم التزكية هو منهج الصحبة والرفقة ، وهو بهذا يجسد المنهج النبوي مع الصحابة، حيث كانوا رضوان الله عليهم يتلقون علومهم من خلال صحبتهم للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فكان المريد أو الطالب يصحب الشيخ فترة من الزمن لأخذ العلوم والسلوك أخذا عملياً سلوكياً، وليس فقط أخذا نظرياً وبهذا فإن علم التزكية أو علم التصوف هو العلم التطبيقي العملي السلوكي التربوي لعلوم الإسلام الأخرى ، كذلك فإن علوم الدين كانت تؤخذ عبر سلسلة مترابطة من السند المتصل إلى النبي

(1) الغزالي ، محمد بن محمد الطوسي (ت505هـ):إحياء علوم الدين، ب د ،1/ 39 وما بعدها ، الأهدل ، بدر الدين أبو عبد الله الحسين (ت 855هـ): كشف الغطاء عن حقائق التوحيد وعقائد الموحدين وذكر الأئمة الأشعريين ومن خالفهم من المبتدعين وبيان حال ابن عربي واتباعه المارقين ، تونس ، ب د ،ص170.

(2) انظر ، عبد الرحمن بدوي ، تاريخ التصوف الإسلامي ، الكويت 1993، ص44وما بعدها ، شاخت ، جوزيف وكليفورد بوزورث ، تراث الإسلام ، ترجمة ، حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد ، الكويت 1998، ج2 ص62 وما بعدها ، آندريه اتور ، التصوف الإسلامي ، ترجمة ، عدنان عباس علي ، كولونيا 2003 ، ص21 . انظر أيضاً ، أبو حامد الغزالي محمد بن محمد الطوسي ، المنقذ من الضلال ، بيروت 1988م ، ص130 وما بعدها .

(3) انظر على سبيل المثال لا الحصر: الخزرجي: العقود اللؤلؤية، 1/ 249، الشرجي: طبقات الخواص، 172- 176، 290، 329، 398، 54- 56 ، البريهي: طبقات علماء اليمن، 23، 24، 67، 68، 169 ، بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن، 246، 47، 254، 61، 62، 143 – 145، 189.

(4) الشرجي: طبقات الخواص، 43، 44، 88، 95، 127، 128، الخزرجي: العقود اللؤلؤية،1/237؛ البريهي: طبقات الخواص، 226، 227.

(5) انظر على سبيل المثال: الخزرجي ، العقود اللؤلؤية، 1/ 201، 202.

(6) انظر ، عبد الفتاح اليافعي ، المنهجية العامة في العقيدة والفقه والسلوك،صنعاء1428هـ-2007م،ص 101،نقلا عن حاشية العدوي على شرح الزرقاني،3/ 195 ومرقاة المفاتيح لملا علي القاري، 1/ 478 ، حسن كامل الملطاوي: الصوفية في إلهامهم ، ج1ص198.

صلى الله عليه وسلم، مما حفظ الشريعة من التلاعب بها((1)).

3 -وهم بهذا المستوى العلمي الرفيع كانوا من العلماء العاملين المعلمين الذين ينشرون العلم ويمارسون تدريس مختلف العلوم الشرعية الإسلامية((2)). ويبنون الأربطة المتعددة والمساجد في المناطق اليمنية المختلفة، كمراكز علمية وتربوية((3)). وقد تميزوا بحسن الخلق ولين الجانب وسماحة النفس وبذل الجاه والمال والتقلل من الدنيا والزهد بها وعدم الأكل إلا بعد تيقن الحلال((4)).

4 - كان علماء التزكية (التصوف) يؤدون دوراً اجتماعياً وسياسياً كبيراً ، من ذلك الشفاعة للناس أمام الحكام والأمراء والملوك، والصلح بين الناس((5)). بل أحياناً مواجهة السلطة عند انحرافها أو شعورهم بانحرافها((6)). واللافت أن السلطة تعجز عن الانتقام منهم كما حدث مع الشيخ سفيان بن عبد الله صاحب الحوطة((7)). كذلك أدوا دور الحسبة في المجتمع والإنكار على أهل المنكر من أبناء الدنيا((8)). وفي محاربة شرب الخمور حتى أمام السلاطين((9)).

5 -تمتع علماء التزكية بعلاقات ودية وطيبة فيما بينهم فكانوا يتبادلون الزيارات الودية والمراسلات فيما بينهم. تحقيقاً لتعاليم النبي صلى الله عليه وسلم (أفشوا السلام بينكم) ((10)). كما كان بعضهم مرتبط بعلماء تزكية خارج اليمن على مستوى العالم الإسلامي. مثل الشيخ محمد شوعان الذي أخذ خرقة التصوف من الهند((11)). أو الشيخ الشاوري الذي أخذ من مشايخ الحجاز((12)).

6 -من المعتاد أن عالم التزكية قبل أن يخرج إلى الحياة العامة للتدريس والدعوة إلى الله. كان يمر في فترة تستطيع تسميتها فترة دورة التدريب الروحي ، للرقي بالروح وهي تشمل التفرغ للعبادة والخلوة والانقطاع والتجرد

---

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر ، الخزرجي، العقود اللؤلؤية، 1/ 389، 409 ؛ الشرجي، طبقات الخواص، 88، 172 – 176 ؛بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، 143 – 145 .

(2) انظر على سبيل المثال ، الجندي . محمد بن يوسف بن يعقوب . السلوك في طبقات العلماء والملوك . تحقيق / محمد بن علي الأكوع . جـ1 صنعاء . 478 ، الشرجي، طبقات الخواص، 95، 57 ، البريهي، طبقات، 67، 68، 96، 99، ؛ بامخرمة، ثغر عدن، 61،62 . ودورهم هذا في اليمن يتوافق مع دورهم التاريخي في الأقطار الإسلامية المختلفة . أنظر على سبيل المثال ، ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي (ت 852هـ/1448م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . ب د.1/ 352،315 ،السخاوي . شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . بيروت ب د ،المجلد 4ص238 وما بعدها ، الندوي ، ربانية لا رهبانية، 75 وما بعدها.

(3) الخزرجي . العقود .1/ 368 ؛ بامخرمة ، ثغر عدن ،61،62 ، البريهي، صلحاء اليمن . 96- 99، 245.

(4) الشرجي،طبقات الخواص .91،188،205،267،268؛ البريهي ،صلحاء اليمن، 67،68،96،169-299،301.

(5) انظر على سبيل المثال، الشرجي، طبقات الخواص، 270 – 274 . 280؛ بامخرمة، ثغر عدن، 61، 62.

(6) الشرجي، طبقات الخواص، 100، 101، 199.

(7) بامخرمة، ثغر عدن، 125؛ الشرجي، طبقات الخواص، 146، 148.

(8) بامخرمة، ثغر عدن، 145، الشرجي، طبقات الخواص، 176؛ البريهي، صلحاء اليمن،276،96.

(9) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، 1/ 368؛ الشرجي، طبقات الخواص . 95، 96، 180 – 182.

(10) انظر على سبيل المثال، بامخرمة، ثغر عدن، 125؛ الشرجي، طبقات الخواص، 146 – 148، الخزرجي، العقود اللؤلؤية، 1/ 329.

(11) الشرجي، طبقات الخواص، 329.

(12) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، 41.

والعزلة والسياحة((1)). وهذه فترة مهمة لطالب التزكية حيث يتمكن من خلال هذه المجاهدات والرياضات في الصيام والقيام من كسر هوى النفس والتحكم بها وملك زمامها. ويلاحظ أن عالم التزكية بعد هذه الفترة يمتلك قوة تأثير روحي كبير على الناس مما يساعده في الدعوة إلى الله وفي التفاف الناس حوله((2)). وهذه الحقائق التاريخية تنفي زعم البعض أن التصوف هو انسحاب من المجتمع واعتزال عن قضاياه. بينما الاستقراء التاريخي يشير أن علم التزكية (التصوف) كان هو المنهج الإصلاحي للمجتمع ومعالجة قضاياه. فلا يصح لداعية الخروج إلى الحياة والمجتمع إلا وقد تجرد من حب الدنيا وأمراض النفس فلا يشترى بالمال أو يغرى بالنساء أو بالمناصب ، ولكن يكون عمله لله احتساباً((3)).والجدير بالذكر أن المؤرخ الانجليزي ارنولد توينبي رصد وجود فترة للانعزال والخلوة عند العظماء والمصلحين للشعوب في ما يقرب من عشرين حضارة إنسانية قام بدراستها.

7) كان من المعتاد أحياناً أن يكون للشيخ الواحد عدة أربطة في مدن اليمن المختلفة تدرس فيها علوم الشريعة((4)). كذلك كانوا يبنون ويعمرون المساجد والمدارس المختلفة((5)).

8) تميز علماء التزكية بإطعام الطعام وبسط موائد الأكل للمحتاجين والفقراء والطلاب((6))، كما كان من المعتاد أن الشيخ المربي يقوم بكفاية طلابه ومريديه من المسكن والمأكل((7)). ويذكر أنه اجتمع عند أحدهم في ليلة من ليالي الغلاء ثلاثة آلاف نسمة((8)).

9) كانوا يحرصون على معاملة طلابهم ومريديهم كما يعاملون أولادهم ويطعمونهم كما يطعمون أولادهم مثلما حدث مع أحد المشايخ عندما أرادت زوجته أن تطعم ابنها المريض فروجاً. فقال لها: أن تعمل لكل واحد من المريدين لديه فروجاً وإلا فلا تفعل ذلك لولدها((9)). كما كان بعضهم يمتاز بالصبر العظيم على الطلبة مع سهولة الأخلاق واللين معهم((10)). إلا أن بعضهم كان يستخدم أسلوب الضرب لطلابه عند تأخرهم عن الصلاة وخاصة صلاة الصبح، وهذا من قبيل تشددهم في التمسك بالشريعة ((11)).

10) كان الملوك والأمراء يطلبون ود علماء التزكية (التصوف) فيقومون بزيارتهم ومواصلتهم، والتعظيم من قدرهم، ويقبلون شفاعتهم، بل ويحاولون إعفاءهم من الضرائب أحياناً إذا كان أحدهم يملك ما سيتحقق الضريبة عليه. فيرفضون ذلك، كما كان يقول ابن عجيل: «أحب أن أكون من جملة

(1) انظر على سبيل المثال، الخزرجي، العقود اللؤلؤية، 1/ 389؛ الشرجي، طبقات الخواص، 213.

(2) عن أهمية هذه المجاهدات انظر على سبيل المثال، سعيد حوى، تربيتنا الروحية، القاهرة 1428هـ/ 2007م ، ص119 وما بعدها.

(3) انظر السهروردي، أبو حفص عمر بن محمد (ت632هـ) عوارض المعارف، القاهرة، 2004، ص385 ؛ انظر ايضا الدراسة التاريخية التي قدمها ماجد عرسان الكيلاني والتي تؤكد هذه الحقيقة ؛ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، عمان 2003م.

(4) انظر على سبيل المثال، بامخرمة، 61، 62 ؛ الخزرجي، العقود 1/ 368.

(5) البريهي، طبقات، 96 - 99، 245.

(6) انظر على سبيل المثال، الشرجي، طبقات الخواص، 89،205، البريهي، صلحاء اليمن ، 32،299ومابعدها.

(7) الشرجي، طبقات الخواص، 289 - 290.

(8) الشرجي ، طبقات الخواص، 50.

(9) الخزرجي، العقود، 1/256، 257.

(10) الشرجي، طبقات الخواص، 188.

(11) الخزرجي، العقود، 1/ 257.

الرعية الدفاعة»[1]. على أنه أيضاً اشتهر منهم من كان يتجنب الملوك والأمراء ويتجنب أخذ الأموال منهم بل ويردها[2]. وربما كان تقرب الملوك والأمراء منهم لمعرفتهم أنهم يحوزون على رضا شعبي كبير، وبالتالي فإنهم يتقربون إلى الناس بذلك.

11) كان منهم من يتولى القضاء، مثل أبي بكر بن محمد الجنيد، والشيخ إسماعيل الحضرمي، وغيرهم، مع كامل الزهد والعدل والورع[3]. ومنهم من تولى الوزارة مثل الفقيه علي بن يحيى العمراني[4] ومنهم من تولى كتابة الإنشاء والوقف والوصايا مثل العلامة محمد الخولاني[5] و سجل عنهم المؤرخون أنهم كانوا محمودي السيرة، وهم في أعلى المناصب الرسمية.

12) تمتع علماء التزكية بحب جمهور الناس واحترامهم وتقديرهم، وكان لهم تأثير على القلوب[6] حتى أن قطاع الطرق كانوا يجلونهم أن يسرقوهم أو يسلبوهم شيئا بفضل وجاهتهم الروحية. ولأجل ذلك كان إذا حج أحدهم يحج معه الخلق الكثير طلباً لأمان الطريق وتبركاً بهم[7]

13) لم يقتصر علم التزكية (التصوف) على مذهب معين، مثل الشافعية السنة، بل كان يعم اليمن كلها شافعية وزيدية، عملاً وتأليفاً وتدريساً[8]

14) ظهر من أدعى التصوف ثم مارس أعمالا مخلة بالشرع الحنيف، إلا أن هذا كان من شواذ السياق التاريخي العام، كما كان علماء التزكية أنفسهم من يرد عليهم ويبين خطأ مسلكهم[9]

15) كان التعليم في تاريخنا الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية، يسير على المنهج النبوي في التربية والتعليم من حيث البناء العقلي والروحي معاً للطالب والتلميذ فكانت المدرسة الإسلامية في عهد الدولة الرسولية يقرر لها مقرئ يعلم القرآن على القراءات السبع ومحدث لتعليم علم الحديث وفقيه لتعليم الفقه على مذهب الإمام الشافعي وآخر لتعليم علم الفرائض (المواريث) وشيخاً صوفياً للتربية والسلوك وتزكية النفس[10]

---

(1) الجندي، السلوك، 1/ 478، الشرجي، طبقات الخواص، 57، 88، 91، 205.

(2) انظر على سبيل المثال، البريهي، طبقات، 43، 245، 264 - 270.

(3) الخزرجي، العقود، 1/ 252 – 253، 201، 202، الشرجي، طبقات الخواص، 95 - 101، البريهي، طبقات، 90 – 92، 96.

(4) البريهي، طبقات، 22، 23.

(5) البريهي، طبقات، 24.

(6) انظر على سبيل المثال، البريهي، طبقات، 90 – 92، 196 – 171.

(7) انظر على سبيل المثال، الجندي، السلوك، 1/ 478 – 480؛ الخزرجي، العقود، 1/257 – 160؛ الشرجي، طبقات الخواص، 57 - 64، 88، 188، 386.

(8) انظر على سبيل المثال، البريهي، طبقات، 22 - 24؛ المهدي، الإمام أحمد بن يحيى المرتضى، (ت840هـ)، تكملة الأحكام والتصفية من بواطن الآثام، تحقيق/ عبد الله بن حمود العزي، صنعاء2007، ص11 وما بعدها. كان لأهل المذهب الزيدي وأئمته باع طويل مع التصوف سلوكاً وتأليفاً، حيث اهتموا بالجانب القلبي والتربية الاحسانية كذلك كان لهم علاقات طيبة مع التصوف السني ما لم تفسده السياسة في بعض الأحيان كما كان حال الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة (ت749هـ) وغيره من الأئمة، حيث تواجد بصنعاء زوايا وأربطة صوفية تهتم بالتربية الاحسانية، للمزيد انظر: الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ب د، ج1ص388،403،187،ج2 ص391،277،26،ج3ص98؛ عبد العزيز سلطان المنصوب، العارف بالله عبد الهادي السودي، صنعاء، 2004من ص60، 61، عبد الله محمد الحبشي، الصوفية والفقهاء في اليمن، صنعاء 1976م، ص63 وما بعدها.

(9) الأهدل، كشف الغطاء، ص170.

(10) انظر على سبيل المثال، الخزرجي، العقود، 2/ 202.

فالعلم الشرعي ليس مجرد معلومات بل هو سلوك وتربية وممارسة، وهذا هو الجانب الصوفي في العملية التعليمية، أو ما يسمى التربية الاحسانية[1]

16) كان طلاب العلم لا يأخذون علومهم بالتلقي إلا ممن علموا استقامته وحسن سيرته ، وتحققوا من دينه وأمانته . وما لم يتأكدوا من ذلك كانوا يرفضون الدراسة أو التلقي منه بشئ من العلم [2].

هل كان يوجد صراع بين الفقهاء والصوفية؟

وضح الاستقراء التاريخي أن كثيرا من الفقهاء كانوا صوفية وكثيرا من الصوفية فقهاء ، فهل كان هناك صراع بين الفقهاء والصوفية كفئتين وطائفتين متناقضتين كما حاول البعض إظهار ذلك ؟

إن الحقيقة التاريخية تنكر هذا الإدعاء، وتظهر أن الصراع كان بين أفراد، إما على قضية فكرية أو انفعال وصراع مصالح . فقد تميزت الحياة العلمية في الإسلام بالجمع والتنوع، أي أن العالم الواحد كان يجمع بين عدة علوم فيكون مثلا فقيهاً ومحدثاً ولغوياً وصوفياً. على أنه أحيانا يغلب على أحدهم فنا معيناً فيغلب عليه الحديث أو اللغة أو التصوف ، وهكذا. وعلى ذلك يكون الفصل بين أصحاب العلوم عسيراً ويكون الفصل في ذهن من يريد أن يفصل بينهم وليس كواقع وحقيقة تاريخية واقعية. على أن ذلك لا يعني عدم وجود مدارس علمية متغايرة فيما بينها كما اشتهر بين أهل الحديث وأهل الفقه وغيرهم ، على أن المؤكد أن الفقهاء والصوفية كانوا أكثر نسيجاً اجتماعياً واحداً كما رأينا في تراجم العلماء سابقاً ، ونستطيع أن نضيف بعض الوقائع التاريخية التي تؤكد ذلك ، منها على سبيل المثال:

أورد الشرجي عن اليافعي الزيارات التي كان يقوم بها الفقهاء إلى الشيخ الصوفي أبو الغيث بن جميل. وتدل مثل هذه الزيارات على ما كان يعتقده وينظره الفقهاء إلى مشايخ التصوف وأهله[3]. كما أورد الخزرجي التحالف والتعاضد والتآخي الذي كان بين أبي الغيث بن جميل والفقيه أبو الحسن الساعي (ت650هـ) ، حيث ابتنى أبو الغيث رباطاً في بلد الفقيه وأقاما متعاضدين في الدعوة إلى الله[4].

ما أورده الجندي من ترجمة وافية راقية للشيخ أبو الغيث بن جميل، إذ كان الجندي فقيهاً غير صوفي وابن جميل صوفي غير فقيه. وهذا يوضح علاقة الاحترام والتقدير والحب بين الفقهاء وأهل التصوف غير الفقهاء. يقول الجندي[5]: « ثم عرض لي مع ذكره رجل من أعيان الأعيان وأفراد الزمان فينبغي أن نذكر من أحواله بعض ما صح ونورد من أقواله ما نستدل به على فضله فهو أبو الغيث بن جميل الملقب شمس الشموس وهذا لقب على ملقب باستحقاق». كذلك كان حال الجندي في ترجمته للشيخ أحمد بن علوان

(1) انظر على سبيل المثال، ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 177 وما بعدها. كان هذا المنهج النبوي سائداً في العالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال عندما أرسل مسلمي الهند سنة 744هـ إلى سلطان مصر يطلبون منه إرسال من يعلمهم شرائع الإسلام، بعث إليهم الشيخ ركن الدين الملطي، الشيخ الصوفي، وشيخ الخانقاة السرياقوسية. (أنظر ابن شاهين الظاهري ، زين الدين عبد الباسط بن خليل الحنفي (844-920هـ) : نيل الأمل في نيل الدول ، تحقيق / عمر عبد السلام تدمري ، بيروت2002، قسم1، ج1 ص81).

(2)) الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ،1/ 173.

(3) انظر الشرجي، طبقات الخواص، 407 ، 408 .

(4)) الخزرجي، العقود، 1/ 103.

(5) الجندي، السلوك، 1/ 384 – 387 .

(ت 665هـ)[1]. وما أورده الجندي في الحقيقة كان يمثل السياق التاريخي العام، وروح العصر الإسلامي، بل كان الفقهاء حريصين على اتصالهم بالعباد و الزهاد من رجال التصوف، لحسن ظنهم فيهم. يقول الجندي[2]: «وتربته (مقبرته) من الترب المقصودات لطلب الخيرات واندفاع المضرات زرتها بحمد الله مراراً ورأيت من بركات آثارها».

ولعل أدل شيء على أن الفقهاء، وأهل التصوف كانوا نسيجا واحدا هو ترجمات الجندي وغيره، فلا يميز بينهم ولا تكاد تفرق بين الفقيه الصوفي والفقيه غير المتصوف. وهذا يوضح طبيعة المجتمع المسلم آنذاك. وكذلك كان الحال مع الخزرجي، وهو فقيه في ترجماته لأهل التصوف.

توضح قصة المؤاخاة التي أوردها البريهي طبيعة هذه العلاقات في المجتمع، وهي المؤاخاة بين صوفي ليس بفقيه هو الحاج الفاضل محمد بن عمر الحرازي والقاضي الفقيه صفي الدين أحمد بن أبي بكر البريهي من إب ودامت بينهم هذه الأخوة حتى الوفاة[3].

ومن الأدلة التاريخية كذلك، هو تأليف الفقهاء غير الصوفية في علم التصوف مثل الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي (ت792هـ). الذي ألف كتبا في ذلك منها على سبيل المثال: «الدر النظيم المنتقى من كتاب الترمذي الحكيم»[4]

وهو بهذا كان مثل بعض كبار الفقهاء الذين لم يكونوا صوفية ولكنهم صنفوا في علم التصوف مثل ابن القيم في كتابه مدارج السالكين أو الشوكاني في كتابه قطر الولي في حديث الولي.

ومن الأدلة التاريخية أن الفقهاء، والصوفية كانوا أقرب إلى نسيج اجتماعي واحد هو أن كثيرا من الفقهاء، أخذوا علومهم من الصوفية، فكانوا تلاميذهم ومريديهم مثل الفقيه عبد الرحمن بن الديبع الزبيدي (ت942هـ) صاحب المؤلفات، درس وتربى على يد جده لأمه الفقيه الصوفي إسماعيل الجبرتي. وكذلك كان تلميذ العلامة أبي العباس أحمد الشرجي صاحب كتاب طبقات الخواص[5]. وهذا مجرد مثال لما كان سائراً فكان أبناء الصوفية فقهاء، وأبناء الفقهاء صوفية[6].

كان إذا قام أحد من الصوفية بالطواف حول البلدان اليمنية للدعوة إلى الله اجتمع إليه مستقبلين، فقهاء البلد وصوفيته[7].

أما ما أبرزه أحد الباحثين من اعتراض بعض أهل الفقه على بعض أهل التصوف[8] فهو من شواذ السياق التاريخي العام للمسلمين ولذلك يمكن ملاحظة التالي:

أن هذه الاعتراضات حوادث فردية تكاد لا تتعدى عدد الأصابع.

يتركز اعتراض بعض الفقهاء، على بعض الصوفية في حالات الخروج عن الشرع الشريف، وهذه حالة كان أهل التصوف

(1) الجندي، السلوك، 1/ 455 – 457.
(2) الجندي، السلوك، 1/ 373، 374.
(3) صلحاء اليمن، 135، 136.
(4) البريهي، صلحاء اليمن، 182، 183. انظر ترجمته أيضاً في الخزرجي، العقود اللؤلؤية، 2/ 218. والحكيم الترمذي (ت320هـ) أحدى الشخصيات الصوفية المعروفة. للمزيد أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 13/ 440 وما بعدها.

(5) انظر: ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، بغية المستفيد في تاريخ زبيد، تحقيق/ عبد الله الحبشي، صنعاء، 2006، ص221 – 223.
(6) انظر على سبيل المثال لا الحصر: الخزرجي، العقود، 1/ 152، 154، 179، 359.
(7) انظر على سبيل المثال لا الحصر: البريهي، صلحاء اليمن، 41.
(8) أنظر: عبد الله محمد الحبشي: الصوفية والفقهاء في اليمن، صنعاء 1976م.

أنفسهم ينكرونها ويدعون في كل حالة إلى إتباع الكتاب والسنة [1]. ويقولون «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح له أن يتكلم في علمنا».[2]

اعتراض بعض الفقهاء المتفلسفين على بعض الصوفية المتفلسفين في قضية ابن عربي ومقولاته التي يفهم منها وحدة الوجود ((3)). وهنا يجدر بنا ملاحظة التالي:

- ان الفقهاء المتخاصمون مع هؤلاء اعترضوا على فكر وحدة الوجود ، ولم يعترضوا على التصوف نفسه[4]. بل أنهم بينوا بشكل واضح ان هذه المقولة ليست من التصوف . يقول الفقيه الحسين بن عبد الرحمن الاهدل (ت855هـ)، [5]،«ولم يزل أكابر أهل الطريق من الصوفية ذوي التحقيق يتوجعون منهم، ويحذرون من تلبيسهم ، وينبهون على أنهم ليسوا على طريق الصوفية المحققين». ومن الأدلة الهامة والواضحة في ذلك ، مصنف كشف الغطاء الذي ألفه الفقيه الأهدل للرد على أصحاب فكر وحدة الوجود . حيث بين فيه أن الصوفية أبرياء من هذه المقولة وأمثالها ، وهذا المصنف هو أهم المصادر التاريخية التي شرحت هذا الصراع بين أنصار وحدة الوجود وبقية العلماء.

- استخدم الفقهاء ردود علماء التزكية (التصوف) على مثل هذه المقولات ، مثل مقولة الجنيد بن محمد (ت297 هـ)[6]: «إنما التوحيد إفراد القدم عن الحدوث» ، ردا على مقولات الحلاج . ثم وضح الفقهاء ما وضحه الصوفية أنفسهم أنها مقولات مقام روحي ناقص من مقامات السالكين ، ولابد من شهود الفرق الثاني بعد مقام الجمع.[7] وقال الصوفية في ذلك :«كل حقيقة تخالف الشريعة فهي كفر»[8]. كذلك بينوا أن :

(1) الأهدل، كشف الغطاء ،ص170.

(2) الشوكاني ، محمد بن علي (ت1250هـ)، قطر الولي في حديث الولي ، ب د ، ص252.

(3) انظر على سبيل المثال، البريهي، صلحاء اليمن، 272.

(4) ملخص نظرية وحدة الوجود عند ابن عربي واصحابه «انه ليس في الوجود سواه عز وجل» ، أو «العالم واحد بالجوهر كثير بالصورة» .حيث هذا الوجود أو الكون ما هو إلا مظهر تجلي أسماء الله وصفاته، على أن الأسماء والصفات هي عين الذات ، والوجود ينقسم إلى واجب الوجود وهو الله عز وجل وممكن الوجود وهو الخلق ، وعلية فحكم ممكن الوجود حكم العدم أمام واجب الوجود، بينما عند جمهور علماء المسلمين أن الوجود هو مظهر تجلي الأسماء والصفات ولكن لا يثبتون أو ينفون أن الأسماء والصفات هي عين الذات. لأن النفي يعني أن القديم (سبحانه) كان متكثر . وهذا محال بحق الله عز وجل . وسبب ابن عربي اختلاف العلماء فيه بين منزه له ومكفر، ومذهب القاضي الشوكاني فيه وكثير من العلماء مثل السيوطي بالبراءة من المقولات التي نسبت إليه وعدم تكفيره، (للمزيد انظر، نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي ، القاهرة 2002،ص167 وما بعدها ؛ محمد الراشد، وحدة الوجود من الغزالي إلى ابن عربي،دمشق2006م،ص110 وما بعدها) .

(5) كشف الغطاء عن حقائق التوحيد وعقائد الموحدين وذكر الأئمة الأشعريين ومن خالفهم من المبتدعين وبيان حال ابن عربي واتباعه المارقين ، تونس ، ب د ،ص170.

(6) الجنيد بن محمد البغدادي ،ابرز ائمة التصوف وعلماءه حتى لقب بسيد الطائفة . عرف بالصلاح والدعوة إلى الله ، عاصر الحلاج والشبلي وأنكر على الحلاج مقولاته ، انظر ترجمته ؛ الأصبهاني ، ابو نعيم ، حلية الأولياء ، 10/255 ؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، 7/241.

(7) أنظر ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى ،ب د ، 1/2،481،453،197/405،369،224-3/387 ؛ برهان الدين البقاعي (885هـ)، تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ، تحقيق وتعليق / عبد الرحمن الوكيل ، ب د ، ص 260،261؛ الأهدل ؛ كشف الغطاء ، 184،32،17.

(8) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم(ت728هـ)، شرح

«كل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل»[1].

تركزت هذه القضية في زمن الدولة الرسولية مع أفراد معدودين من المتصوفة . وعندما مات على سبيل المثال التعزي أبو العتيق ماتت هذه الدعوة ما يقرب من نصف قرن تقريبا[2].

يقول الإمام أبو بكر العيدروس العدني(ت914هـ)[3]، " لا أذكر أن والدي رحمه الله ضربني ولا انتهرني قط إلا مرة واحدة بسبب أنه رأى بيدي جزءاً من الفتوحات المكية لابن عربي فغضب غضباً شديداً فهجرتها من يومئذ". فإذا علمنا أن الإمام العيدروس كان إمام اليمن وعلامتها وشيخ أهل التصوف في زمنه (الفترة الزمنية اللاحقة للدولة الرسولية) علمنا موقف التصوف الحقيقي من ابن عربي ومؤلفاته آنذاك.

المنهج العلمي وقضية خوارق العادات (الكرامات)

تميز تاريخ علماء التزكية (التصوف) بتوثيق المؤرخين لكثير من روايات خوارق العادات، أو ما يسمى بالكرامات ، وهنا تبرز إشكالية تعامل المنهج العلمي الحديث مع هذه القصص والروايات التاريخية ، وهي إشكالية تنطلق من قدرة المنهج العلمي في التعامل مع قضايا الغيب بشكل عام ، مثل قضايا الوحي والجن ومعجزات الأنبياء والملائكة على سبيل المثال. ذلك أن ما يسمى اليوم بالمنهج العلمي ما هو إلا تراث انقلاب أوروبا على الدين والكنيسة والغيب وتركز اهتمامه فقط على ظاهر السلوك البشري أو دوافعه النفسية بحسب مبررات التحليل النفسي الحديث أو استخراج قوانين التاريخ ، أو التعايش الباطني له. أما علاقة حركة التاريخ بقوى الغيب والتأثير المتبادل المحتمل فلا يستطيع هذا المنهج رصدها ودراستها والوقوف عليها ، إنكارا أو تأكيدا.

وهنا نرى كثيرا من الباحثين يتعاملون مع قضايا خوارق العادات في التاريخ الإسلامي بإهمال متعمد أو تهميش وحذف كامل. وهذا مما لا شك فيه مخالف لأبسط قواعد المنهج العلمي وهو وصف ما كان كما كان ، خاصة إذا كانت الرواية أو المصدر مقبولا حسب منهج النقد التاريخي ، وخاصة أنه في العلوم الأخرى يتم توثيق الحدث ووصفه حتى إذا كان الباحث لا يملك له تفسيرا. فيوثقه أولاً ثم يترك تفسير الحدث لمن يأتي بعد ذلك ويحل هذه الإشكالية.

إن قضية التعامل مع قصص خوارق العادات في التاريخ الإسلامي هي قضية ذاتية بحتة أمام الباحث ، فهو إما أنه لا يؤمن بالغيب وبالتالي يسقط ذاته فيحذفه ولا يعترف به. أو يؤمن بالغيب ولكنه لا يملك الأدوات المنهجية في التعامل مع هذه النصوص التاريخية.

هذا من جانب ومن جانب آخر شاب هذه الروايات الإسهاب المفرط في ذكر هذه الكرامات حتى أصبح الشك في صدقيتها من أسس التعامل المنهجي معها. ولكن الشك فيها بقصد فرز ما حدث فعلاً وما لم يحدث شيء ،وحذفها كلياً وتحويل التاريخ إلى مجرد أفعال ظاهرة يتساوى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكارل ماركس شيء آخر.

فتوح الغيب للإمام عبد القادر الجيلاني، ،دمشق 2005م ،ص 160 ؛ الرندي ، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن عباد النفري(ت792هـ) ؛ غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود الشريف، القاهرة ، ب د ، 330 .

(1) الرندي ، غيث المواهب ، 395 .

(2) الأهدل ، كشف الغطاء ، 218 وما بعدها .

(3) العيدروس ، محيي الدين ، النور السافر في أخبار القرن العاشر ، ب د ،ص172 ، أبو بكر بن علي المشهور، الأرض الخاشعة ، القاهرة ب د ، ص50 .

وربما من الجدير بالذكر هنا أن نشير الى أن المنهج القرآني للتاريخ يقدم صورة متكاملة لحركة التاريخ بكل أبعادها الغيبية حيث أوضح دور الشيطان على سبيل المثال في التحريض والتدخل لصنع معركة بدر.

وبهذا لا بد من إعادة النظر في المنهج المعاصر لدراسة التاريخ وتحقيق علميته الفعلية في الوصول إلى الحقيقة التاريخية الكاملة. دون الإسقاط الخرافي أو الإسقاط العلماني الناكر للغيب. منهج علمي يستطيع أن يجيب على سؤال: هل هناك فعلاً خوارق للعادات في التاريخ الإنساني بشكل عام و في التاريخ الإسلامي بشكل خاص، وهل كان لها تأثير على حركة التاريخ بشكل أو بآخر؟[1]

خاتمة

ألقت الدراسة الضوء على قطاع مهم من قطاعات التربية والتعليم في الدولة الرسولية ، وبينت الدور الذي قام به علماء التزكية في نشر العلم والدعوة إلى الله ، وبناء المساجد والأربطة متحلين بالشريعة وآداب الطريقة. كما بينت قضية مهمة وهي الصراع الذي دار بين بعض الفقهاء وبعض المتصوفة في موضوع وحدة الوجود ، حيث رد الفقهاء بما قاله أهل التصوف من أن «التوحيد إفراد القدم عن الحدوث» . وأن التصوف برئ من هذه المقولة .

أضف إلى ذلك كشفت الدراسة عن المنهج التربوي التعليمي الذي كان سائدا في الدولة الرسولية ، وهو منهج التعليم النظري والتطبيقي معا ، حيث مثل علم التزكية الجانب العملي في دراسة علوم الشرع الحنيف ، والاهتمام الباطني والنفسي للطالب . فعلوم الشرع ليست مجرد حفظ نصوص بل هي تربية نفوس . ولهذا كان يرتب في المدرسة الإسلامية المقرئ والفقيه والمحدث وعالم التزكية للاهتمام بالجانب السلوكي والقلبي للطالب . كمجموعة متكاملة من العلوم الشرعية .

---

(1) ألقى الباحث محاضرة عامة بهذا الخصوص بعنوان « المناهج الغربية ودراسة السيرة النبوية». بجامعة صنعاء في 16/3/2009م.

العلاقة المتبادلة بين القبيلة والسلطة

ارتبطت القبيلة في اليمن بالعمل السياسي، قدر ارتباطها بالعلاقات الثقافية والاجتماعية بداخل القبيلة نفسها. فكلما كانت القبيلة أكثر انسجاماً وترابطاً ببعضها وبزعاماتها، كلما كانت أكثر قرباً من السلطة وأكثر تأثيراً فيها (سلباً أو إيجاباً) بحسب نوعية هذه العلاقة، التي تحدد في الغالب حجم المصالح المتبادلة بين القبيلة والسلطة أو الدولة.

د/ عبد الوهاب الروحاني
وزير الثقافة الأسبق /عضو مجلس الشورى

والتركيبة القبلية في اليمن ليست معقدة لا في شكلها الاجتماعي، ولا في توزيع السلطة بداخلها، ولكنها معقدة في تأثيرها في المجتمع وعلاقتها بالسلطة. كما سنرى من خلال درساتنا للقبيلة، عبر التقسيمات الأربعة التالية:

- مفهوم القبيلة
- سلطة القبيلة
- موقع القبيلة في السلطة
- نظام الرهائن

أولاً: مفهوم القبيلة

القبيلة، هي مكون اجتماعي، وسياسي، رئيسي في المجتمع اليمني، وهي تتشكل، من مجموعة من الناس تستهدف مصلحة مشتركة، ويعيش أبناؤها، في منطقة جغرافية واحدة، وبحدود شبه واضحة ومحددة. ويشترك أعضاء المجتمع القبلي بروابط قرابة وعلاقة نسب عائلي ومصاهرة، وغالباً ما تكون للقبيلة «أصول عرقية واحدة، وثقافة متجانسة، ونظم اجتماعية متساوقة، وشريعة حاكمة غير مكتوبة»[1].

والقبيلة في اليمن، وفقا للدكتور فضل أبوغانم، تكونت من خلال، ثلاثة عناصر رئيسية، هي «صلة نسب وقرابة عائلية.. ، روابط تاريخية وثقافية ودينية.. ، منطقة (أرض) محددة يسكنون فيها، ويستغلون ثرواتها الطبيعية بصورة مشتركة، دون غيرهم»[2].

ويعرف المجتمع القبلي في اليمن بوجود ثلاثة تكتلات قبلية كبيرة هي: حاشد وبكيل ومذحج. وترتبط هذه التجمعات القبلية الثلاثة جميعها بصلة نسب مشتركة، تعود إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وتعتبر حاشد وبكيل من بطون كثيرة من همدان، وإسم همدان أوسله بن مالك بن زيد بن كهلان[3].

وتضم قبائل حاشد، بني صريم، وهي تتمركز في (الظاهر، بلاد خمر وغشم ، والسنتين، وبني مالك ، وبني غشيمة، وبني قيس،

(1) د. عبد المنعم الحفني. «المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة». مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة 2000م. ص 641.

(2) د. فضل علي أحمد أبو غانم. «القبيلة والدولة في اليمن». دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة 1990م، ص 199.

(3) د. فضل علي أحمد أبو غانم. «القبيلة والدولة في اليمن». دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1990م، ص 199.

وخيار)، وخارف وهي تشمل (الصيد، والكلبيين، وبني جبر)، والعصيمات، وتضم (ذو جبرة، وذو قيض، وذو غنية صوير، وذو فضل)، وبلاد عذر التي تشمل (ذو غيثان الدواحمة ، وبني عرجلة). وتعتبر قبائل حاشد واحدة من أكبر قبائل همدان، وهي تضم بلاد من صعدة والأهنوم وظليمة، ولعبت حاشد، أدوارا سياسية هامة في تحديد مسار السلطة قبل الثورة وبعدها.

أما قبائل بكيل فتنقسم - بحسب معجم البلدان والقبائل اليمنية- الى اربعة اقسام، تضم(أرحب ، نهم ، مرهبة ، وشاكر،) وهي تشمل خولان، وأرحب، والجوف، وعيال سريح ، وسفيان، وبلاد صعدة(وائلة ، وآل سالم، وآل عمار بن شاكر بن بكليل، وهمدان)، وقبائل بكيل تسكن غالبا، في المناطق الشمالية الشرقية والشمالية الغربية (الجبلية)، فهي في المنطقة الوسطى، في بلاد إب، وبلاد آنس، وفي المنطقة الشمالية الغربية، بلاد مسور، والطويلة، والرجم، والمحويت، وبلاد سارع، وفي حجة، وشحة، وبكيل المير[1].

وتستقرقبائل مذحج، في بعض المنحدرات الشرقية، وأطراف الربع الخالي، والمناطق الممتدة باتجاه الجنوب فمراد والجوبة، والحدا، وعنس، والبيضاء، وبلحارث، وشبوة، وحضرموت من مذحج، وتتفرع عن هذه التكتلات القبلية الثلاث أكثر من مائتي قبيلة، تتركز معظمها في مناطق الجبال، ثم المناطق الشرقية والجنوبية ثم المناطق التهامية.

وعادة «يتكون المجتمع القبلي[في اليمن] من مجتمعات صغيرة .. التي تتحدد علاقاتها بالمجموعات الأخرى طبقاً لظروف المعيشة والحياة الاقتصادية»[2].

وظل الأمن الاجتماعي والاقتصادي، والخوف من الخطر الخارجي هو هاجس القبيلة عبر التاريخ، وقد يكون مصدر هذا التهديد قبيلة مجاورة أو سلطة محلية أو مركزية.

وقد ظلت القبيلة اليمنية، حبيسة هذه المفاهيم قبل الثورة، وكانت تعيش حالة انغلاق، تبعاً للوضع العام، السائد في البلاد، وتعيش حالة استقرار نسبي، بحكم ارتباط بعضها، بالزراعة والأرض، لكنها في ذات الوقت كانت في حالة تهيؤ واستنفار. وجاءت الثورة، وتغير الوضع بعد 40 عاماً من قيامها. فقد أصبحت القبيلة تشارك المجتمع المدني بعض شروط الحياة الاقتصادية إلى حد ما. وفتحت أمام القبيلة آفاق واسعة للانفتاح والتواصل، وهو ما ساعد على توسع مصالحها مع النظام الجمهوري، الذي انخرطت جميعها في الدفاع عنه، بعد أن استقر الأمر لصالح النظام الجديد، رغم أن الثورة «قد وجدت في ظاهرة القبيلة في اليمن مشكلة لها خطورة كبيرة أخذت تهدد الثورة وتعرقل بناء الدولة المركزية الحديثة»[3].

فالمجتمع القبلي، بحسب د. عبد المنعم الحفني، هو نقيض للمجتمع الحضري[4].وإذا ما افترضنا هنا، بأن المجتمع الحضري هو المجتمع المتعلم والأكثر وعياً بمصالحه، فسنجد، أن انقسام المجتمع اليمني، في ظل السنوات الأولى للثورة إلى (جمهوري وملكي) يجسد إلى حد ما هذا المفهوم، لكنه لا يعني بالضرورة أن المجتمع الحضري كان جمهورياً،

(1) راجع :
- أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني. «كتاب الإكليل» ، الجزء الأول في أنساب قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ.
- حسين بن علي الويسي. «اليمن الكبرى»، مصدر سابق. (بحث في الأنساب ومساكن القبائل مع التاريخ)، ص 149 - 162.

(2) ارجع ، إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، الجزء الأول، دار الكلمة، صنعاء، 2002م، ص 191 - 192، وص- 389 392.
(3) حمزة علي لقمان. «تاريخ القبائل اليمنية». دار الكلمة، صنعاء 1985م، ص 9.
(4) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة. مصدر سابق، ص 641.

والمجتمع القبلي كان ملكياً، فالقبيلة إلى جانب قوى الثورة الأخرى، دافعت عن الثورة والجمهورية، واستبسلت من أجل بقائها، ما يعني أن المشكلة، التي لا تزال في بعض منها قائمة، لا تكمن في القبيلة، وإنما هي تكمن في غياب الوعي في وسط المجتمع القبلي، فالقبيلة في غياب منهج علمي لتحديثها وتطويرها، وفي ظل ظروفها الاقتصادية ،والاجتماعية الصعبة والبائسة، ستظل تشكل عائقاً في بناء الدولة المركزية الحديثة. وسياسة تجهيل المجتمع القبلي هو موروث تاريخي، يقول صاحب كتاب «في جبال العربية السعيدة» إن «بقاء العلاقات العشائرية في اليمن.. حددتها سياسة الإمام بالدرجة الأولى، التي كانت تهدف إلى الحفاظ على أنظمة العصور الوسطى، مستخدمة سياسة مرنة، تجمع بين أسلوب القهر وأسلوب الاستعطاف والحذق والدهاء»[1].

ثانياً. سلطة القبيلة:

تحكم القبيلة مجموعة من القواعد العرفية غير المكتوبة، التي تستند على مفاهيم تقليدية متوارثة، يتم اللجوء إليها لحل الخلافات والمشاكل، التي تنشب بين أبناء القبيلة الواحدة، أو بين أبناء قبيلتين مختلفتين أو بينهما معاً. ويتميز العرف القبلي في المجتمع اليمني بكونه يعتمد على قواعد مطاطة غير جامدة، تعتمد على الاجتهاد غير المخل، ويعتبر المقوم الأساسي للحكم به، هو قبول أطراف النزاع بما يصدر عن المُحكَّم (*). (بضم الميم الأولى والتشديد المفتوح على الكاف)، وإن لم فيتم الانتهاء (المنهى) بالحكم أي إستئنافه – عند من يسمونهم بـ الفروع، أو «شيوخ الضمان» اي ذوي الخبرة والدراية بأعراف القبائل وشروعها.

ورغم مرور ثمانية وأربعين عاماً على قيام الثورة في 1962 إلا أن العرف القبلي لا يزال حاضراً في معظم القضايا صغيرة، وكبيرة. وتلجأ الدولة في كثير من الأحيان إلى إحالة قضايا ثأر وأرض، وخلاف قبائل مع مؤسسات الدولة، إلى مشائخ ووجاهات قبلية، لحلها بالعرف القبلي ونظام التراضي. ويرجع هذا برأينا إلى ثلاثة أسباب رئيسية تتمثل في:

- ضعف هيبة الدولة وعدم القدرة على بسط سلطتها على كل المناطق والجهات، وغياب مشروع نهضوي يستهدف تحديث المجتمع.
- عدم كفاية وعدالة أجهزة القضاء، وتدخل السلطة في شئون القضاء، الأمر الذي جعل القضاء ومؤسسات الدولة، بما فيها أجهزة الأمن، تتأثر بالمجتمع وليس العكس.
- غياب إنتشار الوعي الثقافي المطلوب لبناء الدولة الحديثة في أوساط المجتمع.

وهناك سبب آخر لابد من الإشارة إليه لأهميته وتأثيره، بل وسطوته في المجتمع. ذلك هو عامل التوازن الذي تمتلكه الأحكام العرفية القبلية التي تجمع بين المرونة والقوة في آن. وهذه الأحكام التي يقررها المعنيون من الوجاهات القبلية تجاه قضية محددة، تجمع أيضاً بين الفصل أو الحل القطعي، وبين الرضى والقبول ولزوم التنفيذ، وهو ما يُغلبُ عرف القبيلة على نظام الدولة، الذي يخضع للروتين وفساد الأمزجة.

ويرتب د. فضل أبو غانم التنظيم الاجتماعي القبلي، كما هو قائم حتى اليوم [1991م] من حيث الترتيب الاجتماعي، إلى خمس مراتب

(1) أوليغ غير اسيموفيتش ويوماشين. «في جبال العربية السعيدة». مركز الدراسات والبحوث، صنعاء 2004م، ص 87.

(*) المحكم: هو الشخص، الذي يرتضي الخصمان اختياره للفصل في الخلاف القائم بينهما، وقد يكون الشيخ، أو العاقل، أو القاضي، أو الأمين أو أي شخصية اجتماعية لها دراية بالأحكام والقواعد العرفية.

هي:

1. فئة المشائخ.
2. فئة السادة والقضاة والفقهاء.
3. فئة الأعيان والعقال والأمناء.
4. فئة الحرفيين، الجزارين والحلاقين والدواشين.
5. فئة الأخدام واليهود[1].

ومع وجود تغيرات في حياة هذه الفئات، وأيضاً التغير النسبي في طبيعة تعاملها مع بعضها بعد الثورة، إلا أن السلطة في القبيلة اليوم، لا تزال قائمة وفقاً للترتيب الهرمي التالي:

أ. المشائخ:

الشيخ في القبيلة يمثل السلطة الأعلى في محيطه الاجتماعي، والمشايخ يحرصون في الغالب، لاستتباب أمورهم، على احتواء الشخصيات النافذة في السلطة من العسكريين والمدنيين من أبناء القبيلة، الذين برزوا بعد الثورة، وأصبح لهم تأثير كبير في المجتمع القبلي، نتيجة للخدمات والتسهيلات التي يقدمونها لأبناء قبيلتهم، وينظر إلى هؤلاء بريبة وحذر، ليس بكونهم منافسين، وإنما بكونهم يملكون سلطة جاذبة ومؤثرة.

والمَشْيَخ كان - في الغالب - يتم باختيار الأنسب والأصلح من بين عقلاء الأسرة المشيخية الموسرة، وأصبح عادة يقوم على الوراثة، وليس على الكفاءة، ورجاحة العقل، وسداد الرأي، وهو إمتداد تقليدي لنظام التوريث، الذي سنه نظام بيت حميد الدين في الحكم والوظيفة العامة، وحتى في القضاء في حالات كثيرة.

غير أن هذا التقليد، طرأ عليه تغيير كبير، في عدد من بيوت المشيخ، في بعض المناطق بعد أكثر من أربعين عاماً من الثورة، حيث بدأ أفراد هذه القبيلة أو تلك، بعد أن فقدت القبائل الكفاية الاقتصادية، يفكرون في من هو اقدر على سد حاجاتهم، وعلى جلب المصالح العامة للمجتمع القبلي، وفي من هو أمكن في تقديم العون والمساعدة، لأفراده على المستويين الرسمي والشعبي، والتنافس على الولاء القبلي، وكسب أفراد القبيلة يعني التنافس على الحظوة عند السلطة محلية ومركزية.

ومن هنا يتشكل الدور السياسي، الذي تلعبه القبيلة. فإما أن يكون دوراً داعماً للسلطة أو معارضاً لها.

ب. السادة والقضاة:

كان «السادة» في المجتمع القبلي، يحتلون المرتبة الثانية بعد المشائخ، ويمارسون سلطتهم الاجتماعية والدينية في ظل نظام الإمامة «على أساس العرق والنَسَبْ والمركز الديني»[2]. ، وكان القضاة، الذين يرتبطون بالقبيلة بصلة نسب وقربى، يعتمدون على تفقههم فقط في شئون الدين ومعرفتهم بالقضايا الشرعية. بينما يمارس «السادة والقضاة» سلطانهم في المجتمع القبلي حالياً في ظل النظام الجمهوري ليس اعتماداً على العرق والنسب، وإنما اعتماداً على درايتهم بشئون الدين ومعرفتهم بأصوله، وخاصة ما يتعلق بقواعد المواريث الشرعية (الدينية)، وأصول القسمة المطلوبة، لحل مشاكل أبناء القبيلة بعيداً عن مؤسسات الدولة الرسمية.

ج. العقال والوجهاء أو (الأعيان):

وهؤلاء يتولون سلطة الإشراف على القرى أو المناطق الواقعة في نطاق أو محيط سيطرة الشيخ، ومهمتهم تحديداً «تتركز في القيام بدور حلقة الوصل بين مشائخ القبيلة من جهة، وبين أعضاء الوحدات المكانية، التي غالباً ما تكون صادرة في الأصل من قبل الدولة، وخاصة ما يتعلق بملاحقة العصاة، أو المتمردين على الدولة.. أو طلبات التجنيد.. »[3]. ويساعد

(1) د. فضل علي أحمد غانم. «البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغيير». مصدر سابق، ص 194.

(2) المصدر السابق، ص 194.

(3) نفس المصدر السابق، ص228.

العقال والوجهاء حتى اليوم في جباية الزكوات، والواجبات السنوية، التي تساق إلى خزينة الدولة عبر الوحدات الإدارية في إطار السلطة المحلية، ويلعب بعضهم دور الشيخ في الفصل في المنازعات بين أبناء قراهم أو مناطقهم.

ثالثاً: موقع القبيلة في السلطة:

في ظل الإمامة كان يتوقف على القبيلة دورٌ كبيرٌ في استتباب الأمن والاستقرار للنظام الحاكم. وشيوخ القبائل لم يكونوا ينازعون «السادة» سلطتهم، وإنما كانوا يساعدون الإمام في ترسيخ سلطته الروحية والسياسية.

وسلطة القبيلة لا تقف عند هذا الحد بل كانت تتعداه لتصل إلى مستوى تحديد فيمن يجب أن تكون الإمامة في البلاد، وحادثة استدعاء زعماء القبائل اليمنية للإمام يحيى بن الحسين الرسي في نهاية القرن الثالث الهجري من الحجاز ليحكم اليمن هي خير مثل يمكن أن نسوق عليه في هذا المجال، وقد تعددت الروايات حول حالات رئاسية (إمامية) تشاورت فيها الزعامات القبلية، أو استشيرت، وكانت لها في أوقات كثيرة الكلمة الفصل، ومنها دور القبائل في مناصرة دعوة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ومبايعته أماماً لليمن بعد وفاة والده الإمام المنصور[1]، ومن ثم الحرب في المقاومة اليمنية ضد الاحتلال التركي.

ويأتي دعم القبيلة للسلطة مقابل الحفاظ على مصالح زعمائها، وعدم منازعتهم السيطرة على «الرعية» الفلاحين، أو التدخل في شئون استملاك (بعضهم) للأراضي الزراعية. والمشائخ عادة يعتبرون من كبار الملاك، وهم يلعبون دوراً كبيراً في حياة البلاد السياسية[2].

ويروي الرئيس الأسبق القاضي عبد الرحمن الإرياني واقعة تدلل على مفهوم الملكية الإقطاعية المفرطة لبعض شيوخ القبائل في مناطقهم وخاصة في المناطق التهامية والسهلية كالحديدة وإب وتعز وامتداداتها. تقول الرواية إن الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين كلف القاضي الإرياني بمهمة الطواف في بلاد العدين، ولما كان «في طريقه إلى مركز الحاكم هناك بالقرب من المذيخرة، صدف أحد المزارعين فسأله: أين منزل الحاكم؟! فأجابه المسكين وعلامات الخوف بادية على وجهه مرتبكاً: «هذه الأرض حق الشيخ»، وهذا أبيت [الدار] (مشيراً إلى كوخه المبني من الطين والحجر) حق الشيخ، وأبقرة [الجاموس] حق الشيخ، وامرة [الزوجة] حق الشيخ»[3].

ولعل هذه الرواية هي أبلغ تعبير عن سطوة وسلطة شيوخ القبيلة على المزارعين أو الفلاحين «الرعية»، الذين حظوا بعد الثورة بلقب «مواطن». وسلطة المشائخ، هي سلطة لا شك مستمدة من سلطة الدولة، التي تحرص على منحهم صلاحيات وإمكانيات كبيرة، لكنها تستخدم في حالات كثيرة لتكريس العسف والظلم ضد المواطنين حتى اليوم في بعض المناطق، وكان العسف والظلم متبادل، وهكذا «فبينما كان المشائخ يحكمون أبناء القبائل اليمنية كانوا بدورهم يخضعون للسلطة المركزية .. وكان شيوخ القبائل مجرد موظفين حكوميين خاضعين لسلطة الإمام، باستثناء بعض القبائل المتنفذة، التي تحتفظ ببعض صور الحكم الذاتي»[4].

كان النظام الإمامي يقوم بدفع رواتب مغرية للمشايخ ولأقاربهم، وكان يقوم بتجنيد أعداد كبيرة من قبائل حاشد وبكيل في

---

(1) عبد الله الثور. ثورة اليمن. دار الهنا للطباعة. مارس 1968م. ص7، 8

(2) فلادلين أ. وآخرون «اقتصاد الجمهورية العربية اليمنية». مصدر سابق. ص55.

(3) د. عبد العزيز قائد المسعودي. «اليمن المعاصر من القبيلة إلى الدولة (1911 – 1967)». دار المجد للطباعة والنشر. ص 92، 93.

(4) نفس المصدر السابق. ص63.

الجيشين النظامي والبراني (*) ليضمن الإمام ولاء القبيلة ويأمن شرها.

ومن هنا جاء مفهوم أن قبيلتي حاشد وبكيل كانتا «نقطة الارتكاز والسند للنظام الملكي في اليمن، لذلك لقبتا بجناحي الإمام»[2]. غير أن هذه المزايا كانت تتحول إلى مصدر تخويف لهم في حالة شعور الإمام بحيل أو ميل منهم تجاه سلطته، وذلك بتجريدهم من مناصبهم، وقطع رواتبهم حيناً، وحيناً بإشعال فتيل الحرب والفتنة بين القبائل وضربها ببعضها لتنشغل القبائل بثاراتها، وتتفرغ الأسرة الحاكمة للسلطة، وحماية مصالحها الشخصية.

وإذا كان بعض المشائخ ومنهم الأغنياء بالذات يمالئون سلطة الإمام حفاظاً على مراكزهم ومصالحهم، فقد كان البعض الآخر، الذين لم ينشغلوا بالثروة وجمع الأموال، يعارضون في الطرف الآخر. إذ أن التعرض لسلطاتهم، والتنكر لهم والتقتير عليهم، والمغالاة في جباية الزكوات منهم ومن رعاياهم، أو إشغالهم بالفتن والصراعات البينية، كانت جميعها تنعكس في شكل مقاومة للإمام يحيى والثورة عليه، كما حدث مع قبائل حاشد وعبيدة ومراد وغيرها من القبائل في تهامة والجبل.

وسياسة المصلحة لا تزال تحكم العلاقة بين القبيلة والدولة حتى هذه اللحظة، فالجيش «البراني» في ظل حكم الإمام استبدل باسم «خبرة الشيخ» وهو اسم مرن يلغي التسمية الإمامية المكروهة، ويجمع بين بساطة الاسم «الخبرة» وهيبة المستفيد «الشيخ»، والدولة تصرف للمشائخ ولأولادهم اعتمادات شهرية كبيرة، كما تصرف مرتبات «الخبرة» الشهرية عن طريقهم ومن خلال الوحدات العسكرية، وحظيت زعامات قبلية بتشكيل ألوية، ومعسكرات خاصة، ولكن تحت إشراف الدولة، وقيادات عسكرية كبيرة.

ولعبة شد الحبل بين الدولة والقبيلة، جرت نفسها إلى ما بعد قيام ثورة سبتمبر 1962م، وخاصة عند اشتداد القتال بين الصفين الجمهوري والملكي، حيث أولت الجمهورية اهتماماً واسعاً بالقبيلة بهدف كسبها لصفوفها، ولذا كان الإعلان الدستوري الصادر بتاريخ 1962/10/30م قد أقر تشكيل مجلس قبلي سمي بـ «مجلس الدفاع»، حددت مهمته في النظر في شئون البلاد، وتألف من شيوخ الضمان، وهم رؤساء القبائل وزعمائها، الذين منحهم النص الدستوري في المادة (10) درجة وزير دولة، يتولى كل منهم «مهمة المحافظة على منطقته بصفته محافظاً [معيناً] من قبل مجلس قيادة الثورة »[3]. كما كان القانون قد حدد إنشاء مجلس من كل قبيلة يطلق عليه مجلس شيوخ القبائل، ومجالس أخرى في الألوية (المحافظات) يطلق عليها مجالس شيوخ القبائل في الألوية، بحيث ينشأ مجلس أعلى منتخب في عاصمة الجمهورية من مشائخ الألوية (المحافظات)[4].

(*) الجيش البراني: هو الجيش غير المنضوي في إطار تشكيلات الجيش النظامي المعروفة، ولا ينتمي لمعسكراتها كما لا يقوم بالتدريبات، التي يقوم بها أفراد الجيش النظامي. وهذا الجيش يتكون من مجموع المجندين من القبل المختلفة، ويتم تجنيدهم في الغالب عن طريق الوجهاء والمشائخ، وعادة ما تصرف للمجندين مرتبات شهرية ولكن عبر ما كانوا يسمون بـ (عرايف البراني)، الذين بدورهم يقومون بتوزيعها أو التصرف بها وفقاً لمرئياتهم، ومرئيات المشائخ من ورائهم.

(2) أوليج جيراسيموف ويو - ماشين. تعريب جليلة عبد الوهاب جحاف، صنعاء 2004، مركز الدراسات والبحوث ص 87.

(3) د.قايد محمد طربوش «وثائق دستورية يمنية « (الإعلان الدستوري الصادر بتاريخ 1962/10/30). مكتبة العروة الوثقى، 2003، الجمهورية اليمنية - تعز، ص 131.

(4) سلطان أحمد عمر. نظرة في تطور المجتمع اليمني. مصدر سابق، ص 199 - 200 . (مقتبس من الكتاب السنوي الصادر عن رئاسة الجمهورية لعام 63، ص 27).

ثم استخدمت حقيبة وزارية سميت بوزارة شئون القبائل في الأعوام 63 و 64 في حكومتي عبد اللطيف ضيف الله وحمود الجائفي، وأيضاً في حكومتي العمري والسلال عامي 65 و 66م ، واختفت فيما بعد لتظهر وزارة جديدة سميت بوزارة الإدارة المحلية، قامت بنفس المهمة مع التوسع في الإدارة الرسمية للسلطة المحلية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تبوأت الزعامات القبلية الكبيرة في منتصف الستينات مناصب في أعلى سلطات الدولة، لكنها رغم هذا ظلت تنظر للدولة بريبة وحذر، وظلت تتعامل مع مناصبها الرسمية باعتبارها وظيفة أو سلطة مكملة لسلطتها في القبيلة، وهي إشكالية لا تزال قائمة في المجتمع اليمني حتى اللحظة.

وكانت في النصف الثاني من عقد السبعينات، وبالتحديد في عهد الرئيس إبراهيم الحمدي (1974 - 1977م)، قد جرت محاولات جادة في الشمال للحد من سلطة القبيلة في الدولة وتأثير الزعامات فيها عبر الخطوات التالية:

- تجميد مجلس الشورى،الذي كان يضم في معظمه أبرز الزعامات القبلية في اليمن بنسبة 90 % تقريباً.
- تحجيم دور الزعامات القبلية الكبيرة والتأليب عليها وإثارة وتمويل الصراعات بين الأسر والعائلات المشيخية الصغيرة والكبيرة.
- إقصاء المشائخ من لعب الأدوار السياسية، التي كانوا فرضوها في ظل رئاسة القاضي عبد الرحمن الإرياني، وسيطرتهم الفعلية على عدد من المؤسسات المدنية والعسكرية.

وكان الرئيس الحمدي بهذه الإجراءات المتسرعة حينها يستهدف تحديث بناء الدولة، وربما كان مصيباً إلا أنه لم يراع مسائل أخرى متعلقة بالمصالح الشخصية للزعامات القبلية، وأيضاً ارتباطات الكثيرين بعلاقات خارجية كانت تقوض الأوضاع الداخلية التوازن في علاقة القبيلة بالسلطة، وعادة لا يختل هذا التوازن إلا إذا ما تضررت المصالح.

فحينما بدأ الرئيس الحمدي حربه ضد الزعامات القبلية، كان يدرك خطورة ما أقدم عليه، وكان بالتالي واثقاً بحكم شعبيته الواسعة، أن مشروعه سينتصر، لكنه بالمقابل لم يدرك أنه بتلك الخطوة قد فتح على نفسه وعلى دولته النار، في حين لم تكن الدولة قد وسعت سلطتها، ولم تكن قد تمكنت أيضاً من امتلاك عناصر القوة والسيطرة، خاصة مع وجود تعدد الولاءات الخارجية للزعامات السياسية والقبلية على حساب الولاء الوطني.

وفي المقابل كان النظام الاشتراكي في الجنوب، قد خطى بطريقته نحو إحلال القوى الشعبية «الثورية الاشتراكية» محل الأرستقراطية القديمة الحاكمة، ووفقاً للرئيس سالم ربيع علي: «كان بالإمكان بناء مثل هذه التجربة بنفس الأداة، التي خلفها لنا الاستعمار والحكم السلاطيني، ونعتمد على المشايخ والعقال ليكونوا على قمة هذه السلطة... لكننا اخترنا السياسة التي أملتها علينا طبيعة مرحلة نضالنا، وهي أن تكون هذه السلطة في يد العمال والفلاحين الفقراء، والجنود، وليس بيد الأقلية»[1].

فكان الرئيس ربيع وزملاؤه يعتقدون أنهم بالانتفاضات الفلاحية وتأميم ومصادرة الممتلكات، وتصفية الرموز من الأرستقراطية السلاطينية القبلية والدينية، قد نجحوا في إبعاد القبيلة عن السلطة، وهم في الواقع لم ينجحوا في ذلك، وإنما نجحوا في التخلص من رموز القبيلة،

(1) مقابلات صحفية للرئيس سالم ربيع علي. الأوضاع السياسية الراهنة المحيطة باليمن ودور الطبقة العاملة في مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية. (الاقتباس بتصرف) عدن، 1972م، مطابع 14 أكتوبر للطباعة والنشر والتوزيع، ص8.

إما بـ «العنف الثوري» والانتفاضات الشهيرة، أو بطرد من تبقى منهم خارج البلاد، وظلت القبيلة حاضرة ليس فقط في واقع حياة المجتمع، وإنما في أذهان الطلائع الاشتراكية من أبنائها.

لكن ذلك لم يمنعنا من القول إن السلطة في الجنوب، كانت في تلك الفترة قد قطعت شوطاً في طريق فرض هيبة الدولة المركزية، بعيداً عن سلطة القبيلة، غير أن الصراعات القبلية بداخل النخبة السياسية الحاكمة كانت تطفو على السطح بين الوقت والآخر. الأمر، الذي كانت معه القبيلة تطل برأسها من جديد في شكل صراع قوي ومتوحش على السلطة، حيث شهد النظام اليساري في الجنوب انفجارات عنيفة ودامية كان أبرزها أحداث 13 يناير 1986م التي أفصحت عن طغيان الخلفية القبلية في فكر السلطة على الخلفية الإيديولوجية الماركسية التي تبناها النظام حينها. وتدريجياً فشلت التجربة، وجاءت الوحدة لتفرض من جديد سياسة التوازنات وتوازن المصالح، بحيث سمح للقبيلة في المناطق الجنوبية والشرقية، أن تلعب دورها في السلطة، كما في المناطق الشمالية والغربية، ولكن بآلية جديدة، وبمنهج ومستوى لا يتعدى مفهوم الحفاظ على المصلحة، في إطار الإيقاع السياسي العام.

ولقد حاولت الدولة في ظل الرئيس علي عبد الله صالح، الذي خبر التعامل مع القبيلة، وفهم دورها وأهميتها – حاولت أن تحتوي القبيلة من خلال اتجاهين رئيسيين هما:

أ. إدارة علاقة مرنة بين السلطة والقبيلة، تقوم على مبدأ الحذر وسياسة الحفاظ على شعرة معاوية، ومفهوم «والله لو بقيت بيني وبين عدوي شعرة لما قطعتها»، وهو ما انعكس في كثير من المواقف والأحداث ذات الصلة بعلاقة الرئيس علي عبد الله صالح بالقبيلة.

ب. إشراك الزعامات القبلية في السلطة في حدود الحفاظ على مصالحها وضمان عدم المس أو التفريط بها، بمقابل عدم السماح لهم في التدخل في شأن القرار السياسي من منظور الرئيس نفسه.

وقد توسعت هذه المصالح في عهد الرئيس علي عبد الله صالح لتشمل المجالات التالية:

- صرف الاعتمادات الشهرية للزعامات القبلية، وإجزال العطاء لهم بالمناسبات الدورية والأحداث الطارئة.
- فتح المجال أمام الراغبين منهم للاشتغال بالتجارة والاستثمار رغبة في صرفهم عن الانشغال بالسياسة والسلطة لصالح الاستملاك وجمع المال. وتم ويتم في هذا الاتجاه تقديم تسهيلات حكومية كبيرة وواسعة مكنت عدداً من الزعامات القبلية وأبنائها من الثراء والوصول فعلاً إلى مواقع كبيرة منافسة في الحقل الاقتصادي والتجاري، وهو ما ساعد هذه الزعامات على توطيد مراكز قوتها وسيطرتها في إطار القبيلة ثم حضورها بقوة في ساحة العمل السياسي والحزبي، وكل مؤسسات الدولة.
- تشجيع الدولة ودعمها للقيادات القبلية في الحصول على عضوية مجلسي النواب والشورى، والسيطرة أو الاستحواذ على قيادات المجالس المحلية وقيادات الأطر الحزبية (شبه الرسمية).

مما سبق يتضح أن سلطة القبيلة تتعزز، فقد أصبحت تجمع بين إمكانية الحصول على الأموال من خلال مشاركتها في العملية الاقتصادية وبين المشاركة السياسية من خلال السيطرة على قيادة السلطة المحلية المباشرة الرسمية والشعبية والحزبية، وقد تجد بسهولة بيتاً واحداً من بيوت الزعامات القبلية يسيطر على كل المواقع والمفاصل الرسمية والشعبية في المنطقة إطار القبيلة، فالشيخ يمكن أن يكون عضواً منتخباً في مجلس النواب أو معيناً في مجلس الشورى، والأخ رئيساً للمجلس

المحلي، والأبناء يتوزعون رئاسة حزبين أو ثلاثة أحزاب في إطار القبيلة أو المنطقة وعلى اختلاف التوجهات السياسية لهذه الانتماءات إلا أن المصلحة هي الجامع الأهم.

رابعاً: نظام الرهائن:

بعد نجاح الإمام يحيى حميد الدين في مقاومة الأتراك وتسلمه السلطة كاملة منهم إثر رحليهم من اليمن بنهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918، تمكن من بسط سيطرته، والتف سريعاً لإخضاع القبائل المعارضة والموالية على حد سواء، واستفاد في ذلك من نظام الرهائن، الذي بالغ الأتراك في استخدامه لضمان توقف مقاومتهم وعدم الثورة ضده من قبل القبائل اليمنية.

والرهائن في اللغة - هي جمع كلمة «رهينة»، التي تعني في مفهوم نظام الرهائن «وجود شخص ما يوضع قيد الحجز أو الإقامة الجبرية لدى جهة ما كضمان سياسي يفي بالتزام أقاربه وذويه بحسن السيرة»[1].

استخدم نظام الرهائن في اليمن في مختلف الحقب والعصور، بطرق وأساليب متفاوتة. ففي العهد القديم (الحقبة السبئية)، كان الملك السبئي «كرب أيل وتر» يحتفظ بأطفال الأمراء والذوات كرهائن لضمان خضوع الممالك المحيطة. وفي صدر الإسلام، استخدم نظام الرهائن لضمان سياقة ووصول الزكوات المفروضة لبيت مال المسلمين. ويروى أن الملك اليمني الإسماعيلي علي بن محمد الصليحي (439 - 532 هجرية / 1047 - 1137م) ، الذي توحدت اليمن على يديه، جمع حوله كل الزعامات اليمنية من حضر موت إلى مكة، واحتجزهم عنده كرهائن في صنعاء، وعندما قرر السفر إلى مكة المكرمة عام 1080م اصطحبهم جميعاً معه خوفاً من الثورة على حكمه أو الانقلاب عليه أثناء غيابه. فنظام الرهائن إذن يعتبر من الأنظمة اليمنية القبلية الموروثة منذ القدم (*).

تجمع معظم الدراسات أن نظام الرهائن استخدام بقسوة في ظل الاحتلال العثماني ونظام الإمامة. وتروى أمثلة كثيرة بشعة في استخدام نظام الرهائن، حيث التنكيل بالرهينة، والإذلال وقطع الرؤوس. ومن هذه الأمثلة، التي تبعث على الاشمئزاز وتثير الرعب في القلوب، هي استخدام هذا النظام بأساليب وطرق مرعبة ساقها صاحب كتاب «اليمن المعاصر: من القبيلة إلى الدولة»، «كسلخ جلد المقتول وهو لا يزال حياً، أو وضعه في كيس كبير وإلقائه من جبل شاهق... وجعل الأتراك الرهينة (مثلثة العدد، زوجة وبنتا، وذكرا من الولد)... وطبقت هذه القاعدة في عهد الإمام المطهر بن شرف الدين، الذي أقدم على قتل رهائنه والتنكيل بجثثهم على نحو غير مألوف ... [كما أمر في أعقاب انتفاضة خولان على حكم أبيه عام 1530م] بقطع أيدي وأقدام ثمانين رهينة في سجن قلعة غمدان... وإثر حملة أخرى قادها المطهر ضد قبيلة مذحج، عاد وبصحبته 1500 رهينة يحمل كل واحد منهم رأساً مقطوعة في يديه، وبجانب كل رهينة حارس موكل به، وعندما وصل بهم إلى أمام قصر أبيه الإمام شرف الدين أمر كل حارس أن يضرب [رأس] أسيره»[3].

ويروي المستشرق الروسي ج. أنكارين أنه عند زيارته لليمن عام 1928 ضمن أول

(1) د. عبد العزيز قائد المسعودي، مصدر سابق، ص 115.

(*)راجع الموسوعة اليمنية، الجزء الثاني، مؤسسة العفيف الثقافية ، مصدر سابق، ص 1404 - 1407

(3) د. عبد العزيز قايد المسعودي، مصدر سابق، ص 116، 117. شمس الدين الموزعي، الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، ص 6 - 7. محمد عبد الله الفسيل وآخرون، كيف نفهم القضية اليمنية ، ص 88.

بعثة روسية لليمن، رأى «صبية مراهقين» هم رهائن قبيلة الزرانيق يسيرون تحت حراسات مسلحة من العسكر في أحد شوارع «باجل»، الذين أخذوا من قبل الحكومة كضمانة على عدم قيام قبائلهم وعشائرهم بتمرد أو عصيان ضد الإمام، ما لم فسيكون الثمن هو «أن تطير رؤوس هؤلاء الرهائن». واعتبر أنكارين أن إخضاع القبائل غير المنصاعة للنظام بهذا الشكل يعتبر «الشكل الفريد للإرهاب، الذي تقوم به الدولة الإقطاعية الفتية في اليمن»[1].

وقد استمر نظام الإمامة باستخدام نظام الرهائن ليس فقط لإخضاع القبائل لسيطرة السلطة المركزية وضمان الولاء وعدم الخروج أو الثورة عليها، وإنما أيضاً لضمان التزام القبائل لنصرة الإمام في حروبه ضد الخارجين عليه، ولضمان تحصيل وجمع ريع أملاك الإمام، التي كان يطلق عليها «الأملاك السعيدة»، وجباية أموال بيت المال، وإيصال المتمردين أو الخارجين على النظام إلى الدولة. وحقق نظام الرهائن، على فظاعة أساليبه ومناهجه، نجاحاً في تمكين الطغاة والمستبدين من إحكام قبضتهم على القبائل في مختلف المناطق رغم التضاريس الوعرة، والجبال الشاهقة، والسهول الواسعة، والصحاري الممتدة، ومكنهم من بسط سيطرتهم عليها في أوقات متفاوتة رغم غياب الإمكانيات المطلوبة للاتصال وربط المناطق البعيدة بمركز السلطة.

ونظام الرهائن عمم «على معظم اليمن، بحيث أن اليمنيين في الشطر الجنوبي فضلوا الاستعمار على حكم الإمام، الذي شرع رهن الأب أو الابن أو الأخ وأخذه من بين أسرته إلى السجون البعيدة عن أهله وزوجه، ليعيش في الظلام والكآبة، ويقتات من العيش أردأه»[2].

وكان الرهائن في الغالب يؤخذون من أبناء مشائخ الضمان (أي الزعامات القبلية الكبيرة) ومن أبناء الوجاهات ذات التأثير في الناس الذين يُخشى جانبهم. والرهينة عادة يساق إلى بيت الدولة (الحكومة) مقيداً بالحديد، وتحرسه عساكر الدولة.

وكان بيت حميد الدين قد طبقوا نظام الرهائن على بيوت المشيخ القبلية اليمنية من حاشد وبكيل ومذحج، والمناطق التهامية والسهلية، وبحسب المؤرخين، كان يؤخذ الصبيان، الذين لا يزالون دون السن القانونية كرهائن حتى «تَطرّ شواربهم» ويستبدلون بآخرين، ولم يكتف الإمام بفرض نظام الرهائن لإخضاع القبائل وإذلالهم، وإنما كان أيضا يستخدم مركزياً أو عبر حكومات القضوات نظام ما يسمى بالخطاط (*) والتنافيذ (**).

مثل نظام الرهائن والخطط والتنافيذ قوة بطش كبير لنظام الإمامة، فقد خلق حالة رعب وخوف دائم عند القبائل. فهو نظام لم يقتصر فقط على إذلال وإخضاع القبيلة وزعمائها سياسياً

(1) ج. أنكارين. مذكرات دبلوماسي في اليمن. مصدر سابق، 77.

(2) المشير السلال وآخرون. وثائق أولى عن الثورة اليمنية. من إجابات القاضي عبد السلام صبرة. مركز الدراسات والبحوث – دار الآداب، بيروت 1985، ص 185.

(*) الخطاط، (بكسر حرف الخاء) هو مفهوم عسكري يعني الانتشار أو التوزع، والخطاط يعتمد على إرسال فرق بيرة من الجيش النظامي الإمامي إلى المناطق أو القبل المتمردة، للمكوث فيها، والانتشار بين الناس أكلا وشرباً، وإقامة وخدمة لمدد قد تصل إلى حوالي الشهر، يهلك عساكر الإمام فيها الحرث ويرعبون النسل، ويأتون على كل ما عند أبناء القبيلة من اطعمة واغنام وأموال حتى تخضع القبيلة وتسلم أمرها لطاعة الإمام ونظامه.

(**) التنافيذ : هو نظام عسكري يقوم على تهديد فردي للشيخ أو لأحد افراد القبيلة العصاة. ويتم من خلال إرسال «العامل» أي حاكم المنطقة أو المسئول الإداري بعسكري (جندي) أو اكثر يقومون بترهيب المُنَفّذ عليه، وإرغامه على استضافتهم، و «تأجيرهم» – أي دفع مبالغ مالية أو عينية محددة لهم، ثم اقتياده لطرف الحكومة في المركز الإداري المختص.

لسلطة الإمام، وإنما استهدف تنفيذ سياسة إفقار القبيلة اقتصادياً وجعلها رهن الجوع والفاقة. وهذ نظام ولد عند الأئمة شعوراً بأهميته والتمسك به لفرض السيطرة وبسط السلطة، لكنه خلق في الجانب الآخر إحساساً بالظلم والإهانة، وتولدت بالتالي الرغبة في الثأر والانتقام من نظام بالغ في الظلم وقهر الناس واستبدادهم.

ومن هنا فنظام الرهائن هو نظام متوارث في المجتمع اليمني، ورغم أنه اختفى في ظل النظام الجمهوري إلا أن بعضاً من أوجه ممارساته لا تزال قائمة - على الأقل - في شكل اختطاف بعض المسئولين أو أبناءهم للابتزاز والضغط على خصومهم، واختطاف دبلوماسيين وأجانب للضغط على السلطة أيضاً، ومحاولة إخضاعها للاستجابة لمطالب ليس لها علاقة بمصلحة المجتمع، وهو ما تكرر خلال عقد التسعينات من القرن العشرين، وأيضاً خلال النصف الأول من العقد الأول للألفية الثالثة، في ظاهرة تجد الدولة نفسها مضطرة للتعامل معها بطرق التفاوض واللجوء للعرف والوساطة القبلية.

ونستطيع أن نقول إن ممارسة أعمال الاختطاف في اليمن في المرحلة الراهنة لا تقتصر على الجماعات الإرهابية، وإنما هي تشمل أيضاً بعض الخارجين على القانون من المشائخ، والقادة المتنفذين من العسكريين والمدنيين بقصد المصلحة والدوافع الشخصية، وهي تمتد أيضاً إلى أجهزة الدولة، فالمؤسسات العسكرية والأمنية، وحتى بعض مؤسسات الدولة المدنية، تقوم بأعمال الخطف من خلال اقتحام المنازل والأماكن العامة والخاصة، والاعتقال والحبس والتعذيب أيضاً، وقد تطال هذه الأعمال متهمين، لكنها في الأخير، ولأنها تتم بدون إذن مسبق من النيابة العامة، ولا تستند إلى أصول المعاملات الإجرائية القانونية فهي غير قانونية، وتندرج بالضرورة في الأعمال الإجرامية الإرهابية التي يجب أن يعاقب عليها القانون.

فظاهرة الاختطاف هي الوجه الآخر لنظام الرهائن، وهي ليست أقل بشاعة ووحشية من نظام الرهائن، ولعل أسلوب مدارة الدولة للمختطفين والتهاون معهم في جرائمهم لا يفاقم الظاهرة ويسيء لسمعة النظام والأخلاق وقيم المجتمع اليمني فقط، وإنما هو ينعكس أيضاً في شكل خسائر كبيرة على الاقتصاد الوطني، الذي يتأثر تلقائياً بأعمال وجرائم الاختطاف وبالأعمال الإرهابية المختلفة، والتي تتسبب في تعثر العملية التنموية، فقد بلغت الخسائر جراء الأعمال الإرهابية (وفقاً لإحصائيات رسمية) خلال الفترة ما بين 98 - 2002م حوالي المليار و (899) مليون دولار، وتسببت في مقتل ما يزيد على 54 مواطناً، يمنياً وأجنبياً في حوادث تقطع وخطف، كعملية خطف السياح في مودية بمحافظة أبين التي أدت في ديسمبر 1998 إلى مقتل (4 سياح أجانب) وتفجيرات إرهابية كحادثتي المدمرة الأميركية USS كول في ميناء عدن في أكتوبر 2000م، وناقلة النفط الفرنسية (ليمبورج) اللتين تسببتا في خسائر سياسية ومادية وبشرية[1].

وبالنظر إلى حجم هذه الظاهرة، والخوف من تفاقمها، ولما تشكله من خطر على سلامة وأمن المجتمع، فهي تبرز كواحدة من أهم المشاكل الاجتماعية (وربما السياسية) التي تبحث عن معالجات علمية جادة، في إطار رؤية شاملة للظواهر السلبية في المجتمع. ولعل أهم دوافع استمرار هذه الظاهرة تكمن في غياب تطبيق القانون، وانعدام تحقيق العدالة، ومن هنا نعتقد أن المعالجات يجب أن تشتمل على:

- إعادة النظر في الوضع الحالي للمناهج التربوية والتعليمية، على قاعدة إحياء وتنمية الروح القيمية والأخلاقية والإنسانية العالية للمجتمع وتقييمها ومراجعتها دورياً، بما يساعد

(1) راجع منشور عن: الإرهاب في اليمن، تقرير الحكومة المقدم إلى مجلس النواب، حول العمليات الإرهابية وإضرارها عام 2002م صنعاء إصدار 26 سبتمبر، ص من 14 إلى 56

على غرس روح المحبة ونبذ العنف والكراهية عند أبناء المجتمع، ووضع القضية التربوية والتعليمية، والثقافية أيضاً ضمن منظومة المشاريع الاستراتيجية للدولة في المجتمع.

- تحقيق العدالة في التخطيط والتنفيذ لمشاريع التنمية في المجتمع، وإخضاعها للحاجة وليس للوساطة، واعتماداً على دراسات علمية ميدانية تحقق حضور الدولة في المجتمع، وتقضي على الشعور عند بعض القبل بغبن الدولة أو تهميشها لها.
- معالجة الأوضاع الاقتصادية والمعيشية لأبناء المجتمع، ليس من خلال تقديم الصدقات والمعونات الخيرية في المناسبات، وإنما من خلال وضع برامج تركز على تحقيق التكامل وليس التكافل الاجتماعي بين المؤسسات الاقتصادية والتجارية الاستثمارية العامة والخاصة وبين الشريحة الأوسع والأفقر من أبناء المجتمع، للقضاء على البطالة، وتشجيع إنشاء المشاريع الصغيرة ووضع برامج للتأهيل والتدريب، تحقق شراكة اجتماعية، وتضمن الحد الأدنى من الحياة الكريمة للمواطن.
- ضمان وجود قضاء مستقل وعادل، لا يخضع لسلطة رسمية أو اجتماعية ولا يتأثر بتوجيهاتها. سيضع بالضرورة حداً لظاهرة الثأر في المجتمع.
- إغلاق السجون الخاصة، وتأهيل السجون المركزية، وتحويلها إلى مراكز إصلاحية، تعمل على إعادة تربية وتأهيل نزلائها، وتعليمهم مهارات تساعدهم على العيش والاندماج في المجتمع كمواطنين صالحين.

ونعتقد أنه بمثل هذه الخطوات يمكن للمجتمع أن يتخلص تدريجياً، ليس فقط من ظاهرة الاختطاف البديل المعاصر في اليمن لنظام الرهائن، وإنما من ظواهر اجتماعية جديدة أخرى، أصبحت تهدد الوحدة الوطنية، وتشكل خطراً على أمن وسلام المجتمع، كالانحراف والتطرف الديني والمذهبي، الذي لم تعهده اليمن من قبل.

وإجمالاً نقول،إنه من خلال دراسة «العلاقة المتبادلة بين القبيلة والسلطة» في اليمن، وتوضيح الدور، الذي تلعبه القبيلة على المستويين السياسي والاجتماعي، يمكن استخلاص بعض النتائج، التي توصلنا إليها في التالي:

1. حافظت القبيلة على دورها السياسي والاجتماعي، وحافظت على موقع أفضل في السلطة رغم التغييرات الاقتصادية والسياسية، التي طرأت على المجتمع مقارنة بما كان عليه الحال في ظل حكم الأئمة، وظلت القبيلة والعلاقات العشائرية في حالة تماسك جيد، ولم تتفكك، بل حاولت أن تثبت بأنها لا تزال تشكل عامل توازن سياسي، فهي تطل برأسها عند الأزمات، وقوتها ليست قوة حسم، ولكنها ترجح قوة من يحافظ على مصالحها.
2. تحاول القبيلة إخضاع وتفسير الظواهر «للعرف» والعادات والتقاليد، وهي لا تبدو في خصام مع الحداثة والتطور، ولكنها تقاوم ما تعتبره خطراً على سلطتها ويتهدد مصالحها. وفي ضوء هذا المفهوم يضع العرف القبلي نفسه كقانون اجتماعي متوارث بديلاً مرناً لقوانين وأنظمة الدولة، التي تخضع لإجراءات بيروقراطية معقدة وفاسدة، تضعف هيبة الدولة من ناحية، وتحول من ناحية أخرى دون شيوع الثقافة المعاصرة في المجتمع.
3. كانت الزعامات القبلية في ظل نظام بيت حميد الدين شبه منكفئة على نفسها ومكتفية بسيطرتها على شئون القبيلة في ظل أوضاع اقتصادية سيئة، وفي إطار علاقة حذرة مع سلطة المركز (سلطة الإمام)، الذي طبق عليها نظام الرهائن بقسوته وبشاعته

لإخضاعها لسيطرة الإمام والولاء لسلطته. بينما انفتحت القبيلة بعد الثورة ووسعت من علاقاتها، وتعززت سلطاتها على الجانبين السياسي والاقتصادي. فقد أصبحت شريكاً في العملية الاقتصادية، من خلال إدارتها لعدد من المشاريع الاقتصادية والتنموية الإنشائية الهامة، كما أصبحت شريكاً في العملية السياسية من خلال دورها في تشكيل المؤسسات التمثيلية بصورة خاصة (المجالس المحلية والنيابية والاستشارية)، إلى جانب مشاركتها في العملية السياسية عبر الانخراط في التنظيمات السياسية والحزبية بعد قيام الجمهورية اليمنية. وهو ما جعلها تمارس سلطة مزدوجة رسمية وشعبية، وتمثيلية محلية، ومركزية.

4. لا يمكن فهم القبيلة في اليمن بمعزل عن الواقع الاجتماعي والسياسي، ولا يمكن اعتبارها قالباً جامداً ومتحجراً غير قابل للتنمية والتحديث، باعتبار أنها أثبتت قدرتها على التعامل مع المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المعاصرة، ولكنها استطاعت أن تكيف هذه المعطيات الجديدة مع ما ينسجم مع حاجاتها السياسية والاجتماعية. وربما تعارضت هذه الآلية مع حاجة الدولة والمجتمع في التطور والتحديث، وبناء المؤسسات، التي تضع الأنظمة، وتفرض سلطة الدولة وقانونها. غير أن الإشكالية تظل في إحلال النموذج العصري البديل، الذي يصبح التعامل معه حاجة وضرورة تلجأ إليها الدولة والمجتمع على حد سواء. ويظل هذا النموذج (الغائب) مرهوناً بتطور العملية الديمقراطية في الجمهورية اليمنية، وحيوية وأداء المؤسسات السياسية التمثيلية ومنظمات المجتمع المدني، ليتبلور وينشأ النظام، الذي تتوازن فيه المسئوليات، وتصبح مؤسسات الدولة هي البديل لكل التناقضات والتجاذبات القائمة.

تاريخ الدولة الزيادية من خلال المسكوكات

إعداد وعرض / محمد قاسم عبد الله

على الرغم من الجهود التي قام بها بعض الباحثين، لا زال تاريخ الدولة الزيادية يكتنفه الكثير من الغموض والارتباك والخلط، لاسيما في تحديد بدايتها، وترتيب فترات حكامها ومدى توسعها، أو حتى نهايتها على نحو دقيق وقاطع.

ويكاد الإجماع ينعقد على أن سبب ذلك نشأ من مؤرخ واحد هو عمارة اليمني (ت569هـ/1173م) إذ خلط بين المعلومات التي أوردها عن هذه الدولة دون أن يمحصها، وذلك في كتابه (المفيد في تاريخ صنعاء وزبيد...) ولأن كتابه يعدّ أقدم المصادر التي أوردت تفصيلات عن الدولة الزيادية، فقد نقل عنه من جاء بعده من المؤرخين والكتاب، فوقعوا فيما وقع فيه عمارة، وظل هذا الحال حتى وقت قريب، إذ كان أول من نبّه إلى خطأ عمارة اليمني هو المؤرخ الكبير والمحقق القدير/ محمد بن علي الأكوع في مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب (المفيد) وفي تعليقه على كتاب (السلوك في طبقات العلماء والملوك) للجندي، الطبعة الثانية.

وقد بيّن ما وقع لعمارة من الغلط وكيف تسلسل إلى كل المؤرخين الذين أتوا بعده ونقلوا عنه أخبار هذه الدولة، وكان لهذا التنبيه أثره في أن حرّك همة بعض الباحثين لمواصلة البحث عن كل ما يتعلق بهذه الدولة ورجالها للوصول الى صورة واضحة التفاصيل لمجمل تاريخها، وهي مهمة تتطلب الكثير من الجهد والتقصي، والبحث عن مصادر ووثائق جديدة أصيلة من قبل الباحثين للوصول الى تلك الصورة المنشودة في وضوحها ودقة تفاصيلها، وأن تتضافر جهود الجميع سواء أفراد أو جهات من ذوي العلاقة، وهو ما نحاوله في هذا الإسهام بهذه الدراسة التي استندت فيها على أهم المصادر المعاصرة لبدء قيام هذه الدولة وهو(سيرة الإمام الهادي يحيى بن الحسين) فضلاً عما ذكره الاستاذ/ الأكوع في تعليقاته عن هذه الدولة، والربط بين ما جاء في هذه المصادر وبين ما وصلنا من مسكوكات الدولة الزيادية، إذ ان معظم المصادر التي تحدثت عن هذه الدولة لا تقدم للباحث معلومات واضحة وصحيحة، بل تدخله في متاهات وتناقضات كثيرة، وكلما توسع الباحث في دراستها وتعددت مصادره كلما زاد الغموض والإبهام.

رواية عمارة:

يذكر نجم الدين عمارة بن علي اليمني في كتابه (المفيد...) عن قيام هذه الدولة

بقوله:«ورد كتاب عامل اليمن بخروج الأشاعر وعك من تهامة عن الطاعة فأثني ابن سهل على (محمد بن زياد) وعلي (المرواني) و(التغلبي) عند المأمون وأشار بتسييرهم إلى اليمن وحج ابن زياد ومن معه في سنة 203 هـ وسار اليمن ففتح تهامة واختط زبيد في شعبان سنة 204 هـ » .

وهذه الرواية لا تتفق مع الأحداث التاريخية التي وقعت في اليمن خلال القرن الثالث كما أنه لم يرد اسم هذه الدولة في المصادر التاريخية التي أرخت لتلك الفترة .

كما نجد أن مسكوكات الدولة الزيادية توضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك خطأ هذه الرواية . وبالربط بينها أي المسكوكات وبين المصادر . كما اسلفنا . يمكن تكوين فكرة واضحة عن بداية قيام هذه الدولة و أسماء أمرائها و حتى سقوطها ، وذلك كالآتي :

وصف لحالة زبيد من سنة (291 - 303 هـ) :

يذكر صاحب كتاب سيرة الهادي إلى الحق في أحداث سنة 291هـ ما يلي :

. « أنه في شهر ذي القعدة من هذه السنة وصلت للهادي كتب من إبراهيم بن علي والغطريف الحكميين يسألانه المصير إلي بلدهما ، وسيسلمان إليه ما في أيديهما من مال وعسكر ومخلاف »[(1)] ، حيث كانت لهما السيطرة علي زبيد والمهجم والكدري وسائر المدن التهامية .

. وفي أحداث سنة 292 هـ تحدثنا السيرة عن ظهور القرامطة في اليمن وسيطرتهم عل كثير من البلاد . وفي هذه السنة توجه القرامطة لحرب جعفر بن إبراهيم المناخي واستولوا علي بلده وملكوا المذيخرة في النصف من شهر ربيع الأول من سنة 292 هـ. وهرب جعفر وأهل بيته إلي القرتب بناحية زبيد فسأل إبراهيم بن محمد بن علي أن ينصره فلم يفعل.

. ويذكر في أحداث سنة 293 هـ أن ابن الفضل سار إلي جبل وافر يحارب إبراهيم بن محمد بن علي فتحصن ابن علي بالجبل حوالي شهرين، ثم انهزم عنه ابن علي، وسار ابن الفضل إلي بلد حكم ودخل الكدرا والمهجم واستباحها .

وبعد ذلك خرج ابن الفضل في حرب أحمد بن محمد بن علي إلى زبيد فخرج ابن علي من زبيد ودخلها ابن الفضل ، وخالفه ابن علي إلي الكدرا ، فأخذها وقتل من كان بها من أصحاب ابن الفضل ، وقتل ابن الفضل من ظفر به بزبيد. وانصرف ابن الفضل إلى المذيخرة وعاد ابن علي إلي زبيد وعاد أخوه إلي الكدرا.

يتضح لنا مما جاء في سيرة الهادي إلى الحق . وهي مصدر معاصر لهذه الفترة . أن مدن زبيد والكدرا والمهجم كانت تحت سيطرة ابراهيم بن محمد بن علي الحكمي وأخيه أحمد بن محمد بن علي الحكمي .

كما أنه لم يرد في سيرة الهادي أي ذكر للأمير اسحق بن ابراهيم أو اسم أي أمير زيادي آخر في هذه الفترة، بل أن السيرة توضح لنا أن حكام زبيد وتهامة في هذه الفترة هما الأخوان ابراهيم بن محمد وأحمد بن محمد الحكميان.

وفضلاً عما جاء في سيرة الهادي، يذكر ابن جرير الطبري في أحداث سنة 293 هـ بقوله: « وفي يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب قرئ على المنبر ببغداد كتاب ورد إلي السلطان أن أهل صنعاء وغيرهم من مدن اليمن اجتمعوا على الخارجي وحاربوه وهزموه وفلوا جموعه فانحاز إلى بعض النواحي باليمن

(1) سيرة الهادي إلى الحق صفحة 295 رواية علي بن محمد العلوي تحقيق الدكتور سهيل زكار الطبعة الأولي .

ثم خلع السلطان على (مظفر بن حاج) وعقد له على اليمن وخرج ابن حاج لخمس خلون من ذي القعدة ومضى إلي عمله باليمن، فأقام بها حتى مات[1] ». والظاهر أنه قدم إلى اليمن عن طريق مكة، وعند وصوله إلي زبيد أخرج منها الحكمي وجعلها مركزاً له في حربه مع القرامطة .

- وفي أحداث سنة 297 هـ تذكر السيرة أنه في شهر صفر سنة 297 هـ نهض القرمطي من المذيخرة ونهض ابن ذي الطوق يريدون إلي زبيد ، فظفروا بابن حاج وانهزم عنهم إلي المهجم واستباحوا زبيد وأقاموا بزبيد سبعة أيام ثم عادوا إلي المذيخرة وخلفوا أحمد بن علي بزبيد ، فسار إليه ابن حاج فأخرجه منها ولحق بالقرامط[2]

- يتضح مما جاء في السيرة أن صاحب زبيد في سنة 297 هـ هو المظفر بن حاج الوالي العباسي على اليمن، كما ظهر اسم المظفر بن حاج على الدنانير العباسية المضروبة في صنعاء في هذه الفترة .

- في أحداث سنة 298هـ تذكر السيرة أن مظفر بن حاج توفي بزبيد في شهر ربيع الآخر من هذه السنة وتولى الأمر بعده ابنه محمد بن مظفر وأقام بزبيد .

ثم عزل محمد بن مظفر عن تهامة، وتولى الأمر قائد كان مع أبيه يقال له ملاحظ بن عبد الله الرومي[3] وملاحظ بن عبد الله هو آخر والي عباسي يظهر اسمه على الدنانير العباسية المضروبة في صنعاء .

- وتذكر السيرة أن ملاحظ توفي بزبيد في أول شهر ربيع سنة 303هـ وأقام من بعده عبدالله بن أبي الغارات، فأقام بزبيد خمسين يوماَ ، ثم تولى الأمر إبراهيم بن محمد الحرملي[4] وهو من قواد السلطان مع ملاحظ فأقام بزبيد[5].

كما يحدثنا ابن حماد المعافري في كتابه كشف اسرار الباطنية أنه لما قضى الأمير اسعد على القرامطة في المذيخرة سنة 304هـ جرت المكاتبة بين الأمير الحوالي والأمير إبراهيم بن زياد والناصر احمد بن يحيى صاحب صعدة ، وأن إبراهيم بن عبد الحميد صاحب مسور رجع عن مذهب القرامطة وكاتب الأمير أبا الحسن إبراهيم بن زياد وبذل له السمع والطاعة والدخول في الخدمة وكان ذلك سنه 307هـ[6] .

- وتذكر سيرة الهادي في أحداث سنة 307هـ أنه بعد معركة نغاش التي كانت بين الناصر احمد وأتباع عبدالحميد بن محمد المسوري، كاتَب أهل مسوِر الحرملي وأرسلوا إليه بمال فبعث عسكراً في نصرتهم، فلما بلغ الإمام الناصر كره حربه لئلا يقع عند السلطان أنه يحارب قائده، فصرف العسكر وعاد إلى بلده سنة 308هـ[7].

وبالربط بين ما جاء في سيره الهادي وما حدثنا به ابن حماد المعافري حول أمير تهامة سنة 303هـ، فإن السيرة تذكر أن اسمه إبراهيم بن محمد الحرملي، في حين يذكر المعافري أن اسمه إبراهيم بن زياد . وبهذا نجد أنهما اتفقا في السّنة والاسم الأول للأمير وهو إبراهيم .

.والذي نراه أن اسمه على الأرجح هو إبراهيم بن محمد بن زياد الحرملي نسبة إلى آل حرمل من قبائل الجدعان في بلاد نهم وآل حرمل من

(1) تاريخ الطبري الجزء الثامن صفحة 242
(2) سيرة الهادي إلى الحق صفحة 394
(3) سيرة الهادي صفحة 396.
(4) النص في سير الهادي..ابراعيم بن محمد صاحب الحرملي ويبدو أنه سقطت كلمة صاحب على الباحث عند نقل النص (الإكليل)
(5) سيرة الهادي صفحة 403.
(6) ينظر تعليق الأكوع في المفيد صفحة 54 .
(7) سيرة الهادي صفحة 405.

قبائل ذو حسين ثم من الدبعة[(1)].

ويذكر الأستاذ الأكوع في تعليقه على مفيد عمارة بقوله « ثم تيسر لنا كتاب نظن أنه من تاريخ صنعاء لابن جرير الصنعاني يقول فيه :» وولي إبراهيم بن زياد سنة ثلاث عشر وثلاثمائة وتوفي في ليلة الخميس لأربعة عشر يوماً ماضية من شهر ربيع الآخر سنة 343هـ.»

وفى مروج الذهب يحدثنا المسعودي الذي زار اليمن بقوله :» فمنها وادي نخله وهي ما بين الجند وبلاد زبيد التي أميرها في هذا الوقت سنه 332 هـ إبراهيم بن زياد صاحب الحرملي»[(2)].

من خلال ما تقدم نستطيع أن نكون فكرة واضحة عن قيام هذه الدولة وعن مؤسسها وذلك كالآتي :

إن إبراهيم بن محمد بن زياد الحرملي كان قائداً من قواد السلطان أسعد بن أبي يعفر وأنه أرسله إلي تهامة على رأس جيش لنصرة ملاحظ بن عبد الله الرومي في حربه مع القرامطة .

بعد موت ملاحظ سنة 303 هـ أقام من بعده عبد الله بن أبي الغارات والياً علي زبيد فمكث بها خمسين يوماً .

تولي أمر تهامة وزبيد القائد إبراهيم بن محمد بن زياد الحرملي بعد أن طرد منها ابن أبي الغارات سنة 303 هـ، وظل يدير شؤون الحكم باعتباره نائباً عن السلطان أسعد بن أبي يعفر حتى عام 313 هـ وخلال هذه الفترة كان يهيئ نفسه ويعد العدة للاستقلال والخروج عن السلطان أسعد بن أبي يعفر وما أن استكمل استعداده حتى أعلن نفسه أميراً على تهامة وزبيد، وخرج عن ولائه لأسعد بن أبي يعفر. واستمر إبراهيم بن محمد بن زياد أميراً مستقلاً علي زبيد من سنة 313 هـ حتى توفي سنة 343 هـ . وبعد وفاته تولي الأمر ابنه زياد بن إبراهيم الذي بقي في الحكم مدة قصيرة . ثم تولي الأمر بعده أخوه إسحاق بن إبراهيم سنة 345 أو 346 هـ.

ومن بداية فترة حكم هذا الأمير يمكننا أن نوثق لهذه الدولة بشكل صحيح، إذ نجد أن أول دينار ضرب باسم الأمير إسحاق بن إبراهيم كان في زبيد سنة 346 هـ .

وهو ما سنوضحه من خلال دراستنا لمسكوكات هذه الدولة كما يأتي :

مسكوكات
الأمير إسحاق بن إبراهيم

(346 هـ - 366 هـ)

وله دنانير ضربت بزبيد سنة 346 ، 347 ، 352 ، 354 ، 355 ، 362 هـ .

1- دينار ضرب بزبيد سنة 346 هـ .

ومحتوى هذا الدينار كالآتي :

أولا : كتابة الوجه :



كتب في الوسط :

لا إله إلا
الله وحده

(1) ينظر الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق وتصحيح، الأكوع ، المجلد الأول صفحة 257 .

(2) ينظر تعليق الأكوع في المفيد صفحة 55 ، 56 .

لا شريك له

كتب في الطوق الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار بزبيد سنة ست وأربعين وثلاثمائة .

كتب في الطوق الثاني : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

ثانيا : كتابة الخلف



كتب في الوسط :

الله

محمد

رسول الله

المطيع لله

اسحق بن إبراهيم

كتب في الطوق : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما .

2 - دينار ضرب بزبيد سنة 351هـ

كتابة الوجه :



كتب في الوسط :

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

كتب في الطوق الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار بزبيد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

كتب في الطوق الثاني : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

كتابة الخلف :



كتب في الوسط :

الله

محمد

رسول الله

المطيع لله

اسحق بن إبراهيم

كتب في الطوق : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما .

3 - دينار ضرب بزبيد سنة 354هـ

كتابة الوجه : كتب في الوسط :



لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

كتب في الطوق الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار بزبيد سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

كتب في الطوق الثاني : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

كتابة الخلف : كتب في الوسط :



الله

محمد

رسول الله

المطيع لله

اسحق بن إبراهيم

كتب في الطوق: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما .

4 - دينار ضرب بزبيد سنة 355هـ

كتابة الوجه : كتب في الوسط :



لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

كتب في الطوق الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار بزبيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

كتب في الطوق الثاني : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

كتابة الخلف : كتب في الوسط :



الله

محمد

رسول الله

المطيع لله

اسحق بن إبراهيم

كتب في الطوق : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما .

5 - دينار ضرب بزبيد سنة 362هـ

كتابة الوجه : كتب في الوسط :



لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

كتب في الطوق الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار بزبيد سنة اثيتن وستين وثلاثمائة .

كتب في الطوق الثاني : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

كتابة الخلف : كتب في الوسط :



الله

محمد

رسول الله

المطيع لله

اسحق بن إبراهيم

كتب في الطوق : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما .

6 - دينار ضرب بصنعاء سنة 365 هـ .

ويبدو أن هذا الدينار قد ضربه الأميرابو جعفر احمد بن محمد بن الضحاك الحاشدي على غرار الدنانير التي ضربها الأمير إسحاق بن إبراهيم في زبيد وهذا خلاف ما تذكره المصادر من أن أمير بنى يعفر في صنعاء كان يضرب السكة على اسم الأمير إسحاق بن إبراهيم .

ومحتواه كالآتي :

أولاً : كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

وكتب في الطوق الأول :

بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة خمس وستين وثلاثمائة .

وكتب في الطوق الثاني :

لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

ثانياً : كتابة الخلف



كتب في الوسط :

الله

محمد

رسول الله

المطيع لله

اسحق بن إبراهيم

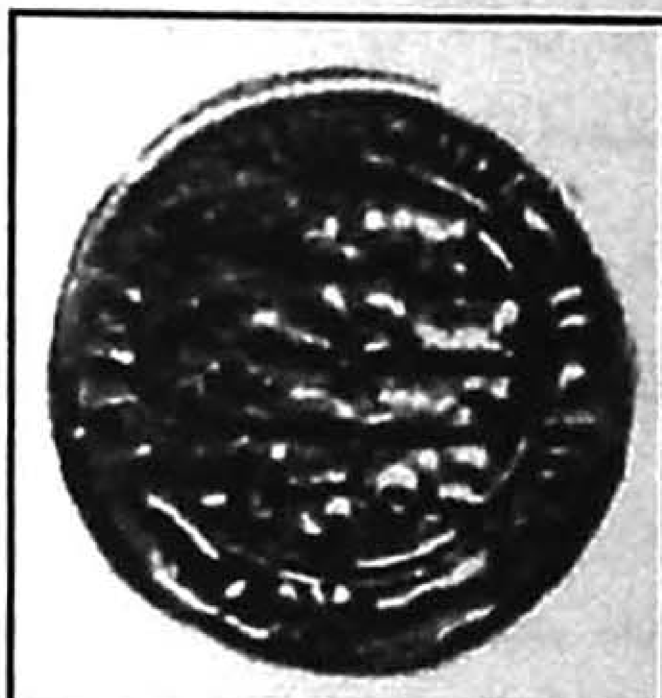
وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما .

قرة العيون ص 160 - 161

كما يوجد له درهم صغير ضرب بزبيد وقد كتب عليه اسم الأمير اسحق بن إبراهيم إلى جانب اسم الخليفة العباسي المطيع لله وذلك كالآتي :

أولاً : كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا

الدرهم بزبيد

ثانياً : كتابة الخلف



كتب في الوسط :

المطيع

لله اسحق

بن إبراهيم

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل

إن الباطل كان زهوقا

مسكوكات
الأمير علي بن إبراهيم

بعد وفاة الأمير اسحق بن إبراهيم سنة 366 هـ تقريباً، تولى أمر الدولة أخوه الأمير علي بن إبراهيم بن محمد، واستمرت فترة حكمه حتى وفاته سنة 371 هـ .

ويوجد له دينار ضرب بزبيد سنة 368 هـ ومحتوى هذا الدينار كالآتي :

أولاً : كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينار

بزبيد سنة ثمان وستين [وثلاثمائة] .

ثانياً : كتابة الخلف



كتب في الوسط :

الطائع لله

أمير المؤمنين

علي بن إبراهيم

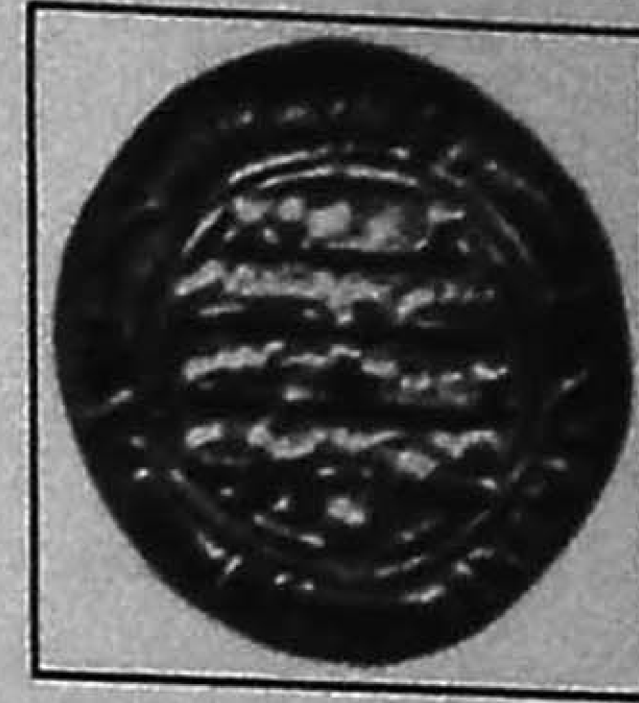
وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن

الباطل كان زهوقا ونذ.

وله أيضاً درهم صغير ضرب بزبيد ومحتواه كالآتي:

أولاً: كتابة الوجه:



كتب في الوسط:

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

محمد رسول الله

وكتب في الطوق:

بسم الله ضرب هذا الدرهم بزبيد.

ثانياً: كتابة الخلف



كتب في الوسط:

الطائع

لله أمير

المؤمنين

وكتب في الطوق:

جاء الحق وزهق الباطل إن

الباطل كان زهوقا

مسكوكات

الأمير المظفر بن علي بن إبراهيم بن محمد

بعد وفاة الأمير علي بن إبراهيم سنة 371 هـ تولى الأمر بعده ابنه المظفر بن علي

وتنقسم فترة حكم المظفر بن علي إلى فترتين:

الفترة الأولى: وتمتد من سنة 371 هـ حتى سنة 403 هـ، وهي الفترة التي أسند فيها تصريف شؤون الدولة إلي أستاذه ومربيه الحسين بن سلامة الذي يظهر اسمه على المسكوكات التي ضربت خلال هذه الفترة إلي جانب اسم الأمير المظفر بن علي.

ويوجد من مسكوكات هذه الفترة ديناران ضربا بزبيد سنة 374 هـ وسنة 403 هـ، ومحتواهما كالآتي:

أولاً: الدينار المضروب بزبيد سنة 374 هـ

كتابة الوجه



كتب في الوسط:

لا اله إلا الله

محمد رسول الله

الطائع لله

حسين

وكتب في الطوق:

بسم الله ضرب هذا الدينار
بزبيد سنة أربع وسبعين وثلاثمائة .

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمير المؤمنين
أمر به الأمير
المظفر بن علي
حـ

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن
الباطل كان زهوقا وننزل مـ .

ثانياً : الدينار المضروب بزبيد سنة 403 هـ

ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا اله إلا الله
محمد رسول الله
القادر بالله
حسين

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينار
بزبيد سنة ثلاث وأربعه مائه .

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمير المؤمنين
أمر به الأمير
المظفر بن علي

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن
الباطل كان زهوقا وننزل مـ .

وله أيضاً درهم صغير يحمل اسم (حسين) وهو وزيره الحسين بن سلامة، محتواه كالآتي:

أولاً : كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا
الله وحده

محمد رسول الله

حسين

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدرهم...

ثانياً : كتابة الخلف



كتب في الوسط :

القادر

بالله أمير

المؤمنين

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان

الفترة الثانية : تبدأ من وفاة الوزير الحسين بن سلامة سنة 403 هـ وتمتد حتى وفاة الأمير المظفر بن علي سنة (434هـ) تقريباً. وفي هذه الفترة باشر الأمير المظفر بن علي إدارة شؤون الدولة بنفسه ، وعمل علي توسيع رقعة الدولة، فأخضع المخلاف السليماني وضم عددا من المدن والحصون إلي دولته . وفي عهده توسعت الدولة وخرجت عن حدود تهامة لتصبح بذلك الدولة الزيادية أقوى دولة في اليمن، الأمر الذي جعل كثيرا من الملوك والأمراء يسارعون إلى إعلان الولاء له، ولا نبالغ إذا قلنا أن المظفر بن علي كان قائداً محنكاً وأنه بنفسه قاد الجيوش وخاض المعارك حتى أطلق عليه لقب (أبو الجيش).

وفي عهده بدأت تظهر الدنانير المضروبة في مدينة (عثر) حاملة اسم الأمير المظفر بن علي إلي جانب اسم الخليفة القادر بالله بالإضافة إلي الدنانير التي ضربت باسمه في كل من صنعاء و زبيد ، وذلك كالآتي :

أولاً : الدنانير المضروبة بعثر سنة (404 هـ ، 405 هـ ، 410 هـ) .

1 - دينار ضرب عثر سنة 404 هـ ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

وكتب في الطوق : بسم الله ضرب هذا الدينار بعثر سنة أربع وأربعمائة ااااه .

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمر به الأمير

المظفر

بن علي

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء .

2 - دينار ضرب عثر سنة 405 هـ ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه : كتب في الوسط :



لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينار بعثر سنة خمس وأربعمائة اااه .

كتابة الخلف : كتب في الوسط :



أمر به الأمير

المظفر

بن علي

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء .

3 - دينار ضرب عثر سنة 410 هـ ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه : كتب في الوسط :



لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينار بعثر سنة عشر وأربعمائة اااه .

كتابة الخلف : كتب في الوسط :



أمر به الأمير

المظفر

بن علي

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء .

الدينار المضروب بمدينة (عدن) :

يوجد للأمير المظفر بن علي دينار تمّ ضربه في مدينة عدن، وهو فريد ومميز من حيث الشكل والوزن، إذ يبلغ وزنه 4.4 جرام، بينما

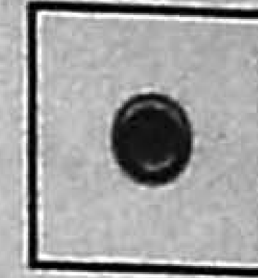
جميع الدنانير التي ضربها في المدن الأخرى كانت تزن بين (2.5 جرام) . ومحتوى الدينار كالآتي :

كتابة الوجه



رُسمت في الوسط :

دائرة صغيرة



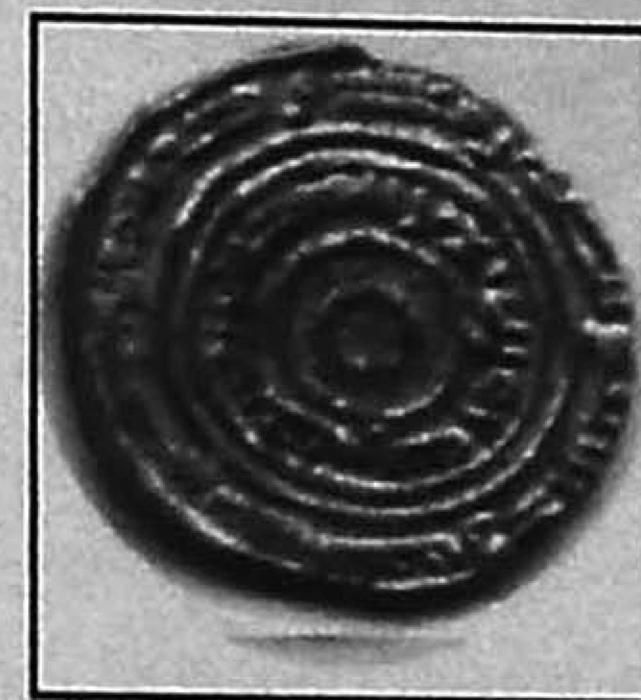
كتب في الطوق الأول :

أمر به الأمير المظفر بن علي بن إبراهيم

كتب في الطوق الثاني :

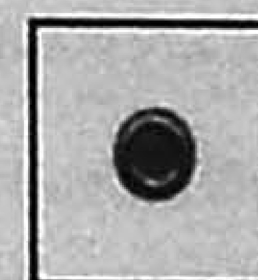
بسم الله ضرب هذا الدينار بمدينة عدن سنة ست واربعمائة

كتابة الخلف



رُسمت في الوسط :

دائرة صغيرة



كتب في الطوق الأول :

أمر به الأمير المظفر بن علي القادر بالله

كتب في الطوق الثاني :

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله

ثانياً : الدنانير المضروبة بصنعاء سنة 408 هـ

ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينار بصنعاء سنة ثمان و أربعما (أربعمائة) .

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمر به الأمير

المظفر

بن علي

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل

ثالثاً : الدنانير المضروبة بزبيد سنة 415 هـ

ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا بزبيد سنة خمس عشر وأربعمائة .

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمر به الأمير

المظفر

بن علي

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل

رابعاً : دينار ضرب بيش سنة 418 هـ ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

وكتب في الطوق : بسم الله ضرب ببيش سنة ثمان عشرة وأربعمائة .

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمر به الأمير

المظفر

بن علي

وكتب في الطوق : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل

خامساً : دينار للأمير المظفر ذو شكل غريب يختلف عن الدنانير السابقة من حيث الشكل والخط. ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القادر بالله

وكتب في الطوق : ||||||||||| ...

كتابة الخلف :



كتب في الوسط :

أمر به الأمير

المظفر

بن علي

وكتب في الطوق |||||||||| – || – || – ||\|||| ...

مسكوكات الأمير علي بن المظفر بن علي بن إبراهيم بن محمد

بعد وفاة الأمير المظفر بن علي سنة 435 هـ تولي الأمر بعده ابنه الأمير علي بن المظفر . ويوجد من مسكوكاته ثلاثة أنواع من الدنانير المختلفة وذلك كالآتي :

أولاً : دنانير ضربت على غرار الدنانير التي ضربها والده المظفر بن علي واقتصرت على ذكر اسم الأمير علي بن المظفر والخليفة العباسي القائم بأمر الله .

ثانياً : دنانير تحمل اسم السلطان رشد إلي جانب اسم الأمير علي بن المظفر والخليفة العباسي القائم بأمر الله .

ثالثاً : دنانير تحمل اسم المؤيد نجاح نصر الدين إلي جانب اسم الأمير علي بن المظفر والخليفة العباسي القائم بأمر الله .

1 - دينار ضرب علي غرار الدنانير التي ضربها والده ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القائم بأمر الله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب بـ هـ ه ـ ||| ـ ||| ـ |||| هـ ه ا ه ا

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمر به الأمير

علي بن

المظفر

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

2 - دنانير تحمل اسم السلطان رشد إلي جانب اسم الأمير علي بن المظفر والخليفة العباسي القائم بأمر الله .

ويوجد له نوعان من هذه الدنانير وذلك كالآتي :

أولاً : دينار ضرب بزبيد ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

المعار

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القائم بأمر الله

رشد

(ومعني كلمة المعار النقد المتداول)

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينر بزبيد سنة ..

كتابة الخلف

كتب في الوسط :



ناصر

أمير المؤمنين

أمر به الأمير

علي بن المظفر

السلطان

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل

3 : دينار ضرب بروضة زبيد ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القائم بأمر الله

رشد

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب بروضة زبيد سنة ..

كتابة الخلف



كتب في الوسط :

أمير المؤمنين

أمر به الأمير

علي بن المظفر

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا و

4. دينار ضرب زبيد ومحتواه كالآتي

كتابة الوجه



كتب في الوسط:

لا اله الا الله

محمد رسول الله

القائم بأمر الله

رشد

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينار بزبيد سنة سبع وثلاثين

كتابة الخلف :



كتب في الوسط :

امير المؤمنين

امر به الأمير

علي بن المظفر

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وننزل

5 : دنانير تحمل اسم المؤيد نجاح نصر الدين إلي جانب اسم الأمير علي بن المظفر والخليفة العباسي القائم بأمر الله .

وله دينار ضرب بزبيد سنة 437 هـ ومحتواه كالآتي :

كتابة الوجه



كتب في الوسط :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

القائم بأمر الله

وكتب في الطوق :

بسم الله ضرب هذا الدينر بزبيد سنة سبع وثلاثين وأربعـ [مائة] .

كتابة الخلف :



كتب في الوسط :

أمر به الأمير
علي بن المظفر
المؤيد نجاح نصر
الدين

وكتب في الطوق :

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا و

هذا ويعتبر الأمير علي بن المظفر هو آخر أمير زيادي يظهر اسمه عل الدنانير الزيادية سنة 444هـ[1].

(1) ينظر (Lowik. N: Coins and History of the Islamic Word p. 546 .NO.2) ويلاحظ انه جعلها من مسكوكات الدولة النجاحية .

اللغات اليمانية القديمة وما انفردت به من خصائص*

القاضي /إسماعيل بن علي الأكوع

كانت اللغات السبئية والمعنية والقتبانية والحضرمية والاوسانية أو الهرمية ، هي لغة المسند أو لغة النقوش اليمانية القديمة ، وهي لغات ذات وشائج قوية تكون وحدة متشابهة في كتابتها وقواعدها النحوية و اشتقاقها وخصائصها ، إلا أنه يوجد فيها بعض الفروق اللغوية ، كما هو الحال بين اللهجات المتعددة اليوم في اليمن .

ففي السبئية مثلا تستعمل الهاء في ضمير الغائب كالفصحى مثل (هو) و (هم) وفي وزن أفعل من الفعل المزيد مثل (هافعل)[1] و(هقني) بمعنى قدم وأعطى ، بينما نجد اللغة المعينية وغيرها من اللغات الأخرى تستعمل السين عوضا عن الهاء مثل (سُو) و (سُم) أي (هو) و (هُم) و (سَقنى) أي هَقني.

وقد غلب علي هذه اللغات في العصر الإسلامي اسم اللغة الحميرية ربما لقربها من العصر الإسلامي ، وربما كانت التسمية قد ظهرت في العصر الحميري نفسه حينما انتقلت السيادة إلى ملوك الدولة الحميرية الذين انتزعوا الزعامة ممن قبلهم ، بيد أن للدكتور خليل يحيى نامي في اللغة الحميرية رأيا آخر فهو يعتقد أنها قد نشأت في الحقيقة — على حد تعبيره — من احتكاك اللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى التي دخلت بلاد اليمن بلغات النقوش اليمنية القديمة ، ويضيف قائلا: « ونحن لا نعرف في الحقيقة التاريخ الذي نشأت فيه تلك اللغة وهل حدث ذلك قبل الإسلام أو بعده»[2] .

ومهما كان الأمر فان اللغات اليمانية القديمة أصل من أصول اللغة العربية ورافد من روافدسها ما في ذلك شك ، غير أن علماء اللغة العربية لم يعنوا بتدوين جميع المفردات اليمانية في قواميس اللغة ومعاجمها ، كأنها ليست من العربية في شيء استنادا إلى مَقُولة[3] مذكورة في بعض الكتب العربية وهي : « ما لسان حِمْيَرَ وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ، ولا عربيتهم بِعربيتنا »[4] .

(1) ما يزال هذا الاستعمال شائعا في مشارق اليمن مثل عبيده والجوف فهم يقولون :ها اسمع أي أنصت.

(2) دراسات في اللغة العربية ص45

(3) تنسب إلى أبي عمرو بن العلاء راجع« طبقات فحول الشعراء » 1/2 بتحقيق الأستاذ/ محمود محمد شاكر

(4) واستشهدوا على ذلك بما رواه أحمد بن فارس في كتاب« الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في

وعلى صحة هذا الزعم فلا يصح أن يكون هذا الرأي حكما عاما ، ولا قاعدة مطردة، ففي القرآن الكريم ألفاظ يمانية ليست من لغة قريش أوردها جلال الدين السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) ناقلا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم جميعا.

فقال: (أخرج أبو عبيدة عن طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله :(وانتم سامدون) قال ، الغناء وهي يمانية ، واخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : هي بالحميرية . واخرج أبو عبيدة عن الحسن قال : كنا لا ندري ما الآرائك حتى لقينا رجل من أهل اليمن فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير ، واخرج عن الضحاك في قوله تعالى:(ولو ألقى معاذيره) قال : ستوره بلغة أهل اليمن ، وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله تعالى (: لا وزر) قال : لا حيل ، وهي بلغة أهل اليمن ، وأخرج عن عكرمة في قولة تعالى : (وزوجناهم بحور) قال : هي لغة يمانية وذلك أن أهل اليمن يقولون : زوجنا فلانا بفلانة .

قال الراغب في مفرداته : « و لم يجيء في القرآن زوجناهم حورا كما يقال : زوجته امرأة تنبيها أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بينا بالمناكحة ، وأخرج عن الحسن في قوله (لو أردنا أن نتخذ لهوا) قال :اللهو بلسان اليمن المراة ، واخرج ابن عباس في قوله تعالى (أتدعون بعلا) قال : ربا بلغة أهل اليمن ، واخرج عن قتادة قال : بعلا بلغة أزد شنوءة ، واخرج فيه عن الكلبى قال : (المرجان): صغار اللؤلؤ بلغة أهل اليمن ، وأخرج في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان عن مجاهد قال (الصواع) الطرجهالة بلغة حمير . ولا بن عباس (فنقبوا) هربوا بلغة اليمن . و اخرج سعيد بن منصور في سننه عن عمرو بن شرحبيل في قوله تعالى (سيل العرم) « المسناة » بلغة أهل اليمن ، واخرج جويبر في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى (في الكتاب مسطورا) قال : مكتوبا ، وهي لغة حميرية يسمون الكتاب اسطورا .

و (تَفشلا) تجبنا بلغة حمير . و كذلك (عَثَر) اطلع ، (سَفَاهة) جنون ، (زَيَّلنا) ميزنا ، (مَزجواً) حقيرا ، (السقاية) الإناء ، (ممنون) منتن ، (إمام) كتاب ، (يُنغضون) يحركون (حُسبانا) بردا ، (من الكبر عتِيًّا) نحو لا ، (مآرب) حاجات ، (خَرْجًا) جعلا ، (غَرَاما) بلاء ، (الصَّرح) البيت ، (أنكرَ الأصوات) أقبحها ، (يَتِرَكم) ينقصكم ، (مَدِينِين) محاسبين ، (رابية) شديدة ، (وَبيلا) شديدا ، (لاشِيَة فيها) لا وضح ، وهي في لغة أزد شنوءة وكذلك (العَضل) الحبس (أُمَّة) سنين ، (الرَّس) البير ، (كاظمين) مكروبين ، (غِسْلِين) الحار الذي تناهى حره ، (لَوَّاحَة) حراقة ، و(الرَّفث) الجماع بلغة مَذحِج ، و كذلك (مُقِيتا) مقتدرا ، (بظاهر من القول) بكذب ، (الوَصِيد) الفناء ، (حُقُبا) دهرا (الخُرْطوم) الأنف ، (وحَفَدَة) : اختان بلغة سعد العشيرة . وكذلك (كَلّ) عيال ، و (فِجَاجا) طرقا بلغة كندة و كذلك (بُسَّت) فتقت ، (تَبْتَئس) تحزن ، و (ربيُّون) رجال بلغة حضرموت ، وكذلك (دَمَّرنا) أهلكنا ، (لُغوب) إعياء ، (مَنسأته) عصاه ، و(طَفِقا) عمد بلغة غسان و (بَئِيس) شديد ، (سيء بهم) كرههم (وتميلوا ميلا عظيما) تخطئون خطأ بينا بلغة سبأ،(تَبَّرنا)أهلكنا و(لا أحْتَنِكن) لأستأصلن

كلامها » ص (22) حيث قال : (ومن الاختلاف اختلاف التضاد وذلك قول حِميَرَ للقائم (ثب) أي :قعد فقد روي أن زيدان عبدالله بن دارم وفد على بعض ملوك حمير) فالقاه على متصيد له على جبل مشرف فسلم عليه و انتسب له فقال له الملك : ثِبْ أي اجلس ، وظن الرجل انه أمره بالوثوب من الجبل فقال له : لتجدني أيها الملك مطواعا ثم وثب من الجبل : فهلك فقال الملك : ما شانه فخبروه بقصة وغلطه الكلمة فقال : انه ليست عندنا عربية كعربتيكم « من دخل ظفار حَمَّر أي تكلم الحميرية.

بلغة الأشعريين، وكذلك (تارة) مرة، و (اشمأزت) مالت ونفرت و(لينة) النخل بلغة الأوس، و(ينغضون) يذهبون بلغة الخزرج.

و أورد أحمد بن فارس في كتابه مجمل اللغة في مادة (بلت) أن البَلْت بلغة حمير هو المهر المضمون قال: «وما زوجته إلا بمهرٍ مبلت»[1] وكتب الأستاذ الداجي التهامي الهاشمي بحثا في مجلة (دعوة الحق) التي تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب تحت عنوان (لم يكن القرآن بلغة قريش فحسب)[2] ذكر فيه أن في القرآن الكريم ستاً وعشرين لفظة من حمير، و أخذ في تعدادها وذكر مكانها من الآيات والسور.

ثم ساق منها حسب ترتيبه: سيِّدا، تفشلا، سفاهة، زيّلنا، مرجوّا، السقاية، حَماء، مسنون، فسينغضون، مسطورا، حُسبانا، عتيّا، مآرب، غراما، الصّرح، أنكر، بغلا.

ونشر الأستاذ هشام الطعان بحثا طريفا بعنوان (تأثر اللغة العربية باللغات اليمانية القديمة) صدره بعرض عن مدى تأثر العربية باللغات اليمانية، واستشهد فيه ببعض آراء لعلماء مستشرقين، وذكر فيما ذكر من كلامهم، أن تَسرُّبَ اللغة العربية الشمالية إلى اليمن تمّ قبيل ظهور الإسلام أثر انحلال العصبية لأسباب سياسية واجتماعية ودينية.

ثم قال: وربما أجدت محاولةُ جمع الشعر اليمني في تلمس الآثار اللغوية[3] وعد تسعة وخمسين شاعرا يمنيا من شعراء الجاهلية. ثم أردف ذلك بقوله:

(نستطيع أن نجمعَ من المصادر العربية طائفة صالحة من الألفاظ والقواعد التي نص على أصلها اليمني. ونقارن ذلك بما وصلنا من نصوص اللغات اليمنية مسترشدين بالأبحاث التاريخية والجغرافية و الاجتماعية. وقد نستطيع آنذاك أن نحكم على صحة كثير من النصوص الشعرية المنسوبة إلى شعراءِ اليمن كما نستطيع أن نفيد الدراسات الساميةَ كما قدر الدكتور جواد علي بحصافة.

وأورد في نهاية بحثه قائمة بالكلمات العربية التي هي من أصل يماني، ورتبها ترتيباً معجمياً، وذكر أمام كل كلمة المصادر التي أكدت يمانيتها. وكان عدد تلك الكلمات تسعين ومائتي كلمة.

على أن المتتبع من الباحثين و الدارسين لخصائص اللهجات اليمانية الدائرة على ألسن أهل اليمن اليوم، يجد فيها كلمات كثيرةً من أصل حِمْيَري، ولا سيما في مجال الزراعة و البناء والتجارة وغيرها من الحرف والصناعات مثل كلمة (الدّثا)، وتعني فصل الربيع و (الصراب): الخريف، كما تطلق أيضا على الحصاد، و(البلق): الرخام، والند: الضمد، ويطلق على الثورين إذ كانا تحت النير لحرث الأرض، و النير: هو الهج، و فقل: ذرا، وقمع: هزم إلى غير ذلك. وذكر لي الأستاذ محمود علي الغول أنه وجد في كتابي (الأمثال اليمانية)[4] عدداً من المفردات من أصول حميرية.

وأورد نشوان بن سعيد في موسوعته (شمس العلوم) كثيرا من الكلمات القديمة مثل بِلْسِن اسم للعدس، وبَلَس اسم للتين.

تتسم اللغة الحميرية بمظاهر لغوية خاصة منها حُذف الالف كتابة إذا وقعت في وسط الكلمة فتكتب غيمان وكوكبان وعَلْهان ونَهْفان وشَمْسَان وسَعْدان وجَيْشَان

(1) صدر البيت: وما ابتلت ؟لأقوم ليلة حرة، وهو للطرماح راجع «مجمل اللغة، بتحقيق الشيخ هادي حسن حمودي».

(2) العدد السادس و السابع السنة التاسعة ذو الحجة محرم سنة 1386ه ابريل مايو سنة 1966م.

(3) 10، 9، 2_10

(4) الجزء الأول وينتهي بحرف الجيم وقد صدر سنة 1388هـ (1968)م في القاهرة

وريشان مثلا هكذا ، غيمن وكوكبن وعلهن ونفهن وشمسن و سعدان وجيشن وريشن .

وروى الحسن بن أحمد الهمداني في الجزء العاشر من الإكليل[1] مالفظه : (وحدثني محمد بن أحمد الأوساني أنه قرأ في مسند بعمران من البون دار همدان: (علهن ونهفن ، بنا بتع بن همدان صحح حصن وقصر حدقان بن زيد بنينا).

كذلك فانهم يسقطون الألف إذا وقعت في وسط الكلمة ، وقفاهم المسلمون في كتابة المصاحف فطرحوا ألف (الرحمن) وألف (الانسن)وألف (السموت)[2]وكذلك علهن منقوص من (علهان) ونهفن منقوص من نهفان وهمدن منقوص من همدان ، وبنين من بنيان ، هذا ما تؤديه أحرف الكتاب وإياها حكى الأوساني[3].

وما تزال هذه القاعدة شائعة في اليمن إلى عهدنا ،فهم يكتبون الأعلام : إسماعيل وسفيان وطاها وعثمان و هارون وياسين و ما شابه ذلك على هذا النحو : إسمعيل سفين ، طه ، عثمن ، القسم ، معوية ، النعمن، هرون ،يسن .

ويكتبون ثلاثة : ثلثة ، وثلاث مئة :ثلثمائة ، وثلاثين :ثلثين ، والثلاثاء :الثلثاء ،كما يكتبون القيامة ، القيمة ، والحياة ، الحيوة ، والصلاة : الصلوة على نحو ما هو مرسوم في المصحف الشريف .

ومن مظاهر اللغات اليمانية القديمة إسقاط الواو الساكنة من وسط الحروف كما أفاد الهمداني مثل : مبعوث والياء الساكنة مثل شمليل ،والألف الساكنة في مثل هلال وبلال وأميال.

***

يستعمل اليمانيون أوزانا فصيحة خاصة للجموع ، ففي مدينة إب وتعز ونواحيهما يجمعون طاقة ، وهي النافذة على طواق ، وباب علي بيبان كتاج وتيجان وفي خبان يجمعونها على أطوق ، وباب :على أبوب ، كما يكثر في اليمن استعمال أفاعل و الافاعلة جمعا للأعلام .

وقد أورد الحسن بن أحمد الهمداني في الإكليل طائفة من هذه الجموع نذكرها مرتبة ترتيباً هجائياً مخالفة لترتيبه ، مع ما أضفت إليها من أسماء أخرى معروفة في اليمن في الوقت الحاضر .

الأبارحة :

قرية من عزلة الخياشن من ناحية مقبنة من أعمال تعز

الأباكل[4] :

بكيل بن عريب بين جيدان . بكيل بن منبه بن حجير بن قاول بن زيد بن ناعته . وبكيل بن جشم بن حبران بن نوف بن همدان وبه سمت حمير بكيلها . وبكيل[5] بن ألهان بن مالك .بكالة بن عريب بن جيدان ، بكال بن دغمي .

الأثابج:

هم الأثيج ... بالحيق

الأثاور: عزلة من مديرية القبيطة محافظة تعز[6]

الأجاعدة: قرية من قرى بني ضبيان في بلاد غامد[7]

(1) ص 16

(2) هذا مثل فقط والا ففي القرآن الكريم كلمات كثيرة تكتب بحذف الالف

(3) الاكليل 10/16

(4) الاكليل 10/17

(5) مايزال هذا الاسم يطلق على حقل بكيل من آنس.

(6) صارت الآن تابعة لمديرية حيفان محافظة تعز.وصارت مديرية القبيطة تابعة لمحافظة لحج الإكليل.

(7) بلاد غامد وزهران ص 34 ، وهي غير بني ضبيان إحدى بطون خولان الطيال.

الأحاسن:

حسان بن شَمَّر يرعش ،حسان بن أسعد بن ملكيكَرب ، حسان ابن تبع الأقرن ،حسان بن ذي غَيمان ، حسان بن ذي الكِباش ، حسان ذو مرائد ، حسان بن ذي ثعلبان ، حسان بن الشعب ،حسان ذو الشَعْبَين بن سهل بن زيد بن عمرو بن قَيس بن معاوية بن جُشَم ، حسان ذو ثابت بن زياد بن حسان ذا الشَعْبَين ، حسّان بن عمرو تبع، حسان بن زُرعة بن عمرو بن تبع .

الأخاضر:

جماعة كانوا يسكنون في قرية عفينة من معشار تعز منهم ابو السمو العلا بن عبد الله بن محمد العلاء الحميري[1] الأخاضر من مذحج يسكنون الحجبور من أبين[2].

الأخانس(3):

أخنس بن كبر ال ، أخنس بن الحارث بن ذي أصبح ،أخنس بن حجر بن يريم ذي رعين أخنس بن حجر بن معدي كرب يمجد ، الاخنس بن زيد بن عوف.

الأداهم : من السبيع[3]

الأزارق : عزلة من ناحية السَبْرة من أعمال ذي السفال

الأسالم: قرية من العزلة من مخلاف بعدان وأعمال إب

الأزاهرة : قرية كبيرة في سراة غامد جنوب شرق بلجرشي[4]

الأشارح (3):

إلي شرح يحضُب بن الصوّار ، إلي شرح بن شَرَحبيل جد بلقيس ، و يقال ، شرح ، ذو شرح بن كرب شمَّر يُرعش أبو تبع الاخنق ، إلي شرح بن مالك بن سَعد بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زُرعة ، إلي شرح بن يحضُب بن دهمان ،إلي شرِح شَرَحْبِيل بن يريم بن سفيان ذي حرث ، شرح ال بن يُعفر ذي يَهَر ،إلي شرح بن بريل الذي يختلف نُسّاب حِمْيَرَ في نسب بلقيس إليه وإلى شرحبيل بن الرائش.

الاشاعر : وهم بنو الاشعر بن أدَد بن يشْجُب بن عريب ابن زيد بن كَهلان بن سبأ، وديارهم من بني مجيد (المخاء ونواحيه) إلى زَبيد فشمالا إلى حدود وادي رِمَع ومن رجال هذه القبيلة الصحابي الجليل أبوموسى الاشعري رضي الله عنه.

الأشاعيب من قبائل زهران[5]. **الأشاهبة :** عزلة من المقاطرة من ناحية الحجرية وأعمال تعز [6].

الأشاقر : من بطون الأزد[7]

الاصابح (1) :

من قبائل حمير وهم عشيرة الإمام مالك بن أنس الاصبحي إمام دار الهجرة رحمه الله . أصبح بن زيد بن قيس بن صيفي ، ذو اصبح بن مالك بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سَدد ..هذا نسبه إلى سدد ،و نسب إلى صيفي ذو اصبح بن مالك بن زيد بن قيس بن صيفي .

قلت والأصابح : قبيلة معروفة في ناحية الحجرية من أعمال تعز تحمل هذا الاسم إلى اليوم ومنها الصبيحة التي تمتد غرب جنوب لحج

أصبح بن عمرو بن ذي أصبح سكن أبين و السَرْو ، مصبح ابن عمرو بن ذي أصبح ، مضحا

---

(1) السلوك للجندي جـ2
(2) صفة جزيرة العرب ص190
(3) صفر جزيرة العرب ص
(4) في بلاد غامد وزهران 48

(5) في بلاد غامد وزهران 4
(6) صارت مديرية المقاطرة من اعمال لحج
(7) الأكليل 2/ 412

بن الاخنس بن الحارث بن اصبح ابن زيد بن قيس بن صَيْفي بن زُرعة ،أصبح بن الرحبة.

الأضاعنه : قرية في أعلى وادي دوقة بتهامة زهران[1]

الاطاولة : بلدة كبيرة في سراه زهران[2]

الاعارب[3]:

عريب بن فَهْد ، عريب بن عبد كلال بن عريب ، عريب بن عبد كلال بن نصر ، عريب بن مَرْثِد بن يَريم بن دود ، عريب بن أسلم ابن يكرب بن كَرْكَر ، عريب ذي نواس الأكبر بن قطن بن عمرو بن أسعد .

الأغابرة :عزلة من ناحية حيفان من قضاء الحُجَرية (المعافر) من أعمال تعز .

الأغالس[4]:

غلس بن شعر ، أغلس بن ذي جَدَن ، غلس ذو حزفر ، غلس بن مرثد بن شمر تارن الرُّعيني ، غلس ينوف بن عمرو بن يُعفر بن عمرو ، غلاس بن السحول .

الافارع [5]

فارع بن لهماذ ،أفرع بن الهَمَيْسِع ، ذو يُفرع بن نَوفان ، ذو فارع بن كَرِب ، ال ذي يُفرع ، ذو مفرع بن زرعة ، أفرع ينهب بن منياف ، ذو أفرع بن زُرعة بن سبأ ، الفرع بن الغوث بن يُعفر، فرعان بن القفاعة بن عبد شمس ، إسماعيل ذو أفرع حديث العهد ، ولم يذكره أبو نصر .

الأفارع : بطن من بطون قضاعة

الأكاحله : عزلة بجوار الأحكوم في الشرق من شرجب من أعمال الحجرية ثم من تعز

الاكارب [6]:

كلكيكرب بن تبع الأقرن ، كرب إلّ أيفع بن أيمن بن الهَمَيْسِع ، كلكيكرب بن يامن بن حسان بن ذي غَيمان بن الأخنس ، ملكيكرب بالميم ابن تُبعْ الأكبر وهو أبو أسعد ملك يكرب ذي رمانح وغيره يقول ، ملكيكرب أبو أسعد ، ملكيكرب بن يامن و الثبت ما قال أبو نصر . ومن النساب من يقول :عميكرب بن ملكيكرب بن سبأ الأكبر ، عمكرب صاحب يشع[7] بلا ياء من همدان، وكرب بن أسعد ، كرب بن شَمْر يُرعش ، كرب بن تبع الاخنق . كرب ال بن نوفان ، يكرب بن كَرْكَرب، كرب بن نوف بن عريب بن ذي خليل ، كَريب بن نعاته ، معدي كرب ابن ذي معاهر ، معدي كرب بن شرحبيل بن يَنكف ، معدي كرب بن أسعد ، وكرب بن ود إل ، معدي كرب بن أبرهة بن الصباح ، كرب بن أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة ، معدي كرب بن زرعة بن ثمامة ابن الاسود ، معدي كرب بن عندس ، معدي كرب ذوغشيم بن الغوث ، ذو مكارب بن مَرْثِد ، كلكيكرب بن جويان بن أدهر بن رحبان بن أكرب أبن ثعلبان بن الغوث بن الهَمَيْسِع ، معدي كرب جودان .

الأكالــع [8]:

يزيد ذو الكلاع بن يعفر زيد بن النعمان بن شَهال بن وُحاظة ، يزيد ذو الكَلاع الأصغر بن ناكور ، ذو الكلاع رب حِمص ، كلع من هَمْدان

(1) في بلاد غامد وزهران ص43

(2) مجموع اليمن وقبائلها ص 74

(3) الإكليل 2/ 429

(4) الإكليل 2/ 412

(5) الإكليل 2/ 421

(6) الإكليل 2/ 413

(7) يشيع : قرية عامرة فوق انقاض يشيع التاريخية وبها قصر اثري ما تزال لجزاء منه قائمة وهي من بني صريم من حاشد

(8) الإكليل 2/ 426

الأكارم : من ناحية الحشا وأعمال الضالع.

الأكاليل[1] :

عبد كلال بن مقال ، عبد كلال عريب بن فهد ، عبد كلال الأصغر ابن نصر بن سهيل بن عريب بن عبد كُلال بن عدي بن مالك .

الأناعم [2]:

ينعم تاران أكلب بن الرايش، ياسر ينعم بن عمرو بن شعران أوتر بن ياسر ، يُنعم الأكبر يُنعم ينكف بن شعران أوتر ، ياسر ينعم بن عمرو بن يعفر بن عمرو ، يُعفر يُنعم بن الحارث بن شمر ذي الجناح الأكبر ، يزأن ينعم بن الحارث ابن شَمّر ذي الجناح الأكبر ، ياسر ينعم بن زرعة بن ذي أصبح ، ينعم تاران بن ذو رمانح بن الغوث بن لهيعة ، ويقال : يُنعم ويُهَنعِم ، يَنعم بن يُعفر ، يُنكف يُهنعم بن شنامر ، تاران ينعم بن نوف ، يُهشقِر كلها يُنعم ، وربما قيل فيها يُهَنعم فأما يهنعم لاسواه فابن شنامر .

الأناكف[3]:

ينكف بن شعران ، ينكف بن شمر ذي شمر ذي الجناح الأكبر ، ينكف بن عبد شمس ، ينكف بن زرعة بن ذي أصبح ، ينكف بن زرعة بن يُعفر ابن السَّمَيفع ، ينكف بن ذي سُخَيم ، ينكف بن قاول من آل ذي رُعين ، ينكف بن جيدان بن الحارث بن زيد بن يريم ذي رُعين، يعفر ينكف بن فهد ، يعرب ينكف بن جيدان بن لهيعة بن مُثَوّب ذي رُعين .

الأناوف[4] :

ينوف بن شرحبيل بن ينكف بن ذي الجناح الأكبر ، ذو تبع ينوف من همدان ، ذو تبع ينوف نوفان بن اتبع ، حَجر ذو ينوف بن عمرو بن ثور ناعط ، أنوف ذو همدان ، نوف بن يريم بن ذي مرع ، نوف ذو سفل ابن الصامخ، نوف بن همدان ، هؤلاء أناوف همدان .

يكنف ينوف بن شرحيبل شيبة الحمد . لحيعة ينوف بن الحارث ، ينوف بن عريب ، نوفان بن يُعفر ، نوف بن مر بن الحارث بن زيد ذو شقر ، نوف بن عريب ذو خليل ، نوف بن حجر بن يريم ذي رُعين ، مرثد آل ينِوف بن نفيل بن نوال بن السُّلَفَ ، ينأف مرثد إل بن شراحبيل ، نوف بن زيد بن عوف بن ينكف بن شعران أوتر.

الأياسر[5]:

ياسر بن أساس بن زرعة ذي مناخ ، ياسر ينعم بن عمرو ، ياسر ينعم بن زرعة

الأيامن[6]:

هامن بن أصبح بن يامن بن حسان بن ذي غيمان ، ذو يامن بن ذي ذرحان ، يامن بن غنم بن عمرو ذي أبين ، يامن بن الهَمَيْسع ، أيمن بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن ذي رُعين ، أيمن بن الهُمَيْسع.

* * *

يجمع اليمانيون ماجاء من الأسماء على وَزْن فَعيل على فِعْوَل وهو جمع تكسير ، ولا يجمع على هذا الوزن ماجاء صفة مثل مريض وعليل وسقيم وسليم ، واذا كان اسم جمع مثل حسيك فلا يجمع على حِسْوَك ، وهو مايقدم من حب للخيل أو البغال أو الحمير لتعتلفه .

---

(1) الإكليل 2/ 428

(2) الإكليل 2/ 418

(3) الإكليل 2/ 420

(4) الإكليل 2/ 418

(5) الإكليل 2/ 423

(6) الإكليل 2/ 323

وقد تتبعت ماجاء من الأسماء على هذا الوزن في حدود ما وصل إليه علمي وبلغت إليه معرفتي فأثبتها هنا ، وهي:

بَرِيد يجمع على بُرود ، وتبيع[1] على تبوع ، وثريد على ثرود ، وجِعير[2] على جِعْور ، وحبيل[3] على حبول ، وجَحِين على جِحْوَن ، وخريف[4] على خَرُوف ، وخمير[5] على خمور ، و زرير[6] على زَرُور ، وسرير على سرور ، وسريف[7] على سرُوف ، وشريم[8] على شَرْوَم ، وسبيل[9] على سبول و صفيف[10] على صفوف ، وصميل[11] على صموَل ، وطريق[12] على طرُوق ، وعريم[13] على عَرُوم ، وعسيب[14] على عسوَب ، وعصيد[15] على عصود ، وعطيف[16] على عطوف ، وقصيص[17] على قصوَص ، وكريف[18] على كرُوف ، ولبيس على لبُوس[19] ، ومطيط على[20] مطوط ، ونظير[21] على نظور ، ونفير[22] على نفور ، ونقيل على نقُول[23] ، وهريش على هرُوش[24] .

وجمعوا حديثا شميز الكلمة الفرنسية المحرفة عن القميص العربية إلى شمُوز .

كما استعملوا مفعَل بفتح أوله[25] المعتل العين أسماء لمواضع معروفة في اليمن وهي :

المَوْبَد: وادٍ في أسفل جبل سماره

مَوْتك : جبل عفار من كحلان تاج الدين

المَوْجَر: قرية في بني شيبة من أعمال الحجرية

مَوْخر : قرية في الشرغة العليا من وصاب السافل

المَوْرَح : قرية من عزلة سودان من خبان من

---

(1) العِجْل .

(2) العجلة المستطيلة التي تعلق على شفا البئر ليسحب عليها الحبل المعلق به الدلو لا متياح الماء من البئر .

(3) الحبيل : الربوة الممتدة بانحناء

(4) الخريف : الفاكهة التي تأتي ثمارها في فصل الخريف

(5) الخمير نوع من انواع الكعك

(6) الزرير : أشجار الورد ، أو الأثل التي تستنبت في أطراف الجربة (الجريب).

(7) السريف : الزرع المحصود.

(8) الشريم : المنجل.

(9) السبيل : السقاية ،و السبيل : المكان الذي يأوي إليه ابن السبيل و هم الفقراء الذين لا يملكون أجر المبيت في السمرة(الخان).

(10) الصفيف : الرف .

(11) العصا الغليظة .

(12) لهذا الاسم في العربية جمع آخر وهو طُرَق .

(13) العريم : طرف الجريب وحماها

(14) العسيب : غمد الخنجر الخاص استعماله عند القبائل

(15) العصيدة: معروفة.

(16) العطيف : الفأس.

(17) القصيص : القدر المصنوع من الفخّار

(18) الكريف : البركة المحفورة في التراب أو المنحوتة في الصخر تجتمع إليها مياه الأمطار . وقد تمحل الأب انستاس الكرملي في التعريف بأصل الكلمة فقال في تعليقة على كتاب (بلوغ المرام في شرح مسك الختام) للقاضي حسين العرشي المتوفي سنة 1329م صفحة (433) :(أنها من اليونانية KRYPTE أو اللاتينية CRPTA وادعى انها جاءت إلى اليمن عن طريق اللغة الحبشية إذ لا أصل لمادتها في العربية . ولما دعاني الدكتور طه حسين لحضور الحفل الختامي لاجتماع أعضاء مجمع اللغة العربية سنة 1384 سألته. أثناء حديث متشعب في الأدب و اللغة .عن رأي الأب انستاس الكرملي في تفسيره لهذه الكلمة وترجيحه أنها من أصل غير عربي. ثم سألته عن كلمات يمانية أخرى مثل الفرسك (الخوخ) و البلس (التين) و البرقوق (المشمش) .وأن الكرملي ذكر أنها من أصل يوناني ، فأجاب بأن الكرملي كان يتعمد أن يسلب العرب جميع محاسنهم وينسبها إلى غيرهم من اليونانيين و غيرهم .).

(19) اللسيس: الحب المغلي

(20) المطيط : حساء الشعير المخلوط باللبن الرائب

(21) النظير : وثيقة استلام الزكاة من الفلاح

(22) النفير : البوق المعروف في اليمن بالبورزان

(23) النقيل : الثنية

(24) الهريش : ثريد البر.

(25) القاعدة الصرفية أن الاسم إذا كان معتل العين أن يكون عينه مكسورة.

أعمال يريم

مَوْرَق : موضع، المنزل السادس لحاج عدن (معجم البلدان)

مَوْزَع : مدينة في قضاء المخاء من أعمال لواء تعز.

مَوْزَع: قرية في مخلاف جعر من وصاب العالي.

ومَوْزع : في بني سيف العالي و فيها المسامرة، فيها سد ومكتوب عليها كتابات حميرية

مَوْسَد: قرية من عزلة يحير من خبان

مَوْشح : بلدة في المخاء، ومنها الشاعر المشهور عبد الله المزاح كان موجوداً في العصر الرسولي.

موشبح اكبر قرية في دثينة، وهي مدينة لبني كتيف[1]

المَوْشَق : الثقب الضيق في البناء يستعمل لإطلاق الرصاص منه على عدو أو مغير، ومَوْشَق : محلة من عزلة بني الحيس من وصاب العالي.

مَوْشك : جبل في مغرب عنس من أعمال ذمار.

مَوْصَر : قرية في عزلة يحير من خبان.

مَوْضح : ذكره الهمداني في مخلاف مأرب في صفة جزيرة العرب

المَوْضع : قرية في بني قيس من أعمال خبان، والموضع : أيضا الجريب من الأرض يضاف إلى الاسم فيقال موضع كذا.

مَوْغر : قرية في مخلاف بني خالد من آنس

موفَجة : بلدة من نجران

- الموقر من خولان بن عمرو[2]، والموقَر من حصون المخلافة من بلاد حجة والموقَر قرية في حارنة وادي زبيد في الشمال الشرقي.

موكف : قرية في سافلة العدين و أعالي نخلة[3]

مَوْكَل : قرية في مخلاف صباح من أعمال رداع

مومج : بلد من أعمال ماوية من أعمال تعز.

مومر : عزلة بني مومر من ناحية مسور من حجة.

بني موهب : عزلة من ناحية كحلان من أعمال حجة . ومَوْهَبة حصن من أعمال صنعاء كما ذكر ياقوت وقال وهي الآن في يد ابن الهرش[4]

***

ويستعمل من هذا الوزن أسماء لمحلات غير معتلة الفاء مثل مَدْوَل عزلة من صعفان من حراز و مسور وهو وادٍ في خولان العالية، وجبل في نواحي حجة، ومَسوَح : قرية من مخلاف الشوافي من أعمال إب، ومَنْوَح، ومَنْوَر، كلاهما في السحول من أعمال إب، والمَهْجَم : بلدة خاربة في وادي سردد، ومَتْوَح، مركز ناحية صعفان من أعمال حراز.

ويقال للشخص البليد الذي لا يرتدع بالضرب مَوْدَل، وسموا السيارة موتر من الاسم الانكليزي /الاجنبي (مُوْتُر).

* * *

يستعمل أهل اليمن صيغا للمصدر على وزن تفعَّال للتدليل بها على حالات غير ثابتة.

1. التِبْجَاج : المُفَاخرة
2. التِبْخْتار : من تبختر
3. التِبْدّاع : من البِدْعة وهو قيام الشخص ببعض الأعمال المستَهْجَنة أو ظهوره بشكل يدعو إلى السخرية
4. التِبْرّاش : التَحَرُش
5. التِبْنّان : أكل أطايب الطعام في الحفلات

(1) صفه جزيرة العرب صـ242ـ

(2) الإكليل 2/44

(3) صفة جزيرة العرب صـ189ـ

(4) معجم البلدان جـ 5

والمناسبات ، ويقال في غير تلك الحالتين حينما يرفه المرء على نفسه ويمكنها مما تشتهي .

6. التَّبغسَاس: اللجوء إلى وسائل لتحايل الحقيرة للحصول على المراد .

7. التَّجعَّار : التَّمرُّغ في التراب ،و لا يستعمل إلاَّ للخيل ، والبغال ،والحمير، حينما تعرك جلدها على التراب ،ويسمى المكان المخصص للتبرع المجعارة كما كان الحال في مدينة إب بالقرب من باب النصر في الطريق إلى بعدان ، والمجعار : الحجر الذي يؤخذ للرجم به .

8. التَّجنَّان : النزوع إلى الأعمال التي تشبه أعمال المجانين

9. التَّجوَّار : الجوار ، ويقال في حال التجاء شخص إلى شخص آخر ليحميه من شر شخص يريد إيذائه

10. التَّجوَّاز : الزواج ولكنها تطلق على الموافقة على رأي صحيح من قبيل المجاملة فقط

11. التَّجوَّال : من الجولان أو انْتَجْوَل

12. التَّحتَّام : التَّوعُّد بفعل الشر

13. التَّحجَّاج : الاحتجاج

14. التَّحجَاي : منع وصدَّ وصول الخير إلى مستحقيه، وقد يقصد بها الحيلولة دون وقوع الضرر بأحد وفي دعاء العامة (حاجا عليك) أي دفع الله عنك الشر

15. التَّحرَّاش : التَّحَرُّش و هو التعرض لشخص بما يغضبه للمشاكسة

16. التَّحسَّاس : تلمس الشيء ببعض الحواس الخمس.

17. التَّحكَّام : الاحتكام ويقال : حَكِّم نفسك أي كن حَكَما على نفسك وأعرف الحق على نفسك ، واحتكم في بقعتك أي الزم مكانك و لا شأن لك بأمور غيرك

18. تحلبَاط : من حلبط إذا تعوق المرء عن فعل ما يريد عمله ، وربما آن أصلها من حبط مثل قولة تعالى (حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) أي بطلت

19. التَّحمَّام : الاستحمام .

20. التَّحنتَّار : تستعمل أكثر في الطفل إذا لم تتحقق له رغباته فيشيح بوجهه عابسا حنقا.

21. تخبَّاط : تَخبَّط خَبط عشوا.

22. تخطَّاط : من الخطَّاط ، وهو بقاء الجنود في بيوت الفلاحين يأكلون ويشربون بأمر من الدولة حتى يستجيبوا لما تطلبه منهم ، أو من الخُطط وهو نقش يدي المرأة ورجليها بالخضاب .

23. التَّخلاَّف : التَخَلَّف عن الحضور الإلزامي .

24. التُّخمَّار : و الكلمة من صنعاء ، وسعناها تكشير الوجه و المحاكاة في الكلام على جهة السخرية.

25. التَّذرَّاب : المشاكسة وقد تقدم المعنى في التحراش.

26. ترتَّاح : المشي البطيء يصحبه توقف ما بين لحظة واخرى .

27. ترجَّال : الإكثار من المساومة عند الشراء ،و الكلمة مأخوذة من الرجولة وكأن من الرجولة أن لا يغبن المرء عند الشراء.

28. ترحَّال : قطع المسافة الطويلة عند السفر على مراحل متعددة

29. ترقَّاد : الإكثار من الرُّقاد.

30. ترنَّاح : من تَرَنَّح إذا مال نحو السقوط.

31. التَّزنداق : من الزندقة

32. تزنقَّال : التحرك بنشاط ومرح و الكلمة من صنعاء

33. تسمَّاط : لف الصماطة [1] على الرأس

34. تسمَّاع : استراق السمع

(1) الصماطة : قطعة من الحرير مربعة الشكل لها خرج في أطرافها كانت تستعمل غطاء للراس

35. تسهّان أو تسهنّان من السُّهنة، وهي توقع الحصول على شيء ما ، والانتظار لما هو مألوف و معتاد
36. تسلاّف : الاستلاف و الاقتراض .
37. تسوّاق : الإكثار من الذهاب إلى السوق للبيع و الشراء.
38. تشطاف : عمل الشيء بحذر .
39. تشفاّع : من الشّفاعة.
40. تشمّات : من الشّماتة وهي الظهور بمظهر غير لائق فيشمت بالشخص
41. تشمّام : من الشّم.
42. تشهجان : التهيّؤ للبكاء .
43. تشهنّاج : هو في معنى تشهجان .
44. تشيّخاط : التحدث بكلام يختلف عن أسلوب كلام صاحبه المعتاد
45. تصرّاب: الذهاب إلى الحقل وقت الحصاد للحصول على ما يجود به الفلاح .
46. تصنّاع : محاولة المرء أن يتخلق بغير أخلاقه .
47. تعتّاق : تناول المريض مقادير يسيرة من الطعام بمشقة للإبقاء على الحياة .
48. تعثّار : الوقوع في العثرة .
49. تعذّار : محاولة تبرير الخطأ بأعذار غير مقنعة .
50. تعرّاض: الذهاب لقضاء الحاجة ، وكان الطفل في المكتب ،على عهدنا، يقبض أصابع يده اليمنى ولا يرفع منها إلا الخنصر أمام المعلم، فيأذن له بالخروج من الفصل لقضاء الحاجة أو لشرب الماء، فيهز له المعلم رأسه علامة الموافقة أو يسكت علامة الرفض والتعراض تدخل المرء فيما لا يعنيه .
51. تعزّاب : من التعزبة وهي اجتماع الاخلاء و الأصحاب على الطعام يشتركون جميعا على حد سواء..
52. تعزّار : الظهور بملبس قبيح ويقال : فلان عزّره إذا كان مظهره قبيحا . وهي من التعزير .
53. تغسّال : الاغتسال
54. تعلاّم : من التعلم .
55. تعمّام : لف العمامة على الرأس.
56. تغرّاب : الإكثار من الغربة .
57. تغصّاب : الأكل باكراه من دون شهية.
58. تفزّاج : تشقق الجلد لا شتداد البرد في المناخ الجاف
59. تفزاّج : الثوب اذا خرج منه خيوط أما من سداه واما من لحمته
60. تفسّار : كثرة التفكر إطالته كأنه يستفسر عن شيء .
61. تفسّال : من الفسالة أي السفالة ،و المعنى عدم المروءة .
62. تفنّان : الأخذ بأحسن الامور في المطعم و الملبس ، مشتقة من الفن .
63. تفهّان : الميل إلى الراحة الجسمية وعدم أخذ النفس بالشدة .
64. تقطّاع : قطع الطريق .
65. تقعّام : التثاؤب.
66. تقلاّب : كثرة تحرك الجسم وقت النوم ويقولون : أرقد من التقلاّب : لمنع الشخص من الكلام .
67. تقلاّش : التزين بأجمل الثياب .
68. التّقوّال :القول بغير الحقيقة
69. تقوحّاز : من القوحزة ، وهي نوع من الجلوس
70. تكعّدال : التّدحرج إلى أسفل .
71. تكلاّم : السب و الشتم .
72. تكلدّاف : كثرة العثار بالقدم أو القدمين.
73. تكيّاس : لبس كيس النوم ، والتّكيّاس:

دهك الجسم عند الاستحمام بكيس اليد المصنوع من الصوف .

74.تِلْخَاج : هي في معنى تِجْمار رقم (25) وأكثر ما تستعمل في ذمار و يريم ونواحيها.

75.التِّلْفَات : التلفت .

76.تِلْقَاف : التلقف لما يأتي من العطاء

77.تِلْوَاه: التنبه و الفهم لما يقال من كلام غير مقصود

78.تِلْوَاي : التَسَكُّع.

79.تِلْبَاج : كثرة السعي للبحث عن حل للمشكلة.

80.تِلْحَاف : وضع اللحفة وهي الرداء على الكتف

81.تِمْدَاد : الاستلقاء للراحة.

82.تمزاز : خروج الشيء من اليد بصعوبة كالمال مثلا. يقال : لمن يذهب لقضاة الحاجة فلا يخرج منه الأذى إلا متقطعاً بصعوبة وعسر ، ويقال : لماهو أعم من ذلك .

83.تِمِسْجاع : التباطؤ في العمل

84.تِمِشْخَاط : هو في معنى تِشِيخاط و قد تقدم

85.تِمِشْقَار : من المشقُر و هو باقة من الريحان، أو من الورد، توضع على العمامة

86.تِمِغْسَاس : جس النبض .

87.تِمِقّاي : التثاؤب مع رفع اليدين في اتجاهين متضادين .

88.تِمِلّاق : من الملق .

89.تِمِهّان : من المهانة و المذلة .

90.تِنِبّاط : عمل الشيء بحذر

91.تِنِعّام : الحياة الرغيدة من النعمة .

92.تِنِقّال : الانتقال في السكن من مكان إلى آخر .

93.تِنِهّاد : كثرة التنهد و هي الحسرة و الالم.

94.تِبِبّاع : الجري مع القفز إلى أعلى

95.تِتِوّاط :أخذ الشيء بطرف اليدين لارتفاعه.

96.تِوِخّاي : ترقب الشيء بحذر .

97.تِوِسّاد : استعمال الوسادة عند النوم

98.تِوِطّاف : توقي مسك الإناء الحار بواسطة قطعة من قماش ويسمى الموطفة و الوطاف : البردعة. (الوطاف) ويوصف الشخص الذي يستخدم من قبل شخص آخر بالموطفة .

99.تِوِسّاق : أخذ الشيء المرتفع بمشقة .

100. تِوِسّال : إدخار ما زاد عن الحاجة لوقت الحاجة، والتوسّال : التوسط بالصديق لتذليل الصعوبة عند أولي الأمر والوسيلة : الاحتياط

101. تِوِشّار : صب الماء الساخن بالتدريج، وعند الحاجة، على العصيدة ، و الهريشة حتى تنضج.

102. تِوِطّاي : الانحناء، و قد يراد به التّواضع .

103. تِوِغّان : الحصول على الشيء اليسير بمشقة و الكلمة من بني سيف العالي.

104. تِوِكّاف : التربص بالشخص في الشارع أو في باب بيته لإيذائه.

105. تِوِكّال : من الوكالة .

106. التّوكّاي :الاتكاء على العصا أو الحائط عند المشي

107. تِوِنّاط: اكثار الطفل من الشكوى المبهمة.

***

ويقولون في (أصاب) وهيَ ناحية مِنْ نواحي اليمن (وصاب) و في أحاظة ، وحاظة ، وفي أرخ الكاتب الرسالة ورخ ، وفي أثر : وثر ، وأكد ووكد ، وأقت :ووقت كما يقول عامة الناس في ذمار وصنعاء ويريم ونواحيها في أذن المؤذن

، وذن المؤذن و الجميع فصيح في الاستعمال فقد جاء في كتاب خلق الانسان في اللغة لأبي محمد الحسن بن احمد بن عبد الرحمن قوله ((وكل واو انضمت وكانت ضمتها مبنية جاز أن أن تبدل همزة كقولهم أخوة وو خوة وأقت ووقت))

***

تشتهر نواحي تعز سيما ناحيتي مَقْبَنَة وشَرْعَبْ باستعمال فَعَيْلَة صيغة للنسبة إلى القبيلة أو العشيرة أو القرية أو العزلة (1) أو إلى الناحية فيقال مثلا لآل البريهي : بريهة ، وآل زيد بن حسن زُبَيْدة ، وآل الحميدي حَمَيْدة ، وآل الزبيري زبيرة ،وقد تستعمل هذه الصيغة في غير نواحي تعز على قلة كما سيأتي ذكر ذلك .

1. بَدْيْجَة : قرية في عزلة الشمايتين من الحجرية من أعمال لواء تعز ، و عزلة من الوازعية من الحجرية أيضا.
2. بريحة : نسبة إلى قرية البرح وقيل إلى قرية البريح في عزلة الوريف من ناحية مقبنة من أعمال لواء تعز
3. بُرَيهَة : عزلة في جبل حبشي (ذخر) من أعمال لواء تعز. والبريهة :في ناحية خدير من أعمال تعز
4. بَشَيْرَة : قرية في ناحية شرعب من أعمال لواء تعز
5. بَطَيْنَة : نسبة إلى قرية البَطْن من عزلة البَرَيْخ ، وإلى قبيل يسكنون الدروب من لحج[1].
6. بَلَيْعَة : نسبة إلى قرية البَلَيْعَة من عزلة الملاحظة في مخلاف شمير من ناحية مقبنة .
7. تَبَيْنَة : نسبة إلى قرية من مخلاف الضربيات من مقبنة .
8. نَوَيْهَة : نسبة إلى عزلة من جبل حبشي .
9. جَبَيْلَة ، نسبة إلى قرية من عزلة الأقحوز من مخلاف شمير ، والجَبَيْلَة نسبة إلى الجبالي من ناحية السلام من أعمال تعز ، والجبَيْلة في جبل حبشي .
10. الجَحَيْلَة : من القبيطة م. تعز[2]
11. الجَدَيْلَة : من بني شيبة م. تعز
12. الجعيدة : من المقاطرة
13. جَلَيْحة : نسبة إلى عزلة في اليوسفين من مديرية القبيطة من لحج.
14. جليلة : نسبة إلى بلدة في ناحية المقاطرة من أعمال تعز[3]
15. جَوَيْحة : نسبة إلى قرية الاجوح من مقبنة.
16. حَبَيْبَة : نسبة إلى عزلة من مخلاف الضربيات
17. حَجَيْرة : نسبة إلى قرية الحجرة من المويجر من مقبنة
18. حَجَيْلَة : نسبة إلى فخذ من آل سلام من لحج [4]و الحجيلة : قرية من قرى القحرى من أعمال باجل محافظة الحديدة .
19. الحَرَيْبة :واد من المواسط في الحجرية من أعمال تعز .
20. حسَيْنَة : نسبة إلى قرية في عزلة جاحر من أعمال مقبنة ، وتقع تحت قرية الرمادة ، غرب تعز ، والحسينة : فخذ من آل سلام من لحج[5]
21. الحَطَيْمَة : من قيفة ، وهم من أصحاب المشايخ آل جرعون
22. حصَيلة : من المواسط من قدس.
23. حَقَلْيه : نسبة إلى قرية الحُقَيل من عزلة الملاحظة من مقبنة
24. الحَمَيْدَة : نسبة إلى عزلة في ناحية معبق

---

(1) العزلة : مجموعة قرى متقاربة تشكل وحدة إقليمية

(2) صارت القبيطة من أعمال محافظة لحج الإكليل
(3) صارت المقاطرة من أعمال محافظة لحج الإكليل
(4) هدية الزمن 41
(5) هدية الزمن 41.

من أعمال الحجرية ، و والخَمْيَدَة : قرية من قرى ثات من عرش رداع يسكنها آل الحُمَيْدي و بجوارها من جهة الشمال خرائب ثات الأثرية .

25. حَنْيْكَة : نسبة إلى قرية الحنكة من عزلة المُوشيْجر من مقبنة

26. الحَوَيْجَة : قبيل يسكنون قرية الشظيف من قرى لحج[1]

27. خَيْسَة : نسبة إلى قرية الخَيْسا من عزلة المويجر من مقبنة م.تعز

28. حَيْمَة : قرية من مخلاف الضربيات

29. خَرْبَة : قرية في ماوية من أعمال تعز.

30. خزَيجة : قرية من مقبنة م.تعز .

31. الخَزْيعة : من الجندية العليا م .تعز ، و الخزيعة قرية في خدير السلمي م .تعز

32. خَسْيلة : من مقبنة .

33. خَشْيلة : نسبة إلى قرية في عزلة الأقحوز من مخلاف شمير .

34. الخَمْيرة : من الوازعية م. تعز

35. دَبْيْجة : نسبة إلى قرية من عزلة الأقحوز.

36. دَبْيْعَة : نسبة إلى عزلة دبع من الشامتين من الحجرية .

37. دَعْيرة : قرية من مخلاف عنس السلامة من أعمال ذمار.

38. دَوْيدة : نسبة إلى قبيلة آل دويد من مقبنة

39. دَيْمَة : نسبة إلى قرية من مخلاف الضربيات من مقبنة .

40. الرَّجْيمَة : قرية في الأعروق من ناحية حيفان م.تعز .

41. امرَجْيعَة : نسبة إلى قوم من الأصابح يسكنون قرية أمْرُجَاع[2]

42. الرَّدْيبة : من الوازعية

43. رَعْينة : نسبة إلى عزلة الرعينة وهم من بني الرعيني في ناحية شرعب م.تعز

44. رَكيْبة : نسبة إلى قرية ركاب من عزلة الملاحظة .

45. الزهيطَة: من الوازعية م.تعز

46. زَبيرة : نسبة إلى قرية في عزلة قدس من الحجرية يسكنها آل الزبيري ، وزَبْيْرَة : قبيل يسكنون في الوهط من أعمال لحج وقبيل يسكنون الفيوش من قرى لحج (2

47. زَرَيقة : عزلة من المقاطرة ، و بها حصن يقال له : حصن مُنيف و هي زريقَة الشام و زريقَة اليمن

48. زَعْيمَة : عزلة من المقاطرة و الزَّعْيمَة من الزعازع

49. زَعْينة : عزلة في ناحية شرعب .

50. زَيْدَة : نسبة إلى قبيلة زيد حسن وقريتهم المويجر من عزلة الملاحظة.

51. سَبْيئة : نسبة إلى بني سبأ ، وهي عزلة من ناحية السلام من أعمال تعز .

52. سَرْيوة : نسبة إلى بطن بني سري من شرعب

53. سَعْيدَة : نسبة إلى قرية في عزلة الملاحظة.

54. سَمْيعة : نسبة إلى عزلة في قضاء القماعرة وتقع بجوار الجند ، والسَّمَيْعة : نسبة إلى بني سميع من شرعب .

55. أمْشَخيرة :جماعة يسكنون أمعليبة من قرى لحج[3].

56. شَرَيفَة : نسبة إلى الشريف من ناحية السلام (م . تعز).

57. شَرْيمَة : نسبة إلى قرية من عزلة الأقحوز من مخلاف شمير .

(1) هدية الزمن 14.
(2) هدية الزمن 15.

(3) هدية الزمن 15.

58.شَعْبَيَة ، نسبة إلى قرية الأشعوب من الملاحظة ، وشعيبة ، عزلة من ناحية السلام نسبة إلى بني شعيب وهي الآن مركز الناحية .

59.الشَّقَيمَةَ : قرية في همدان صعدة ..

60.شَوْيْفَة : نسبة إلى عزلة من خدير .

61.صَبِيْحَة : مقاطعة من مخلاف لحج .

62.صَرَيْمَة : نسبة إلى الأصروم من أعمال مذيخرة .

63.صَغَيْرَة : نسبة إلى قرية وعزلة من مخلاف الضَّرَيبَات ، وتقع فوق البرح وهي مشهورة بإنتاج الجبن .

64.طَوَيْرة : نسبة إلى عزلة من مخلاف الضريبات

65.ظَرَيْفَة : نسبة إلى عزلة في الوازعية .

66.عبيدة : نسبة إلى قرية من عزلة المجاعشة من مقبنة و العَبِّيدَة: قبيل من لحج[1]

67.عَتَيْمَة : نسبة إلى قرية من ناحية التعزية.

68.عَدَينَة : نسبة إلى العُدين .

69. عَرْينة: قرية من عزلة عجيب من مخلاف عمار و أعمال النادرة.

70.عَزَيْبَة : قبيل يسكنون قرية الوعرة من قرى لحج[2].

71.عَسَيرة : من قدس من المواسط .

72.عَصَيدة : من قدس من المواسط .

73.عَسَيْلَة : نسبة إلى عزلة من ناحية شرعب.

74.عَفَيْرَة : نسبة إلى عزلة من مخلاف الضريبات من مقبنة ، والعفيرة عزلة في جبل حبشي.

75.عقيرة : نسبة إلى قرية في شرعب والعَقَيْرة : قرية في عزلة حبير من أعمال ذي السفال.

76.امقَلَيبة: نسبة إلى قرية من قرى لحج[3]

77.عَيَيْسَة : نسبة إلى قبيلة ابن عيسى من المويجر .

78.غَبَيْشَة : نسبة إلى قرية من الأقحوز من مخلاف شمير.

79. الغرَيبة : قرية في ثوب أسفل من مخلاف الشوافي و أعمال إب

80.غَرَيرة : قرية من مخلاف قيفة من بلاد رداع انتقل بعض سكان قيفة إليها وإلى قرية هيوة وقرية زرار فصارت تابعة لقيفة مع أنها في أطراف خبان

81. غَلَيْبَة : قرية في الأعبوس من مديرية حيفان من الحجرية من أعمال م.تعز

82.غَوَيْرة : قرية في بني شيبة من الحجرية .

83.الفتيحة : من عزلة الأنبوه من المعافر م. تعز

84. فَرَيْصَة : قرية في بني صلاح في عزلة الخياشن من مخلاف الضريبات ،وتقع فوق وادي رسيان

85.فَكَيْكيَة : قرية في عزلة حمير من مخلاف الضريبات

86.قَبَيْرَة: نسبة إلى قرية قَبَيْر من ناحية شرعب.

87.القَبَيْطَةَ : ناحية من الحجرية ومركزها حيفان *.

88.قَحَيْزة : قرية من عزلة المجاعشة من مقبنة .

89.قَحَيفَة: بلدة من مخلاف الضريبات من مقبنة ؛ والقحيفة من المواسط من قدس

90.قَحَيْمَة : قرية من مخلاف شمير.

91.كَدَيْحَة : من المخا و الكَدَيْحَة من

---

(1) هدية الزمن 12.

(2) هدية الزمن 12.

(3) هدية الزمن 14.

* صارت القبيطة مديرية من أعمال محافظة لحج مركزها ثوجان.

مقبنة.

92.قُرَيْرة : نسبة إلى قرية تعرف من المويجر.

93.قُرَيْشَة : من الشمايتين من الحجرية و القريشة : من قبائل قيفة من بلاد رداع

94.القَرَيْفَة : قبيل من قبائل لحج[1] يسكنون الدرب .

95.كُرَيْشَة : نسبة إلى كريشان من ناحية السلام.

96.كُرَيْفَة: نسبة إلى الأكروف من ناحية مذيخرة .م.إب ، و كُرَيْفَة : من المواسط من قدس .م. تعز

97.الكنينة: قرية من الشعوبة مديرية المعافر محافظة تعز .

98.كُوَيْحَة : قرية في عزلة حمير من أعمال مقبنة تعز .

99.كُوَيْرَة : من عزلة القماعرة من مخلاف الضربيات ،و قرية من الشمايتين.

100. مَجَيْدَة : نسبة إلى الأمجود من ناحية السلام.

101. مجَينة : من قدس المواسط .تعز.

102. المَطيْرة : من عيال عفير من قبائل نهم م.صنعاء.

103. مكيشة: قدس المواسط .تعز .

104. مَوَيْجَة : نسبة إلى قرية الموج من الملاحظة مقبنة .م.تعز

105. النُجَيشَةَ : عزلة من المقاطرة .م.لحج

106. النُخَيلة : نسبة إلى سائلة من روافد وادي لحج [2] والنُخَيْلة :نسبة إلى وادي نَخْلَة من العدين م.إب

(1) هدية الزمن 12.

(2) هدية الزمن 31.

107. النُفَيلة : قبيل يسكنون قرية طهرور[3] من لحج .

108. نُوَيرة : قرية من الشمايتين من الحجرية.

109. هقَيْفة : نسبة إلى قرية الهقيف ، ويسكنها بنو النهاري من الملاحظة .مقبنة .تعز

110. الهُوَيْدة : عزلة من مخلاف الضربيات. مقبنة.م.تعز

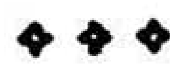
111. الهُوَيْشة : عزلة من المقاطرة .م.لحج

112. وحَيْشة : قرية من عزلة المجاعشة من مقبنة

113. وزَيفة : نسبة إلى عزلة الوريف من مخلاف شمير

114. وضَيحة : عزلة في شرعب .م.تعز

115. وَعَيْلَةَ : قرية من مخلاف شمير . مقبنة .تعز.



كان اليمانيون إلى عهد قريب يسمون العثمانيين الاروام أي الروم ، كما كانوا يسمون اليونانيين الوينانين ، ويقولون فلان يونن أي يفكر ، كما يقولون للرجل إذا كان صاحب حرفة وينن ، وذلك حينما يعطي حاجة لا صلاحها فيعتذر من عدم قدراته على ذلك ، أي أبذل جهدا في التفكير لإيجاد حل للمشكلة ، ولما كان فلاسفة اليونان أصحاب فكر وفلسفة فقد اشتق من اسم بلدهم مادة وَيَنَن أي فكر .

(3) هدية الزمن 14.

نقش مسندي جديد من منطقة الطّفة - وادي حرّير

د.فهمي علي الأغبري*

تم العثور على هذا النقش الجديد في خريف 2005م، ضمن أعمال البعثة الفرنسية للآثار في محافظة البيضاء ((2))، وتم تصوير النقش وقراءته بشكل كامل في يناير 2006م، وسيحمل النقش الجديد الرمز: حرّير 1.

وصف النقش

حفر النقش على الواجهة العليا لصخرة مرتفعة ضمن الجبل الصخري الذي يقع على الضفة اليمنى لوادي حرّير في مديرية الطّفة - محافظة البيضاء. يتكون النقش من ستة أسطر، ومقاساته 50 سم×85 سم، وارتفاع الحرف 6سم، وأمام النقش آثار لبقايا سد وقنوات شقت في الصخر، أكبرها تفاوتت في العرض بين4,20 سم في البداية، وتضيق في الوسط بعرض1,20سم، ثم تتسع في النهاية بعرض2,40 سم.

النص بحروف المسند:

1-وترم/يرتع/بن/معهر/وذخولن/قيل/ردمن/وخولن/بقر/وبر

1.2/وهقح/كل/حرت/ومبرأت/ونقبت/ومفلقت/وعلم/ماخذن/لو

3-في/سرهو/حررم/بعثتر/شرقن/وعم/ذمبرقم/بعل/سليم/ولممم/

4-وعم/ذريمتم/بعل/ظر/نوعن/ومكننت/هرن/وذت/ظهرن/و

5-شمسهمو/وبردا/وتحرج/مراهمو/عمدن/يهقبض/ملك/سبا/و

* أستاذ النقوش والآثار اليمنية القديمة المساعد، قسم الآثار-كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة صنعاء.

(2) تقوم البعثة الفرنسية للآثار بالتنقيب في موقع حصي/العقلة منذ عام 2002 وبالمسح الأثري في محافظة البيضاء منذ التسعينات من القرن الماضي برئاسة الأستاذ الدكتور كريستيان روبان بالاشتراك مع فريق فرنسي ويمني.

6.ذريدن/وباخيل/ومنشا/اشعب/يقلنن/بنو/معهر/وذخولن/

النص بالحروف العربية:

1.وت رم/ ي رت ع/ ب ن/م ع هـ ر/و ذ خ ول ن/ق ي ل/رد م ن/وخ ول ن/ب ق ر/وب ر

2.أ/وهـ ق ح/ك ل/ح رت/وم ب رأت/ون ق ب ت/وم ف ل ق ت/وع ل ل م/ م أخ ذ ن/ل و

3.ف ي/س ره و/ح ررم/ب ع ث ت ر/ش رق ن/وع م/ذم ب رق م/ب ع ل/س ل ي م/ول م م م/

4.وع م/ذ ر ي م ت م/ب ع ل/ظ ر/ن وع ن/و م ل ن ن ت/هـ ر ن/و ذ ت/ظ هـ ر ن/و

5.ش م س هـ م و/وب رد أ/وت ح رج/م رأ هـ م و/ع م د ن/ي هـ ق ب ض/م ل ك/س ب أ/و

6.ذ ري د ن/وب أخ ي ل/وم ن ش أ/ أ ش ع ب/ي ق ل ن ن/ب ن و/م ع هـ ر/وذ خ ول ن/

النص باللغة العربية:

1.وَتار يُرتَع من آل معاهر وذخولان قيل ردمان وخولان شق وبنى

2.وأنجز كل سواقي وبناء ونُقب وقنوات وتعلية السد التحويلي

3.لحماية واديه حريِّر بجاه عثتر الشارق وعم ذمبرقم سيد سليم ولممم

4.وعم ذريمتم سيد ظر نوعان ومصلَّى هران وذات ظهران و

5. شمسه ومساندة وسلطان سيده عمدان يهقبض ملك سبأ و

6.ذي ريدان وبقدرات وقوة شعوب يتولى (فيها) القياله بنومعاهر وذخولان

التعليقات اللغوية

س1: – وترم يرتع: اسم علم مركب وهو صاحب النقش ،ويقرأ الاسم الأول إما بفتح الواو أو بكسرها وتار أو وِتار، والاسم الثاني يقرأ أيضاً بفتح الياء، يَرْتع أو بضم الياء، يُرتع، وهي الصيغة المعهودة في أسماء الأعلام اليمنية القديمة (عبد الله 1988: 149).

س2: – مفلقت: اسم جمع وأعطاه المعجم السبئي معنى : (توزيع الماء ب) فتح السد. وأعتقد أن معنى اللفظة لم يتضح بعد، ربما بسبب قلة الشواهد النقشية، والمعنى الذي نقترحه مؤقتا هو قناة، ساقية محفورة في صخر الجبل وفقا إلى السياق واستناداً للمعنى العربي للكلمة واللهجة اليمنية. واحتمال أنها تعني ساقية توزيع المياه مثل المفرع الخاص بتوزيع مياه الغيول.

عللم: مصدر بمعنى تعلية ويقرأ عِلم مع طرح حرف العلة آخر الكلمة للترخيم والميم للتميم وهو من الجذر علي.

3- سرهو حررم : «واديه حررم» ويقرأ حرِيَّرْ وفق قواعد المسند التي تسقط حروف العلة من وسط الكلمات كتابة وتثبتها نطقا، والميم للتنوين في نهاية الاسم، كذلك لا يعني تكرار الحرف التعبير عن التضعيف أو التشديد المعروف في اللغة العربية، بالإضافة إلى ذلك فالوادي معروف إلي اليوم بنفس الاسم، وينطق كما أثبتناه حرّير،ويصب في وادي بناء كما أفادنا الأهالي .

4 – عم ذمبرقم بعل سليم ولممم[1] : عم من الآلهة الرئيسة المعبودة في مملكة قتبان وأيضا عبدها بنو معاهر وذو خولان بصفاته المختلفة. وتقتصر الصيغة أحيانا على «عم ذمبرقم» كما في نقشي (يمن 5)، (يمن 9). وأحيانا أخرى يوصف بأنه «بعل سليم ولممم» كما في نقشنا هذا، وأيضا في نقشي (يمن10)، (يمن11)، وليس لدينا –

(1) ربما تكون هذه أسماء معابد في المناطق التي عثر فيها على النقوش أو صفات للإله عم مأخوذة إما من أسماء الأماكن أو أسماء العائلات.

حالياً - تفسير لذلك خاصةً عندما تعود النقوش لشخص واحد (يمن 9)، (يمن 10).

5- عم ذريمتم بعل ظر نوعن ومكنت هرن : هنا أيضا صفة أخرى للإله عم وقد وردت أيضا في نقش (MAFRAY-ad-Diman) و (بافقيه- باطايع 4). وعبارة "بعل ظر نوعن" تعني أن الإله عم كان له معبد في مكان يدعى "صخرة نوعن" والذي لا نعرف مكان وجودها حتى الآن. وأما عبارة "مكنت هران" التي تعني مكان عبادة في هران الذي هو اسم قصر أمراء بني خولان في الهدو - حاليا الهديم (بافقيه-باطايع 10). وهران أيضا هو نفس اسم قصر بني معاهر في موقع المعسال - وعلان قديما (Ja 3،10-2/2867).

6- اشعب يقلنن : كما هو الحال في نقش المعسال (Ja 10/2867). وهذه الصيغة مكونة من الاسم (أشعب) وهو اسم جمع على وزن أفعول أي أشعوب، والفعل المضارع المعتل الوسط يقلنن الذي يقرأ (يقيلنن) مع إثبات الياء التي طرحت كتابة على اعتبار أنها تعامل في مثل هذا السياق كمد الكسر ، ولكنها لاتطرح عند القراءة، والنون الأولى هي نون المضارعة في اللهجة السبئية، والثانية تقابل نون التوكيد في اللغة العربية، والمعنى هو شعوب يتولى (فيها) القيالة .

التعليقات التاريخية:

تأتي أهمية النقش الذي بين يدينا من خلال وضعه في سياقه التاريخي، فهناك مجموعة من نقوش وترم يرتع عثر عليها في أماكن مختلفة من أراضي ردمان وخولان باستثناء نقش واحد من جبل اللوذ. وسوف نركز هنا على وتار يرتع الذي يفهم من نقوشه انه عاصر ثلاثة ملوك من ملوك سبأ وذي ريدان في محاولة لوضع كرونولوجية لوتار ومن ذكرهم من الملوك متلمسين في ذلك طريق النقوش ومستفيدا من هذا النقش الجديد مع مناقشة آراء من سبقنا من علمائنا الأجلاء في هذا الموضوع، واضعا في الاعتبار نصيحة أستاذينا المرحوم محمد عبد القادر بافقيه والأستاذ الدكتور كريستيان روبان التي مفادها : ((ضرورة التحرز عند مناقشة الأوضاع التاريخية وتجنب بناء الأحكام على أساس من سكوت النصوص المعروفة عن شيء ما استناد إلى ما يسمى بالدليل السلبي)) (بافقيه-روبان 1980: 15).

ويعد هذا أول نقش لوتار يرتع - يصل إلينا حتى الآن- يذكره أثناء استقلاله بحكم مقولة ردمان وخولان، تلك المقولة التي ربما اتُحدت في عهد جده معدي كرب يهمجد وابنه مخطرن أسأر والد وتار، والتي توافق المراحل الأولى من قيام نظام سبأ وذي ريدان في عهد أسرة كرب إيل وتار يهنعم (بافقيه 1994أ : 13). ويعني ذلك أن تأسيس مقولة ردمان وخولان كان في حدود عام 74 ميلادي إذا كان تاريخ حمير 110 قبل الميلاد، و 69 ميلادي على تاريخ 115 قبل الميلاد (Robin 1994: 107) أي أن هناك تزامن بين قيام حكم أسرة كرب إيل وتر يهنعم ودمجها الكيان السبئي والريداني في مملكة واحدة هي مملكة سبأ وذي ريدان وأسرة معدي كرب يهمجد ودمجها لبني معاهر وذي خولان في مقولة ردمان وخولان.

من هذا المنطلق يمكن القول بأنه ربما كانت هناك علاقة من نوع ما بين الأسرتين خاصة ونحن نعرف الموقع الاستراتيجي الوسطي الذي تشغله مقولة ردمان وخولان بين كل من سبأ وحمير وقتبان وحضرموت بعد سيطرتها على قتبان، ولذا أصبحت ساحة للصراع بين جميع تلك الأطراف. وبمعنى أدق ربما أن أسرة كرب إيل هي التي شجعت ودعمت أسرة معدي كرب على الانفصال عن قتبان وبالتالي قيام مقولة ردمان وخولان، وعلى الرغم من أن هذا هو احتمال إلا إنه يفسر لنا طبيعة العلاقة بينهما والتي اتسمت بالتبعية والولاء من أسرة معدي كرب لأسرة

كرب إيل طوال فترة حكمها وعندما اضطربت الأوضاع أواخر أيام تلك الأسرة وانتهى حكمها لسبأ وذي ريدان نجد أيضاً انتها، حكم اسرة معدي كرب لمقولة ردمان وخولان وظهور أسرة جديدة تحكم تلك المقولة هي أسرة عمدان يهحمد (بافقيه 1994ب، 50).

وبالنظر لنقوش هذا القيل المهم وتار يرتع نجدها تنقسم الي قسمين الأولى كتبها (نقشها) هو يخلد فيها أعماله ويثبت فيها ملكيته لمنشآت ري وأراضي زراعية، والأخرى لم يكتبها بنفسه وإنما ورد فيها اسمه إلى جانب شخصيات أخرى، وجميعها قدمت لنا معلومات مهمة ليس فقط عن محتواها (الغرض الذي كتبت من أجله) وإنما عن نظام تولي القيالة في أسرته، والذي يبدو أنه كان نظاماً وراثياً دقيقاً ، كشف عن التزام الأخوة به حتى بعد غياب مؤسسها. مع الأخذ بعين الاعتبار بأن ذلك لم يكن يسقط لقب القيل عن باقي الأخوة الذين لم يأت دورهم في تولي القيالة فابن القيل قيل ولو معنويا (Ja 2861، Ja 2862)، ويحق أن تكون له ممتلكات خاصة به في حياة أبيه أو أخوانه (YMN 14) و(MAFRAY-al-ǵadīd 2). والملاحظ من نقوش وتار يرتع جميعها أنها تخلو من ذكر اسم أبيه باستثناء النقشين (YMN 14) و(MAFRAY-al-ǵadīd 2) ولذا يمكن اعتبارهما من أوائل النقوش التي كتبها ربما في عهد معدي كرب يهمجد ومخطران أسأر مع احتمال ان يكون النقش الثاني كتب بعدهما مباشرة أي في عهد أخويه وهب إيل وهوف عم ، وقد قدم فيهما وتار اسم جده على اسم أبيه [1] وهكذا يكون قد قدم نفسه للمجتمع كابن للقيلين اللذين أسسا مقولة ردمان وخولان. وفي النقش الموسوم (MAFRAY-al-ǵadīd 2) نجد أول ذكر في نقوش وتار يرتع لملك من ملوك سبأ وذي ريدان – بل ربما أول ذكر لملك في نقوش تلك المقولة حتى الآن - ربما في نهاية عهد قيالة الأبوين إذ يفهم ذلك من خلال بداية إشراك الأخوين وهب إيل عمدان وهوف عم يزل، الذي وصفهما وتار صراحة بأنهما قيلي ردمان وخولان في حين لا يصف نفسه بقيل ولا أخاه لحيعة برين، وهذا يوضح لنا أن أول من تولى القيالة بعد المؤسسين هما وهب إيل وأخوه هوف عم، ولكن الأمر المحير أن ابنين من هذه الأسرة كتبا النقشين الموسومين (Ja 2861، Ja 2862) ذكرا فيهما أنهما أبناء الاقيال وهب إيل وتار ولحيعة ولم يذكرا هوف عم ولم أجد لذلك تفسيرا! خاصة وانه لم يمت إذ نجده يذكر في فترة متأخرة - بعد وفاة أخيه وهب إيل- إلى جانب أخويه وتار ولحيعة في نقش (YMN 5) أما إذا كان المذكور شخصاً آخر فتلك مشكلة أخرى؟ أما الملك المذكور في نقش (al-ǵadīd 2) فهو كرب إيل - دون أي كنية - ملك سبأ وذي ريدان، وقد ذهب روبان إلى افتراض أن الملك المذكور هنا هو كرب إيل بيّن (Robin 1994: 107) ولكن ذلك لا يتفق مع الواقع لأن هذا الملك كان آخر حكام الأسرة التقليدية في سبأ من أسرة كرب إيل وتر يهنعم وبعده بدأ حكم الأقيال فيها إلى جانب أن عهده اتسم بعدم الاستقرار واضطراب الأوضاع (بافقيه 2001: 50، 52، 53). وكما بينا أعلاه أن النقش يعد من أوائل النقوش التي كتبها وتار، نجد ايضاً ان الأعمال التي ذكرت في نقوشه كلها من استصلاح أراضي زراعية وأقامت منشآت الري وحفر آبار مياه وغيرها لا يمكن أن تكون وتقام إلا في عهد اتسم بالرخاء ، والاستقرار وهذا الأمر لم يكن متوفراً في عهد كرب إيل بيّن (-al

(1) ان تقديم وتار يرتع لاسم جده على اسم ابيه يذكرنا بنظام الأسرة الذي كان سائداً في اليمن وفيه كان الجد هو كبير الأسرة والراعي لها ومدبر شئونها والجميع يخضع له وينتسب إليه وبدأ هذا النظام في الانقراض مع تطور المجتمع واندماجه في الحياة المدنية اكثر.

Hadid 2)، وبناءً على هذا وبدون شك لابد وأن يكون الملك المذكور هنا هو الملك كرب إيل وتر يهنعم الذي شهدت مملكة سبأ وذو ريدان في عهده استقراراً وازدهاراً حتى وصفت بأنها الدولة الأولى في بلاد العرب (بافقيه 1994ب، 43) وهذا الاستقرار والازدهار استمر في عهد أبنائه، ولكن في عهد أحفاده بدأ التدهور وتأزم الأوضاع.

ومايهمنا هنا هو الملكان الآخران المذكوران في نقوش وتار وهما ذمار علي ذرح وعمدان بيّن يهقبض وأيهما أقدم من الآخر، وهذا الموضوع كان قد ناقشه المرحوم بافقيه ولم يصل إلى رأي حاسم في ترتيب مكان عمدان وتحديد علاقة عهده بعهد ذمار علي، وإنما أكد على أن ذلك يشكل معضلة أمام الدارسين لتاريخ هذه المرحلة المهمة من القرن الأول الميلادي (بافقيه 2001، 50) وكان قبل ذلك قد رجح أن نقش وتار مع ذمار علي ذرح أقدم من نقوشه مع عمدان ولكن وفق تقاسم السلطة والمملكة في ضل وجود ملك رئيس يعاونه ملوك فروع موكلين بحكم المناطق (بافقيه 1994ب، 41-45) وكذلك نجد روبان يضع نقش وتار مع ذمار علي قبل نقوشه مع عمدان يهقبض ولكن لم يصل الى تحديد واضح لترتيب مكانهما والعلاقة بين عهديهما (Robin 1991، 183،185-187) ومن هنا تبرز أهمية نقشنا المنشور هنا كونه قدم الدليل وأكد - بما لا يدع مجالاً للشك - أن وتار يرتع تولى قيالة ردمان وخولان قيلاً مستقلاً في عهد الملك عمدان يهقبض وهو الدليل الذي لم يتوفر للأستاذين الجليلين بافقيه وروبان.

وبذا يكون الملك الثاني الذي ذكره وتار هو ذمار علي ذرح ملك سبأ وذي ريدان بن كرب إيل وتر ولم يكن ذكر عابر، بل اتصال مباشر فقد رافق الملك الى جبل اللوذ حيث قاما ببعض الطقوس الدينية (MAFRAY-al-Kaعab VII A).

وآخر ملك ورد في نقوش وتار هو الملك عمدان بيّن يهقبض الذي ذكر في ثلاثة نقوش اثنان منها كتبهما وتار (MAFRAY-al-Maktūba 1)، ونقشنا المنشور هنا والأخير كتبه اتباع له ولإخوانه (YMN 5).

وهكذا تم ترتيب عهد الملكين ذمار علي وعمدان وفقاً لوتار وبالتالي إجراء تعديل على الكرنولوجيا الأخيرة التي كتبها بافقيه (بافقيه 1994ب، 48) أو تلك التي وضعها روبان (Robin 1994، 108) فالفترة التي رافق فيها وتار سيده ذمار علي لم يكن قد تولى فيها قيالة ردمان وخولان فعلياً، وإنما كان القيل أخوه هوف عم الذي امتدت فترته - ربما- الى بداية عهد عمدان يهقبض كما يفهم من نقش (YMN 5) وبعدها نجد وتار معاصراً لعمدان يهقبض كقيل مستقل وفقاً لنقشنا، ثم يشرك أخاه لحيعة برين في القيالة- ربما أواخر أيامه- وفي عهد الملك عمدان بيّن يهقبض أيضاً (MAFRAY-al-Maktūba 1). وأخيراً يتولى القيالة لحيعة برين الذي يمكن أن يكون آخر قيل - وفق النقوش المكتشفة حتى الآن - من أسرة معدي كرب حكم مقولة ردمان وخولان وإن كنا للأسف لا نجد ذكر لأي ملك في نقوشه الأمر الذي يجعلنا لا نعرف على وجه الدقة هل تولى القيالة في عهد عمدان أو بعده (MAFRAY- Sāriی 7).

في الختام يمكننا تأريخ نقش حرّير 1 الذي هو من عهد عمدان يهقبض ملك سبأ وذي ريدان، ومن خلال النقوش المؤرخة التي بين أيدينا، في بدايات القرن الثاني الميلادي إذا علمنا بأن هذا الملك قد حكم في نهاية القرن الأول الميلادي وبداية القرن الثاني الميلادي.

المراجــع

1 - بافقيه : محمد عبد القادر بافقيه
1994ا «نقوش ودلالات»، ريدان، 6، 1994، ص6-22.

كرنولوجيا ملوك سبأ وذو ريدان من أسرة كرب إيل وتر يهنعم

كرب إيل وتر يهنعم (+ هلك أمر)

|

ذمار علي ذرح

|

عمدان بيّن يهقبض

|

كرب إيل بيّن

|

يهاقم + نشأ كرب

كرنولوجيا الأقيال من أسرة معدي كرب يهمجد

معدي كرب يهمجد

|

مخطران أسأر

|

وهب إيل عمدان

|

هوف عم يزأل

|

وتار يرتع

|

لحيعة برين

1994ب «مكرب إل وتر الأول والدولة الأولى في بلاد العرب»، ريدان، 6، 1994، ص 32-56.

2001 «انمار يهامن قيلاً وملكاً وأحوال عصره»، ريدان، 7، 2001، ص 45-54.

2 - بافقيه-باطيع : محمد عبد القادر بافقيه واحمد باطيع

1985 «نقوش من الحد»، ريدان، 5، 1985، ص 61-80.

3 - بافقيه-روبان : محمد عبد القادر بافقيه وكريستيان روبان

1980 «أهمية نقوش جبل المعسال »، ريدان، 3، 1980، ص 9-29.

4 - تقرير بعثة قتبان:

2007م الموسم الرابع، في موقع حصي، محافظة البيضاء.

5 - عبد الله : يوسف محمد عبد الله

1979أ «مدونة النقوش اليمنية»، دراسات يمنية، 2، 1979، ص 47-75.

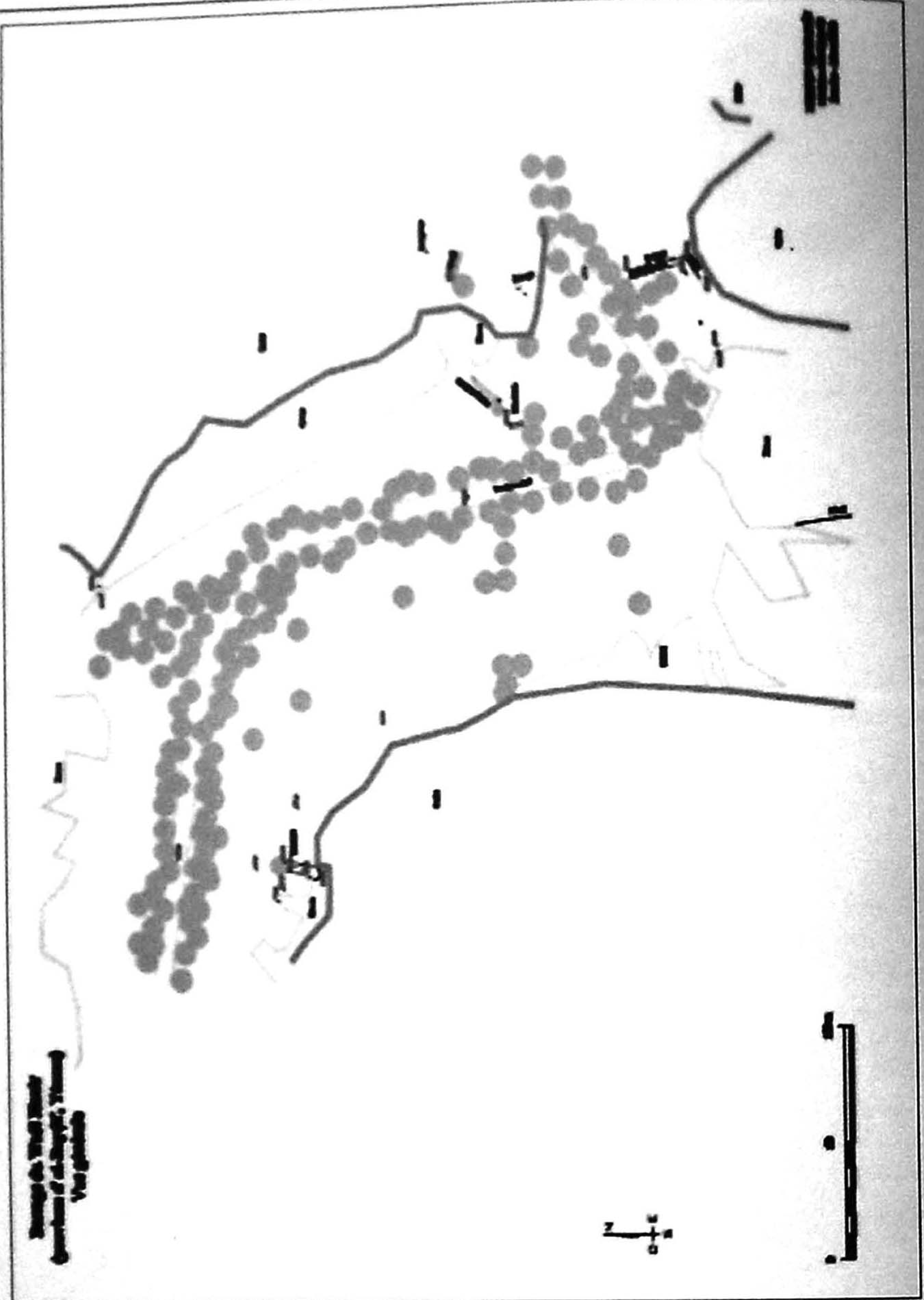
1979ب «مدونة النقوش اليمنية »، دراسات يمنية، 3، 1979، ص 29-66.

1988ب«مدونة النقوش اليمنية»، الإكليل، 2، 1988، ص 148-155.

6- Robin : Christian Robin

1991 ‹‹'Amdān Bayyin Yuhaqbiḍ, roi de Saba' et ḏū-Raydān ››, in *Études sud-arabes. Recueil offert à Jacques Ryckmans* (Publications de l'Université Catholique de Louvain, 39), Louvain-La-Neuve (Université Catholique de Louvain, Institut Orientaliste), 1991, pp. 167-205.

1994 ‹‹Yashhur'il Yuhar'ish, fils d'Abiyaśa', mukarrib Ḥaḍramawt ››, in *Raydān*, 6, 1994, pp. 101-111.

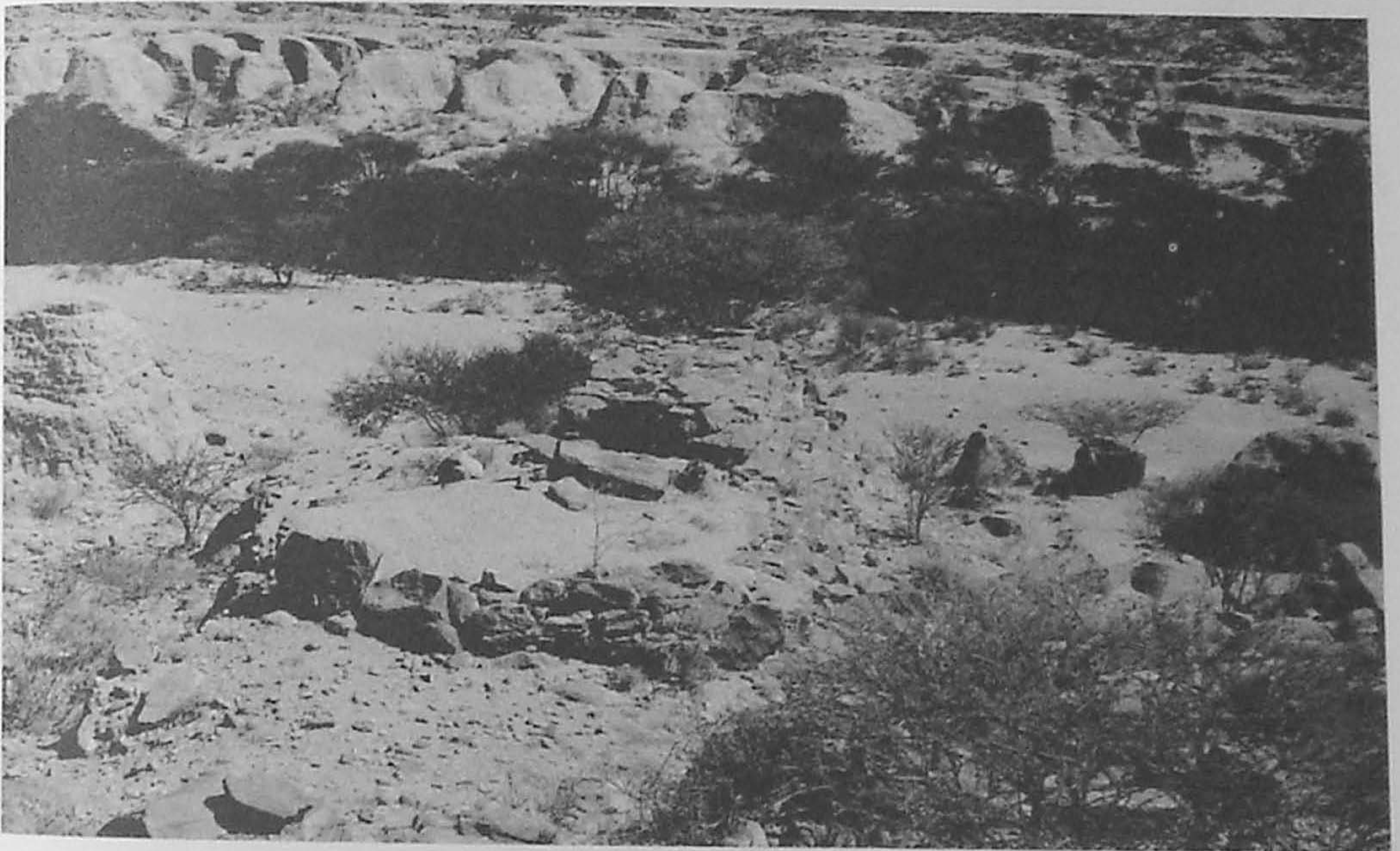


شكل (1) مخطط وادي حرير مع بقايا المنشآت. نقلاً عن تقرير بعثة قتبان 2007م، الموسم الرابع موقع حصي

الصور



صورة (1) وادي حرير .



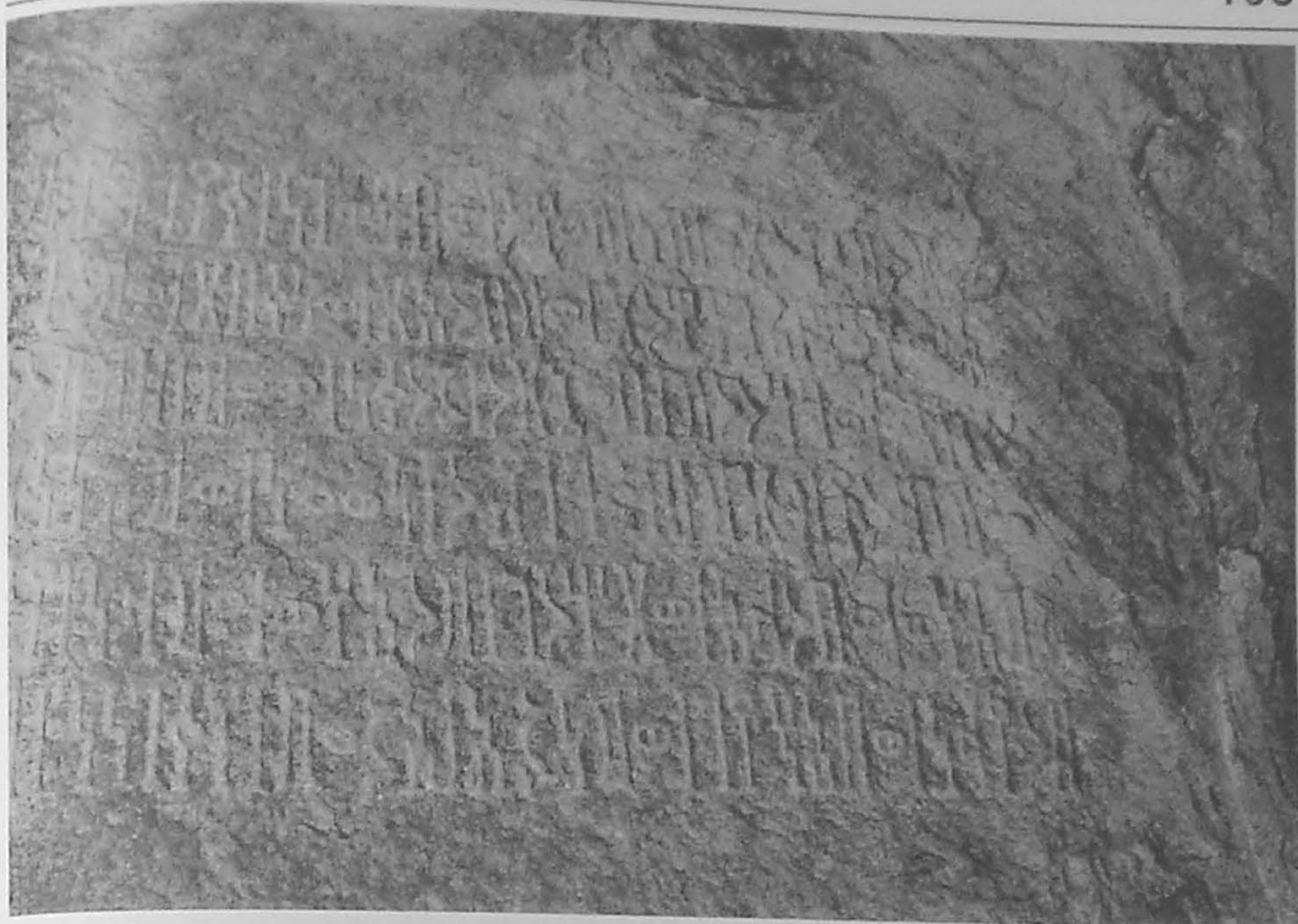
صورة (2) بقايا بناء المأخذ في الجزء المرتفع من الوادي مقابل للصخرة التي حفر عليها النقش.



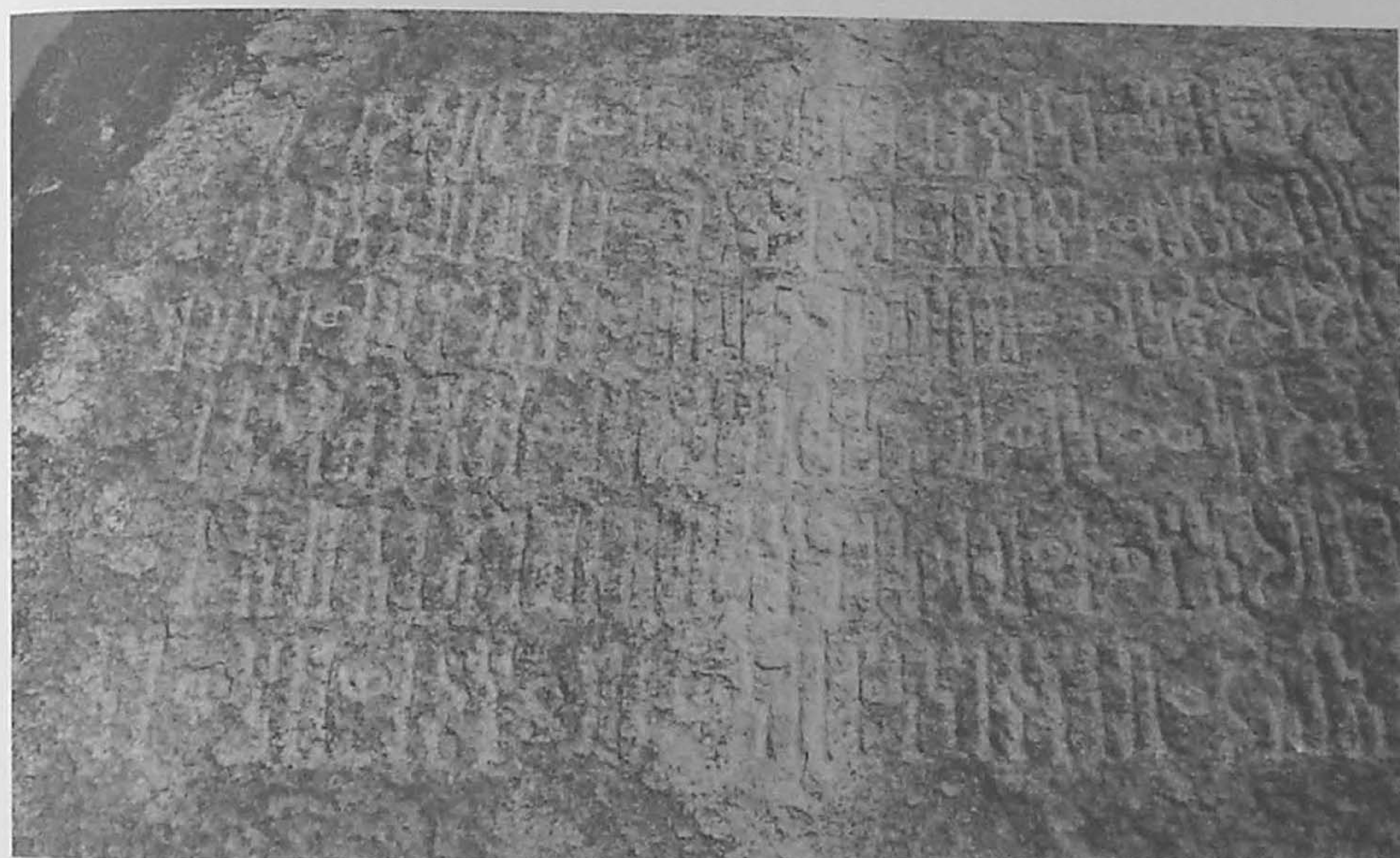
صورة (3) بناء في الوادي .



صورة (4) نقش حرير.



صورة (5) تفصيل للجزء الأيمن من النقش.



صورة (6) تفصيل للجزء الأيسر من النقش.

منجم الرضراض: الهمداني والفضة اليمنية[1]

Das Bergwerk von ar-Radrād: Al-Hamdānī und das Silber des Jemen

تأليف: كريستيان روبان
ترجمة: الدكتور محمود قاسم الشعبي

مقدمة المترجم:

لا بد لكل باحث متميز من المتابعة الدائمة لما ينشر في مجال اختصاصه من دراسات وبحوث، داخل وخارج اليمن، ولا بد له من الإطلاع على ما تحتويه المكتبات ودور الوثائق المنتشرة في الكثير من البلدان الأوروبية من تراث متعلق باليمن. ومن غير شك في أن من يمتلك مثل تلك المهارات والخبرات، سوف يكتشف أن تاريخ البحث المعاصر عن المعادن في اليمن، ومحاولات الاستفادة منها واستغلالها تجارياً، قد بدأ بشكل جدي -على أقل التقديرات- في النصف الأول من القرن العشرين، وأن بعض الدول الكبرى قامت بالبحث والتنقيب عن المعادن في اليمن منذ ثلاثينات ذلك القرن، وتأكدت من وجود أنواع مختلفة من المعادن وبكميات تجارية، وفي مقدمتها البترول، الذي تم اكتشافه حينها في منطقة شبوة ، وفي خمسينات ذلك القرن، أعدت بعض الشركات الألمانية والأمريكية بعض الدراسات والبحوث الخاصة بالمعادن في المنطقة الغربية من تهامة اليمن. وفي بعض نواحي محافظة تعز الجنوبية والشرقية، تم اكتشاف معدن النحاس والنيكل بكميات كبيرة،[2] ولكن الظروف غير المستقرة والأوضاع السياسية المضطربة، منذ مطلع القرن الماضي، تسببت في عرقلة تلك المحاولات، وجعلتها تتأرجح بين مد وجذر. وقبل نهاية الثمانينات ظهر البترول في شطري اليمن، وبعد تحقيق الوحدة اليمنية عام 1990 توسعت أعمال التنقيب، وإلى جانب البترول أصبحت المعادن تشمل الذهب والفضة والنحاس واليورانيوم والزنك والنيكل والرصاص والحديد والبلاتين وغيرها.

وحول هذا الموضوع تحدثت وسائل الإعلام المختلفة عن التطور الملحوظ لقطاع التعدين في اليمن،

(1) هذه ليست ترجمة مجردة فقط ولكنها ترجمة بحثية، أضاف إليها المترجم معلومات جديدة، وصحح ما ورد بها من أخطاء، وزودها بجميع الصور والخرائط المرفقة، وحرص على مقارنة ما ورد في النص الأصلي مع ما ورد في النسخ العربية الأصلية المحققة، المتمثلة في كتاب الإكليل وكتاب صفة جزيرة العرب، وكتاب الجوهرتين العتيقتين بطبعاتها المختلفة. [ما ورد داخل النص بين معقوفتين] من إضافات المترجم.

(2) الموسوعة اليمنية، ج+2 ج 4. المواد: الرضراض، المعادن، النفط ، يحيى المفلحي واحمد قائد بركات.

وفي وقتنا الحاضر يوجد في اليمن ما لا يقل عن 20 شركة أجنبية، تعمل في مختلف مجالات التعدين، ويعتبر منجم الرضراض واحداً من أماكن التعدين المهمة، ولأسباب غير معروفة، ليس هناك أرقام يمكن الاعتماد عليها في تحديد كميات الإنتاج الكلي، ولا يتوفر أرقام حتى لما يتم إنتاجه في كل منجم على حده، لذلك يصعب على الباحث تقديم رسوم بيانية وإحصاءات وجداول توضيحية.(1)

هذه ترجمة بحثية في آن واحد، لدراسة أعدها الباحث الفرنسي المعروف كريستيان روبان، المتخصص في الشئون اليمنية، تناول فيها منجم الرضراض التاريخي للفضة، معتمدا على ما كتبه عن ذلك المنجم علامة اليمن الهمداني. نشر روبان تلك الدراسة باللغة الألمانية، التي نشرت في المجلد الفخم، الذي يضم مجموعة مختارة من الدراسات الممتازة جداً، والتي تبحث في تاريخ اليمن وفنونه وحضارته على مر العصور، وأشراف على تحريره المستشرق الألماني المعروف Werner Daum فيرنر داوم، وقام بنشره متحف حضارة الشعوب في ميونيخ بالمانيا الغربية عام 1987، وقبل ذلك كان كريستيان روبان قد أعد دراسة سكانية وجغرافية، تناول فيها منطقة نهم وسكانها والنواحي المجاورة لها، تم نشرها عام 1986 باللغة العربية في ذكرى الهمداني الألفية.(2) وير المترجم أن الدراستين معاً على جانب كبير من الأهمية، بالإضافة إلى ما تم انجازه من بحوث عن المعادن في اليمن، وبأنها مفيدة للاقتصاد اليمني وتساعد على التعريف بتراثه وتاريخه وحضارته، وتنشيط الحركة السياحية في نفس الوقت.(3)

النص المترجم:

البحث عن المعادن في اليمن لفترة طويلة، لم يتوصل الا إلى نتائج متواضعة، فعلى سبيل المثال تم العثور على الحديد ظاهراً على سطح الأرض في أطراف مدينة صعدة، وفي بعض نواحي تعز تم اكتشاف النحاس مختلطاً بمعدن النيكل، وفي جنوب شرق اليمن، تم العثور على بعض الفضة أيضاً.(4)

هل بالإمكان مطابقة ذلك مع ما أشار إليه علامة اليمن الحسن الهمداني، -الذي عاش حتى القرن العاشر الميلادي [893-955±]- في كتبه الموسوعية حقاً، والشاملة لمختلف أنواع المعارف والعلوم! الهمداني كتب عن منجم مهم للفضة، ذكر أنه يقع في وادي حريب-نهم، وكان العمل فيه مستمر حتى وقت مبكر من العصور الوسطى، وأن المدخل الرئيسي لذلك الوادي يقع على بعد 40 كم

(1) انظر مجلة الجيش الصادرة عن إدارة التوجيه المعنوي، صنعاء عدد 338 سنة 2009، ص. 52-54.

(2) قارن الخرائط 1+2، نقلها المترجم عن: روبان، كريستيان: نهم نبذة في الجغرافية التاريخية وفقاً لمعطيات الهمداني، في: الهمداني لسان اليمن، دراسات في ذكراه الألفية، تحقيق: يوسف محمد عبد الله، بيروت 1986، ص. 83-98، انظر بالتحديد ص. 97-98.

(3) وضع المؤلف جميع مصادره داخل النص، فقام المترجم بنقلها إلى هوامش الصفحات، أما توضيحات وإضافات المترجم فقد وضعت في الهامش أو أبين معقوفتين داخل النص].

(4) الصورة رقم 3 هي لمدينة صعدة وتظهر عليها بقايا لمناجم التعدين من العصور الوسطى، نقلها المترجم عن Daum, Werner [Herg], Jemen 3000 Jahre Kunst und Kultur des glücklischen Arabien. Frankfurt a.M. 1987، S. 95-96، والصورة رقم 4 لمدينة صعدة من عام 1975، نقلها المترجم عن Kopp, Horst [Herg], Länderkunde jemen. 2005، S. 61 والصورة رقم 5 يظهر عليها منجم الحديد القديم في جبل الميدان، بشمال صعدة، نقلها المترجم عن Daum, Jemen 3000 Jahre S. 95-96

شمال شرق صنعاء،[1] ومن هناك ينبغي مواصلة السير باتجاه الشمال الشرقي.

الموقع الصحيح لمنجم الرضراض، تم إهماله تماماً، وحتى اسمه -الرضراض- كان قد طواه النسيان، وحتى يتم التعرف على موقعه من جديد، جرى البحث عنه على طول وعرض وادي حريب-نهم، وفوق أرض تزيد مساحتها على 50 كم، وعندما حاول علماء الآثار الفرنسيون اكتشاف موقع ذلك المنجم في نهم ولم ينجحوا في ذلك، اتصلوا بفريق مكون جيولوجيين يمنيين وفرنسيين، كان قد شرع في البحث عن المعادن في شرق اليمن في عام 1980، واضعاً أهمية كبيرة على ما جاء في مصادر الهمداني القديمة من إشارات مهمة تتحدث عن منجم قديم، يوجد فيه مخزون كبير من المعادن.[2] وبواسطة طائرة عمودية تم استخدامها لمسح المناطق القريبة سهلة الارتياد، قام المختصون بجمع عينات من الأحجار والرمال وفحصها وتحليلها بشكل علمي ومنظم، إضافة إلى تقصي الآثار الدالة على احتمال وجود مناطق سكنية، وفي أقل من أسبوعين تمكن علماء الآثار من اكتشاف منجم الرضراض عند نهاية نوفمبر وبداية ديسمبر 1980. أشار الهمداني إلى منجم الرضراض في مؤلفاته المختلفة، ولكنه فصل الحديث عنه في كتابه الثمين، والسفر غير العادي،[3] الفريد من نوعه، الخاص بالذهب والفضة، باعتباره أقدم عمل مكتوب، ومعروف لدى الباحثين، يتحدث عن تقنيات المعادن الثمينة «Edelmetalltechniken». فقد ذكر الهمداني في مؤلفه المشار إليه، أن أعمال التعدين في منجم الرضراض كانت مستمرة إلى قبل مولده بسنوات قليلة، ثم حدث أن قتل عمال المنجم، وجلهم كانوا من الفرس

أثناء قيامه بتدوين تلك الحادثة، ذكر الهمداني أنه لم يعتمد على مشاهداته الخاصة فقط، ولكنه أستمع إلى أقوال العديد من شهود العيان، الذين قابلهم، وتحدث معهم شخصياً، وبشكل خاص والده، وذكر أيضاً أنه أعتمد على وثائق مكتوبة، لكنه لم يدونها أو يشرح مضمونها.

منجم اليمن «منجم الرضراض» الواقع على حدود نهم مع ناحية يام التابعة لهمدان، لا يزال مدفوناً تحت الأنقاض من عام 270 هجرية، الموافق 883 ميلادية؛ ففي ذلك التاريخ تم العبث به وتخريبه وتدميره على إثر اغتيال الأمير محمد بن يعفر[4] [على يد نجله إبراهيم]، وقد

(1) الصور رقم 6+7 خاصة بمنجم الرضراض. نقلها المترجم عن: Daum. Werner [Herg]: Jemen 3000 Jahre.S. 95-96.

(2) كتب الهمداني في صفه جزيرة العرب أنه لا نظير لمعدن الفضة التي كانت تستخرج من منجم الرضراض. انظر الموسوعة اليمنية، ج. 2، ص. 1394-1396. قارن مادة الرضراض التي قام بتلخيصها احمد قائد بركات، من واقع النسخة الانجليزية لكتاب فيرنر داوم المشار إليه في الهامش 6+7، ومن تقارير هيئة المساحة الجيولوجية بصنعاء حسب قوله. ويبدو أن بركات لم يكن دقيقاً حين قال أن القبائل المتمردة هي التي قتلت الأمير محمد بن يعفر، والصحيح أن نجله إبراهيم هو من قام بذلك الفعل. راجع التفاصيل في هوامش هذه الدراسة.

(3) كتاب الهمداني الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء.

(4) ورث الأمير محمد بن يعفر من أبيه حكم الدولة اليعفرية عام 258هـ الموافق 772 ميلادية تقريباً. وفي عام 879 سلم مقاليد الحكم إلى ولده إبراهيم، الذي ينسب إليه أنه تآمر مع جده وقام بقتل والده وعمه في صومعة جامع شبام، بعد صلاة المغرب، وعلى اثر تلك الجريمة الشنعاء قامت ضد الأمير القاتل ثورة واسعة، دُمِّرَ خلالها منجم الرضراض للفضة الذي كان إنتاجه يمثل أهم مصادر الدخل المالي للدولة اليعفرية وعن ملابسات تلك الحادث تضيف بعض المصادر وأقوال الرواة أن الأمير «القاتل» كان ثملاً بالخمر، حين قام بتنفيذ تلك الجريمة، وأثناء مشادة كلامية بينه وبين الشيخ الدعام البكيلي؛ كبير شيوخ قبائل المناطق

ادى ذلك الفعل [المشين] إلى إغضاب القبائل، التي قامت بمهاجمة سكان الرضراض ونهبهم وقتلهم، والذين نجوا منهم، هربوا وتشردوا في الأرض، ولم يصل إلى صنعاء، إلا بعض الأسر، وخاصة من كانوا يتقلدون مناصب كبيرة من زمن طويل، ويمتلكون بيوت ومزارع. جميع سكان الرضراض كانوا من الفرس، جاء البعض منهم إلى اليمن في العصر الجاهلي -قبل الإسلام- والبعض الآخر في العهدين الأموي والعباسي، وصارت تلك المهنة مرتبطة بهم، واشتهروا بالمنقبين الفرس[1] مما يدل على أن اليمنيين لم يكن لديهم معرفة في تقنية وصناعة التعدين، وأن التنقيب عن تلك المعادن في بلاد العرب كان بشكل مطلق محفوفاً بحرص وغيرة واحتكار الفرس، ويعتبر سراً من أسرارهم. وهذه المسألة يمكن ربطها بتاريخ الفترة المذكورة، التي وجد فيها أهم مناجم التعدين في خرسان، الواقعة جنوب بحر قزوين. والأمر نفسه ينسحب على منجم الشمام للفضة، الواقع في نجد، والذي قال عنه الهمداني[2] أن ألف شخص من أتباع الديانة الزارادوشتية، كانوا يعيشون هناك، ولديهم أثنين من معابد النار. وعن أعمال التنقيب والتعدين في منجم الرضراض، وموقع الشمام، ذكر الهمداني أنها قديمة وتعود إلى فترة ما قبل الإسلام. ذلك الاعتقاد يمكن تبريره، إذا ما تم ربطه بالحكم الفارسي، لجنوب وشرق الجزيرة العربية، والذي استمر عدة عقود قبل ظهور الإسلام.

وعند وصفه لحال موقع الرضراض، ذكر الهمداني أنه كان غني بالمعادن بشكل غير عادي، مؤكداً أن عمال التعدين اخبروه بعدم وجود أي منجم، مثل منجم الرضراض، لا في خرسان ولا في غيرها من الأماكن، ووصف القرية التي يسكنها المنقبون عن الفضة بأنها كانت كبيرة، ويوجد فيها ماء، وأشجار نخيل، وباقي المواد الضرورية كانت تأتيها من مدينة البصرة العراقية، تحملها قوافل الجمال التي كانت تأتي إليها وتذهب منها عبر منطقة العقيق والفلق واليمامة والبحرين حتى البصرة، وأن تلك القوافل كانت تسلك الطريق من صنعاء إلى البصرة ومن البصرة إلى صنعاء، عبر اليمامة. [...] وفي موضع أخر ذكر الهمداني بأنه كان يتم استخراج ما يقدر بحمل جمل من الفضة أسبوعياً، تبلغ قيمتها حوالي 20.000 درهم، وهذا يساوي حوالي 1.000.000 مليون ردهم في العام.[3] وبما أن وزن الدرهم الواحد كان يصل إلي ثلاثة جرامات تقريباً، يصبح حجم الإنتاج الأسبوعي 60 ستين كيلو جرام، والإنتاج السنوي 3000 ثلاثة ألف كيلو جرام تقريباً.

وفي مقابلة له مع صائغ الذهب «أحمد بن أبي رماده» ذكر الهمداني أن ذلك الصائغ أخبره بأن أبناء الم ... [الموالي؟] وأبناء الأشراف، كانوا يعملون معاً في موقع التعدين، الذي كان فيه 400 فرن [الصهر المعادن]، بحيث لو حلق طائر فوق موقع التعدين، يسقط على الأرض ميتاً، من شدة الحرارة المنبعثة من تلك الأفران، وذكر الهمداني «أن تجاراً من بلاد فارس والعراق

الشمالية، قام الأمير القاتل بلطم الشيخ المذكور، فغضبت حينها القبائل التابعة لذلك الشيخ، وتمردت على الدولة اليعفرية وخرجت عن طوعها، واحتلت صنعاء وغيرها من المناطق، وقامت بأعمال سلب ونهب وتخريب في أماكن مختلفة من اليمن، من أهمها تدمير ها لمنجم الرضراض، وقتلها لجميع العاملين فيه. راجع ما كتبه حسين العمري، واحمد قائد بركات في، الموسوعة اليمنية. ج٤، ص، 3222 وما بعدها المواد، اليعفريون، الرضراض، التعدين، والنفط.

(1) انظر الفصل التاسع من كتاب الهمداني الجوهرتين العتيقتين.

(2) انظر الفصل العاشر من كتاب الهمداني الجوهرتين العتيقتين.

(3) انظر الفصل التاسع من كتاب الهمداني الجوهرتين العتيقتين.

وسوريا ومصر، كانوا يحملون الفضة من اليمن في أي وقت ويذهبون بها بعيداً، ويحققون منها مكاسب وفيرة».[1]

تحسن الإشارة إلى أن إعادة اكتشاف منجم الرضراض في المنطقة المعروفة الآن «بالجبلي» يأتي في مقدمة اهتمامات اليمن الاقتصادية، باعتباره منجم مهم للتعدين، يجتمع فيه Zink, Blei und Silber الزنك والرصاص والفضة، فضلاً عن الأهمية التاريخية لمثل ذلك الاكتشاف، وحتى الوقت الحاضر، لا يزال المنجم القديم؛ الواقع على الجانب الشرقي من جبل صلب، يمثل عامل إغراء، ومصدر جذب سهل للناس؛ ففي أثناء الحفر كان العمال يقومون بوضع المواد المستخرجة من المنجم فوق الطبقات العليا المخصصة لوضع خام الفضة عليها، ومنها تشكل منظر رائع فوق سطح الأرض.

تلك المعادن المؤكسدة نسبياً تدل على آثار وجود «كبريتيد» الرصاص، الذي يحتوي على نسبة مرتفعة من الفضة تصل إلى 0.1 %. وفيما يتعلق بأساليب الحفر والتعدين، لوحظ أن عمال المنجم كانوا يستخدمون وسائل وتقنيات تختلف بحسب أماكن تواجد المواد الخام، فبينما كان العمال يقومون بحفر بسيط على الأرض في بعض الأماكن، اضطروا إلى إحداث شروخ صغيرة في الصخور في أماكن أخرى، وفي الجزء الجنوبي من موقع التعدين، تم اكتشاف ما يقرب من 30 سرداب أو نفق، يزيد طول الواحد منها على 10 أمتار، وتحت الأرض تم العثور على أنفاق وأماكن حفر كثيرة ومختلفة القياسات، وبشكل خاص ذلك النفق أو السرداب الكبير، الذي تهدمت بعض جوانبه، والبالغ طوله أكثر من 150 متراً، وعرضه يتراوح من 30-40 متراً، وارتفاعه يصل إلى عدة أمتار! ويوجد أيضاً حوالي 10 فتحات وثقوب، تم حفرها عمودياً داخل الصخور الفلزية، وترتفع من 10-25 متراً، ويرجح أن تلك الفتحات المتصلة بسطح الأرض، كانت مخصصة لإدخال التهوية عبرها من الخارج إلى المنجم من جهة، ونقل المواد الخام من داخله إلى سطح الأرض من جهة أخرى.

وفي أماكن التعدين المختلفة الكائنة تحت الأرض أيضاً، تم العثور على بعض أدوات العمل، مثل القفف والسلال المصنعة يدويا والأكياس الجلدية والأواني الفخارية ومشاعل الإضاءة، لكنه لم يتم العثور حتى على آلة حفر معدنية واحدة، بالرغم من وجود الكثير من أماكن حفظها "تعليقها"، وسبب ذلك يعود إلى أن معدن الحديد كان حينها غالي الثمن، لذلك لم يكن من السهل تركه في الموقع، أما المساحة الكلية لمنطقة التعدين، فقد كانت تزيد على 10 هكتار، وبجانب الفتحات والثقوب المشار إليها توجد أكوام ومنحدرات كبيرة من المواد الخام مترامية الأطراف، قدر الجيولوجيون حجمها بحوالي 120.000 طن، ولا يزال ممكناً التعرف على بعض أماكن العمل مثل مطاحن الأحجار الصغيرة الثابتة، التي كانت تستخدم لتكسير وطحن المواد الخام عليها، كما يوجد قنوات ضيقة توضع فيها المواد الخام، وتترك حتى يتم فرزها في أوقات المطر مع خلال مرور الماء، وجريانه عليها، وبالنسبة للمباني الموجودة بالقرب من منطقة التعدين، فقد كانت تستعمل كمخازن أو مساكن للعاملين في الموقع، وقد أوضح الهمداني الفرق بين المنجم والقرية التابعة لعمال التعدين، التي كان بها أفران الصهر ومجاري المياه وأشجار النخيل.

وفي وادي حريب-نهم تم اكتشاف موقع كبير، يقع على بعد 5 كم شمال غرب المنجم، وتبلغ مساحته 6 هكتار تقريباً، وقد وجد فيه رواسب حديد، وآثار للمباني، مما يؤكد أن اختيار ذلك الموقع المناسب كان بقصد

(1) انظر الفصل التاسع من كتاب الهمداني الجوهرتين العتيقتين.

الاستفادة من هبوب الرياح وتيارات الهواء المارة في ذلك الوادي الضيق والمغلق.

على الرغم من كتابات الهمداني المتعلقة بكيفية العمل في أفران صهر الفضة، فالحاجة لا تزال كبيرة لمعرفة الكثير عن تقنيات التعدين القديمة، وتفسير المصطلحات الغير معروفة للباحثين حتى الآن، ولما لذلك من فوائد علمية كبيرة ومهمة، ينبغي حفر وحدأ من أفران صهر الفضة في قرية الرضراض، خاصة وأن المواد الخام -غير المستغلة- المستخرجة من المنجم، لا تزال تحوي على نسبة كبيرة من المعادن، حيث تصل نسبة الزنك إلى 24% والرصاص 3,5% والفضة 0,016% تقريباً، وأما بقايا المواد المستغلة سلفاً، فلا تزال تحوي على نسبة 23% من الزنك، ونسبة 6,5% من الرصاص ونسبة 0,004% من الفضة تقريباً، والتي كان استخراجها يمثل الهدف الرئيسي والوحيد لعمال التعدين في ذلك الحين.

بالنظر إلى ما جاء في مصادر الهمداني، وفي الوثيقة المشار إليها أعلاه، بلغت كمية الفضة المستخرجة من ذلك المنجم 60 كيلو جرام أسبوعياً تقريباً، بما يعادل ثلاثة طن في العام، وعند تقدير الفترة الزمنية الكلية لعمل ذلك المنجم، بالنظر إلى أكوام وأحجام المواد المستخرجة منه، والتي تقدر بـ 120.000 طن، إذا افترض الباحث أن الحد الأعلى لمتوسط نسبة الفضة في المادة المستخرجة طوال فترة التعدين هي 0.05%، واعتبار وصول الإنتاج الكلي من الفضة عالية الجودة في أقوى الاحتمالات إلى 60 طن تقريباً، تصبح النتيجة أن التعدين في ذلك المنجم قد استمر عشرين عاماً فقط. لذلك ينبغي التعامل مع ما ذكره الهمداني بحذر، والأخذ بصحة كمية الإنتاج المقدرة بـ 60 كيلو جرام في بعض أسابيع السنة فقط، وليس على مدار العام، لأن المعدل الأعلى لمستوى الإنتاج الأسبوعي، لم يكن ممكناً إلا في مواسم الأمطار، حيث كان غسيل وتصفية المواد الخام سهلاً، والحصول على نتائج أفضل بشكل أسرع. وحتى يتم تحديد تاريخ ذلك المنجم، قام جيولوجيون بفحص عينتين من فحم الخشب في مختبر إدارة البحوث الجيولوجية والمعادن -Bureau des Recherches géologiques et minières Orléans ، وقد تم أخذ العينة الأولى من أسفل كومة للمواد الخام، وبواسطة الراديو كربون، تم تحديد تاريخها بـ 613-670±، والعينة الثانية أخذت من داخل أحد الأنفاق، تم فحصها وتحديد تاريخها بـ 1052-1069±.

ذكر الهمداني أن التعدين في الرضراض قد بدأ قبل ظهور الإسلام، ثم توقف بعد عام 883 ميلادية، من هذا المنطلق يفترض أن أعمال التعدين في موقع الرضراض، قد استمرت من القرن السادس إلى القرن التاسع الميلادي، وفيما بعد جرت بين الحين والآخر بعض الأنشطة التعدينية. وحتى يتم اعتبار ذلك دليلاً على تواجد عمال التعدين الفرس، لم تعطينا الدراسات أي إجابة سؤال فيما ما إذا كانت أعمال التعدين في المنجم قد بدأت مع فترة الاحتلال الفارسي لليمن بين عامي 570-575، أم أن البحث عن الفضة في موقع الرضراض يعود إلى فترة سابقة، وإذا افترضنا أن مقتل العمال الفرس، كان السبب الرئيسي والمحتمل، في وقف أعمال التعدين في المنجم، فلماذا لم تتواصل أعمال التعدين بعد ذلك؟ من هنا ينبغي التفكير في وجود أسباب أخرى، ربما تكون لعبت ذلك الدور، ومنها احتمال نضوب المعادن من الطبقات السطحية لمنطقة المنجم، وعدم توفر الأخشاب اللازمة لتزويد أفران الصهر بالوقود.

ملاحظات: الشكر لجيولوجيي منجم الرضراض «الجبلي حالياً» على المعلومات التقنية في هذه الموضوع.

Vgl. hierzu Patrice Christmann, Philippe Lagny, Jean-Luc Lescuyer, Ahmed Sharaf ad Din, Résultats de

trois années de prospection en République arabe du Yémen Découverte du gisement de Jabali (Zn-Ag) dnas la couverture jurassique, in, Chronique de la Recherche miniè-.ree, No. 437 (1983), p.25-38

Christopher Toll: Die beiden Edelmetalle Gold und Silber, .Uppsala 1968

فهرس الخرائط والصور التوضيحية الملحقة بالترجمة من جمع المترجم:

1 - خريطة تبين قبيلة نهم والمناطق المجاورة لها في عصر الهمداني مبين عليها منجم الرضراض [نقلاً عن روبان]

2 - خريطة تبين قبيلة نهم في عصرنا الحالي [نقلاً عن روبان]

3 - صورة لمدينة صعدة من عام 1975 ويظهر عليها آثار التعدين في العصور الوسطي [نقلاً عن فيرنر داوم]

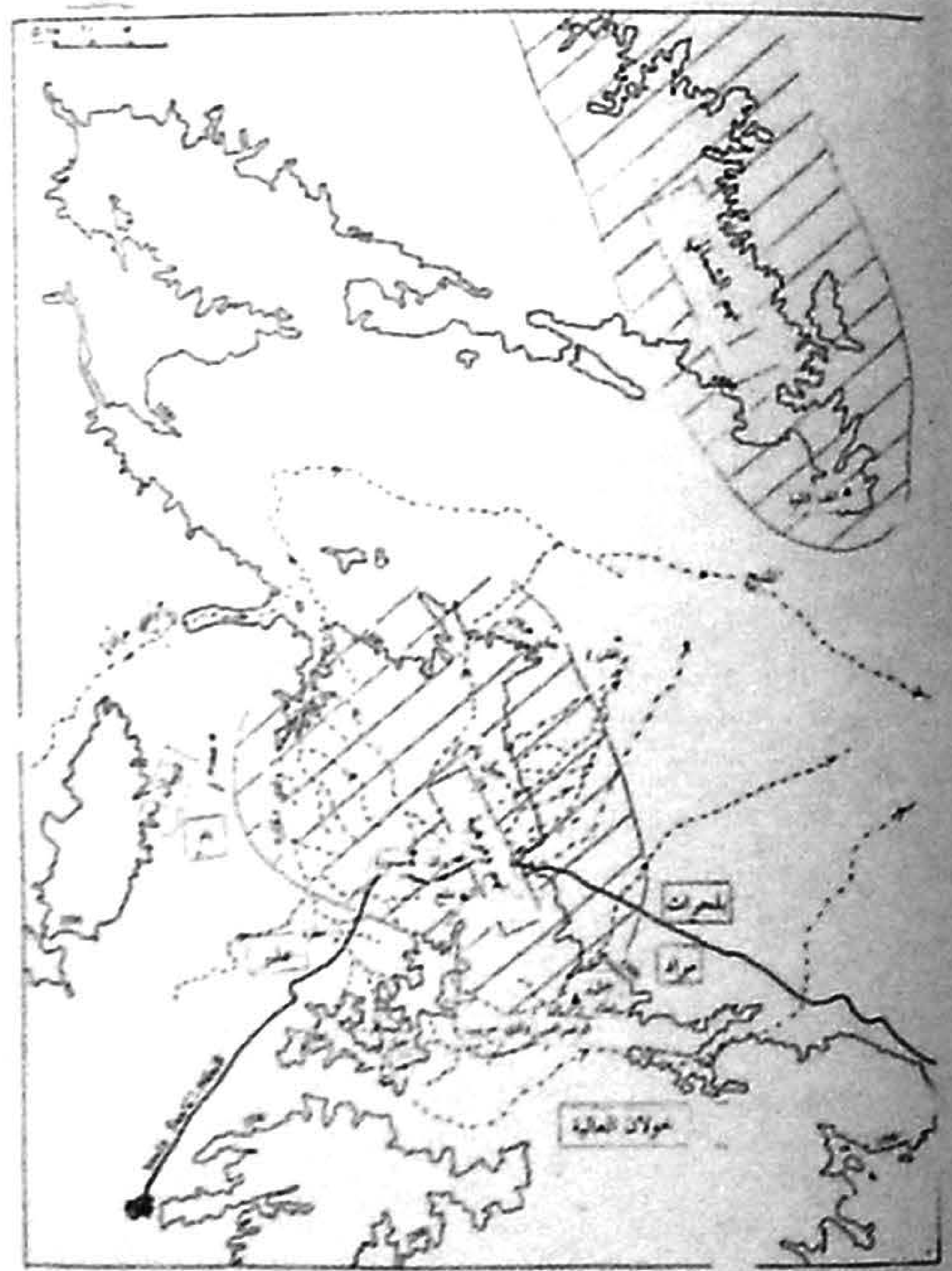
4 - صورة من الجوية لمدينة صعدة من عام 1975 [نقلاً عن وهرست كوب]

5 - صورة لمنجم الحديد في جبل الميدان شمال صعدة [نقلاً عن فيرنر داوم]

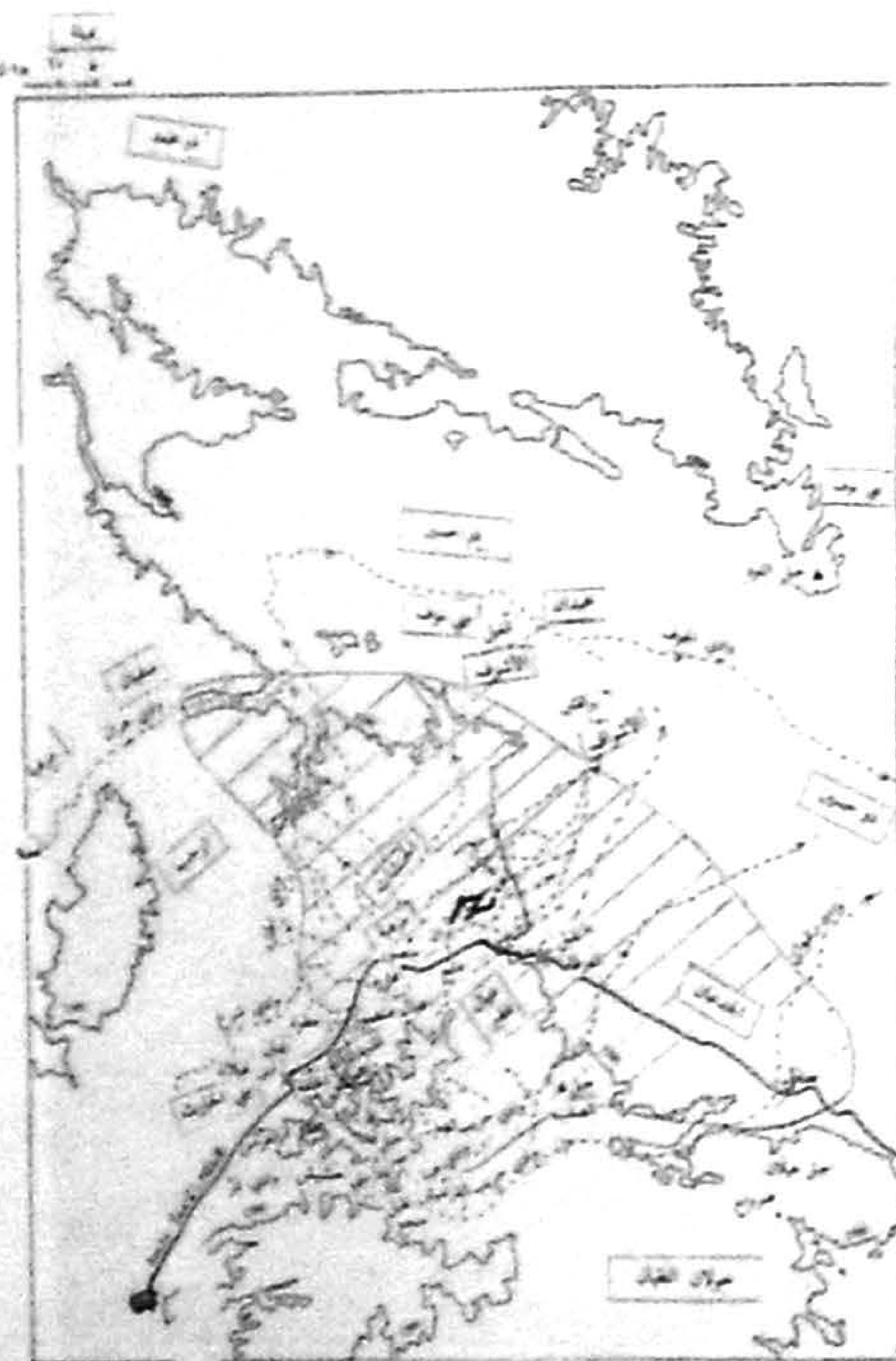
6 - صورة لمنجم الرضراض للفضة على جبل صلب [الجبلي] [نقلاً عن فيرنر داوم]

7 - صورة لمنجم الفضة السبئي في الرضراض [نقلاً عن فيرنر داوم]

قبيلة نهم والمناطق المجاورة لها في عصر الهمداني مبين عليه منجم الرضراض (نقلا عن روبان)



قبيلة نهم في قرن الهمداني



قبيلة نهم في عصرنا الحالي (نقلا عن روبان)



مدينة صعدة عام ١٩٧٥م ويظهر عليها آثار التعدين في العصور الوسطى [نقلاً عن فيرنر داوم]

. صورة جوية لمدينة صعدة من عام ١٩٧٥م [نقلاً عن هورست كوب]

منجم الحديد في جبل الميدان شمال صعدة [نقلا عن فيرنر داون]



منجم الرضراض للفضة على جبل صلب [جبلي] [نقلا عن فيرنر دواوم]

منجم الفضة السبيئ في الرضراض [نقلا عن فيرنر داوم]



موقف القوى السياسية في اليمن من الوجود العثماني الأول

945-1045هـ/1538-1635م

(قراءة في أدبيات مؤرخي الفترة اليمنيين)

إعداد / أحمد صالح عبدربه المصري
مدرس مساعد - قسم التاريخ- جامعة ذمار

المقدمة:

تميزت فترة وجود العثماني الأول في اليمن945 1045- هـ /1538 - 1635م بعدم الاستقرار السياسي؛ نظراً لتباين مواقف القوى السياسية في اليمن تجاه ذلك الوجود، حيث انضوى المماليك وآل كثير طوعاً لسلطتهم، وأزيح الطاهريون وتلاشت دولتهم أمامهم، في حين خاض أئمة الزيدية من آل شرف الدين وآل القاسم حرباً ضدهم استمرت ما يقارب مائة عام انتهت بخروجهم من اليمن عام 1045هـ /1635م.

وقد تناولت العديد من الدراسات والأبحاث التاريخية فترة الوجود العثماني الأول في اليمن من أكثر من جانب، وقدم مؤلفوها في ثنايا دراساتهم تلك توصيفاً لطبيعة ذلك الوجود أو الحكم، واعتمد كل طرف في بناء رأيه على الاستشهادات التاريخية منطلقين من ثقافات مختلفة المشارب، فثمة من وصفه بالفتح واعتبر وصولهم إلى اليمن جهاداً ومرابطة لمواجهة الخطر البرتغالي، في حين وصفه آخرون بالغزو والاحتلال بطريقة مباشرة، كما وصفه آخرون بنفس الوصف ولكن بطريقة غير مباشرة وذلك حين وصفوا الحركات السياسية والعسكرية التي خاضت حروباً ضد الوجود العثماني بأنها ثورات، مقاومة، حركة كفاح وطني، حركة تحرر، وغير ذلك.

إلا أن تلك الدراسات والأبحاث لم تتفرد بنقاش قضية توصيف طبيعة ذلك الوجود، حيث أنها لم تقدم تعليلاً للأسس أو الأسباب التي انطلقت منها في استخدامها لتلك المصطلحات السياسية، والتي بدورها أنتجت توصيفاً محدداً لذلك الوجود لدى كل فريق.

انطلاقاً مما سبق تحاول هذه الدراسة تقديم قراءة تاريخية منهجية مستقلة لتوصيف طبيعة الوجود العثماني الأول في اليمن، بناءً على فكرة مؤداها أننا نستطيع تحديد طبيعة ذلك الوجود من خلال المعطيات التاريخية التي قدمها طرفا المعادلة فيه (أي العثمانيين واليمنيين) والتي وردت في كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث.

ولتحقيق ذلك تطرح الدراسة التساؤلات الآتية:

- **ما أسباب وصول العثمانيين إلى السواحل اليمنية؟وما موقف القوى السياسية في اليمن تجاه ذلك؟**
- **ما أسباب توغل العثمانيين في أقاليم اليمن الداخلية ؟ وما الموقف والخطاب السياسي الذي تبنته القوة الزيدية حيال ذلك التوغل ومن ثم حيال وجود العثمانيين في اليمن؟ وكيف نظرت الدولة العثمانية للمعارضين لوجودها في اليمن؟**

تعتمد الدراسة في محاولة الإجابة على هذه التساؤلات على المصادر التاريخية الأولية، المتمثلة في أدبيات المؤرخين اليمنيين الذين عايشوا تلك المرحلة ودونوا أحداثها في مصنفاتهم التاريخية وفق ثقافة ذلك العصر، ومن وجهتي نظر مختلفتين: «مؤرخون مؤيدون للعثمانيين و آخرون معارضون» ، فقد كان المؤرخون بمثابة (وسائل إعلام بالتعبير المعاصر) وشكلت مؤلفاتهم وعاء أستوعب مفردات الخطاب السياسي لطرفي القضية، خاصة وأن كثيراً منهم كانوا موظفين رسميين لدى الطرفين، فحملت مؤلفاتهم صفة الرسمية، وتضمنت ما يمكن تسميته « إيديولوجيا التبرير» للطرف الذي انحازت إليه.

الأوضاع السياسية الداخلية في اليمن قبيل وصول العثمانيين:

تزامن دخول اليمن بداية مرحلة العصر الحديث القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي مع أحداث ومتغيرات دولية وتحديات خارجية، ومشاكل واضطرابات داخلية. شكلت في مجملها منعطفاً مهماً في مسار تاريخ اليمن والمنطقة، ففي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، وبفضل هذا الاكتشاف تحكموا بطرق التجارة البحرية في المحيط الهندي، وكان وصولهم إلى تلك المنطقة بدوافع اقتصادية ودينية، تمثلت في رغبتهم في المشاركة في أرباح تجارة الشرق، وانتزاع احتكار مصر والبندقية لتلك التجارة، ومواصلة الحروب الصليبية التي شنوها ضد المسلمين في شبة جزيرة إيبيريا وشمال إفريقيا، فشهدت منطقة المحيط الهندي والبحر الأحمر تقدم حملاتهم العسكرية، وتهديدها للمقدسات الإسلامية، ومهاجمتها للسفن العربية وإغراقها. مما ترتب على ذلك تدهور كبير لحركة التجارة في المنطقة، وفقدان اليمن ومصر مصدراً مهماً من مصادر اقتصادها([1]).

دفعت تلك التطورات بسلاطين المماليك في مصر، التي كانت دولتهم تعد من أقوى الممالك الإسلامية في تلك الفترة، إلى إرسال الحملات العسكرية للتصدي لهذا الخطر، فوصلت قواتهم إلى السواحل اليمنية عام 922هـ/ 1516م ، وعقب نزولهم فيها اصطدموا بالطاهريين ومن ثم دخلو في صراع مع الإمام شرف الدين([2]).

كانت تلك أهم المتغيرات الخارجية، التي أثرت على أوضاع اليمن الداخلية، فوصول المماليك إلى اليمن لم يعق تقدم الزحف البرتغالي فحسب، بل أحدث تغيراً في خارطة اليمن السياسية، وزاد من حدة المشاكل الداخلية فيه، فقد مثل المماليك من حينها قوة منافسة على حكم اليمن إلى جانب بقية القوى السياسية الأخرى، التي كانت تعيش حالة تنافس و صراع فيما بينها، جعلت مناطق نفوذها في كثير من الاحيان متداخلة جغرافياً غير

واضحة المعالم.

أولى تلك القوى هم بنو طاهر الذين كانوا قبيل وصول المماليك يحكمون سيطرتهم على مناطق الهضبة الجنوبية والوسطى، والسواحل الغربية لليمن، وواجهت دولتهم أحداثا جسيمة، منها وصول البرتغاليين إلى السواحل اليمنية وتغير طرق التجارة الذي الحق بها خسائر اقتصادية كبيرة، وأعقب ذلك وصول حملات المماليك العسكرية ودخولهم في صراعات عسكرية معهم ومع أئمة الزيدية، . كل ذلك أضعف الدولة الطاهرية وحصر وجودها في عدن([3]).

وثاني تلك القوى هم آل كثير([4]) الذين كانوا يحكمون حضرموت وبلغت دولتهم ذروة مجدها، وأقصى حدودها في عهد السلطان بدر بن عبد الله بوطويرق([5])، و شهد عصره وصول الحملات البرتغالية إلى شواطئ حضرموت، التي شكلت تهديداً حقيقياً لنفوذ دولته السياسي والتجاري، وهو ما دفعه للاتصال بالعثمانيين، فوصولت حملاتهم العسكرية إلى شواطئ حضرموت عام 945هـ / 1538م.([6])

وثالث تلك القوى هي القوة الزيدية التي استعادت دورها السياسي في حكم اليمن في عهد الإمام شرف الدين([7]) الذي دعا لنفسه بالإمامة سنة 912هـ/ 1506م([8]). وعمل على استنهاض الزيدية في اقاليم اليمن الشمالية، وقام بتوسيع مناطق نفوذه السياسي، و دخل في صراع مع الطاهريين، وكذلك المماليك الذين تزامن وصولهم إلى اليمن مع بداية دعوته، وتمكن من حصر وجودهم في زبيد عام 943هـ/1537م، وواصلت جيوشه تقدمها في المناطق الجنوبية بقيادة ابنه المطهر([9]) حتى مشارف مدينة عدن في السنة نفسها([10]).

تلك هي أوضاع القوى السياسية في اليمن خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، قبيل وصول الحملة العثمانية الأولى إلى السواحل اليمنية سنة 945هـ/ 1538م، وتبلورت على إثرها خارطة نفوذ تلك القوى في شكلها النهائي، على النحو الآتي:

إذ نجح أئمة الزيدية في مد نفوذهم إلى أقاليم وجهات مختلفة من اليمن، وصلت إلى مشارف عدن جنوباً، وزبيد غرباً، والمخلاف السليماني شمالاً، فيما أنحصر الوجود الطاهري في مدينة عدن، وظلت الدولة الكثيرية مسيطرة على حضرموت، في حين بقيت القوة المملوكية مسيطرة على منطقة تهامة وبعض مناطق المخلاف السليماني، متخذة من مدينة زبيد مقراً لها.

مواقف القوى السياسية في اليمن تجاه الوجود العثماني:

شرعت الدولة العثمانية بالتوسع جنوباً باتجاه أقاليم دولة المماليك، حيث انتزعت بلاد الشام من أيديهم عام 922هـ/ 1516م، استولت على مصر عام 923هـ / 1517م، فقضت بذلك على دولة المماليك، ومن ثم مدت نفوذها سلمياً إلى بلاد الحجاز، وذلك حين اعترف أشراف مكة بسلطتها عليهم([11]). وورثت الدولة العثمانية بذلك أعباء المشاكل والتهديدات الخارجية التي تعرضت لها الأقاليم الإسلامية خاصة تهديدات البرتغاليين وأتبع سلاطينها نفس مسار المماليك في حماية المدخل الجنوبي للبحر الأحمر من ذلك الخطر، حيث أرسلوا حملاتهم العسكرية جنوباً لتنفيذ تلك المهمة في إطار الخطة الجهادية التي تبنوها وأفصحوا عنها في كثير من رسائلهم، وأوامرهم إلى قادة حملاتهم. فعلى سبيل المثال تضمنت رسالة السلطان سليمان القانوني إلى الأمير المطهر المؤرخة بـ 17شوال 947هـ/16فبراير1541م، التأكيد على أن سبب توجه قواته إلى الهند كان بهدف مواجهة أهل الكفر والعناد بقوله «ولما برزت أوامرنا الشريفة سابقا بتعيين وزيرنا الأعظم سليمان باشا تغمده الله برحمته للبلاد الهندية

بفتح تلك الولاية السنية وبقطع دابر أهل الكفر والعناد»(12). وفي أوامر السلطان سليم الثاني التي بعثها إلى قائد حملته على اليمن سنان باشا، بيّن دواعي إرسال هذه الحملة بقوله «إن استردادنا لمملكة اليمن، إن كان ذلك يتعين علينا، لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس، ولكن جل قصدنا من ذلك إنما هو حفظ ثغر عدن، وصوناً للحرمين الشريفين عن الكفار الملاعين»(13).

وصلت أولى تلك الحملات إلى السواحل اليمنية عام (945هـ/ 1538م) لتشكل بذلك البدايات الأولى للتوسع العثماني في اليمن، وعلى الرغم من أن الهدف الظاهر من وصولهم إلى كان مواجهة البرتغاليين وهو ما كانت تنشده معظم القوى في اليمن وبقية البلاد الإسلامية إلا أن هذا الحدث كان له أثر كبير على الأوضاع السياسية الداخلية في اليمن. حيث تباينت مواقف القوى السياسية في اليمن تجاه الدولة العثمانية وتوسعها العسكري.

فما إن وصلت أنباء سقوط مصر واستيلاء السلطان العثماني عليها سنة 923هـ / 1517م حتى سارع أمير المماليك في اليمن إسكندر المخضرم إلى إعلان ولائه وتبعيته للدولة العثمانية في خطبة الجمعة بصنعاء، في جمادى الآخرة من نفس السنة(14) وشفع ذلك بإرسال ابنه إلى القاهرة لتأكيد موقفه(15)، كما بعث بهدية إلى عاصمة الدولة العثمانية، ليكونوا بذلك أولى القوى السياسية التي حددت موقفها من العثمانيين قبل أن يمتد نفوذهم العسكري إلى اليمن.

لئن كان موقف المماليك تجاه الدولة العثمانية قد أتسم بالوضوح، فإن موقف الدولة الطاهرية منهم لم يكن كذلك. فقد ذكرت المصادر التاريخية أن علاقتهما بدأت عقب سقوط دولة المماليك في مصر سنة 923هـ/ 1517م بأيدي العثمانيين، حيث سارع حاكم عدن الطاهري الأمير مرجان الظافري إلى مراسلة السلطان العثماني سليم الأول على لسان السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب الذي كان قد لقي حتفه عند أسوار صنعاء، وسعى الأمير من وراء تلك المراسلة إلى تقوية علاقته بالدولة العثمانية، وإلى تقديم الاعتذار للسلطان العثماني لما أقدم عليه من تعاون ومهادنة مع البرتغاليين وفي عام 934هـ/1527م بعث الأمير سلمان الرومي(16) برسالة إلى حاكم عدن الطاهري عبد الصمد بن إسماعيل، يدعوه فيها إلى الدخول في طاعة الدولة العثمانية، وجاء رد الأمير عبد الصمد بالموافقة، على أن تكون العملة والخطبة باسم السلطان سليمان القانوني، مع ذكر أسم الأمير عامر بن داوود الطاهري في الخطبة،وعقب تولي السلطان عامر بن داود حكم الدولة الطاهرية وطرده للأمير عبد الصمد، قام بمراسلة السلطان العثماني سليمان القانوني طالباً منه المساعدة، لمواجهة توسعات الأمير المطهر، والتي وصلت إلى مشارف مدينة عدن نفسها سنة 943هـ/1537م(17). وقد رد السلطان على تلك المراسلات، أثناء إعداد الحملة العثمانية لمواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، حيث بعث قائد الحملة العثمانية الأمير سليمان باشا الخادم برسائل وهدايا السلطان إلى أمراء عدن والشحر وأخبرهم بإعداد الحملة، وطلب منهم الدخول في طاعة الدولة العثمانية. فتردد الأمير الطاهري عامر بن داوود في بداية الأمر في قبول ذلك الطلب، وتجاهل أمر مبعوث السلطان، ولم يعط رداً صريحاً، واكتفى بإرسال الهدايا فقط دون إعلانه الدخول في طاعة العثمانيين بشكل رسمي.

وحين وصلت طلائع الأسطول العثماني إلى ميناء عدن سنة 945هـ/ 1538م رحب بهم السلطان عامر بن داوود، وسعى إلى تقديم المساعدة لهم، محاولاً تحسين علاقته بالعثمانيين(18). إلا أن موقف الترحيب هذا لم يشفع له عند قائد الحملة العثمانية سليمان

باشا الخادم الذي اتخذ قرار القضاء عليه ونفذ ذلك حين استدعى السلطان إلى سفينته وأعدمه(19).

في الوقت الذي تردد السلطان الطاهري في أعلان دخوله تحت سلطة الدولة العثمانية، فإن موقف السلطان الكثيري بدر بوطويرق قد اتسم بالوضوح تجاه العثمانيين. فقد بدأ تواصله مع العثمانيين قُبيل وصول حملة سليمان باشا الخادم إلى سواحل حضرموت، وذلك حين بادر إلى مراسلة السلطان العثماني سليمان القانوني طالباً منه المساعدة وباذلاً له الطاعة(20)، جاء تبني السلطان بدر لهذا الموقف نتيجة الظروف التي كانت تمر بها المنطقة، والمتمثلة باستمرار الهجمات البرتغالية على شواطيء حضرموت، وهو ما دفعه للبحث عن نصير يوقف هذا الخطر.(21).وبناءً على ذلك أوفدت الدولة العثمانية رسولاً إلى السلطان بدر بوطويرق محملاً بالهدايا، ومرسوماً سلطانياً يؤكد أن الاستعدادات جاريه من قبل العثمانيين لتجهيز حملة عسكرية لقتال البرتغاليين. حينها أعلن السلطان بدر اعترافه الرسمي بسلطة الدولة العثمانية وتبعيته لها، وأمر بالخطبة في مساجد الدولة الكثيرية باسم السلطان العثماني سليمان القانوني، وكانت أول خطبة جمعة يُخطب فيها بذلك يوم 14 ربيع أول 944هـ /22 أغسطس 1537م. وردت الدولة العثمانية على ذلك بإصدار فرمان سلطاني يقضي بإقرار بدر بوطويرق حاكماً على ولاية حضرموت من قبل الدولة العثمانية. (22)

موقف القوة الزيدية:

في الوقت الذي انضوت فيه بعض القوى السياسية. آل كثير والمماليك طوعاً تحت سلطة الدولة العثمانية، وتم القضاء على دولة بني طاهر، نجد أن أئمة الزيدية هم القوة السياسية الوحيدة التي لم تخضع بشكل نهائي لسلطة العثمانيين، بل دخلوا في صراع معهم حول مناطق النفوذ والحكم، وشكل موقفهم هذا تجاه الوجود العثماني على اليمن الملامح السياسية لأحداث قرن من الزمان 945. 1045هـ/ 1538. 1635م، إذ مرت علاقة الطرفين بأطوار مختلفة، يتضح ذلك من خلال تتبع مراحلها، منذ وصول العثمانيين وحتى خروجهم 1045هـ/1635م.

المرحلة الأولى:

بدأت هذه المرحلة عقب وصول العثمانيين إلى السواحل اليمنية عام 945هـ/ 1538م، اتسمت علاقة الطرفين في بدايتها بنوع من الهدوء وغلب عليها طابع المهادنة، حيث أبدى الإمام شرف الدين في مراسلاته مع قائد الحملة العثمانية نوعاً من الرضا تجاه ما قام به العثمانيون في عدن وزبيد(23)، فقد ذكر صاحب كتاب الفتوحات المرادية أن سليمان باشا «أرسل جاويشاً بمكاتبات إلى الإمام شرف الدين بالجبال يداريه ويسكن الفتنة من قبله، ويطيب خاطره ويراعيه، وجاءت من الإمام المذكور جوابات مُهنّيه»(24).

وروى صاحب كتاب السلوك الذهبية، أن رسالة سليمان باشا إلى الإمام شرف الدين تضمنت تبريره لقتل حاكم عدن الطاهري عامر بن داوود بحُجة سعيه إلى تسليم عدن للفرنج، وأن الإمام أبدى ارتياحه من قيام العثمانيين بذلك في جوابه علي رسالة سليمان باشا الخادم بقوله «وكنا ممن أبتلي في أول أمره بشر هذه الشجرة اللئيمة، التي اجتثها الله سبحانه على أيديكم المباركة، فإنهم أعانوا علينا طوائف الباطل الرافضة الباطنية وغيرهم»(25). وعلى الرغم من عدم ذكر نصوص هذه المراسلات لدى المؤرخين، إلا أن ما أشاروا إليه عن محتواها، يؤكد أن الإمام شرف الدين قد قابل ما قام به العثمانيون عند بداية وصولهم بنوع من الرضا خاصة ما فعلوه تجاه آل طاهر وكانت تلك المراسلات بداية صلة بين الطرفين، ودخول

علاقتهم طوراً أكثر تقارباً.

وشهدت علاقة الطرفين في هذه المرحلة تطوراً كبيراً، حيث أظهر الإمام شرف الدين الطاعة «الأسمية» (26) والتبعية للدولة العثمانية، ولعل ما ورد في مراسلات الإمام، وابنه المطهر مع السلطان العثماني، يؤكد اعتراف الإمام بفضل الدولة العثمانية، والدخول في طاعتها والخضوع لسيادتها، فقد بيّن الإمام في رسالته إلى السلطان سليمان القانوني بتاريخ 17 شوال 947هـ/ 16 فبراير 1541م، أنه أمتثل لأوامر السلطان، ونفذ ما طلب منه بقوله «وقد احببنا مطالعتكم بهذا الكتاب [...] بعد أن بذلنا كل ما طلبتموه منا في كتبكم السابقة من إصلاح السبل وجلب الأرزاق إلى جهاتكم، والمعاونة والمساعدة لما يمكن ويُجعل لنا المساعدة إليه، ولم نمنع إلا ما يجب (أوجب) علينا الله سبحانه منعه» (27). وقد أشار السلطان سليمان القانوني في رسالته إلى الأمير المطهر المؤرخة بـ10 شوال 957هـ/ 23 أكتوبر 1550م، إلى أن الإمام شرف الدين صار من أنصار الدولة العثمانية بقوله « وعاد إلى أعتابنا الشريفة (28) ومعه مكاتيب تتضمن الطاعة لسلطاننا والإخلاص لاتباع مرضاتنا وتعاقبت بعد ذلك مكاتبات والدكم بإظهار الطاعة وبذل الإخلاص والصدق والاستطاعة [...] وتحققنا ما كان يبلغ عنهما على ألسنة المترددين على عتباتنا الشريفة من تلك الديار، وأنهما صارا من توابعنا ومملكتهما من جملة ممالكنا» (29).

ولعل ما جاء في جواب الأمير المطهر بن شرف الدين بتاريخ رجب 958هـ/ يوليو 1551م، على رسالة السلطان سليمان هو دلالة صريحة تؤكد طاعة آل شرف الدين للدولة العثمانية ومن ذلك قوله «وعرفنا ما ذكره سلطاننا سلطان الأمم [...] المختص بحماية الحرم المحرم لطاعتنا لحاله، ودخولنا تحت أقواله وأفعاله، فالحمد الله الذي وفقنا لطاعته [...] كيف وطاعتكم من طاعة الملك الخالق، ومعصيتكم تظلم منها المغارب والمشارق، ونحن من مودتكم على يقين».

وقد أبدا المطهر في جوابه هذا احتراماً كبيراً للسلطان العثماني وأعتبره ظل الله في الأرض، كما خاطب الدولة العثمانية بدولة الخلافة بقوله «نوّر الله شموس الإسلام وأطلعها... شمس الخلافة وقمرها المضئ في الليل البهيم، ظل الله في الأرض ...الخاقان الشهير السلطان الأعظم سليمان بن سليم». وأقر بوجوب طاعة السلطان بقوله «والذي نقله إليكم أرباب الزور ذو الأفك من الناس والفجور من تحولنا عن طاعة السلطان الأعظم، ومخالفتنا لما سبق من مودتنا وتقدم كذب يعلمه الداني والقاص [...] وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بالصواب، وأدراهم بمعاني السنة والكتاب ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وَأولي الأمر منكمْ﴾» (30)

وثمة إشارات وردت في كتابات المؤرخين تبين أيضاً طبيعة تلك العلاقات خلال تلك المرحلة. فقد ذكر صاحب كتاب الفتوحات المرادية أن الإمام شرف الدين «ممن يعترف بفضل الدولة ويقر بشرف ملكها على البرية، ويدعو لها ولأنصارها الحامين بسيوفهم عن حوزة الملة الحنفية [...] وأوصى أولاده بخدمتها في كل زمان والدخول تحت لواء عدلها المنصور» (31)، وأشار صاحب كتاب تاريخ الشحر إلى تلك العلاقة بقوله «وكان في هذه السنة (32) باليمن الإمام شرف الدين وولايته من صعده [...] وكان الإمام يظهر الطاعة للأروام» (33)، وذكر أيضاً أن السلطان العثماني سليمان أصدر مرسوماً سلطانياً يقضي بتولي الإمام شرف الدين حكم صنعاء، ومخلاف جعفر (34)، وتقرير أحوال البلاد وإخراج القوافل إلى عدن، وغير ذلك من المهمات الإدارية (35).

من واقع هذه الإشارات بدا واضحاً أن موقف آل شرف الدين في بداية هذه المرحلة تجاه سيطرة العثمانيين على بعض مناطق تهامة

وعدن، قد اتسم بالمهادنة، وإظهار الطاعة والتبعية الاسمية للدولة العثمانية، دون التصريح الرسمي بذلك، أي أن تكون العملة والخطبة باسم السلطان العثماني، ويبدو أن ما دفع الإمام شرف الدين إلى اتخاذ هذا الموقف، هو عدم وجود مبررات تستدعي معاداة الدولة العثمانية في تلك المرحلة، فظهور العثمانيين حينها على السواحل اليمنية، وسيطرتهم على تلك المناطق كان في إطار نية الجهاد التي تبنوها لحماية المنطقة من الخطر البرتغالي. إلا أن هذا الموقف لم يستمر طويلاً، فقد أبدى الإمام شرف الدين امتعاضه وعدم رضاه تجاه تصرفات الولي العثماني في زبيد، وبعث برسائل إلى والي مصر وإلى السلطان العثماني يشكو فيها من تلك التصرفات، كما دخل في صراعات عسكرية مع العثمانيين في منطقة تهامة. (36)

المرحلة الثانية:

عقب توغل العثمانيين عام 952هـ/1546م، في مناطق اليمن الداخلية الخاضعة لنفوذ الإمام شرف الدين، دخلت علاقة الطرفين مرحلة جديدة من مراحلها، غلب عليها طابع الصراع السياسي العسكري، واستمرت حتى خروج العثمانيين من اليمن سنة 1045هـ / 1635م، فقد رأى آل شرف الدين في تقدم العثمانيين صوب مناطق اليمن الداخلية، تهديداً لمحاولاتهم إقامة الدولة الزيدية في اليمن، وفقدانا لمركزهم السياسي والديني(37)، ولمناطق نفوذهم، وهو ما عبر عنه الأمير المطهر بن شرف الدين في جواب إلى السلطان سليمان بن سليم، حين برر حربه على العثمانيين بقوله «ولا كان لنا إلى حربهم يقصد عساكر السلطان في اليمن تعد ولا التفات بل قصدونا إلى هذه الديار [...] وما راعوا لأوامركم الشريفة فينا أحكاماً، وضيقوا علينا مسالك المعيشة خلفاً وأمام، ورمونا بما لا يرما [يرمى] به إلا الذين يعبدون أوثاناً وأصناماً»(38).

وقد رأوا في ذلك التقدم تنصلاً عن واجب الدولة العثمانية الحقيقي، والمتمثل في محاربة أعداء الدين وهو الشعار الذي رفعه العثمانيون عند وصولهم إلى اليمن، وهو ما سبق وأن أشار إليه الإمام شرف الدين في رسالته إلى السلطان سليمان القانوني والمؤرخة بـ 17شوال 947هـ/ 16 فبراير 1541م، حين أكد للسلطان أن الولاة في اليمن منشغلون بالأطماع الدنيوية والتعدي على الرعية، غير مبالين بتحقيق الهدف الذي من أجله جاءوا إلى اليمن بقوله « ثم ننهي إليكم ما صار عليه أكثر أهل ولايات زماننا هذا في أقطارنا من قبل وصول عساكركم إلى الجهات اليمنية والتهامية، ومن بعد من تعدي حدود الشريعة المطهرة، وعدم مراعاة معالمها المقررة، وإشتغالهم بغير ما أمرتموهم به، على ما بلغنا في النظر في جهاد الكفار وعدم التعرض للمسلمين»(39). كما أبدا المطهر بن شرف الدين استغرابه من وجود الجيوش العثمانية في الديار اليمنية في جوابه على رسالة السلطان سليمان القانوني بقوله «ولو أن عساكركم المنصورة الألوية، المسلَّمة عن صروف الأقضية وجهوا هممهم العلية، وعزائمهم الصلبة القوية إلى الجهات الكفرية، لنالوا من الخير نيلا عظيماً، وسلكوا إلى سبيل السعادة صراطاً مستقيماً [...] بيد أنهم تشاغلوا بحربنا عن جميع الحروب، وفوتوا بذلك كل عرض ومطلوب، أهملوا جهاد الكفار»(40).

والجدير بالذكر أن وصول العثمانيين إلى اليمن، وتوغلهم في مناطقه الداخلية، ومن ثم استمرار بقائهم فيه ما يقارب مائة عام قد أحدث تحولا مهماً في تاريخ اليمن الحديث، فقد أصبحت اليمن من حينها ولاية عثمانية، شهدت اليمن خلال فترة وجودهم حالة من عدم الاستقرار السياسي، إذ خاض أئمة الزيدية حروباً مريرة استمرت حتى خروج العثمانيين من اليمن عام 1045هـ /1635م ، وما يميز تلك الحروب أن طرفيها تبنوا خطاباً سياسياً عبروا فيه بطريقة أو بأخرى عن وجهة كل طرف إلى

الأخر، وقد ظهر جلياً مضمون ذلك الخطاب في كتابات المؤرخين اليمنيين المعاصرين لأحداث تلك الفترة، الذين تكفلوا بتدوين أحداث تلك المرحلة من وجهتي نظر مختلفتين. إذ شهدت حركة التأليف التاريخي في تلك الفترة نشاطاً ملحوظاً، تمثل بظهور فئتين من المؤرخين أحداها انحازت إلى جانب العثمانيين وأخرى إلى جانب أئمة الزيدية، وهذا التباين في مواقف المؤرخين هو ما ميز الكتابة التاريخية، إذ يمكن من خلالها قراءة مواقف القوى المتصارعة تجاه تلك الأحداث، كما يمكن التعرف على وجهة نظر كل طرف تجاه خصمه السياسي، فقد كان المؤرخون بمثابة وسائل إعلام في وقتنا الراهن، كما أن كثير منهم كانوا موظفين رسميين لدى القوى المتصارعة وكتبوا مصنفاتهم التاريخية إما بطلب منهم، أو نتيجة انسجام مواقفهم وتوجهاتهم السياسية مع مضامين الخطابات السياسية التي تبنتها تلك القوى، فحملت مؤلفاتهم التاريخية صفة رسمية، فكان إسهامهم في الصراع جزءاً من عملهم، وتلبية لتوجهات أطراف الصراع، حيث حملوا على عاتقهم مسئولية نشر الخطاب السياسي والفكري للطرف الذي انحازوا إليه في مؤلفاتهم، وشنوا في الوقت نفسه حملة دعائية ضد خصومهم السياسيين(٤١).

لم يقتصر تأثير المؤرخين في أحداث ذلك الصراع على ما دونوه في مؤلفاتهم التاريخية فحسب، فما دونوه فيها هو خلاصة أفكارهم، وحصيلة نهائية لجهود سنين من العمل الفكري الدعائي، الذي سعوا من خلاله إلى مخاطبة الأجيال القادمة وهو الهدف المعتاد من تدوين التاريخ، بل كان لهم تأثير مباشر في الهامش الاجتماعي الواسع، حيث عملوا على نشر وترويج خطابات القوى المتصارعة فيه وحاولوا أثبات شرعيتها، لإقناع فئات المجتمع المختلفة بعدالة موقف من انحازوا إليه. ومثلت حلقات العلم في صحون المساجد، وجلسات السمر، والمنادمة في المناسبات الدينية والاجتماعية، ومجالس القات وسائط مناسبة للقيام بذلك الدور، موظفين في ذلك قدراتهم العلمية واللغوية بما يتوافق والوسط الثقافي الذي خاطبوه.

وإذا افترضنا أن مؤلفاتهم التاريخية لم تكن الوسيلة المباشرة، التي ساهموا من خلالها كوسيلة إعلام في أحداث الصراع، فإنها قطعاً قد كانت بمثابة وعاء، أستوعب خطابات القوى المتصارعة، وتجسدت فيها صور الصراع ووسائله المختلفة(٤٢).

عطفاً على ذلك يمكن قراءة مواقف القوى السياسية في اليمن تجاه الوجود العثماني، من خلال تلك الكتابات وبالتالي توصيف طبيعة ذلك الوجود توصيفاً موضوعياً اعتماداً على تلك القراءة.

بالعودة إلى توغل العثمانيين في مناطق اليمن الداخلية فإن السؤال المطروح هنا ما الأسباب التي دفعت العثمانيين إلى الانحراف عن مسار هدفهم في مواجهة البرتغاليين بالتوغل في المناطق الداخلية من اليمن ؟ وما الموقف والخطاب السياسي الذي تبنته القوة الزيدية حيال ذلك التوغل ومن ثم حيال وجود العثمانيين في اليمن؟ وكيف نظرت الدولة العثمانية للمعارضين لوجودها في اليمن؟

يمكن القول هنا أن مسألة توغل العثمانيين في مناطق اليمن الداخلية، وخروجهم عن إطار الهدف السياسي المعلن المتمثل بحماية الأماكن المقدسة في مكة والمدينة من خطر البرتغاليين، لم يكن عملاً ارتجالياً أو عشوائياً، بل كانت له أسباب ودوافع، فقد اكتشفت الدولة العثمانية زيف المبالغات التي رسمها سليمان باشا الخادم عن إنجازاته في الهند، وعن خضوع الإمام شرف الدين في اليمن لطاعة الدولة العثمانية. وقد ظهر ذلك حين وصلت الأخبار من اليمن، والتي تؤكد أن الإمام شرف الدين مازال مُستمراً في توطيد أركان دولته هناك، وأنه تلقب بلقب أمير المؤمنين،

ويقوم بجباية الأموال من الرعايا، مما يؤكد أن ما أبداه من طاعة للدولة العثمانية في مراسلاته، كانت طاعة اسمية من باب المهادنة ليس إلا. الأمر الذي دفع الدولة العثمانية إلى تبني سياسية جديدة تجاه اليمن، سعت من خلالها إلى إخضاعه وبسط نفوذها عليه بالقوة. وجاء إرسال حملة أويس باشا لتنفيذ تلك السياسية (43).

ذلك هو السبب الرئيسي كما يبدو الذي دفع الدولة العثمانية إلى إرسال تلك الحملة، إلى جانب أسباب أخرى شجعتهم على ذلك، منها ما يتعلق بأوضاع اليمن الداخلية، وأخرى تتعلق بأوضاع الدولة العثمانية.

فقد كانت أسرة آل شرف الدين تمر بأزمة سياسية تمثلت بظهور الشقاق ووقوع حالة من الصراع و التحالف بين أفرادها. مثّل المطهر أحد طرفيها في حين مثّل والده وأخويه علي وشمس الدين الطرف الثاني حول مسألة الإمامة، فسعى العثمانيون إلى استغلال تلك الخلافات لمصلحتهم. كما لعبت القوة الإسماعيلية التي كانت على عداء مع الإمام شرف الدين دوراً كبيراً في تشجيع العثمانيين على التقدم لمحاربة الإمام(44).

وفي الوقت الذي مرت فيه أسرة آل شرف الدين بحالة من التفكك، كانت الدولة العثمانية تعيش أوج قوتها وعزها السياسي والعسكري، لذلك سعت لمد سيطرتها على مناطق اليمن الداخلية لضمان حماية قواتها المرابطة في المناطق الساحلية. خاصة وأن الكثير من المناوشات والاحتكاكات كانت تقع بينهم وبين قوات الإمام شرف الدين من وقت إلى أخر(45). وبالإضافة إلى كل تلك الأسباب فإن أعتماد الدولة العثمانية في مصادرها المالية على جباية الزكاة والضرائب(46) كان له تأثير قوي لا يمكن تجاهله في أقدامها على إرسال حملاتها العسكرية المتتالية للسيطرة على تلك الأقاليم، و الأستفادة من مواردها المالية. خاصة وأن الفكرة التي رُسِمت في أذهان السلاطين العثمانيين عن اليمن وأوضاعها، قد بُنيت أساساً على التقارير الأولية التي بعث بها قادة الحملات العسكرية الأولى، وأكدوا فيها على امتلاك اليمن موارد مالية ضخمة، وأن السيطرة على اليمن سهلة المنال. فقد ورد في تقرير احد القادة العثمانيين(47) بتاريخ 10 رمضان 931هـ / 1يوليو 1525م أن اليمن أكثر رخاءً من مصر، وبها موارد وافرة، فعائدات زبيد وحدها تبلغ «18000» سكة ذهب سنوياً، وفي منطقة تعز 300 قرية مسجلة للضرائب، وذكر انه يمكن تقسيم اليمن إلى خمسة سناجق بالإضافة إلى عدن، وأضاف أيضاً أن اليمن ينقصها حاكم قوي وان الفوضى تعم أرجاءها، وأن مسألة فتحها أمر مُتيسر وسهل(48).

وفي رسالة بعث بها سليمان باشا الخادم إلى السلطات العثمانية، وصف فيها ميناء عدن، وذكر انه لم يزر بقية اليمن الممتد من عدن إلى مكة، إلا أن هذه المناطق الواسعة يمكن تقسيمها إلى ثلاثين سنجقا، ونصح بتعيين بكلربك يقيم في زبيد بدلا من عدن(49).

ومما سبق يمكن القول أن كل تلك الأسباب مجتمعة دفعت العثمانيين إلى التوغل في الأقاليم الداخلية من اليمن، وأن أئمة الزيدية قد أدركوا وجود نوايا وأطماع سياسية توسعية للدولة العثمانية في اليمن، الأمر الذي دفعهم إلى مجابهة ذلك دفاعاً عن محاولاتهم إقامة الدولة الزيدية في اليمن.

التأصيل الفقهي للخطاب السياسي للقوى المتصارعة.

خاض أئمة الزيدية والعثمانيون صراعاً سياسياً وعسكرياً أستمر ما يقارب مائة عام، تبنوا خلاله خطاباً سياسياً مؤطراً دينياً وبمضامين مختلفة بهدف الخروج من المأزق الديني كون الطرفان مُسلمان، منطلقين في بناء خطابهم من مرجعيات متعددة في الفقه السياسي الإسلامي، فقد أتخذ أئمة الزيدية

من موروث الفقه السياسي الزيدي وهو الفقه الذي تقوم دعوتهم على أساسه قاعدة لهم في بناء خطابهم السياسي، بما يحمله من ثوابت ومبادئ سواءً ما يتعلق منها بأصول الدين، أم بشروط الإمامة، حيث استثمروا بعض مبادئ ذلك الفكر، وصيروا منها ركائز أساسية في خطابهم الذي بنو دعوتهم الدينية والسياسية عليه، بما يتوافق وظروف الصراع آنذاك.

فكان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أهم تلك المبادئ التي انطلقوا منها في صرعهم مع العثمانيين. ويعد هذا المبدأ من أصول الدين الخمسة في المذهب الزيدي (الهادوي)[50]، إلى جانب بقية الأصول وهي توحيد الله، وعدله، وإثبات وعده ووعيده، وإثبات الإمامة في المصطفين من آل نبيه[51]. ويستدعي تطبيق ذلك وفق الفكر الزيدي الهادوي أن يبادر المكلف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة بالأخذ على يد الظالم إحياءً للحق[52]. كما جعلوا من مبدأ أثبات الإمامة في آل البيت أحد ركائز دعوتهم، إلى جانب تلك المبادئ فإن قضية محاربة الظلم، والخروج على الظلمة، كانت من الركائز الأساسية في خطابهم السياسي، وهذة القضية تعد من الأسس التي لا تثبت إمامة الداعي من آل البيت إلا بها، حيث يعد شرط الخروج على الحاكم الظالم، وإشهار السيف في وجهه شرطا من شروط الإمامة في المذهب الزيدي[53].

كانت تلك أهم مبادئ الفكر الزيدي، التي انطلق منها أئمة الزيدية في صراعهم مع العثمانيين، مستثمرين ظروف المرحلة لتحويل تلك المبادئ إلى مواقف سياسية شرعية. حيث استثمروا الممارسات الخاطئة التي قام بها بعض الولاة العثمانيين لتكون الحجة والذريعة و العناصر الرئيسة التي بنى عليها أئمة الزيدية خطابهم السياسي، الذي أظهروا من خلاله ممثلي الدولة العثمانية بمظهر الظالمين الفاسقين، واعتبروا استمرارهم في حكم اليمن اغتصاب لحق آل البيت، الذي يجب أن يكون الحكم والإمامة فيهم. فهيأت تلك الظروف مناخات مناسبة لإعلان الحرب ضدهم بقيادة «الرضا» من آل البيت، وتطبيقاً لذلك شن أئمة الزيدية حرباً شاملة ضد الحكم العثماني تحت هذه المبررات. واستحضروا ما أمكن استحضاره من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في رسائلهم إلى أنصارهم والتي تزخر بها مؤلفات المؤيدين لهم.

وفي الوقت الذي اعتمد فيه أئمة الزيدية في صراعهم مع العثمانيين على مفردات الفكر الزيدي، فإن العثمانيين ومؤيديهم رأوا أن سلاطينهم هم أولو أمر المسلمين الواجبة طاعتهم وعدم الخروج عليهم، و أن دولتهم تمثل استمراراً تاريخياً لدولة الخلافة الإسلامية، وأن حكمهم في الأقاليم التي سيطروا عليها هو حكم شرعي، خاصة بعد تولي سلاطينها مسئولية حماية الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. وهو ما يعرف في الفكر السياسي الإسلامي بخلافة القوة أو خلافة الغلبة، التي ينعقد الإجماع على قبول شرعيتها. بناءً على القاعدة الفقهية القائمة على أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والتي يعد فيها الخروج علي الحاكم، أو السلطة بغي وشق لعصا المسلمين، نظراً للأضرار الجسيمة، التي تترتب على ذلك الخروج، كون المتغلب أو المستولي على السلطة عادة ما يمتلك القوة، وطرق إزالته لا تتحقق إلا بالقوة، وهو ما قد يؤدي إلى ضرر أكبر يتمثل في نشوب الحروب والفتن الداخلية، التي تلحق الأذى بالمسلمين[54]. لذلك رأوا إن وصولهم إلي اليمن وحكمهم له هو أمر شرعي، خاصة وأن ذلك الوصول كان في إطار الهدف الديني الواسع لحملتهم التوسعية في جنوب البحر الأحمر، المتمثل في جهاد الفرنج وحماية ثغور الإسلام من الخطر الصليبي.

انطلاقاً من ذلك جاء الخطاب السياسي العثماني مرتكزاً على فكرة طاعة أوليّ

الأمر، وعدم الخروج عليهم، وأن ما يقوم به الأئمة الزيدية يعد نوعاً من الفتنة، تجلى ذلك في مؤلفات مؤرخيهم الذين عملوا على تدعيم هذا التوجه السياسي بما أمكن من النصوص الدينية والأحاديث النبوية.

اعتماداً على تلك المرجعيات الفكرية سعت القوى المتصارعة إلى توظيف السند الديني، بما يخدم مصالحها السياسية، وتفاوتت درجة التوظيف تلك من قبل أطراف الصراع، وفق الظروف التي كان يمر بها كل طرف، حيث أعتمد أئمة الزيدية بشكل كبير على توظيف الأسانيد الدينية لخدمة قضيتهم السياسية، ويأتي ذلك نتيجة الوضعية السياسية التي كانوا يمرون بها، فهم يمثلون قوة معارضة للسلطة، وهذا الموقف المعارض «الثائر» بحاجة إلى أن يمتلك خطاباً قوياً معززاً بالأسانيد الدينية التي تبرر هذه المعارضة وتجيز الخروج، بدا ذلك واضحاً في رسائلهم و خطبهم السياسية، التي كانت وسيلتهم الأساسية في شرح مبادئ دعوتهم، والتي تكفل مؤرخوهم بتدوينها في مؤلفاتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة العثمانية، ومناصريها قليلاً ما اعتمدوا على الأسانيد الدينية في صراعهم مع أئمة الزيدية، لأن هذا النوع من التوظيف يكون لغرض الإقناع، والدولة العثمانية لم تكن بحاجة على ما يبدو لإقناع الناس بشرعيتها، بقدر ما كانت بحاجة لإيجاد الدليل على عدم شرعية من يخرج عليها. ومن هنا كان توظيفها للأسانيد الدينية إلى حد كبير مقصوراً على مسألة إظهار طاعة الحاكم، وعدم الخروج عليه، والتأكيد على أن ما يقوم به أئمة الزيدية هو نوع من الفتنة، والبغي، والخروج وشق عصا الطاعة، الأمر الذي يجيز لصاحب الشرعية محاربته. وتجلى هذا الأمر واضحاً في مراسلات سلاطينها، ومؤلفات مؤرخيها.

وتعكس تلك الخطابات وجهات نظر كل طرف في الآخر، كما حملت في الوقت نفسه المبررات التي ارتكز عليها كل طرف في أحداث ذلك الصراع وفقاً للظروف السياسية([55]).

مراحل الخطاب السياسي للقوة الزيدية

المرحلة الأولى

كانت بداية هذه المرحلة بُعيد استقرار العثمانيين في منطقة تهامة، حيث دخل الإمام شرف الدين في مواجهة معهم تحت مبررات تمادي الوالي العثماني في زبيد ظلم الرعية، وانحراف العثمانيين عن مسار حملتهم في حماية الثغور، وعدم احترامهم لآل البيت النبوي، لذلك فقد تبنى آل شرف الين خلال هذه المرحلة خطاباً دينياً عاطفياً، أكدوا فيه أن مجابهتهم تلك هي من باب الدفاع عن النفس، وعن مكانة آل البيت الاجتماعية والدينية، و تجسد مضمون هذا الخطاب في مراسلاتهم إلى السلطان سليمان القانوني، فقد أشار الإمام شرف الدين في رسالته بتاريخ 17 شوال 947هـ/ 16فبراير1541م، إلى أن حربه ضد العثمانيين في تهامة، لم تكن إلا دفاعاً عن النفس بقوله «فلم يكن من أمير زبيد إلا القيام بنفسه وجنده المعد لجهاد أعداء الله في مخالفة ذلك والبغي على ذرية نبيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسعاده لأعداء الله [...] وقد أحببنا مطالعتكم بهذا الكتاب حتى تعرفوا أنه لم يكن منا إلا الدفاع عن الحوزة بعد أن بذلنا كل ما طلبتموه منا»([56]).

كما ظهر مضمون هذا الخطاب في جواب الأمير المطهر المؤرخ بـ رجب 958هـ/ ابريل 1551م، رداً على رسالة السلطان سليمان القانوني، حيث حاول فيه التركيز على الجوانب العاطفية بتذكير السلطان بمكانة آل البيت بقوله «ونحن من مودتكم على يقين، ونرجو أنكم لا تصغوا أذنا لكلام الفاسقين ولا تهملوا

رعاية الصالحين المتقين، ولا تقطعوا حقا لذرية النبي الأمين، وأبناء علي الأنزع البطين كرم الله وجهه في عليين { قُل لا أَسأَلُكُمْ عليْه أجْرًا إلّا المَوَدّةَ فِي القُرْبَى} وذلك هدي الكتاب المبين، وأنتم أولى برعاية ما أمر الله به أن يرعى، ويقر من عين النبي الكريم عيناً وسمعاً». ثم علل قتاله للعثمانيين بقوله «ولم يعلموا أنا ممن اوجب الله لهم رعاية واحتراماً، ومن الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، فدافعنا عن أنفسنا وأولادنا ما أمكن من الدفاع ودرأنا عن محارمنا وترك الدفاع عنهما لا يستطاع» (57).

جاء تبني أئمة الزيدية من آل شرف الدين لهذا الخطاب في هذه المرحلة كما يبدو نتيجة إفتقارهم للمبررات الشرعية المقنعة، التي تمنحهم الحق في مجابهة الزحف العثماني، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية عملوا على مسايرة المكانة الدينية والسياسية المرموقة التي حظي بها العثمانيين في البلاد الإسلامية، خاصة أن وجودهم كان في الأساس لحماية بلاد المسلمين ومقدساتهم من الخطر البرتغالي(58).

المرحلة الثانية:

وفي المرحلة الثانية من الصراع بين الطرفين، والتي كانت بدايتها بعد حملة أزدمر باشا، وإستيلائه على صنعاء سنة 954هـ/ 1547م، تغير موقف أئمة الزيدية تجاه العثمانيين نتيجة المستجدات التي طرأت في هذه المرحلة، فبعد استقرار العثمانيين في الأقاليم التي سيطروا عليها، وتوليهم مسئولية إدارتها وحكمها، بدات ملامح العداء لهم تظهر في أوساط المجتمع اليمني خاصة في مناطق الشمال الخاضعة لحكم آل شرف الدين، نتيجة الممارسات الخاطئة التي قام بها بعض الولاة والجنود العثمانيين(59)، حيث استثمر أئمة الزيدية تلك الأوضاع، واستوعب خطابهم المستجدات التي لازمت هذه المرحلة، وأصبح للجانب الاجتماعي المؤطر دينياً نصيباً كبيراً في مضمون ذلك الخطاب. فقد انكروا مثل تلك التصرفات التي اقدم عليها بعض الولاة العثمانيين، ورفعوا شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الظلم ومحاربة الظالمين. وهو الشعار الذي يمنحهم تبريراً شرعياً لخوض غمار الصراع السياسي ضد الدولة العثمانية.

ظهر مضمون ذلك الجانب جلياً في رسائلهم وخطبهم التي بعثوها إلى أنصارهم وحلفائهم، فقد عمل الإمام شرف الدين على تحريض الناس على محاربة العثمانيين معللا ذلك بمخالفة ولاتهم لأحكام الشريعة الإسلامية، وهي من الأمور الأساسية التي يجب أن يلتزم بها الحاكم المسلم، وأكد أن طردهم من اليمن مهمة جهادية مقدسة(60). وعمل المطهر بن شرف الدين على استثارة حمية اليمنيين وحرضهم على جهاد العثمانيين في رسائله التي كان يبعثها إلى مشائخ القبائل، والتي بيّن فيها مثالبهم وما يقومون به من أعمال فيها إهانة لآل شرف الدين خاصة ولليمنيين عامة، وأرفق في بعض هذه الرسائل بخصلات وضفائر من شعور نسائه وحريمه(61)، حيث أكد في احدى رسائله أن حربه ضد العثمانيين إنما هي حرب لدرء « أهل الكفر والجحود الذين دمروا البلاد تدميرا، وفعلوا المنكر وارتكبوا العظائم، وهتكوا المحارم» (62)، وأن كل ما يرجوه من هذه الحرب هو الأمر بالمعروف النهي عن المنكر، وأحياء شريعة الله. و بيّن في رسالته تلك أنه لا يسعى إلى طلب المال، أو السلطة من وراء هذه الحرب، وإنما يسعى إلى تحقيق طاعة الله، وحماية البلاد، وصون دماء المسلمين بقوله «وآثرنا طاعة الله وحماية دينه، ونرجو بذلك ثوابا كثيراً، لا رغبة في الدنيا لنحوز ذهبا وفضة وحريراً، بل لحماية البلاد وحقن دماء العباد، ممن كان آثماً أو كفوراً» (63).

وظل هذا الجانب يمثل الركيزة الأساسية في خطاب أئمة الزيدية في صراعهم مع العثمانيين، حتى خروجهم من اليمن، فقد أكد

الإمام الحسن بن علي المؤيدي[64] أن قيامه بأمر الدعوة، وإعلانه الحرب على العثمانيين، كان من باب إحياء شريعة الله، ومحاربة الظلم والعمل بكتاب «الله وسنة نبيه r، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومباينة الظالمين، وجهاد أعداء الله المفسدين، والإنتصاف للمظلومين من الظالمين"[65]. ولنفس الهدف كانت دعوة الإمام القاسم بن محمد[66]، حيث بين في رسالته إلى انصاره أن العثمانيين هم الفرقة الطاغية، التي يجب محاربتها ومقاتلتها، نظراً لما يقترفوه من أعمال مخالفة لتعاليم الدين الحنيف بقوله «ولا تحسبوا أن الدين معقود على هذه الفرقة الطاغية، فإن الله قد فرق شملهم [...] فلا تغتروا بكذبهم، وإرعادهم وإبراقهم، فإن الكذب دأبهم، والفجور مذهبهم، ينكحون الذكور، ويشربون الخمور، ويقولون الزور، ويسفكون الدماء، وينقضون العهود»[67].

وعلى نفس المنوال سار الإمام المؤيد محمد بن القاسم[68]، حيث أشار في رسالته بدون تاريخ إلى الأشراف بني الحسن آل موسى بن عبدالله، أشراف مكة، أن سبب دعوته وتحمله أعباء الإمامة، كان الغرض منها طاعة الله، بإقامة شرعه، بعد أن طال الأمد بالعثمانيين في اليمن، وتعطلت أحكام الشرع في عهدهم، وأنه لم يقدم على الخروج عليهم إلا بعد أن ظهر في عهدهم «السفاح، وحمل النكاح[...] وشربت الخمور، ونكحت الذكور، وارتكبت الشرور، وأكل الربا، وقبلت الرشا، وتسابق الناس في ميدان الهوى، وعسف السلطان، وبهج الشيطان، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[69].

كما أنهم حملوا ولاة الدولة العثمانية مسئولية قطع السبل أمام الأئمة لإيصال شكاويهم إلى سلاطين الدولة وتعميم كراهية الناس للدولة بتلك التصرفات، وهو الأمر الذي سبق وأن أشار إليه الإمام شرف الدين في رسالته إلى السلطان سليمان القانوني المؤرخة بـ 17 شوال 947هـ/ 16فبراير1541م بقوله «وأعلمنا [...] انه بلغ إلى زبيد قاصد من جنابكم الكريم إلى جهاتنا، وأن والي زبيد منعه، وكتبنا إلى والي عدن في ذلك ورجع جوابه أن يراجعه. فإن ترك قاصدكم يصل إلينا، وإلا كان شاهداً لنا عليه، فلم يكن من والي زبيد إلا الاستمرار على منع القاصد، وكتب إلينا وإلى والي عدن، بأنه لا يخلي القاصد إلا إذا سلمنا إليه البلاد»[70].

وأشار إلى مثل ذلك الأمير المطهر في جوابه على رسالة السلطان سليمان القانوني المؤرخ بـ رجب 958هـ/ ابريل 1551م، بقوله «وكنا نود أن نرسل إلى الأبواب الشريفة [...] رسولاً ينهي إليكم حقائق الأمور[...] إلا أن هؤلاء الذين يلونا سدوا علينا وقطعوا من التواصل أوصالاً، وقعدوا لرسلنا كل مقعد بكرة وأصيلا، وصدوهم عن الوصول إلى أبوابكم العالية عن الأبواب[...] فلو كان منهم ما نريد لكان صدر إلى أبوابكم الشريفة منا في كل حين ما نريد»[71]. كما اكد على مثل ذلك الإمام المؤيد في رسالته إلى والي الأحساء علي باشا، حين حمّل الولاة تبعات ما حدث بقوله «فنعم الأمر كما بلغكم، مما وقع بيننا وبين من يتعلق بالسلطنة القاهرة(يقصد الولاة) أعز بها الله الإسلام، ممن لم يؤد حق الله ولا حفظ حرمة من حرم الله، ولا غضب يوماً على أهل المعاصي»[72]. وأكد في تلك الرسالة أن تصرفات الولاة أساءت إلى سمعة الدولة العثمانية. بقوله «بل هؤلاء الوسطاء (يقصد الولاة) بيننا وبينهم (يقصد السلاطين) هم الذين عموا السبيل، وأضاعوا الحق، وأعظموا الفرية فنسبوا إلى السلطنة ما هي إن شاء الله مبرأة منه ومنزهة عنه»[73].

وفي الوقت الذي حملوا الولاة تبعات ظلم ومحاربة آل البيت فإنهم نفوا أن يكون السلاطين من المعادين أو المحاربين لآل البيت، وأن احترامهم للسلاطين مقروناً بما يبدونه من احترام وتقدير لآل البيت. تجلى هذا الاتجاه في مراسلاتهم مع سلاطين الدولة العثمانية وأمرائها، حيث أكدوا أن طاعتهم واحترامهم

للسلاطين مقروناً بما يبديه أولئك السلاطين من احترام ومكانة لآل البيت النبوي، وهو ما أظهره السلاطين العثمانيون في مراسلاتهم مع أئمة الزيدية، وظهر ذلك جلياً في رسالة الإمام المؤيد بالله إلى والي الإحساء علي باشا المؤرخة بـ 25رمضان 1040هـ/28 أبريل 1630م، بقوله «وحاشا السلطنة القاهرة أن ترضى ذلك، أو تسلك هذه المسالك ،أو تتخذ عن آل البيت النبوي بدلا، أ وتتفي عنهم وعن أتباعهم خولا »(74).

ولتعزيز موقفهم أستشهد أئمة الزيدية بالعديد من الأيات القرآنية والأحاديث النبوية(75) التي تكرر ذكرها في رسائلهم ـ كفل مؤرخيهم بتوثيقاها في مؤلفاتهم التي تؤكد على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنها.

قوله تعالى [وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] «سورة آل عمران : آية 104» (76). وقوله تعالى كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ [سورة آل عمران: آية 110 (77)، ومنها أيضا قوله تعالى [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ! كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ! تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ]

سورة المائدة ، آية 78، 79، 80 (78).

وقوله صلى الله عليه وسلم «لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو يسلطن الله عليكم شراركم، فيسومنكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم حتى إذا بلغ الكتاب أجله، كان الله هو المنتصر لنفسه، ثم يقول ما منعكم إذ رأيتموني أعصى أن تغضبوا لي»(79). وقوله r ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، وهم يقدرون على أن يغيروا فلا يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب"(80). وقوله صلى الله عليه وسلم « أن رجلاً من بني إسرائيل كان يرى الرجل على المعصية فينهاه، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله، وخليطه، فلما رأى الله ذلك ضرب بقلوب بعضهم على بعض، فلعنهم على لسان أنبيائهم داود وعيسى بن مريم. وكان رسول الله متكئاً فجلس وقال: والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، أو يلعنكم الله كما لعنهم»(81).

المرحلة الثالثة:

إلى جانب المضمون الاجتماعي فإن ملامح الجانب السياسي أحقية آل البيت في الحكم في مضمون نص الخطاب المؤطر دينياً الذي تبناه أئمة الزيدية في صراعهم مع العثمانيين لم تظهر إلا في المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين الطرفين.

ففي المرحلة الثالثة والأخيرة للصراع التي بدأت بعد موت الأمير المطهر بن شرف الدين 980هـ/ 1572م، تبنى أئمة الزيدية خطاباً ذي طابع سياسي، حيث جعلوا من قضية أحقية آل البيت في الإمامة ركيزة من ركائز خطابهم في هذه المرحلة، إلى جانب دعوتهم بإقامة العدل ومحاربة الظلم. وجاء تبني أئمة الزيدية لهذا الخطاب نتيجة الظروف السياسية التي مرت بها اليمن حينها فبعد موت المطهر الذي مثل إلى حد كبير. استمرارا لمحاولات إقامة الدولة الزيدية، بدأت ملامح ضعف وأفول هذه المحاولات تظهر، وذلك حين تمكنت الدولة العثمانية من بسط سيطرتها على معظم أقاليم اليمن، واحتوت بقية أمراء آل شرف الدين، وحولتهم إلى عوامل استقرار، بمنحهم الوظائف الرسمية، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية مثلت فترة الوالي حسن باشا(82) 988ـ 1013هـ/ 1580ـ 1604م،

فترة استقرار سياسي، فقد عمل هذا الوالي على نشر العدل، وإقامة المشاريع الخيرية، وتعد فترة حكمه من أكثر الفترات رخاءً وعدلاً (83).

تلك الظروف خففت من وتيرة الجانب الاجتماعي، ولم تعد المبررات التي حملها مضمون خطابهم في المرحلة الثانية الغاية الرئيسية، أونقطة الانطلاق في هذه المرحلة، لذلك عمل أئمة الزيدية على مسايرة هذه الأوضاع سعياً منهم للحفاظ على محاولات إقامة الدولة الزيدية، وتبنوا خطاباً ذا طابع سياسي بدأت ملامحه تظهر في دعوة الإمام الحسن بن علي المؤيدي، الذي مثلت دعوته إحياءً للإمامة الزيدية.

فقد أكد في خطبته التي دعا فيها لنفسه بالإمامة، على أن الزمان لا يخلو من قرشي صالح للإمامة، وأن آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق من يتولاها، وانه لا يوجد في عصره من آل البيت من هو احق منه في تولى هذا الأمر بقوله « فها أنا ذا أنبيكم بأني أعلم من نفسي، وأطلع من يقيني ويخبرني فهمي بانفرادي من أبناء جنسي بالملكة والعلم بالقوانين، التي يتوصل بها استنباط الأحكام الشرعية والفرعية [...] وهذا هو علم الأصول، وكذلك أجد من نفسي [...] الملكة بالأحكام أنفسها الشرعية والفرعية عن أدلتها التفصيلية، وهذا هو علم الفروع، وكذلك الملكة والعلم بسائر العلوم، التي يتصل بها فيما يرجع إلى ديانات الإسلام وصلاح الخاص والعام، وهذا هو المجتهد، وإن كنتم في شك من هذا فعلى المدعي البينة وعلى المنكر اليمين» (84)، وبين أيضاً أن دعوته هي للعمل بكتاب الله وسنة جده ومذهب آبائه(85) .

وتجلت وتيرة هذا الجانب بشكل واضح في عهد الإمام القاسم، حيث ربط في إحدى رسائله إلى أنصاره بين طاعة الله وطاعة أئمة الهدى آل البيت، وبيّن فيها أن خيانة الله في أرضه تكون بموالاة من لا يستحق في وجود الأفضل من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم(86). وصرح في رسالة ثانية بأحقيته في الإمامة والحكم بقوله «إن الله أوجب عليكم طاعة أئمة آل البيت عليهم السلام، وحرم عليكم مخالفتهم[...] وأنا من ذرية رسول الله أدعوكم إلى الله في شرايط الإمامة، وأنا الحجة عليكم(87) » موضحاً في رسالة ثالثة منهجه في ذلك بقوله «وتوكلوا على الله، وبيني وبينكم كتاب الله آية آية، وما تواتر من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما اتفق عليه مشاهير العلماء من الفرق الإسلامية على صحته، وما وافق كتاب الله خبراً خبراً، فإن لم أحكم فيكم بذلك فلا طاعة لي عليكم، إنه لا طاعة لمن لم يحكم بما أنزل الله» (88)،مبيناً أن في مخالفته وعدم الاستجابة لدعوته هلاك لهم بقوله «وأقسم بالله لئن لم تطيعوني في اتباع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليكونن الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب دعاؤهم، ولا تحسبن الدين معقوداً على هذه الفرقة الطاغية، فإن الله قد فرق شملهم وسلبهم محاسن ملكهم» (89).

وفي عهد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بلغ المضمون السياسي المؤطر دينياً في خطاب أئمة الزيدية ذروته، وكاد يطغى على الجانب الاجتماعي في صراعهم مع الدولة العثمانية، وجاء هذا التطور نتيجة الظروف السياسية التي مرت بها اليمن، فقد تولى الإمامة بعد أبيه الذي مهد السبل لإقامة الدولة الزيدية، كما أن الدولة العثمانية مرت آنذاك بحالة من الضعف والتدهور (90). وظهر مضمون هذا الخطاب جلياً في رسائله، فقد بيّن الإمام المؤيد في إحدى رسائله إلى أنصاره أن حربه على العثمانيين، إنما هي تقليد لما سار عليه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في

نصره على البغاة العصاة بقوله «وانتم تعلمون رحمكم الله، انا لم نقاتل هؤلاء، إلا على ما قاتل عليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اولئك الذين قاتلهم، ولا سلكنا إلا سنته، ولا إهتدينا إلا بهديه، ولا اتبعنا إلا سبله، ولا إقتدينا إلا به، واعداؤنا هؤلاء، لا يقتدون إلا بأعداء علي بن أبي طالب، ولا سلكوا إلا سبيلهم، ولا قصدوا إلا وجهتهم، ولاسلكوا إلا مسلكهم[...] » ودعا الناس إلى نصرة آل البيت والالتفاف حولهم في الرسالة نفسها بقوله «فأي مؤمن يؤمن بالله ورسوله، ويرى لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً يدخره في الآخرة ليوم فقوله، متقاعد عن نصرة العترة عليهم السلام، أو يكون له نسب لا يقطعه إليهم، ومن يؤثرهم على نفسه ودينه، ويتبع منهم ما أعطاه الله تعالى من يقينه [...] واذكروا رحمكم الله حق الله عليكم، وحق رسوله، وحركوا عناصر محبة أهل بيت رسول الله بالجهاد في سبيله، وأعدوا الجواب لسؤال نبيكم ووصيه، إذا سأل كل ناصر أو خاذل عن صحبته ودليله»(91).

كما أكد في رسالته إلى أشراف مكة بدون تاريخ على أحقية آل البيت في إقامة الدولة باعتبار ذلك حقا متوارثا بقوله «وانا داعون إلى جهادهم [يقصد العثمانيين] كل مسلم،[...] لاسيما من شمله النسب النبوي، والنُجّار(92) العلوي، والنصاب الفاطمي شرقاً وغرباً، كيف لا والدين دين جدهم، والدولة دولة مُنصبهم»(93)، كما جعل من الولاء لإمامته أمراً إسلامياً عاماً، فتوليه هذا المنصب هو تعبير عن حق آل البيت في حكم المسلمين، لإقامة شرع الله(94).

وأستشهد أئمة الزيدية على ذلك بالعديد من الآيات القرآنية والأحديث النبوية التي تزخر بها مؤلفات مؤرخيهم ومنها قوله تعالى [أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ من فَضْله فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً]" سورة النساء: آية 54، 55. (95) وقوله تعالى[قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبَى] سورة الشورى: آية 23. (96). وقوله تعالى[إنما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا]

سورة الأحزاب : آية 33. (97).

وقوله صلى الله عليه وسلم «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر من ذريتي فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة كتابه، وخليفة رسوله»(98)، وقوله صلى الله عليه وسلم «إن عند كل بدعة تكون من بعدي يكاد بها الإسلام ولياً من أهل بيتي موكلا يذب عنه، ويعلن الحق، وينوره، ويرد كيد الكائدين»(99)، وقوله صلى الله عليه وسلم «إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً، كتاب الله، وعترتي آل بيتي، أن اللطيف الخبير انبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»(100).

الخطاب السياسي للدولة العثمانية:

تعاملت الدولة العثمانية مع مجريات أحداث الصراع مع ائمة الزيدية، حيث واجهت الأعمال العسكرية التي شنت ضد جيوشها في اليمن بإرسال الحملات المتتالية، كما تفاعلت مع الشعارات والخطابات التي تبناها أئمة الزيدية في مراحل الصراع المختلفة، بتبنيها لخطابات وشعارات دينية وسياسية سعت من خلالها إلى تبرير حروبها في اليمن.

ففي مرحلة الصراع الأولى التي أعقبت حملة اويس باشا 952هـ/ 1546م، تبنت الدولة العثمانية خطاباً حمل مضامين دينية وسياسية، عملت على ضوئه في توسيع ممتلكاتها في اليمن تحت شعار تثبيت الأمن ومحاربة الخارجين عن طاعة السلطان. فقد رأت أن حمل الإمام شرف الدين للقب أمير المؤمنين، وجبايته للخراج من الرعية يعد خروجاً وبغياً على طاعتها، بعد أن كان ممن يعترف بسلطتها عليه. ومن أجل ذلك أمرت جيوشها بالتقدم إلى المناطق الداخلية من اليمن بهدف إخضاع الإمام شرف الدين

لسلطتها.

وتجلى مضمون هذا الخطاب في رسالة السلطان سليمان القانوني إلى الأمير المطهر بن شرف الدين بتاريخ 10 شوال 957هـ/23 أكتوبر 1550م، والذي أكد فيها أن حرب الدولة العثمانية على الإمام شرف الدين وابنه المطهر، تأتي بعد أن أظهر الإمام وابنه عصيانهم ومخالفتهم بقوله «وتعاقبت بعد ذلك مكاتبات والدكم بإظهار الطاعة، وبذل الإخلاص والصدق والاستطاعة، إلى أن بلغنا بعد ذلك عنهما إظهار الخلاف، وركوب جادة البغي والإعتساف، وصار بينهما وبين أمرائنا الخلاف الكبير»(101). وأكد في هذا الخطاب إن الدولة العثمانية قد تحملت الكثير احتراماً وتقديراً لمكانة آل البيت الاجتماعية بدا ذلك جلياً في خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن شرف الدين فقد أكد أن صبره على ما يقوم به أئمة اليمن من محاربة ولاته يأتي من باب احترامه لمكانتهم بقوله «لكن غلب جانب حلمنا عليكم، وعطفت مراحمنا بالالتفات إليكم لأنكم من سلالة خير البشر، ومن آل بيت النبوة الميامين الغُرر»(102).

وفي الوقت الذي حمل خطاب أئمة الزيدية في مرحلتيه الأخيرتين سبقت الإشارة إلى تلك المرحلتين مضامين اجتماعية و سياسية، فإن خطاب الدولة العثمانية في هاتين المرحلتين تضمن مفاهيم دينية، حيث وصفت حرب الأئمة الزيدية على نفوذها في اليمن، بأنها نوع من إثارة الفتنة، وإعلان للفساد وخروج عن طاعة السلطان، وتهديدا لأمن المسلمين أهل السنة والجماعة ، ووصفوا زعماء من يقوم بتلك الأعمال بأوصاف تحط من مكانتهم الدينية، والسياسية، والاجتماعية، فهم في نظر الدولة العثمانية مجموعة من الأعراب، الأشقياء، الطغاة، الفسدة، العصاة، الحانثين بالأيمان والعهود والمواثيق.

وأكدوا في خطابهم أن إرسالهم للحملات العسكرية وقمعهم لتلك الثورات، يأتي من باب حقوق الرعايا على دولتهم، ومن واجبات الدولة تجاه رعاياها، وتطهيراً لقطر اليمن من طغاة الأعراب واشقيائهم، كما أن في ذلك صيانة للدين والدولة، وتأمين الرفاهة والاطمئنان لأهل السنة والجماعة(103).

تجلى مضمون هذا الخطاب في أوامر ورسائل سلاطينها التي أصدروها إلى ولاتهم في مصر واليمن. ففي الأمر الذي صدر في عهد السلطان سليم الثاني إلى الوالي سنان باشا بتاريخ 21 صفر 976هـ/ 5 أغسطس 1568م، بينت الدولة العثمانية دواعي تكليفه بقيادة الحملة العسكرية إلى اليمن، بأنها تهدف من وراء ذلك إلى قطع دابر المفسدين، وحماية أهل الإسلام.» إن ولاية اليمن بلد فتحته قواتنا الخسروانية المظفرة، وفي الوقت التي غدت فيه من ملحقات بلادنا المحروسة، نرى مفسداً يدعى مطهر قد خرج علينا [...] بقصد إهانة وإذلال أهل الإسلام وجماعته. ولمّا كان من الواجب تأديبه وقطع دابره، أعددنا لذلك عساكر لا تحصى وجنوداً غيورين من ولاية الشام ومصر، من البر والبحر، وتم إرسالها بالفعل»(104).

وفي الأمر الذي صدر في عهد السلطان سليم الثاني إلى والي اليمن(105) بتاريخ 22 ذي الحجة 978هـ/ 16 مايو 1571م، وصفت السلطنة العثمانية من يقوم بالحرب ضدها في اليمن بأنهم من العصاة المرتدين والطغاة المفسدين « لقد تم إخضاع ولاية اليمن بسيوفنا المظفرة، ودمر العصاة المردة الجفاة الموجودون في تلكم الديار [...] وتتطهر البلاد من العصاة والطغاة والعريان المفسدين، ويعيدهم عساكرنا لحظيرة طاعتنا وعبوديتنا»(106).

وفي الأمر الذي أصدره السلطان مراد الثالث إلى حاكم كوكبان(107)، المؤرخة بـ10 محرم 996هـ/ 12 ديسمبر 1587م، وصف حرب الإمام الحسن للعثمانيين بأنها نوع من الفتنة والفساد، ونعت الإمام وأتباعه بالحانثين بالأيمان، في ذلك المكتوب بقوله

في هذه المرة عندما تحركت عروق الفتنة والفساد لمن اعتادوا الخيانة [...] اتخذو لأنفسهم مبدأ الحنث بالوعد والعهد»(108). ولم يتساهل سلاطين الدولة العثمانية تجاه قضية ظلم بعض الولاة للرعية، كون ذلك قد مثل حجة للأئمة الزيدية في إعلان حربهم على الدولة العثمانية. لذلك عملوا على تحقيق العدل وعدم ظلم الرعية أو نهب أموالهم، أو التعدي على مواشيهم، أو أخذ مأكولاتهم بدون ثمن، من أولى واجبات الولاة المرسلين إلى اليمن. محذرين ومتوعدين من اقتراف مثل تلك المظالم بأشد العقاب. سعياً منهم لإزالة ذرائع وأسباب تلك الأعمال الحربية والثورات(109).

لئن كان توظيف أئمة الزيدية للأسانيد الدينية لدعم خطابهم السياسي لتبرير شرعية حربهم ضد العثمانيين، نتيجة طبيعية أفرزتها وضعيتهم السياسية، التي حتمت عليهم إيجاد خطاب سياسي مقبول معزز بالأسانيد الدينية. فقد كانوا في موقف المعارض الثائر الذي أشد ما يكون في عوز إلى سند ديني يمنحه الحق الشرعي في إعلان الحرب على خصمه، فإن وضع العثمانيون كان مُغايراً تماماً. فقد رأى العثمانيون في دولتهم استمراراً تاريخياً لدولة الخلافة الإسلامية، وأن حكمها في الأقاليم التي سيطرة عليها هو حكم شرعي «سلطة شرعية» كما أشرنا سابقاً لذلك لم يعط العثمانيون هذا الجانب كثيراً من الاهتمام لتأكيد شرعية حكمهم. تجلى ذلك في مؤلفات مؤرخيهم، حيث ندر توظيف الأستشهادات النصية فيها، فلم يصل أو يقارب مستوى التوظيف في مؤلفات مؤرخي المعارضة، ومعظم ما ورد فيها من استشهادات نصية أو نبوية، ما هو إلا اجتهاد شخصي من مؤرخيهم لتأكيد شرعية الحكم العثماني في اليمن.

فقد عمل مؤرخوهم أي العثمانيين على توظيف الأسانيد الدينية في اتجاهين متوازيين، ركزوا في الأول منها على قضية وجوب طاعة ولي الأمر، وعدم الخروج عليه، لأن في طاعتهم طاعة لله ورسوله، وفي الخروج عليهم معصية لله ورسوله. مدللين على ذلك بالنص القرآني و الحديث النبوي، ومنها قوله تعالى[يا أيُّها الَّذين آمنوا أطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوهُ إلى الله والرَّسُول إن كُنتُم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً] سورة النساء : آية 59 (110).

وقوله صلى الله عليه وسلم «السلطان ظل الله في الأرض»(111). وقوله صلى الله عليه وسلم "من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهم جمع فاضربوه بالسيف"(112). وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الحافظ نعيم عن عمر بن الخطاب رضي عنه أنه قال: قلت يارسول الله اخبرني عن السلطان الذي ذلت له الرقاب، وخضعت له الأجساد ، ما هو. قال هو ظل الله في الأرض، إن أحسنوا فلهم الأجر والشكر، وإن أساؤا فعليكم الصبر، وعليهم الإصر، لا يحملنكم إنسان على أن تخرجوا من طاعته، فإن الذل في طاعة الله خير من الخلود في النار، ولولاهم ما صلح الناس، اللهم أصلح الأئمة، واصلح رعاياها، برحمتك يا أرحم الراحمين»(113).

وفي الاتجاه الثاني سايروا الأحداث التاريخية، ووظفوا أسانيد دينية بما يتوافق معها، ويخدم في الوقت نفسه قضية تأكيد شرعية الحكم العثماني في اليمن، وبطلان ادعاءات أئمة الزيدية في أحقيتهم في الحكم. حيث استغلوا ظروف السيطرة السياسية والعسكرية، ومرحلة القوة التي كانت تمر بها الدولة العثمانية. في التأكيد على أن العثمانيين هم عباد الله الصالحون، وأن سيطرتهم على الحكم، جاءت وفق الإرادة الإلهية.

مستندين في ذلك إلى قول الله تعالى [وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ] سورة الأنبياء : آية 105.

ودلّوا على خيرية العثمانيين، حيث ربطوا بين قيام ولاتهم بالأعمال الخيرية مثل بناء المساجد، وتعبيد الطرق، وغيرها من تلك الأعمال، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ سورة التوبة ، آية 18 ([114]).

وبرروا الأخطاء السياسية التي ارتكبها بعض الولاة العثمانيين، بأن ذلك مقدر من الله سبحانه وتعالى، وأنه لا مرد لقضائه، حيث برر المؤرخ الموزعي قتل الأمير عامر بن داود الطاهري، من قبل الوالي العثماني سليمان باشا الخادم بأن ذلك مقدر. واستند إلى قوله تعالى ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ سورة الإسراء آية 58، وقوله تعالى﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ سورة الأحزاب، آية 38. ([115]).

ونظروا إلى الأعمال الحربية التي تبناها أئمة الزيدية ضد الدول العثمانية، على أنها إغواء عن طريق الحق، ووصفوا من يحرض عليها بأنه مثل الشيطان الذي أقسم على أن يغوي الناس لإتباع أمره. حيث أشار المؤرخ عبد الله بن داعر إلى أن موقف المطهر حين خالف الدولة العثمانية، وحرض الناس عليها، يشبه موقف إبليس حين أقسم على إغواء الناس بدفعهم إلى ارتكاب المعاصي . ودلل على تشابه الموقفين في قوله تعالى﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ سورة الأعراف، آية 17 ([116]).

واستثمر المؤرخ الموزعي الانتصارات التي حققها العثمانيون على جيش المطهر أثناء حصاره لهم في زبيد سنة 975هـ/1567م ، بأن في ذلك النصر تأكيد على أن العثمانيين هم أصحاب الحق، وأن المطهر على باطل. مستشهداً بقوله تعالى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة البقرة ، آية 249. ([117]).

كما وظفوا النصوص الداعية للجهاد، حيث نظروا إلى الأعمال العسكرية التي يقوم بها العثمانيون ضد الخارجين عن طاعة السلطان، بأنها نوع من الجهاد على البغاة المفارقين للجماعة، مستندين في ذلك إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ سورة التوبة، آية 111. ([118]).

وفي نفس الاتجاه أيضا عملوا على توظيف أحاديث فضائل البلدان والقبائل، التي تزخر بها كتب الحديث، لإظهار خيرية وفضل الدولة العثمانية، بهدف الدعاية وجلب الأنصار.

حيث انتقوا الأحاديث التي وردت في كتب الحديث عن فضل الروم، وأسقطوها على الدولة العثمانية، مُستغلين في ذلك تشابه التسمية، فقد كان يطلق على العثمانيين اسم الروم نسبة للمكان الذي نشأت فيه دولتهم.

ولعل ما ورد عند المؤرخ المطيب الزبيدي من أحاديث حول ذلك يعد خير دليل. حيث صرح في مقدمة كتابه أن هذه الأحاديث هي مما ورد في فضل الروم. بقوله «مقدمة نذكر فيها ما ورد من الأحاديث المصرحة بفضل الروم، ودوام ملكهم السعيد» ([119]). ومن تلك الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». وأستشهد المؤرخ المطيب برأي عمر بن ا لعاص الذي بيّن فيه خصال الروم بقوله «إن فيهم لخصال أربع، أنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وأجبرهم لمسكين ويتيم وضعيف، و خامسة حسنة جميلة أمنعهم من ظلم الملوك» ([120])، ومما ورد عند المؤرخ الزبيدي في ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم «فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها أبدا، والروم ذات قرون كلما ذهب قرن خلفه قرن إلى آخر الأبد» ([121]) ، ومن تلك الأحاديث التي

استدل المؤرخ بها لتأكيد فضل الروم، وبقاء وديمومة دولتهم، التي عنى بها الدولة العثمانية بما ذكره العلامة الحافظ شهاب الدين احمد ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري قال، واخرج ابوعبيد في كتاب الأموال من مراسل عمير بن إسحاق قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر. فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هؤلاء، فيمزقون يشير إلى كسرى وأصحابه ، وأما هؤلاء، فسيكون لهم بقيه» (122).

وعلى الرغم من بعد السياق الزمني لفترة رواية هذه الأحاديث، والأحداث التي رُويت فيها، إلا إن المؤرخين قد عملوا على توظيف تلك الأحاديث لإيجاد المسوغات الشرعية للحكم العثماني،وهي عادة جرى المؤرخون على التفنن فيها، حيث يقومون بعمل إسقاطات للأحاديث النبوية، التي اختصت بفترة وأحداث معينة، على فترة وأحداث معاصرة لهم.

توظيف المفردات الدينية:

لم يكتف طرفا الصراع بتوظيف القرآن والحديث النبوي لتأكيد صحة رؤيتهم حول قضية طاعة الحاكم أو الخروج عليه، بل استثمروا الموروث الفقهي الزاخر بالتباين، فانتقوا منه ما يتناسب مع توجههم الفكري والسياسي، ووظفوا ذلك الموروث فيما يمكن أن نسميه سياسة الإقصاء، والإلغاء، ونفي الأخر، حيث عمل كل طرف على اتهام خصمه السياسي بتهم تجعل منه مخالفاً للشريعة الإسلامية، وخارجاً عن الملة، كوصفه بالبغي والظلم والفجور، وأحياناً بالكفر وغيرها من التهم التي تجيز محاربته وقتاله، وهو المبرر الذي سعى طرفا الصراع لإيجاده من وراء تبنيهم لتلك السياسة، لإظهار شرعية صراعاتهم تلك.

انطلاقاً من ذلك شن كل طرف حملات تكفير على خصمه السياسي، بوصفه بألفاظ ذات مدلول فقهي، أو تحمل أحكاماً فقهية، تنفي عنهم إسلامهم، وتخول قتالهم وتبيح دماؤهم، وقضية انتقاء، وتوظيف هذه المفردات من قبل طرفي الصراع لم يكن عشوائياً، بل كان انتقاء مدروساً بدقة وعناية، فقد حملت كل مفردة أو مصطلح حكماً شرعياً، يتوافق مع الموقف الذي وظف لأجله، وتزخر المؤلفات التاريخية بالكثير منها سواء التي ذكرت على لسان الزعماء، والقادة في رسائلهم وخطبهم، أو وظفت مباشرة في كتابات المؤرخين عند وصف خصومهم السياسيين.

وعلى الرغم من صعوبة حصر تلك المفردات وفرزها وتصنيفها، ومعرفة أحكامها، إلا أن أخذ نماذج منها وتحليل مدلولاتها، ومدى تأثيرها في مجريات الصراع لا مناص منه، خاصة وأن من استخدمها هم من العلماء، المطلعين على أحكام تلك المفردات، وتزخر مصنفات المؤرخين بالعديد من تلك الألفاظ والمفردات التي وظفت من قبل طرفي الصراع ومنها البغاة أو الفئة الباغية، أو أهل البغي، والضالين أو الفئة الضالة ، والطغاة ، المفسدين أو أهل الفساد.(123)

فالبغي معناه مجاوزة الحد والظلم والخروج على الحاكم، أو على من تثبت خلافته، أو إمامته، وبغى الرجل عدل عن الحق، والبغي هو الظلم(124)، والفئة الباغية هي الفئة الظالمة، الخارجة عن الحق، وحكم البغاة في الإسلام حسب اتفاق العلماء، هو قتالهم لدفع شرهم، ولا يعتبر الباغي كافراً باتفاق أئمة الدين(125). ويشدد المذهب الزيدي على حرب البغاة وجهادهم باعتبار أنهم أتوا الإسلام من معدنه(126).

والضلال ضد الهدى والرشاد، وهو سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب(127)، والضالون أو الفئة الضالة هم الهائمون الخارجون عن طريق الحق(128)، وحكمهم هنا حكم العصاة، بحسب نوع المعصية(129) والمتمثل هنا في حكم الخروج على الجماعة.

والطغاة هم من تجاوزوا الحد في الظلم والتكبر والعصيان، وحكمهم في الشرع أنهم كفار (130)، والفسدة أو أهل الفساد هم الذين لا يسعون في الصلاح الأرض، وحكمهم الشرعي يختلف بحسب نوع فسادهم، فالفساد في الدين كفر، والفساد في الأخلاق فجور (131)، والفساد في الأرض هو الكفر قولاً وعملاً، ومن عصى الله في الأرض وأمر بالمعصية فقد أفسد في الأرض، لأن الصلاح يكون بطاعة الله والفساد بالمعصية (132).

إن إدراك طرفي الصراع ومنهم المؤرخون لمدلول هذا المصطلحات وحكمها الشرعي، هو ما جعلهم يوظفوها في صراعهم السياسي، لما تحمله من تبرير شرعي يجيز حرب وقتال من يوصف بها، وهو المبرر والذريعة التي عمل كل طرف على إيجادها لشرعنة حربه السياسية، فحين يوصف أحد طرفي الحرب أو الصراع بهذه الأوصاف تصبح مسألة قتاله ومحاربته واجباً دينياً، و تخول لخصمه السياسي الحق في حربه وجهاده.

الخاتمة:

يتضح مما سبق أن وصول العثمانيين إلى اليمن كان في إطار الخطة الجهادية التي تبناها سلاطين الدولة العثمانية لمواجهة الخطر البرتغالي، وأن مواقف القوى السياسية في اليمن تجاه ذلك الوصول قد اتسمت بصفة عامة بالترحيب ، بل أن بعضها قد طلب قدوم العثمانيين، ودخل في طاعتهم قبل وصول قواتهم إلى اليمن، وجاءت هذه المواقف نتيجة للأوضاع السياسية التي كانت تمر بها تلك القوى، وأن الصراع الذي وقع بين العثمانيين وأئمة الزيدية كان له ظروفه الخاصة، وذلك بعد توغل العثمانيون في مناطق نفوذ الزيدية وشكل ذلك تهديداً لمشروع إقامة الدولة الزيدية في اليمن، وأن الحروب التي وقعت بينهم هي حروب سياسية في الأصل، وأن تأطيرها دينياً كان بهدف تبريرها ليس إلا.

فقد عمل الطرفان على تأصيل الصراع فقهياً، للخروج من المأزق الديني كونهما مسلمان، لذلك فقد حمل خطابهم السياسي ما يمكن تسميته «بايدولوجيا التبرير»، حيث تبنى أئمة الزيدية خطابات ذات مضامين مختلفة خلال مراحل صراعهم ضد العثمانيين، ويأتي تبنيهم لتلك الخطابات انطلاقاً من فقه المذهب الزيدي وتماشياً مع دور ومكانة الدولة العثمانية السياسي والديني.

وتبيّن أيضا أن موقف أئمة الزيدية تجاه الدولة العثمانية، ونفوذها العسكري على أرض اليمن قد تمحور في اتجاهين متوازيين. أظهروا في الأول منهما احتراماً كبيراً للدولة العثمانية في ولائهم لسلاطينها، ولم يُبدوا أي عداء أو تقليل لمكانتها الدينية والسياسية، وأقرّوا باحترام سلاطينها، بل إن طاعة سلاطينها، والخضوع لسيادتها مثّل في بعض المراحل التاريخية موقفاً رسمياً لهم نحوها (133).

في الاتجاه الثاني لم يكن إتباع أئمة الزيدية لهذا الموقف تجاه السلاطين العثمانيين يعني تخليهم البتة عن مكانتهم الدينية والسياسية، وحقهم في الإمامة، و إقامة الدولة الزيدية، بل ارتبط به ارتباطا وثيقاً، فقد نسجت ظروف ودواعي ذلك الصراع خيوطاً ربطت بين موقفهم تجاه السلاطين العثمانيين، وموقفهم من الوجود العسكري للدولة العثمانية في أرض اليمن، وذلك حين التقت طموحاتهم السياسية في إقامة الدولة الزيدية، مع الممارسات الخاطئة لبعض الولاة العثمانيين، فامتلكوا بذلك زمام المبادرة في إدارة الصراع مع العثمانيين، وبرروا حروبهم التي شنوها ضد الجيوش العثمانية المتواجدة على ارض الواقع، بأنها حروب ضد ظلم الولاة العثمانيين، وهو واجب ديني «مذهبي» ولا يعني ذلك بالنسبة لهم عداء للدولة العثمانية، كما أن هذه الحروب لا تتنافى من وجهة نظرهم مع

موقفهم تجاه سلاطين الدولة العثمانية، حيث صيروا عداءهم لشخوص الولاة الظلمة، وحملوهم مسئولية ما وقع من تقصير في حقوق آل البيت، مثل رفع الأخبار الضالة، وقطع طرق التواصل بينهم وبين السلاطين، وإلصاقهم التهم الفاسدة بأئمة آل البيت، وعزوا للولاة أيضاً اليد الطولى في تعميم كراهية الناس للدولة العثمانية وتشويه صورتها، واتهموهم بالظلم، ووصل بهم الأمر إلى تكفيرهم، وبرروا حروبهم على أنها حروب عدل ضد ظلم، وحق ضد باطل.

إن هذه الثنائية في موقف أئمة الزيدية تجاه الدولة العثمانية، مثلت نوعا من الكياسة السياسية في التعامل مع هذه القوة العالمية، حيث أقترن احترامهم للدولة العثمانية وسلاطينها وتقدير مكانتها الدينية والسياسية، بتمسكهم بإقامة الدولة الزيدية في اليمن، ورفضهم لوجود جيوش الدولة العثمانية فيه بدواعي حمايته إذ يعد ذلك من وجهة نظرهم تقويضاً لمحاولات أقامة الدولة الزيدية التي مثلت الهاجس المسيطر على مخيلة الأئمة طوال مرحلة صراعهم مع العثمانيين.

لقد شكل هذا الخطاب باختلاف مراحل مضامينه القالب النهائي للموقف السياسي الذي تبناه أئمة الزيدية تجاه الدولة العثمانية وممثليها في اليمن، والذي بدوره لقي تجاوباً كبيراً من القبائل المختلفة إلى جانب عوامل أخرى التي انضوت تحت لواء الأئمة الزيديين في ذلك الصراع، الذي استمر قرابة قرن من الزمان، انتهى بخروج العثمانيين من اليمن للمرة الأولى سنة 1045هـ / 1635م.

وفي الوقت نفسه فإن الدولة العثمانية تعاملت في بداية الأمر مع الأئمة الزيدية بنوع من الاحترام تقديراً لمكانتهم الاجتماعية، إلا أن استمرار الأئمة في حربهم ضد الدولة العثمانية تحت مبررات مختلفة قد جعل سلاطينها يتعاملون معهم على أنهم مجموعة من المفسدين الخارجين على سلطة ولي الأمر، كما لم يتجاهلوا أسباب رفع أئمة الزيدية لشعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة الظلم، في حروبهم تلك، فقد أدركوا أن ظلم الولاة للرعية شكل ذريعة لتفاقم الأوضاع في اليمن، لذا جعلوا من تحقيق العدل وعدم ظلم الرعية من الأعمال الواجب على الولاة القيام بها وتحقيقها.

وقد لجأ الطرفان إلى الخطاب الديني كونه الوسيلة الوحيدة التي يمتلكوها والتي من خلالها يمكن تبرير ذلك الصراع وتحقيق أهدافه السياسية.

عطفاً على ما سبق واعتماداً على كتابات المؤرخين المعاصرين لأحداث تلك المرحلة يمكن القول أن الوجود العثماني في اليمن لم يمثل غزو أو احتلال، وأن الحروب التي خاضها أئمة الزيدية ضد العثمانيين لم تأخذ أبعاد وطنية أو قومية، ولم ينظر إلى العثمانيين على أنهم غرباء أو دخلاء، فلم يرد في تلك المؤلفات ما يشير إلى مثل ذلك، بل يمكن توصيف وجودهم بأنه بسط نفوذ وسيطرة وحكم لدولة إسلامية كبرى حملت على عاتقها مسؤولية حماية الأماكن المقدسة والبلاد الإسلامية، والتي مثلت تجسيداً حياً لدولة الخلافة الإسلامية في نظر الكثير من حكام علماء الأقاليم الإسلامية ومنهم أئمة الزيدية تجلى ذلك واضحاً في رسائلهم وكتابات مؤرخيهم، وان الصراع الذي دار في اليمن هو صراعاً سياسياً على الحكم.

الحواشي

1 سالم: الفتح العثماني صـ 62، 69، 71.

2 نفس المرجع : صـ 98،97.

3 نفس المرجع : صـ 130

4 بنو كثير قبيلة مشهورة في حضرموت ينتمون إلى كثير بن ظنه بن عبدالله بن حرام بن عمر بن سبأ. (ابن هاشم: تاريخ الدولة الكثيرية. صـ 21).

5 بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري ولد سنة 902هـ / 1496م، تولى الحكم ولم يبلغ عمرة 20 سنة يعد السلطان بدر من أعظم سلاطين آل كثير، وفي أخر أيامه سجن من قبل ابنه عبدالله ، وبقي في السجن سنة ونصفه كانت وفاته سنة 977هـ / 1569م.(العيدروس، النور السافر صـ 293، 295؛ بن هاشم ، الدولة الكثيرية. صـ 56، 79).

6 سالم ، الفتح العثماني. صـ 164.

7 الإمام شرف الدين : هو الإمام المتوكل على الله يحي شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، و لصاحب الترجمة اسمان هما يحيى وشرف الدين وقد اشتهر بالأخير كان مولده في 15رمضان سنة 877هـ الموافق 5 فبراير 1471م بحصن حضور، دعا إلى نفسه بالإمامة سنة 912هـ / 1506م، يعد من كبار أئمة المذهب الزيدي، وله العديد من المؤلفات الفقهية، توفى في جمادى الأخر سنة 965هـ الموافق مارس 1557م. (الشوكاني، البدر الطالع. جـ 1، صـ 287 280؛ الوجيه، أعلام المؤلفين. صـ 1134).

8 لطف الله ، روح الروح. صـ 21؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني جـ 2 ، صـ 635 .

9 الأمير المطهر بن الإمام شرف الدين: عُرف بالشجاعة والإقدام والحزم والسياسية، دخل في صراع مع أخوته ووالده بعد ان استبعد عن ولاية العهد لعرج في إحدى قدميه، وهذا يخالف شروط الإمامة في المذهب الزيدي. وحين تقدم العثمانيين نحو مناطق الإمام شرف الدين تولى قيادة القوة الزيدية في حروبها ضدهم، وألحق بهم خسائر كبيرة، ثم دخل في صلح معهم، كانت وفاته سنة 980 هـ / 1572م. (الشوكاني، البدر الطالع. جـ 2، صـ 309 310؛ الشلي، السناء الباهر. صـ 583 - 539).

10 سالم ، المرجع السابق. صـ 141.

11 النهروالي ، البرق اليماني . 25 26.

12 ابن فيروز ، مطالع النيران. ق 9؛ مجموع سفينة شعرية. ق 70 74؛ ابن داعر، الفتوحات المرادية جـ 1 ، ق 190.

13 النهروالي، المصدر السابق . صـ 233.

14 لطف الله : روح الروح . صـ 50؛ المفضل، السلوك الذهبية. صـ 37

15 العزير، التشكيلات المركزية. صـ 40 .

16 سلمان الريس أو سلمان الرومي: هو أحد القادة العثمانيين الذين دخلوا في خدمة السلطان قانصوه الغوري أثناء حروبه مع البرتغاليين، تولى قيادة الأسطول المملوكي المرسل إلى جدة سنة 912هـ / 1515م. سالم، الفتح العثماني. صـ 95، 96

17 الموزعي ، الإحسان. صـ 24 ، 25.

18 سالم ، المرجع السابق . صـ 159 .

19 نفس المرجع . صـ 159، 161.

20 ابن هاشم، المرجع السابق . صـ 67.

21 Serjent : The Portuguese . P 28

22 ابن هاشم، المرجع السابق. صـ 67- 69.

23 عند وصول العثمانيين إلى عدن أمر قائد الحملة سليمان باشا الخادم بشنق السلطان الطاهري عامر بن داود. وعند وصوله إلى زبيد قتل الأمير أحمد الناخوذة أمير المماليك. (سالم، الفتح العثماني. صـ 161، 165).

24 ابن داعر،المصدر السابق. جـ 1،

ق 189.

25 المفضل ؛ المصدر السابق. ص 170.

26 لم يرد في المصادر ما يشير إلى أن العملة والخطبة أصبحت في صنعاء باسم السلطان العثماني.

27 الزريقي ؛ سيرة الإمام شرف الدين ق 79.

28 يقصد الوزير سليمان باشا الخادم.

29 وثيقة بالمركز الوطني للوثائق بصنعاء . تحت رقم 89/ 1؛ ابن فيروز ؛ المصدر السابق. ق 9.

30 ابن فيروز ؛ المصدر السابق. ق 12؛ ابن داعر ؛ المصدر السابق. جـ 1. ق 190.

31 بن داعر: نفس المصدر. جـ1. ق 69.

32 يقصد سنة 945هـ / 1538م.

33 الطيب: المصدر السابق. ص 265 .

34 مخلاف جعفر: هي المناطق الوسطى من اليمن والتي تشمل مدينة إب. ومنطقة العدين، المذيخرة، السحول. المقحفي. معجم البلدان. جـ1، ص 337.

35 أبن فيروز: نفس المصدر . ق 8. الطيب: المصدر السابق. ص 269.

36 الزريقي: المصدر السابق. ق 78.

37 أشار محمد خليل افندي في لائحته الخاصة باليمن بند رقم 12 إلى أن فقدان الإمام شرف الدين لمركزه كان من الأسباب التي دفعته إلى حرب العثمانيين. (عامر: اليمن من خلال لائحتي محمد خليل افندي. ص 83).

38 ابن فيروز: المصدر السابق. ق 13.

39 الزريقي: المصدر السابق. ص 77..

40 ابن فيروز ؛ المصدر السابق. ق 14؛ مجموع سفينة شعرية: ق 75- 80؛ ابن داعر: المصدر السابق. . جـ1. ق 190 .

41 المصري ؛ موقف المؤرخين .ص 55

42 نفس المرجع. ص 102.

43 ابن داعر: المصدر السابق. جـ1. ق 189.

44 سالم: المرجع السابق . ص 181- 183.

45 نفس المرجع . ص 181 183.

46 كوثراني: المسألة الثقافية. ص 64 .

47 لم يرد في التقرير المنشور أسم القائد العثماني الذي أرسله لكن من خلال تاريخ التقرير يرجح أن من أرسله هو سلمان الريس (المصري: المرجع السابق. ص 56.

48 Serjent: Sana'a an Aribian Blackburn. . Islamic city p 69 ;Tow Document. . p22

نشرت هذه الوثيقة في سلسلة الدراسات المترجمة (5) دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي تحت عنوان وثيقتان عثمانيتان: للمعهد الأمريكي للدراسات اليمنية. : ص 109 110. على الرغم مما ورد في الوثيقة من إحصائيات مهمة حول ميناء زبيد . وتعز إلا أن مصدر هذه الأرقام ومدى صحتها تظل محل شك وتساؤل.

49 Blackburn : Tow Document. . p227 دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي: ص 110.

50 نسبة إلى الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الرسي مؤسس المذهب الزيدي في اليمن،

51 زيد ؛ معتزلة اليمن . ص 222، نقلاً عن كتاب الأصول في الدين للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الرسي. ق 103.

52 زيد ،المرجع السابق، صـ 256.

53 زيد، نفس المرجع، صـ 221.

54 النادي، موسوعة الفقه السياسي الإسلامي، صـ 220-222.

55 للمزيد أنظر المصري، موقف المؤرخين، صـ 99 -107.

56 الزريقي، المصدر السابق، صـ 79 .

57 ابن فيروز، المصدر السابق، ق 12-13؛ مجموع سفينة شعرية، ق 75-80؛ ابن داعر، المصدر السابق، جـ 1 ، ق 188- 190

58 العزير، التشكيلات المركزية، صـ39 -40 .

59 سالم، المرجع السابق ، صـ301.

60 عامر، المرجع السابق، صـ83

61 النهروالي، المصدر السابق، صـ379 .

62 رسالة الأميرالمطهر بن شرف الدين إلى أهل صنعاء (بدون تاريخ) وردت الرسالة في مجموع سفينة شعرية، قـ90 -92 .

63 رسالة الأميرالمطهر بن شرف الدين إلى أهل صنعاء (بدون تاريخ) وردت الرسالة في مجموع سفينة شعرية، قـ90 -92 .

64 الإمام الحسن بن علي بن داود المؤيدي : دعا لنفسه بالإمامة سنة 986 هـ / 1578م، في هجرة الأهنوم. دخل في صراع مع العثمانيين إلى أن تمكنوا من هزيمته وأسره سنة 993هـ / 1586م، ونفي إلى استانبول وتوفي هناك سنة 1024هـ / 1615 م . (يحيى بن الحسين، غاية الأماني، جـ2، صـ 750. (المحبي، خلاصة الأثر، جـ2، صـ29).

65 اللوزي ، سيرة الإمام الحسن المؤيدي، قـ10.

66 هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد يصل نسبه بالإمام علي بن ابي طالب . كان مولده سنة 967هـ / 1559م بالشاهل من بلاد الشرف، دعا لنفسه بالإمامة سنة 1016 هـ / 1597م خاض حروبا كثيرة مع العثمانيين . اكتملت في عهده ملامح الدولة الزيدية، ويعد من كبار علماء الزيدية، وله العديد من المصنفات العلمية كانت وفاته في مدينة شهارة سنة 1029 هـ / 1620م. (الإمام الشوكاني، المرجع السابق ، جـ 2، صـ 47 50. سالم ، الفتح العثماني، صـ 357).

67 الشرفي، اللآلئ المضيئة، جـ3، قـ191.

68 هو الإمام المؤيد بالله محمد بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، كان مولده سنة 990هـ / 1582م بمنطقة الأهنوم ، تولى الإمامة سنة 1029 هـ / 1620م وفي عهده خرج العثمانيون من اليمن للمرة الأولى سنة 1045هـ / 1635م ، استمر في الحكم حوالي 25 سنة ، كانت وفاته سنة 1054هـ / 1644م. (أنظر الإمام الشوكاني، المرجع السابق، جـ 2، صـ 238 240).

69 الجرموزي، الجوهرة المنيرة، تحقيق :أمة الملك الثور، صـ195.

70 الزريقي : المصدر السابق، قـ79 .

71 ابن فيروز : المصدر السابق، قـ 12 14؛ النهروالي، المصدر السابق، صـ115؛ مجموع سفينة شعرية، 75 80؛ ابن داعر، المصدر السابق، جـ1، قـ 191

72 الجرموزي، الجوهرة المنيرة ، صـ724

73 نفس المصدر، صـ 727.

74 الجرموزي : الجوهرة المنيرة، تحقيق

:أمة الملك الثور صـ 724.

75 الباحث لم يقم بتخريج الأحاديث التي وردت في الدراسة، كون ذلك ليس من صلب اختصاصه، وليس في مجال الدراسة هنا ، لذلك ستترد كل الأحاديث بدون تخريج. لأن التركيز هنا على توظيف في الصراع السياسي وليس على صحة وضعف تلك الأحاديث، وسيقتصر على ذكر المصدر التاريخي الذي أورد توظيف الحديث.

76 الجرموزي: النبذة المشيرة. تحقيق : عبد الحكيم الهجري، صـ420؛ الجرموزي : الجوهرة المنيرة. تحقيق :أمة الملك الثور، صـ208؛ الشرفي : المصدر السابق. قـ 140؛ اللوزي: المصدر السابق. قـ11.

77 الجرموزي: الجوهرة المنيرة. تحقيق :أمة الملك الثور، صـ 208؛ الشرفي : المصدر السابق. جـ3. قـ 137.

78 الزريقي: المصدر السابق. قـ11. المطهر الجرموزي: الجوهرة المنيرة. تحقيق :أمة الملك الثور، صـ208. الجرموزي: النبذة المشيرة. تحقيق : عبد الحكيم الهجري، صـ 306؛ الشرفي: المصدر السابق. جـ3، قـ 137.

79 الجرموزي: الجوهرة المنيرة. تحقيق :أمة الملك الثور صـ195، 375. المطهر الجرموزي: النبذة المشيرة . تحقيق : عبد الحكيم الهجري، صـ416).

80 الجرموزي:الجوهرة منيرة. تحقيق :أمة الملك الثور، صـ 210. الجرموزي : النبذة المشيرة . تحقيق : عبد الحكيم الهجري، صـ 421).

81 الجرموزي: الجوهرة المنيرة . تحقيق :أمة الملك الثور، صـ375.

82 حسن باشا: ولاه السلطان مراد بن سليم حكم اليمن سنة 988هـ / 1580م ، تمكن من استعادة سيطرة الدولة العثمانية على معظم أجزاء اليمن، و في عهده ظهر الإمام القاسم بن محمد سنة 1006هـ / 1598م . عزل عن اليمن سنة 1013هـ / 1604 م. توفى سنة 1016هـ / 1608 م. (المحبي : المصدر السابق. جـ 2، صـ 74).

83 سالم: المرجع السابق . صـ351، 352،475.

84 الشرفي: المصدر السابق. جـ 3 ، قـ 140.

85 اللوزي: المصدر السابق. قـ 20.

86 الجرموزي: النبذة المشيرة. تحقيق:عبد الحكيم الهجري، صـ 419؛ الشرفي : المصدر السابق . جـ3. قـ106.

87 الشرفي: نفس المصدر. جـ 3. قـ 190.

88 الجرموزي : النبذة المشيرة تحقيق:عبد الحكيم الهجري، صـ 418.

89 الشرفي: المصدر السابق. جـ3 ، قـ190.

90 الثور: بناء الدولة القاسمية. صـ95 .

91 الجرموزي : الجوهرة المنيرة. تحقيق/ أمة الملك الثور. صـ227-228.

92 النّجار : الأصل والحسب. (ابن منظور: لسان العرب. جـ14. صـ 51).

93 الجرموزي: الجوهرة المنيرة. تحقيق/ أمة الملك الثور. جـ1. صـ237.

94 وليد النود: الدولة القاسمية. صـ362 .

95 الجرموزي: الجوهرة المنيرة. تحقيق/ أمة الملك الثور. صـ196

96 الجرموزي : الجوهرة المنيرة. تحقيق/ أمة الملك الثو . صـ 222.

97 الزريقي. المصدر السابق. قـ 19؛ الجرموزي: الجوهرة المنيرة. تحقيق/أمة

الملك الثور، صـ196.

98 الجرموزي : الجوهرة المنيرة، تحقيق/ أمة الملك الثور صـ 214؛ المطهر الجرموزي؛ النبذة المشيرة، تحقيق /عبد الحكيم الهجري صـ419؛ أحمد الشرفي : اللآلئ المضيئة، جـ 3 ، قـ 21

99 الجرموزي : الجوهرة المنيرة، تحقيق /أمة الملك الثور، صـ 196، المطهر الجرموزي؛ النبذة المشيرة ، تحقيق / عبد الحكيم الهجري ، صـ417، أحمد الشرفي؛ ال اللآلئ المضيئة، قـ201).

100 هذا الحديث يرد في معظم كتب الصحاح بلفظ "وسنتي" وليس " وعترتي" . (الجرموزي : الجوهرة المنيرة، تحقيق /أمة الملك الثور، صـ189، 204 المطهر الجرموزي : النبذة المشيرة ، تحقيق / عبد الحكيم الهجري، صـ417أحمد الشرفي : اللآلئ المضيئة، جـ3، قـ140؛ اللوزي؛ المصدر السابق ، قـ14.

101 وثيقة بالمركز الوطني للوثائق بصنعاء ، تحت رقم 89/ 1؛ ابن فيروز ، المصدر السابق، قـ 9، النهروالي : المصدر السابق، صـ 109.

102 ابن فيروز : المصدر السابق، قـ 8-10؛ مجموع سفينة شهرية ،قـ 70 75؛ بن داعر؛ المصدر السابق، جـ1، قـ 190 .191

103 صالحية، : وثائق جديدة، وثائق رقم 1922، 603، 79 صـ 19، 20 ، 64.

104 صالحية؛ نفس المرجع، صـ 22- 24، عامر؛ النظم الإدارية ، صـ123-124.

105 لم يرد في نص الوثيقة ذكر أسم الوالي العثماني المُرسل إليه هذا الأمر، لكن تارخ الوثيقة يبين أن المخاطب فيها هو بهرام باشا.

106 صالحية : المرجع السابق، صـ 69-71.

107 ورد أسم حاكم كوكبان في الوثيقة كالأتي شمس الدين آغلو أحمد ، والمعروف أن حاكم كوكبان في هذه الفترة هو أحمد بن محمد بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين، وقد تولى هذا المنصب بعد وفاته والده سنة 993هـ / 1584م، في عهد الوالي العثماني حسن باشا، وكانت وفاته سنة1013هـ/ 1604م، (سالم؛ المرجع السابق ، صـ 348، 374، 375؛ الأكوع؛ هجر العلم، جـ4، صـ187).

108 عامر؛ النظم الإدارية ، صـ118.

109 صالحية : المرجع السابق، رقم 1520 ، صـ 70

110 ابن فيروز، المصدر السابق ، قـ 22.

111 المطيب : بلوغ المرام ، تحقيق / أحمد المصري، صـ 275.

112 ابن داعر؛ المصدر السابق، جـ1، قـ 157).

113 ابن فيروز، المصدر السابق، قـ 22.

114 الموزعي؛ نفس المصدر، صـ 14.

115 الموزعي؛ نفس المصدر، صـ18.

116 ابن داعر : المصدر السابق، جـ1 ، قـ 206.

117 الموزعي؛ المصدر السابق، صـ26.

118 ابن داعر : المصدر السابق، جـ2 ، قـ 234.

119 المطيب؛ المصدر السابق، صـ 218 ، 219.

120 المطيب : نفس المصدر ، صـ218.

121 المطيب : نفس المصدر، صـ218.

122 المطيب: نفس المصدر. صـ218، 219.

123 المصري. المرجع السابق. ص 127- 132.

124 فروان ؛ الخروج على الحاكم الجائر. صـ108؛ حميد: نظرة النعيم . صـ 4085.

125 فروان: نفس المرجع. صـ 121.

126 غليس ؛ التجديد في فكر الإمامة. صـ 109.

127 الزبيدي ؛ تاج العروس . جـ 15. صـ420.

128 ابن كثير: تفسير بن كثير. جـ1. ص، 30.

129 حميد: المرجع السابق. المجلد العاشر، صـ 4796.

130 نفس المرجع. المجلد العاشر. صـ 4835.

131 نفس المرجع. المجلد الحادي عشر. صـ 5237.

132 فروان : المرجع السابق. صـ39.

133 تمثل ذلك بموافقة أمراء آل شرف الدين بأن يكون النقد والخطبة باسم السلطان العثماني .

المصادر:

الأكوع ، إسماعيل: هجر العلم ومعاقلة في اليمن. بيروت، دار الفكر،ط أولى، 1995م، جـ4.

حميد، صالح بن عبدالله: نظرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم. دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ط أولى.

الثور، أمة الملك: بناء الدولة القاسمية في عهد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم. رسالة دكتوراه غير منشورة . كلية الآداب . جامعة صنعاء، 2004م .

الجرموزي. المطهر:

- الجوهرة المنيرة في جمل من عيون السيرة. تحقيق :أمة الملك الثور. القسم الثاني من رسالة دكتوراه غير منشورة. بعنوان بناء الدولة القاسمية في عهد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم. جامعة صنعاء، 2004م .

- النبذة المشيرة في جمل من عيون السيرة. تحقيق : عبد الحكيم الهجري، القسم الثاني رسالة دكتوراه غير منشورة. بعنوان ثورة الإمام القاسم بن محمد ضد الوجود العثماني الول في اليمن .جامعة صنعاء، 2005م.

الحسين. يحيى : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني. تحقيق: سعيد عاشور. القاهرة. دار الكتاب العربي، 1968م.

ابن داعر. عبدالله: الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية. مخطوطة مصورة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم 26421.

الزبيدي. محب الدين أبي فيض محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس: بيروت. دار الفكر، 1994م.

الزريقي. الحسن: سيرة الإمام شرف الدين . مخطوطة محفوظة بمكتبة آل الهاشمي في صعدة . منها صورة محملة على قرص مدمج بمؤسسة الإمام زيد الثقافية بصنعاء.

زيد ،علي محمد : معتزلة اليمن دولة الهادي وفكره. دار الكلمة ، صنعاء، ط الثانية، 1985م.

سالم ، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن 1538- 1635م. القاهرة، مكتبة مدبولي، 1992م ط الرابعة،

الشرفي، أحمد بن محمد، اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية، جـ3.

الشلي، محمد، السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر. تحقيق / إبراهيم المقحفي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط أولى، 2004م.

الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . تصحيح محمد بن محمد زبارة بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، (د.ت)،

صالحية، محمد عيسى، وثائق جديدة عن حملة سنان باشا إلى اليمن . حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثامنة، 1987

عامر، محمود علي:

النظم الإدارية . مجلة الأكليل، عدد2، سنة 1989م.

اليمن من خلال لائحتي محمد خليل افندي. مجلة الأكليل، العدد الأول، سنة1989م.

العزير، عبدالكريم، التشكيلات المركزية والإدارة العثمانية في اليمن. صنعاء، مطابع الصباحي، 2000م،

العيدروس، عبد القادر، النور السافر في أخبار القرن العاشر. بيروت، دار الكتب العربية ، ط أولى، 1985م

غليس، أشواق، التجديد في فكر الإمامة عند الزيدية في اليمن. القاهرة، مكتبة مدبولي، ط أولى، 1997م،

فروان، عبدالله، الخروج على الحاكم الجائر في الفكر السياسي الإسلامي. صنعاء ، أوان للخدمات الأعلامية.

بافقيه محمد بن عمر الطيب، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر. تحقيق، عبدالله محمد الحبشي، صنعاء ،مكتبة الأرشاد ، ط.أولى . 1999م.

ابن فيروز،أحمد بن يوسف، مطالع النيران في تاريخ اليمن . مخطوطة محفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم 16.

ابن كثير، إسماعيل، تفسير بن كثير. بيروت، دار المفيد، (د.ت) جـ1

كوثراني، وجيه، المسألة الثقافية في لبنان الخطاب السياسي والتاريخ. بيروت، منشورات بحسون الثقافية، ط أولى، 1984.

اللوزي، أحمد بن شايع، سيرة الإمام الحسن بن علي المؤيدي. مخطوطة محملة على قرص مدمج C.D بمؤسسة الأمام زيد ابن علي الثقافية بصنعاء.

لطف الله، عيسى ؛ روح الروح في ما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح. تحقيق، إبراهيم المقحفي، صنعاء . مركز عبادي للطباعة والنشر، ط.أولى، 2003م.

مجموع سفينة شعرية ورسائل الأئمة . مخطوطة محفوظة على قرص مدمج بمؤسسة الإمام زيد الثقافية،

المحبي، محمد أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. بيروت، دار صادر، جـ2

المركز الوطني للوثائق بصنعاء . وثيقة تحت رقم 89/ 1

المصري، أحمد، موقف المؤرخين اليمنيين المعاصرين للحكم العثماني الأول بين مؤيد ومخالف. القسم الأول من رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة صنعاء، 2006، م .

المطيب ؛ بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام. تحقيق أحمد المصري، القسم الثاني من رسالة ماجستير غير منشورة بعنوان موقف المؤرخين اليمنيين المعاصرين للحكم العثماني الأول بين مؤيد ومخالف. جامعة صنعاء 2006م.

المفضل، محمد بن أبراهيم: السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية. نشرها / عبد الملك بن محمد الطيب.

المقحفي، إبراهيم. معجم البلدان والقبائل اليمنية. دار الكلمة، صنعاء، 2002م.

الموزعي، عبد الصمد: الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان. تحقيق: عبدالله الحبشي. صنعاء، منشورات وزارة الوقاف والأرشاد، (د.ت).

وثيقتان عثمانيتان لتقسيم اليمن إلى بكلربيكيتين: كتاب دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي، المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، ترجمة: نهى صادق. 2002م.

الوجيه، عبد السلام: أعلام المؤلفين الزيدية. صنعاء، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، ط أولى، 1999م.

النادي، فؤاد محمد: موسوعة الفقه السياسي الإسلامي، طرق اختيار الخليفة. القاهرة دار الكتاب لجامعي.ط أولى . 1980م.

النود، وليد: الدولة القاسمية في اليمن جذورها وأسس قيامها(1006- 1045هـ/ 1597- 1644م).رسالة ماجستير غير منشورة جامعة صنعاء 2002م.

النهروالي، قطب الدين: البرق اليماني في الفتح العثماني. دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط الثانية، 1986م.

هاشم ، محمد : تاريخ الدولة الكثيرية. صنعاء، مركز عبادي للدراسات، ط أولى، 2002م.

Blackburn. J. R :Tow Documents on the Division of Ottoman Yemen int tow Beglerbegiliki (973 / 1565). in Turcica .Tome xxvll. . . Editions Peeters No 27.199

:Serjent . R .B

The Portuguese off the _ south Arabian Coast .Oxford University. Press.The Second .Edition. Lebanon. 1974

Sana`a an Aribian Islamic city _ .the post medieval and modern History of Sana.a.. frist published in 1983 by the world of Islam . Festival

الدور العثماني في جزيرة كمران

دراسة للبعد السياسي والتاريخي للوجود العثماني في جزيرة كمران

مقارنة بين فترتين 1517-1538م، النصف الثاني من القرن التاسع عشر

أمل عبد المعز الحميري

مقدمة

تعود العلاقات اليمنية التركية إلى بدايات الربع الأول من القرن السادس عشر حيث كانت اليمن من أهم القواعد التي انطلقت منها جيوش المقاومة العثمانية ضد الهجوم البرتغالي . وقد أخذت تلك العلاقات إبعادا مختلفة ، بحسب الظروف التي أحاطت كلا الطرفين . ومرت تلك العلاقات بفترتين زمنيتين حاسمتين ، من تاريخ العلاقات اليمنية التركية ، وهي فترة القرن السادس عشر الميلادي فترة الوجود البرتغالي ، و الفترة الثانية هي فترة الوجود البريطاني.

وبالرغم من طول الفترة الزمنية الفارقة بين الفترتين إلا أن هذه الفترتين تعدان من أهم الفترات التاريخية بالنسبة لتاريخ العلاقات بينهما ، نظرا لأنهما تمثلان بداية ونهاية الوجود التركي في اليمن .

وقد اخترنا في موضوع دراستنا هذه جزيرة كمران مثلا او حالة تمثل بقية المناطق اليمنية التي مرت بتلك العلاقات والمراحل التاريخية ، وذلك بغرض إلقاء الضوء على تاريخ البلدين ، والتوعية بالقضايا التاريخية التي مازالت مجهولة لدى الكثير، و ذلك من خلال المشاركة في المؤتمر الخاص بالعلاقات التركية اليمنية والذي ينظمه مركز الدراسات والبحوث في جامعة العلوم والتكنولوجيا في الجمهورية اليمنية وقسم التاريخ في جامعة الفاتح بالجمهورية التركية

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور العثماني في صد الهجوم الأجنبي عن جزيرة كمران في فترتين تاريخيتين مختلفتين وقد اخترنا جزيرة كمران بالتحديد لعدة أسباب أهمها:

1 أن الدور العثماني في اليمن وجنوب البحر الأحمر حظي بالكثير من الدراسات وأهمل جانب دور الجزر اليمنية بالرغم من أهميته القصوى في تحديد أبعاد السياسة الأجنبية أو العثمانية في منطقة البحر الأحمر.

2 امتلكت جزيرة كمران موقع استراتيجي مهم في البحر الأحمر نظرا لقربها من الساحل اليمني ومن باب المندب والأماكن الإسلامية المقدسة وكان لهذه المؤهلات دورا في جذب أنظار البرتغاليين والقوى الأجنبية الأخرى.

3 تمتلك جزيرة كمران عدد من الآثار العثمانية التي تستحق الدراسة والاهتمام

4 في عام1866 اعتمدت كمران محطة للحجر الصحي وتحت إشراف الحكومة العثمانية ، وهذه الفترة لم تحظ بالدراسة والاهتمام في تاريخ العلاقات التركية اليمنية .

وقد حاولنا في هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية :

ما سبب توجه الحملات البرتغالية إلى جزيرة كمران وكيف تصدى العثمانيين لهذه الحملات

لماذا ظل العثمانيين مركزين تواجدهم في الساحل اليمني أكثر من الداخل.

كيف تعاملت الدولة العثمانية مع كمران في الفترة الثانية وما الفرق في تعاملها مع كمران في الفترتين وما هي القوى التي واجهتها الدولة العثمانية في الفترتين وكيف تصدت لها.

ما هي الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية عندما كانت تشرف على محطة الحجر الصحي وهل كان للعثمانيين أبعادا سياسية من خلال اهتمامها بمحطة الحجر.

أما عن أسباب اختيار فترتين تاريخيتين مختلفتين فيعود لأهمية الفترتين كون الفترة الأولى تمثل البدايات الأولى لدخول العثمانيين إلى اليمن ونستطيع من خلال دراستها التعرف على طبيعة الحكم العثماني وأهدافه ومدى مقاومته للوجود البرتغالي في البحر الأحمر ، كما أن كمران في تلك الفترة شهدت توافد عدد من الحملات البرتغالية و العثمانية المضادة.

أما الفترة الثانية فتكمن أهميتها في أن كمران حظيت بجهود عثمانية كبيره لاعتمادها محطة للحجر الصحي. وما يميز هذه الفترة أن دراستها ارتكزت على نماذج من الوثائق العثمانية. كما ان المقارنة بين الفترتين تعطينا دلالة على نوعية الحكم العثماني وتغير أنماطه بتغير الظروف المحيطة داخلية كانت أو دولية كما سيتبين لنا من خلال الدراسة.

ويمثل هذا البحث إضافة جديدة لحلقة الدراسات اليمنية بتناوله تاريخ الجزر اليمنية وعلاقاتها الخارجية، وذلك لما لهذه الجزر من أهمية إستراتيجية واقتصادية علاوة على ارتباطها بتاريخ الدولة العثمانية طوال الخمسة القرون الماضية.

أما عن منهج هذه الدراسة وهيكلتها، فقد اتبعنا منهج البحث التاريخي.

وقسمت الدراسة إلى مبحثين:

الأول دور العثمانيين في صد الهجوم البرتغالي عن كمران في أوائل القرن السادس عشر ،من خلال الرجوع إلى أهم المصادر التي تناولت تلك الفترة .

أما المبحث الثاني فقد تحدث عن الجهود العثمانية في جزيرة كمران أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وتطرقنا في هذا المبحث إلى دور كمران كمحجر صحي والإصلاحات العثمانية في الجزيرة. بالإضافة إلى إبراز دور العثمانيين في صد الهجوم الايطالي عام 1911م على كمران والصليف . وذيلنا الدراسة بخلاصة شملت أهم النتائج التي توصلت إليها.

دور العثمانيين في صد الهجوم البرتغالي عن جزيرة كمران في أوائل القرن السادس عشر

تعرضت السواحل اليمنية كغيرها من بلدان العالم الإسلامي إلى الغزو البرتغالي وكانت جزيرة كمران أحد أهم محطات القائد البرتغالي الفونسو البوكيرك[1] de Alfonso

(1) الفونسو البوكيرك ثاني نائب لملك البرتغال في الهند ولد عام 1453م،وعين نائب لملك البرتغال في الهند عام 1509، ويعده المؤرخون مؤسس السيطرة الغربية في آسيا(السجل

Albuquerque، بسبب موقعها القريب من البر اليمني بمسافة أربعة أميال كما انها تبعد عن باب المندب بمسافة 200ميل ، والأهم من ذلك قربها من جدة والأماكن الإسلامية المقدسة.

وأثناء ذلك الغزو كانت دولة المماليك الممثلة للعالم الإسلامي وحامية الديار المقدسة تمر بحالة من الضعف والتفكك، بحيث يصعب عليها الوقوف أمام القوة البرتغالية، فظهرت أثناء ذلك القوة العثمانية الناشئة لتكمل الدور الحربي الذي بدئه المماليك ،

ولا نستطيع بأي حال من الأحوال الجزم بأن السبب الوحيد وراء دخول العثمانيين الأول لليمن هو صد الهجوم البرتغالي عن سواحل البحر الأحمر ، ولكن قد يكون هذا هو أحد أهم الأسباب التي دفعت العثمانيين بالدخول إلى اليمن بغض النظر عن بقية الأسباب التي تتعلق بأوضاع العالمين الإسلامي والغربي السياسية والاقتصادية في تلك الفترة.

ولأن كمران جزء من بلاد اليمن وتقع في مياهها الإقليمية موقع استراتيجي ومهم فقد تعرضت لعدد من الهجمات والحملات البرتغالية بعد أن زارها البوكيرك للمرة الأولى عام 1513م، وكان قد مكث فيها شهرين تعرف من خلال وجوده هناك إلى الموانئ المهمة والمجاورة في البحر الأحمر[1].

وفي عام 1517 أرسل البوكيرك حملة بقيادة لوبوسوريزSoures Lopo إلى جزيرة كمران وقد دمر كل مظاهر الحياة فيها وأقام حصن وحامية برتغالية .

عندها قام العثمانيين بإرسال حملة إلى جزيرة كمران يقودها القائد العثماني سليمان الرومي، مع العلم بأن العثمانيين لم يدخلوا اليمن بصورة رسمية إلا عام 1538م، وقد قام سليمان الرومي بمطاردة فلول البرتغاليين من جدة وكمران كما عمل على اسر طاقم إحدى السفن و أرسل سبعة عشر جنديا برتغاليا أسيرا إلى القسطنطينية[2]

والحقيقة أن الحملات البرتغالية قد تتالت إلى سواحل البحر الأحمر ، رغبة في تنفيذ ما أمر به البوكيرك، وهو الوصول إلى جدة حيث الأماكن الإسلامية المقدسة والانتقام من المسلمين ثم التحالف مع الأحباش للسيطرة على أهم الموانئ والجزر والمراكز المطلة على طرق التجارة العالمية واحتكارها[3]. وقد عاد البرتغاليين بحملات على كمران في عام 1520، 1523م، عندما استولى عليها القائد البرتغالي انطوان دو ميراند Antoine Mirnda do .عندها قام العثمانيون بتكليف الأمير خير الدين حمزة بحملة إلى البحر الأحمر عام 1526م/932هـ لإخضاع السواحل اليمنية وطرد البرتغاليين من البحر الأحمر[4].

كانت تلك الحملات البرتغالية على جزيرة كمران توحي بالأهمية الإستراتيجية التي كونها البرتغاليون عن الجزيرة ، ويؤكد ذلك ما جاء في رسالة أرسلها البوكيرك الى الملك البرتغالي من انه بعد أن شيد قلعة في كاليكوت وديو فانه ينوي الذهاب إلى البحر الأحمر ثانية والبقاء هناك طيلة مدة هبوب الرياح الموسمية لغرض تدمير كل السفن العربية التي تمر من

---

(1) ابن الديبع، عبدالرحمن، الفضل المزيد على بغية المستفيد،تحقيق/ يوسف شلحد، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث،ص72. الكامل لأعمال الفونسو البوكيرك، جمع مادته ابنه الفونسو البوكيرك الصغير، ترجمة/عبد الرحمن الشيخ،ج1، المجمع الثقافي، الامارات العربية المتحدة1420هـ/2000م،ص43.

(2) Baldry,Foreign intervention and occupations of Kamaran,p.95

(3) سجلات الفونسو البوكيرك ، ج4، ص402 .

(4) د سالم ،سيد مصطفى، الفتح العثماني الاول ليمن، ط4،القاهرة، مطبعة الجبلاوي1992م، ص167.

باب المندب، وانه اذا ماتم له ذلك فسوف يأمر ثلاث سفن بالرسو بشكل دائم في احد الموانئ هنالك لتقوم بواجب تدمير أي سفينة جديدة تظهر، وانه لابد من بناء قاعدة بحرية وقلعة في ميناء مصوع حتى يسهل للسفن البرتغالية القيام بأي عمليات عسكرية[1].

وقد سبب هذا الاهتمام البرتغالي بالمقابل إهتمام من الجانب العثماني، وذلك بإرسال العديد من الحملات إلى جزيرة كمران وتحصينها في كل حمله.

ومما لا شك فيه أن الحملات العثمانية كانت في البدء مكثفة و تحمل طابع عسكري بحت قصد منها في الأساس طرد البرتغاليين وتنظيف سواحل البحر الأحمر من الجيوب البرتغالية ، حتى قدوم حملة سليمان باشا الخادم عام 1538م. وقد توجهت تلك الحملة ابتداء إلى جزيرة كمران للتزود بالماء العذب وتحصينها ثم واصلت الحملة سيرها للدخول لباقي المناطق اليمنية.

ولعل أول وأهم الأهداف التي حققها سليمان باشا في حملته هذه هو إحكام السيطرة على جزيرة كمران والتي أدرك أهميتها من الناحية السياسية والإستراتيجية ، فأمر بإنزال عدد من المدافع فيها وتحصينها، وفي الأخير قام بقطع رقاب عدد كبير من الجنود البرتغاليين والهنود وتركهم قتلى على ساحل كمران[2].كما كرر هذا العمل أثناء دخوله عدن مع حاكمها .

وبرغم الانتصارات التي حققها سليمان باشا الخادم في حملته الى اليمن ،لكنه يظل يمثل صورة من الجانب السلبي للحكم العثماني في اليمن بسبب أعماله الوحشية وقتله للحكام في عدن. ومما سبق نلاحظ:

- تركيز البرتغاليون على سواحل البحر الأحمر بقصد الوصول إلى الأماكن المقدسة.
- الاهتمام العثماني بالسواحل والجزر اليمنية وتحصينها لصد الهجوم البرتغالي

تركيزهم على تحصين كمران قبل العمل على تثبيت حكمهم في الداخل لأهمية موقعها على خط الملاحة والتجارة الدولي وقربها من باب المندب والأماكن الإسلامية المقدسة.

دور العثمانيون في جزيرة كمران أواخر القرن التاسع عشر

(دراسة للوجود العثماني في الجزيرة من خلال الوثائق العثمانية)

في عام 1847م عاد العثمانيون إلى اليمن بحملة جديدة، وكان من ضمن أسباب عودتهم:

إحساس العثمانيين بأن سيطرتهم على البحر الأحمر بدأت تتلاشى

السباق والصراع الانجليزي الفرنسي المحموم، حول الموانئ والجزر اليمنية المهمة والمطلة على البحر الأحمر وقد جعلهم هذا السبب يحسون بخطر الاقتراب الأجنبي أولا من الأماكن الإسلامية المقدسة ، ثانيا من أهم المراكز والقواعد الإستراتيجية والاقتصادية في البحر الأحمر . وكانت فكرة شق قناة توصل البحر الأحمر بالأبيض المتوسط فكرة قديمة كان صاحبها سنان باشا وذلك لتسهيل مرور السفن الحربية والمدفعية إثناء توجيه الحملات العسكرية العثمانية إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي لمحاربة البرتغاليين[3] . إلا أن الفرنسيين نفذوا

(1) حنظل ، فالح: العرب والبرتغال في التاريخ، 711-1720م، الامارات العربية المتحدة، المجمع الثقافي،ط 1،ص229.

(2) بلاي فير: تاريخ العربية السعيدة، ترجمة/د. سعيد النوبان، ط 1، دار جامعة عدن للنشر 1999م،ص 101.

(3) اباظه،فاروق عثمان:عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر،القاهرة ، الهيئة المصرية العامة

الفكرة عمليا وقاموا بشق قناة السويس عام 1869م، والتي قلبت معايير السياسة الدولية في البحر الأحمر، وزادت من حدة الصراع والتنافس على أهم مراكزه.

لذا رأى العثمانيون ضرورة إعادة فرض سيطرتهم على البحر الأحمر ودوله خصوصا تلك التي ظلت سيادتهم عليه في القرون الأخيرة سيادة اسمية.، وقد واتتهم الفرصة عندما تلقوا استدعاء من الشريف حسين الذي كان يحكم سواحل تهامة بسبب صراعه مع امام صنعاء -في تلك الفترة _المتوكل محمد بن يحي و إضطراب الوضع السياسي في اليمن1 ولهذه الأسباب عاد العثمانيون إلى اليمن .

رأى العثمانيون عند عودتهم الثانية ضرورة تغيير أساليب الحكم العثماني في اليمن و البلاد الإسلامية بشكل عام وذلك لمواجهة التحديات الكبيرة التي واجهتها في القرون المتاخرة من البلاد المحكومة ومن الدول الكبرى كونها ظلت ولفترة من الزمن تشكل قاعدة للعمل السياسي تواجه التوسع الاستعماري الأوربي. فعملت على العديد من الإصلاحات الضرورية في الولايات التي شهدت الكثير من التمردات. وطبعا لم تظهر تلك التمردات والثورات إلا بسبب سؤ الإدارة العثمانية وقسوة وهمجية بعض الولاة، الذين تركوا طابع سيئ عن الإدارة العثمانية .

ومما تجدر إليه الإشارة أن أهم المناطق التي حقق فيها العثمانيين نصرا ضد البرتغاليين هي المنافذ الجنوبية للبحر الأحمر حيث اقتصر نشاطهم في الجانب السياسي على تتبع إستراتيجية عسكرية جعلت من اليمن قاعدة للارتكاز ضد البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي2، وهو ما يؤكد هدف العثمانيين في مجيئهم إلى البحر الأحمر- لحماية الأماكن المقدسة و حماية منفذ البحر الأحمر- المنفذ التجاري العالمي والطريق المختصر الذي يوصل البحر المتوسط بالمحيط الهندي - الذي يعد محافظة العثمانيين عليه وحمايته نصرا كبيرا للمسلمين وقد استطاع العثمانيون بالفعل المحافظة عليه وأطلق عليه المؤرخون البحيرة العثمانية طيلة القرن السادس عشر.

مؤتمر القسطنطينية وجزيرة كمران

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي عام1866م بالتحديد، عقد مؤتمر القسطنطينية للإقرار على تأسيس محطة للحجر الصحي على الجهة الجنوبية للبحر الأحمر وذلك لفحص الحجاج الآتيين منن شرق آسيا بعد انتشار مرض الكوليرا وبعض الأمراض المعدية والخطيرة3. وبناء على توصيات المؤتمر فقد أرسلت عدة بعثات من قبل الحكومة العثمانية لإجراء مسح حول منطقة البحر الأحمر، للبحث عن موقع لمحطة الحجر، وقد تم اختيار جزيرة كمران نظرا للمميزات التالية

مناخها الصحي والنظيف

قربها من الأماكن الإسلامية المقدسة

موقع الجزيرة المتميز وقربها من البر اليمني وباب المندب ومرور أغلب البواخر من قربها.

وليس ذلك فحسب ، فقد كان للعثمانيين بعد سياسي في اختيار جزيرة كمران محطة للحجر الصحي ، فالجزيرة بموقعها الاستراتيجي قد لفتت أنظار البريطانيين والفرنسيين والايطاليين منذ بدايات القرن

للكتاب1987م، ص402.

(1) العمري، حسين عبد الله، مائة عام من تاريخ اليمن الحديث(1161-1264هـ/ 1748 - 1848 م)، دار الفكر، دمشق، 1984م، ط1، ص334.

(2) المسعودي، عبدالعزيز قايد، المشرق والمغرب العربي ،صنعاء، دار الكتب الثقافية 1993، ص31.

(3) Baldry, Forgine interventions and occupation of Kamaran, p.101.

التاسع عشر، وبسيطرة الحكومة العثمانية على هذه الجزيرة قد يساعدها على التواجد الدائم والقوي في سواحل البحر الأحمر اليمنية والتي أصبحت السيطرة العثمانية عليها ضعيفة وذلك بعد الوجود القوي للدولتين الاستعمارييتن فرنسا وبريطانيا في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الإصلاحات العثمانية في جزيرة كمران:

كان قرار اتخاذ كمران محطة للحجر الصحي من قبل الحكومة العثمانية بداية للنهوض بهذه الجزيرة وتعاظم أهميتها أمام الدول الأوربية المتصارعة في البحر الأحمر، كما عملت الحكومة العثمانية على إنعاش البنية التحتية للجزيرة وإدخال الإصلاحات والخدمات الأساسية إليها،

ابتداء بجعلها وحدة الدرية بحد ذاتها مع ميناء الصليف،

تم إنشاء عدد من الفنارات والعلامات البحرية لإرشاد السفن

ترميم المساجد والمزارات الدينية القديمة

إقامة عدد من المباني الحكومية ورفع رواتب الموظفين فيها

تمديد خط تلغراف يربط بين الجزيرة وميناء الحديدة.

وبين أيدينا نماذج من الوثائق العثمانية التي تبين مدى الاهتمام العثماني بالجزيرة وتعاظم أهميتها بعد اعتمادها محطة للحجر الصحي.

الإصلاحات الإدارية:

كانت جزيرة كمران في فترة الحكم العثماني الأول تعد محطة ترانزيت أثناء مرورهم في البحر الأحمر، فضلا عن انها كانت محطة صراع بين الفرنسيين والبريطانيين في أوائل القرن التاسع عشر وكانت من ضمن المحطات المهمة التي استولى عليها محمد علي باشا عام 1837م.

إلا انه في نفس ذلك العام طلب الانجليز من محمد علي-من منطلق الترغيب والتهديد- إعطائهم الجزيرة لإقامة محطة للفحم فتنازل عنها محمد علي، ومن بعد ذلك التاريخ 1837م إلى أن تم اعتمادها محطة للحجر لم تحظ الجزيرة بأي اهتمام دولي بسبب انشغالهم بميادين اخرى.

أما بالنسبة للإصلاحات الادرارية العثمانية فيها فقد جعلت كمران والصليف وحدة إدارية تتبع مباشرة سنجق الحديدة1.

وتم إنشاء المباني والمؤسسات الحكومية وتوزيع الموظفين في دوائرهم حسب تخصصاتهم واعتماد كشوفات حكومية خاصة بالموظفين واعتماد رواتبهم2.

عمل العثمانيون على الاهتمام بالحجاج وتوفير المؤسسات الصحية والمساكن وأدوات الفحص والأطباء، ونظرا لازدياد عدد الحجاج المارين بجزيرة كمران والذين يخضعون للفحص الطبي فقد طلب المسئولون عن الجزيرة من الحكومة العثمانية إنشاء مبان إضافية للحجر الصحي وفي جزر قريبة من كمران، حيث استقبلت كمران في عامها الأول 9067 حاجا وارتفع عددهم ليبلغ في الأعوام اللاحقة ليصل الى 44333حاجا أما الموظفين فقد وصل عددهم إلى أربعين موظفا3.

ونظرا لهذا الارتفاع في عدد الحجاج فضلا عن الاهتمام البريطاني بالجزيرة ورغبتهم في البقاء على صلة بها، فقد تم اختيار قنصل فخري

---

(1) المركز الوطني للوثائق ؛ وثيقة برقم 8/73 . الأرشيف العثماني بتاريخ1301هـ.

(2) المصدر السابق؛ وثيقة برقم 5/77 ،بتاريخ 1317هـ.

(3) Baldry,forgine intervention and occupation of Kamaran,p.101.

بريطاني في الحديدة وكمران وكلف بمراقبة الحجاج الهنود وكيفية التعامل معهم من قبل مراكز الفحص في موسم الحج1.

كما قامت الحكومة العثمانية باعتماد مبالغ مالية ضخمة لإجراء عدد من الإصلاحات الضرورية في الجزيرة ومنها إقامة عدد من الفنارات والعلامات البحرية لإرشاد السفن2.

كما تم مراقبة أراضي جزيرة كمران والتي كانت عرضة للاستغلال غير المشروع من قبل التجار للاستفادة منها كمواقع لتجارتهم بدون سند ملكية أو عقود إيجار، ولم يكن لمواطني كمران يد على بعض أراضيها نظرا لضر وفهم السيئة ، فقامت الحكومة العثمانية بإحالة الأراضي تحت متصرف الحديدة ، حتى لا تتعرض للنصب من قبل جهات غير رسميه3

ومن أهم المشروعات العثمانية التي ناقشها مجلس شورى الدولة في جزيرة كمران ، وهو تمديد خط تلغراف من الحديدة إلى كمران والذي تذكر المحاضر انه سيكلفها مبالغ مالية كبيرة وحدد طوله بـ3الف متر4.

كيفما كان الأمر ، فقد أبدت الدولة العثمانية اهتماما خاصا بجزيرة كمران ولعل من أهم أسباب هذا الاهتمام هو إدراك الحكومة العثمانية لأهمية الجزيرة الإستراتيجية وأهمية موقعها في منطقة الصراع الدولي في البحر الأحمر. وقد أرادت بهذه الإصلاحات إعادة الهيبة وإعادة سيادتها على مناطق ومراكز مهمة في البحر الأحمر ، ومن المهم عرض نماذج من بعض هذه الوثائق لمعرفة حجم الاهتمام العثماني بالجزر اليمنية في المرحلة الثانية .

نماذج من الوثائق العثمانية المتعلقة بجزيرة كمران؛

أ - محضر مجلس ولاية اليمن مرفوع إلى وزارة الداخلية ويتعلق بضرورة إيجاد مبنى إداري في جزيرة كمران. كما أن الحجاج القادمين من الهند وجاوة والأقطار الأسيوية والذين يمرون عبر جزيرة كمران في الذهاب والإياب وقد وصل عددهم في السنة إلى حوالي من 40الى 50 ألف حاج وأوضاع الجزيرة غاية في السوء. بتاريخ 1317هـ 5

ب - محاضر مجلس الشورى تطلب ضرورة توفير المبالغ المطلوبة لتمديد خط تلغراف من الحديدة إلى كمران مع طلب إنزال مناقصة في الصحف الرسمية. مرفق معه موافقة الصدر الأعظم وديوان السلطان بتاريخ 1312هـ/ 1895م6

جـ - رسالة من والي اليمن وناظر الداخلية تشير الى ازدياد أهمية جزيرة كمران والتي تتبع إداريا سنجق الحديدة وخاصة بعد بناء الحجر الصحي، مع طلب رفع مخصص مدير الناحية ، نظرا لارتفاع الأسعار في الجزيرة،. بتاريخ 1317هـ/ 1900م7

د - طلب اعتماد مبالغ مالية لإنشاء مباني للحجر الصحي في عدد من الجزر منها (ابو علي) و(واسطة) و(ابو سعد) ، واعتماد مبالغ مالية لتجهيز كمران بالمباني والترميمات للمساجد والاحتياطات الضرورية. بتاريخ 1313هـ8

---

(1) Baldry, opcit, p.101

(2) المركز الوطني للوثائق ، وثيقة برقم 8 / 69، بتاريخ 1306هـ.

(3) المركز الوطني للوثائق، وثيقة رقم 4 / 72، بتاريخ 1315هـ/ 1898م.

(4) المصدر السابق، وثيقة رقم 38 / 29، بتاريخ1312هـ/ 1895م.

(5) المصدرالسابق، وثيقة رقم 2/ 73، بتاريخ 1317هـ.

(6) المصدر السابق، وثيقة بترقم 35 /29، بتاريخ 1312هـ/1895م.

(7) المصدر السابق، وثيقة رقم 5 /77، بتاريخ 1317هـ/1900م.

(8) المصدر السابق، وثيقة رقم 8/ 16، بتاريخ

هـ - طلب إضافة علامتين بحريتين لإرشاد السفن عند مدخل ميناء كمران مع طلب تمويل شراء تجهيزات ضرورية للمراكز الصحية ، مع موافقة الصدر الأعظم على الطلب. بتاريخ1306هـ.1

دور العثمانيون في جزيرة كمران أثناء الحرب الايطالية التركية

كانت اليمن (فترة الدراسة) تعيش في فوضى سياسية عارمة ، فكانت كمران بيد السلطات العثمانية ، حتى وقوعها تحت الاحتلال البريطاني عام 1915م. وكانت الفترة السابقة من 1866 -1910م موقع اهتمام الحكومة العثمانية وإدارتها كونها كانت تشرف على إدارة محطة الحجر، إلا انه في عام 1911م تعرضت جزيرة كمران للحصار والضرب بالمدافع من قبل الايطاليين الذين عمدوا إلى محاصرة الموانئ والجزر اليمنية لإشغال الدولة العثمانية عن طرابلس الغرب الذين كانوا بصدد احتلالها . وقد تم للايطاليين خلال تلك الفترة ضرب الموانئ اليمنية على الساحل الشرقي وحصارها مع بلدان تهامة حتى ارتفعت الأسعار وساد الذعر والخوف في هذه البلدان[2]. كما قام الايطاليون بقطع أسلاك الكيبل بين كمران وميناء الحديدة مما زاد من صعوبة الاتصال بين كمران والسواحل الداخلية لليمن . إلا أن العثمانيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي فقد تصدوا للهجوم الايطالي رغم إمكاناتهم الضئيلة الحربية أمام الإمكانيات الحربية الايطالية . وقد تمكن الطرفان من التوصل إلى عقد اتفاق لوقف الهجوم والحصار في 17 أكتوبر 1912م .

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة العثمانية في تلك الفترة كانت تعاني من التدهور جراء اشتداد المنافسة الدولية على البحر الأحمر ، وتمرد الكثير من ولايات الدولة العثمانية عليها، مما انذر بقيام حرب عالمية، كانت كمران أولى فرائس هذه الحرب حيث لم يمض على الحرب الايطالية التركية اربع سنوات حتى وقعت كمران تحت الاحتلال العسكري البريطاني عام 1915م، رغم أنها ظلت تحت السيادة التركية حتى تنازلت عنها تركيا رسميا في اتفاقية لوزان عام 1923م تحت ضغط دول الحلف أو الوفاق الثلاثي triple entente .

الخاتمة

توصلنا في خاتمة هذه الدراسة إلى عدد من النتائج كانت أهمها

أولا: أن الجهود العثمانية في فترة القرن السادس عشر كانت جهود حربية عسكرية بحتة هدفها حماية السواحل والجزر اليمنية من الغزو البرتغالي كونها قريبة من الأماكن الإسلامية المقدسة، باعتبار هذا خطوة أولية.

- أن طبيعة اليمن الجغرافية والمقاومة اليمنية حصرت العثمانيين في الساحل وبصعوبة شديدة استطاع العثمانيون السيطرة على بعض المناطق الداخلية .
- أن فكرة العثمانيون كانت تقوم على الحفاظ على الموانئ والجزر اليمنية كونها تشرف على الشريان المائي الحيوي (البحر الأحمر) الذي ظل ويظل محط اهتمام دولي

1313هـ/ 1894م..

(1) المركز الوطني للوثائق: وثيقة رقم 8 / 69 ، بتاريخ 1306هـ/ 1889م.

(2) الوشلي، اسماعيل بن محمد التهامي: نشر الثناء الحسن، تحقيق/ ابراهيم احمد المقحفي ج4، صنعاء مكتبة الارشاد، ط1، 1423هـ/ 2003م، ص12.

(3) Baldry: The Turkish Italian war in Yemen 1911 -1912 .Arabiastudies.vol .p 101.

وعالمي، لذا عملت بجد على تحويل هذا البحر إلى بحيرة عثمانية إسلامية وحافظت عليه من الغزو الأجنبي البرتغالي والذي كان مركزا على السواحل والجزر ومنها كمران و أرسل إليها العديد من الحملات العسكرية لامتلاكها موقع استراتيجي وحساس في البحر الأحمر.

ثانياً:

أن الجهود العثمانية في القرن التاسع عشر في جزيرة كمران أصبحت عبارة عن إصلاحات للبنى التحتية وذلك حتى تثبت أحقيتها وسيادتها على الجزيرة أمام البريطانيين والايطاليين وباقي القوى الأوربية ، كونهم كانوا يتابعون الوضع فيها باهتمام، كما أن العلاقات العثمانية البريطانية شهدت في تلك الفترة توترا حادا. لذلك كان أهم ما قام به العثمانيون في كمران:

- تم تشكيل وحدة إدارية مكونة من كمران والصليف
- تم إنشاء عدد من الفنارات والعلامات البحرية لإرشاد السفن
- تم ترميم المساجد والمزارات الدينية القديمة
- تم إقامة عدد من المباني الحكومية ورفع رواتب الموظفين
- تم إنشاء عدد من المراكز الصحية والاهتمام العام بالصحة كونها محجر صحي
- تم تمديد خط تلغراف يربط بين الجزيرة وميناء الحديدة.

وقد قام العثمانيون بتلك الإصلاحات لعدة أسباب أهمها:

- أن كمران قد اختيرت اثر مؤتمر القسطنطنية محجرا صحيا عالميا، ولذا كان على الدولة العثمانية أن تولى هذه الجزيرة اهتماما خاصا كونها إحدى المناطق اليمنية التابعة لها.
- أن الدولة العثمانية تلقت العديد من الانتقادات اثر ثورات التمرد والانفصال نظرا لطبيعتها العسكرية القاسية في الحكم والتي تفتقر إلى إدخال النمو الحضاري والثقافي لولاياتها،وعدم اهتمامها بالبناء الحضاري والمدني للدولة. فجاءت إصلاحاتها في القرن التاسع عشر محاولة للتغير من نمط وأسلوب الحكم للحفاظ على أركان هذه الدولة.
- وأخيرا أن الفرق بين الفترتين في النصف الأول من القرن السادس عشر والنصف الثاني من القرن التاسع عشر هو أن العثمانيين في الفترة الأولى كان هدفهم صد الهجوم البرتغالي عن سواحل البحر الأحمر، ومن ثم محاولة بناء دولة وتثبيت حكم . أما في الفترة الثانية فكانت جهود الدولة العثمانية تعبر عن محاولة لتغيير نمط الحكم العسكري وإدخال نوع من الانتعاش الحضاري لولايات الدولة العثمانية وذلك بإضفاء العديد من الإصلاحات للمحافظة على أركان هذه الدولة، وكانت كمران حالة من حالات المناطق اليمنية المهمة جدا في البحر الأحمر. و التي شهدت منافسة أوروبية مختلفة.

ومهما يكن من أمر الوجود العثماني في اليمن فنرى انه من غير المستحسن استخدام كلمة استعمار على الحكم العثماني في اليمن، مهما حمل نظامه وبعض ولاته من سيئات لسببين، أولهما: أن هذه الكلمة ظهرت بالتحديد مع ظهور المد الاستعماري الغربي والكشوف الجغرافية وهم أنفسهم أطلقوا على تواجدهم في بلاد الشرق استعمار.كما أن كلمة استعمار لها عدد من المعاني والدلالات اللغوية أهمها تعمير الأرض ونقل الشعوب والسكان إليها ، وخلق ثقافة جديدة تتبع المستعمر.

أما السبب الثاني: فالدولة العثمانية عندما قدمت إلى البلاد العربية واليمن قدمت تحمل لواء الدولة الإسلامية ومعها أهداف ومبادئ إسلامية كما جاءت لتكمل الدور الحربي الذي بدأته دولة الخلافة الراشدة ومن ثم دولة العباسيين

والأمويين والمماليك في صد الهجوم الأجنبي عن البلاد الإسلامية لذا من المنطقي الا تتلاءم كلمة استعمار مع أهداف الدولة العثمانية في البلاد الإسلامية.

مراجع الدراسة

اولا: الوثائق

المركز الوطني للوثائق : وثيقة برقم 8 / 69، بتاريخ 1306هـ.

وثيقة رقم 4 / 72، بتاريخ 1315هـ/ 1898م.

وثيقة رقم 38 / 29، بتاريخ1312هـ/ 1895م.

وثيقة رقم 2/ 73 ، بتاريخ 1317هـ.

وثيقة بترقم 35 /29 ، بتاريخ 1312هـ/1895م.

وثيقة رقم 5 /77 ، بتاريخ 1317هـ/1900م.

وثيقة رقم 8/ 16، بتاريخ 1313هـ/ 1894م.

وثيقة برقم 8/73 ، الأرشيف العثماني بتاريخ1301هـ.

ثانيا: المراجع

1- ابن الديبع، عبدالرحمن: الفضل المزيد على بغية المستفيد، تحقيق/ يوسف شلحد، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث.

2- اباظه، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987م.

3- الفونسو البوكيرك: جمع مادته ابنه الفونسو البوكيرك الصغير، ترجمة/ عبد الرحمن الشيخ، ج1، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة 1420هـ/ 2000.

4- المسعودي، عبدالعزيز قايد: المشرق والمغرب العربي ،صنعاء، دار الكتب الثقافية 1993.

5- الوشلي، اسماعيل بن محمد التهامي: نشر الثناء الحسن، تحقيق/ ابراهيم احمد المقحفي ج4، صنعاء مكتبة الارشاد، ط1، 1423هـ/ 2003م.

5- بلاي فير: تاريخ العربية السعيدة، ترجمة د. سعيد النوبان، ط1، دار جامعة عدن للنشر 1999م.

6- د. حسين عبد الله العمري: مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، ط1، دار الفكر دمشق، 1984م.

7- حنظل ، فالح: العرب والبرتغال في التاريخ 711-1720م، الإمارات العربية المتحدة، المجمع الثقافي، ط1.

8- د سالم ،سيد مصطفى: الفتح العثماني الاول ليمن، ط4، القاهرة، مطبعة الجبلاوي 1992م.

9_Jhon Baldry

_Foreign intervention and occupa_tions of Kamaran Iiland,Arabian studies ,vol.Iv. 1980.

The Turkish Italian war in Ye_men 1911 -1912 , . Arabian studies,III , London 1976..

التشكيلات العسكرية
في ولاية اليمن أثناء الحكم العثماني الثاني
1848 - 1918م

أ. فؤاد عبدالوهاب الشامي
المركز الوطني للوثائق

ملخص

يتناول البحث موضوع التشكيلات العسكرية في ولاية اليمن اثناء الحكم العثماني الثاني 1828 - 1918 ودورها في ادارة البلاد , وفي البداية سوف يتم الأشارة الى الاهمية التي كان يتمتع بها الجيش في اطار الدولة العثمانية وتأثيراته على الاحداث التي كانت تجري في المناطق والولايات التي تتبعها .

ومن ثم سيتم التطرق الى دور الجيش في إعادة فرض النفوذ العثماني المباشر على اليمن بعد ان كانت تخضع للسيادة الاسمية فقط ، وبعد ذلك تناول التشكيلات لادارية والميدانية للجيش العثماني المتواجد فيها، والذي كان يسمي آنذاك بالجيش السابع وأهم قادته، والفرق، والالوية، والطاوبير التي تشكل منها.

كما سيتعرض البحث للعلاقة بين التنظيمات العسكرية والادارية المدنية, والاسباب التي سمحت للجيش بالتدخل في شئونها بإستمرار, حتى ان الحكم العثماني لليمن في تلك الفترة طغى عليه الطابع العسكري , والذي تسبب في أثارة المشاكل بين الادارة العثمانية والاهالي .

وبعد ذلك سوف يتناول البحث الايجابيات التي خلفها الجيش العثماني والمشاريع والمنشاءات والخدمات التي كان له دوراً في توفيرها للوالاية .

وفي الأخير: سيتم مناقشة القضايا السابقة من خلال عدة عناوين منها أهمية الجيش العثماني وصول القوات العثمانية الى اليمن , نظام الجيش هم قادته , تشكيلاته الادارية والميدانية، الميدالية اليمن , العساكر الحميدية (الجندرمه) , القوات البحرية والمهام المكلفة بها في ولاية اليمن, المنشئات العسكرية .

مقدمة :

مما لاشك فيه بأن الحكم العثماني لليمن قد اعتمد على الإدارة المدنية والنظام العسكري وهذا البحث يتناول الجانب العسكري من الناحية التاريخية مستعيناً بالمصادر والمراجع الأصلية من أهمها الوثائق العثمانية المحفوظة في الارشيف العثماني في اسطنبول والوثائق العثمانية المحفوظة في المركز الوطني للوثائق بصنعاء إضافة إلى المصادر الاصلية العربية والعثمانية، كما تم الاستعانة بالمؤلفات العربية والتركية الحديثة التي تناولت هذا الموضوع مستخدماً منهج البحث التاريخي المتعارف عليه في البحث والتدقيق.

فقد كان للجيش دوراً كبير في إدارة ولاية اليمن، وهذا يعتبر أحد الاسباب التي كانت تدفع الأهالي إلى التمرد ضد الدولة، ولم يكن ذلك التمرد يظهر في المناطق الزيدية فقط ولكنه كان ايضاً حالة ظاهرة في مختلف مناطق الولاية الزيدية منها والشافعية، وقد تجلى ذلك بوضوح في لواء عسير الذي كانت المذاهب السنية متواجدة فيه ولكنه أعلن التمرد ضد الدولة بقيادة الادريسي ولواء الحديدة الذي كان الزرانيق يعلنون التمرد على الدولة من وقت إلى آخر، مما يؤكد أن التمرد ضد الدولة لايرتبط بالمذهب وانما بممارسة الادارة المدنية والعسكرية.

ومن خلال هذا البحث سأحاول الإجابة على مجموع من التساؤلات والفرضيات المتعلقة بالموضوع منها: موقع الجيش في الدولة العثمانية وتأثيره على سياستها؟ ماهو النظام الذي تم الإعتماد عليه عند تشكيل الجيش العثماني في اليمن؟ ماهي التشكيلات الميدانية والادارية التي تكون منها الجيش السابع؟ كيف كان يتم توزيعه في مناطق الولاية المختلفة؟ توضيح دور الجيش في المشاكل التي ظهرت في ولاية اليمن أثناء الحكم العثماني الثاني؟ كيف كان تاثير الظروف التي عاشها أفراد الجيش العثماني على اداتهم لأعمالهم؟ ماهو الهدف من تشكيل طوابير الجندرمه من اليمنيين واسباب حل هذه الطوابير؟ ماهو دور القوات البحرية في حماية سواحل الولاية؟ مدى استفادة الأهالي من المشاريع والمنشاءات العسكرية؟

وقد قدم هذا البحث معلومات توضح تشكيلات الجيش السابع الذي شكلته الدولة العثمانية عندما سيطرت على اليمن، ودور الجيش في إدارة الولاية وعلاقته مع الادارة المدنية فيها، كما وضح الهدف من إنشاء ميدالية اليمن، واستكمل بعض المعلومات الناقصة عن بعض المواضيع المتعلقة بالجانب العسكري في ولاية اليمن مثل توزيع الجيش، الجندرمه والقوات البحرية وغيرها.

ولقد تناولت بعض الأبحاث والدراسات هذا الموضوع ولكن من خلال اتجاهات مختلفة او في إطار مواضيع أخرى، ومن أهم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع الدراسة التي قدمها الدكتور عبدالكريم العزير بعنوان (الادارة المركزية العثمانية والادارة المحلية في اليمن) كما يعتبر هذا البحث استكمال للدراسة المذكورة خاصة وأنها ركزت على الإدارة المحلية في اليمن بشكل عام .

أهمية الجيش في الدولة العثمانية

يعتبر الجيش العمود الرئيس لأي حكم أو نظام وخاصة إذا كان هذا الحكم غير وطني، وهذا ينطبق على الحكم العثماني الثاني لليمن، حيث أعتمد على مساعدة الجيش، إذ كان طبيعة ذلك الحكم أقرب إلى العسكري منه إلى المدني، مع مراعاته للقوانين والأنظمة التي كانت تسير نظام الحكم في الدولة وولاياتها (1).

ولذلك أهتمت الدولة العثمانية بشكل

كبير بالجيش، وبأفراده وبتشكيلاته العسكرية المختلفة، بحكم سيطرتها على مساحة واسعة، تقع معظمها في مناطق بعيدة عن استانبول عاصمة الدولة، مما فرض عليها ضرورة إخضاع تلك المناطق وإحكام السيطرة عليها، وكان الجيش يقوم بتلك المهمة(2)، وبالتالي فقد سخّرت الدولة كل الإمكانيات وخاصة المادية لخدمة الجيش الذي كان يحصل على نصيب الأسد من ميزانية الدولة وإيرادات الولايات التابعة لها، وكانت تصرف تلك الأموال على مختلف الجوانب العسكرية(3).

وكان للجيش العثماني تأثير كبير على قرارات الدولة، وخاصة القرارات التي توجه السياسة العامة للدولة(4)، وكان له دور فعال في السياسة الادارية والاقتصادية للدولة، فقد كان يتدخل في القرارات المهمة، وظهر ذلك واضحاً في عزل بعض السلاطين، وتعيين البعض الآخر(5).

وقد دفع ذلك بعض السلاطين إلى إبعاد العناصر المناوئة من الضباط، والأفراد إلى المناطق البعيدة عن عاصمة الدولة، ومنها ولاية اليمن التي كانت تعتبر منفى لبعض الضباط والموظفين المدنيين(6).

كما كان للتشكيلات العسكرية دورا كبيرا في إدارة الولايات العثمانية، وذلك بموجب نظام الإدارة العمومية للولايات الصادر في 1871م(7)، والقانون المؤقت للإدارة العمومية للولايات الصادر عام 1913م(8)، اللذان أعطيا الجيش صلاحيات أمنية واسعة لمساعدة الاجهزة الأمنية في المواقف التي يصعب عليها التعامل معها، وخاصة في الولايات التي كانت تسودها الاضطرابات مثل ولاية اليمن التي كانت الأوضاع فيها سيئة بالنسبة للعثمانيين، وقد أدى ذلك إلى السماح للجيش بالتدخل في أغلب الأمور الادارية على مستوى الولاية، اواللواء، أو القضاء، أو الناحية(9).

وصول القوات العثمانية إلى اليمن:

وصل توفيق باشا على رأس قوات عثمانية إلى الحديدة عام 1848م، لاستلام منطقة تهامة وعسير من الشريف حسين بن علي بن حيدر آل خيرات (1838 - 1848م) الذي كان يحكم المنطقة تحت السيادة الاسمية للدولة العثمانية، وعندما استلم توفيق باشا المنطقة الساحلية من الشريف حسين خضعت للسيادة العثمانية الفعلية من دون مقاومة(10).

كان أفراد القوات العثمانية التي اصطحبها معه توفيق باشا من الأفراد العاملين في الحجاز لأن اليمن كانت في تلك الفترة تعتبر متصرفية تابعة لولاية جده(11) الذي كان يعمل فيها توفيق باشا، ولهذا استعانت الدولة بالقوات التي كانت موجودة في الحجاز عندما ارسلت توفيق باشا إلى اليمن، كما استعانت بعد ذلك ببعض الطوابير من الجيش العثماني في العراق، وعدد من الطوابير السودانية(12) لتنفيذ مهمات عسكرية في اليمن، واستمر الحال على هذا النحو إلى أن بدأت الدولة العثمانية تفكر ببسط سيطرتها على المناطق الجبلية من اليمن.

وفي عام 1871م، أرسلت الدولة المشير/ أحمد مختار باشا على رأس قوات كبيرة للقضاء على التمرد الذي كان يقوده محمد بن عايض في منطقة عسير(13)، وبعد أن تم له ذلك وصل فرمان سلطاني بتعيين أحمد مختار باشا والياً على ولاية اليمن، وقائداً للجيش العثماني فيها، ورفعت رتبته العسكرية إلى رتبة مشير(14)، وتم تكليفه بمد النفوذ العثماني إلى مدينة صنعاء، والمناطق المجاورة لها(15).

بعد القضاء على التمرد في منطقة عسير بدأ أحمد مختار باشا بتنظيم ولاية اليمن، وقام بتشكيل اللواء الأول في عسير، وجعل عاصمته مدينة أبها(16)، وعندما وصل إلى مدينة الحديدة التي كانت خاضعة للنفوذ العثماني آنذاك اعتبرها اللواء الثاني (لواء الحديدة)

(17) ثم بدأ بتنفيذ التوجيهات المرسلة إليه من الباب العالي بالاتجاه نحو مدينة صنعاء، وإخضاعها للنفوذ العثماني، ونتيجة للظروف السيئة، والإضطرابات التي كانت تعيشها هذه المدينة استطاع أحمد مختار باشا السيطرة عليها عام 1872م دون مقاومة واعتبرها اللواء الثالث، (لواء صنعاء) وجعل مدينة صنعاء مركزاً له وعاصمة لولاية اليمن(18)، وبعد فترة استطاع السيطرة على مدينة تعز واعتبرت اللواء الرابع (لواء تعز) وبذلك تم استكمال التشكيل الإداري لولاية اليمن التي تتكون من أربعة ألوية (19).

وخلال تنفيذ تلك المهمة تم تشكيل الجيش السابع من القوات المرابطة في الولاية اعتماداً على القوانين والأنظمة التي تم بموجبها تشكيل الجيش النظامي للدولة وذلك باعتبار أن ولاية اليمن أصبحت ولاية مرتبطة مباشرة بعاصمة الدولة العثمانية (اسطنبول) وتحتاج الى جيش (فيلق) مستقل لحمايتها(20).

وقد كانت الجيوش العثمانية موزعة آنذاك على النحو التالي:

الأول: جيش (الخاصة) مركزه اسطنبول.

الثاني: جيش (الطونه) ومركزه شمني.

الثالث: جيش (الروملي) ومركزه مناستر والبلقان.

الرابع: جيش (الأناضول) ومركزه ارضروم.

الخامس: جيش (سورية) ومركزه دمشق.

السادس: جيش (عربستان) ومركزه بغداد.

السابع: جيش (اليمن) ومركزه صنعاء(21).

تنظيم الجيش العثماني في اليمن:

حدد النظام الخاص بالقوة العسكرية العثمانية الصادر عام 1878م عدد القوات التي يمكن أن ترابط في أي ولاية عثمانية، بحيث لاتقل عن فرقة عسكرية، وأن لاتقل الفرقة عن ثلاثة (الاي) ألوية والا تزيد عن خمسة ألوية وكل لواء، لايقل عن ثلاثة طوابير، ولا يزيد عن اربعة، وكل طابور لايقل عن اربعة بلوكات، ولا يزيد عن عشرة بلوكات، وكل بلك لايقل عن ستين فرداً، ولا يزيد عن مائة، ويجب أن يكون قائد الفرقة برتبة فريق، وقائد اللواء برتبة لواء (أميرا لاي)، ولايمكن الزيادة أو النقصان إلا إذا استدعت الحاجة الى ذلك(22).

وكان معظم افراد، وضباط الجيش السابع المرابط في ولاية اليمن من جنسيات عربية، إضافة إلى بعض الألبان، والشركس(23)، وأما اليمنيون فكان عددهم في الجيش محدوداً جداً، واقتصر وجودهم على الافراد والضباط الذين ارسلتهم الادارة العثمانية للدراسة في المدارس العسكرية في اسطنبول وعدد من الإداريين، وكان معظمهم يعملون في التشكيلات الإدارية للجيش(24)، وقد صدر فرمان سلطاني عام 1913م ينص على أن يتم كل عام تجنيد طابور من الشباب اليمنيين، وارسالهم الى اسطنبول(25) ولكن لم أتمكن من الحصول على ما يؤكد تنفيذ ذلك الفرمان.

كما كانت ولاية اليمن من الولايات المعفية من التجنيد ولهذا كانت الجيوش العثمانية لا تضم جنوداً من ولاية اليمن بسبب هذا الإعفاء(26).

ونتيجة للأضطرابات التي كانت تسود ولاية اليمن، فقد وصل في بعض الاحيان عدد الجنود الذين كانوا متواجدين في الولاية الى خمسين، أو ستين الف جندي(27).

وكانت الأموال المخصصة للجيش العثماني في اليمن تستهلك معظم ميزانية الولاية، فقد قدرت الميزانية عام 1324هـ / 1905م بملبغ (543003) ليره عثمانية، واجمالي ماتم صرفه على الجيش في ذلك العام مبلغ وقدره (419747) ليره عثمانية أي بنسبة 80% من الميزانية تقريباً(28).

قادة الجيش السابع:

كان معظم الولاة الذين تم تعيينهم في اليمن ينتمون الى السلك العسكري، وفي معظم الاحيان كان الوالي يجمع بين المنصب المدني كوالي، والمنصب العسكري كقائد للجيش، وقد اشارت اللائحة الخاصة بتعمليات إدارة ولاية اليمن الى وجوب منح والي اليمن رتبة مشير عندما يكون قائداً للجيش(29)، وكانت أطول فترة تم فصل منصب الوالي عن منصب قائد الجيش هي الفترة الواقعة بين 1913 و 1918م أي بعد عقد صلح دعان، وذلك عندما تولى منصب قائد الجيش احمد توفيق باشا، واستمر في قيادته إلى أن خرج العثمانيون من اليمن، وكان يتولى منصب الوالي في الوقت نفسه محمود نديم باشا(30).

ومن أهم القادة الذين تولو قيادة الجيش العثماني في اليمن:

المشير/ أحمد مختار باشا.

تولى قيادة الجيش في اليمن في الفترة (1871-1873م)، وأستطاع دخول مدينة صنعاء في بداية الحكم العثماني الثاني لليمن(31).

أحمد فيضي باشا.

تولى قيادة الجيش في اليمن خلال ثلاث فترات مختلفة:

الفترة الأولى في (1884 - 1886م)

الفترة الثانية في (1891 - 1898م)

وقد وصل إلى اليمن لفك الحصار عن مدينة صنعاء في عهد الإمام المنصور (1890 - 1904م)(32)

والفترة الثالثة في (1905-1908م).

وقد وصل إلى اليمن لإخراج الإمام يحيى من مدينة صنعاء وإعادة النفوذ العثماني إلى المناطق الجبلية(33).

أحمد عزت باشا (1911).

وصل إلى اليمن لفك الحصار عن مدينة صنعا. في عهد الإمام يحيى واستطاع بعد ذلك عقد صلح دعان معه(34).

أحمد توفيق باشا (1911 - 1918)(35).

تولى قيادة الجيش السابع أثناء الحرب العالمية الأولى وقد مَر الجيش بظروف صعبة في تلك الفترة، ولكن بالرغم من تلك الظروف استطاع الجيش عام 1915م دخول مدينة لحج التي كانت تحت الحماية البريطانية في ظل قيادته(36).

تشكيلات الجيش السابع:

كان الجيش السابع المرابط في اليمن يتشكل من فرقتين عسكريتين هما الفرقة الثالثة عشر الملكية والفرقة الرابعة عشر الملكية إضافة إلى عدد من الالوية والطوابير والبلوكات الملحقة بهما، كما كانت تتبع قيادة الجيش عدد من الفروع الادارية (الدوائر العسكرية) وتقوم بتقديم الخدمات الإدارية والمالية والتجهيزات لأفراد الجيش، وفي عام 1896م كانت قيادة الجيش السابع مشكلة على النحو التالي:

كان يتولى قيادة الجيش في ذلك التاريخ المشير أحمد فيضي باشا، وفي نفس الوقت كان والياً لليمن.

ويساعد قائد الجيش:

البكباشي / محي الدين أفندي

قول أغاسي/ حقي افندي

يوزباشي / توفيق افندي

الدوائر العسكرية:

دائرة الاركان الحربية الشعبة الأولى، مير الاي حسني بك

دائرة الاركان الحربية الشعبة الثانية، قائم

مقام/ يوسف بك

دائرة التجهيزات – الشعبة الأولى، مير الاي / حسني بك

دائرة التجهيزات – الشعبة الثانية، مير الاي / شوقي افندي

دائرة التجهيزات – الشعبة الثالثة، مير الاي / حسني افندي

دائرة التجهيزات – الشعبة الرابعة، امير الاي / امين افندي(37)

1) الفرقة الثالثة عشر الملكية:

قائد الفرقة/ الفريق علي اكاه باشا.

وتضم عدة تشكيلات وهي:

- طابور الرماية الثالث عشر وقائده البكباشي حقي افندي.

ويضم هذا الطابور أربعة بلوكات:

- اللواء (الالاي) التاسع والاربعون.

يتكون من اربعة طوابير وكل طابور يضم اربعة بلوكات.

-اللواء الخمسون:

يتكون من اربعة طوابير وكل طابور يضم اربعة بلوكات.

-اللواء الواحد والخمسون:

يتكون من اربعة طوابير وكل طابور يضم اربعة بلوكات.

-اللواء الثاني والخمسون:

يتكون من اربعة طوابير وكل طابور يضم اربعة بلوكات(38).

2) الفرقة الرابعة عشر الملكية:

كان يتولى قيادتها الفريق علي آصف باشا وضمت الفرقة مايلي:

طابور الرماية الرابع عشر وضم اربعة بلوكات.

اللواء الثالث والخمسون:

يتكون من اربعة طوابير، وكل طابور يضم اربعة بلوكات.

اللواء الرابع والخمسون:

يتكون من اربعة طوابير وكل طابور يضم اربعة بلوكات.

اللواء الخامس والخمسون:

يتكون من اربعة طوابير وكل طابور يضم اربعة بلوكات.

اللواء السادس والخمسون:

يتكون من اربعة طوابير،وكل طابور ضم اربعة بلوكات.

لواء المدفعية المتحركة.

تتكون من طابورين الطابور الأول يضم ثلاثة بلوكات والطابور الثاني يضم اربعة بلوكات.

كما يضم الاي المدفعية المتحركة بلوك مرابط في قلعة صنعاء، وبلوك مرابط في قلعة الحديدة.

ويتبع الفرقة الرابعة عشر الملكية بلوكات السواري (الخياله) وهي البلوك الأول والبلوك الثاني(39).

كما كانت تتبع الجيش عدد من الخدمات الاجتماعية التي يستفيد منها افراد الجيش، والمواطنين في وقت واحد وهي:

أولاً: المستشفيات

المستشفى المركزي بصنعاء.

مستشفى الحديدة.

مستشفى عسير(40).

ثانياً: المدارس:

المدرسة الرشدية العسكرية (صنعاء) (41).

ومن الملاحظ ان كل طابور من طوابير الجيش العثماني الموجودة في ولاية اليمن كان يضم طبيب، وجراح، وصيدلي، اضافة الى إمام مسجد مفتي(42).

وقد كانت التشكيلات العسكرية والادارية للجيش العثماني في ولاية اليمن ملتزمة بالقوانين والانظمة العسكرية للدولة العثمانية المطبقة على الجيوش العثمانية الاخرى، ولكن كان للأوضاع الغير مستقرة في الولاية تأثيراً كبيراً على تنظيم الشئون العسكري فيها مما جعل الجيش السابع يلتزم بتلك القوانين والانظمة من الناحية الشكلية فقط، وأما من الناحية الفعلية فقد كان هناك اختلافات في شكل ودور الجيش فرضها الامر الواقع في الولاية.

توزيع قوات الجيش السابع:

كان الجيش السابع يتوزع في الأربعة الألوية (السناجق) التي تكونت منها ولاية اليمن على النحو التالي:

1) لواء صنعاء (مركز الولاية)، وقد وجد فيها:

-ثلاثة طوابير (بياده) مشاه.
-ثلاثة طوابير سواري
-بطارية جبل.
-استحكام بلوك واحد.

اثنين نصف بطارية (مدفعية)، وقد وزع في كل من:

قفل حجة طابور (بياده) مشاه.
بني العوام ثلاثة طوابير مشاه.
قضاء حجة خمسة طوابير مشاه.
مسور طابور مشاه.
ذمار طابور مشاه.
مناخة طابورين مشاه.

2) لواء الحديدة:

كانت ترابط في سنجق الحديدة القوات التالية:

مدينة الحديدة طابور مشاه.
مدينة اللحية طابور مشاه.
ريمة طابور مشاه، واستحكام بلوك في جبل ريمة.
اثنين نصف بطارية.

3) لواء تعز:

كانت ترابط في سنجق تعز القوات التالية:

مدينة تعز اثنين طابورين مشاه.
جبل صبر بطارية سيار.
جبل العروس بطاريتين وبطارية جبل.
قعطبة طابور مشاه.

4) لواء عسير:

كانت ترابط في لواء عسير القوات التالي:

منطقة أبها سبعة طوابير مشاه.
مدينة أبها طابورين مشاه وعدة استحكامات.
بطارية نصف سيار.
بطارية جبل(43).

كان ذلك التوزيع في المناطق التي أشرت إليها أثناء الفترات التي تكون فيها الأوضاع هادئة، لكن عندما تظهر اضطرابات في أي منطقة كانت تنتقل قوات من المناطق الهادئة الى منطقة الاضطرابات(44)، وفي بعض الاحيان كانت تأتي قوات اضافية من خارج الولاية(45).

أما الظروف التي كان يعيشها الجيش

العثماني، فلم تكن جهدة وكانت في الأغلب سيئة، وذلك لأن ولاية اليمن كانت من الولايات التي لم يشعر فيها العثمانيون بالاستقرار، فكانوا دائماً يواجهون مقاومة من الأهالي تزداد أحياناً، وتنقص أحياناً أخرى منذ وصول احمد مختار باشا الى صنعاء عام 1872م(46)، وبالرغم من أن تأثير تلك المقاومة كان بسيط في البداية، ولكن مع الوقت زادت خطورة هذه المقاومة على الجيش العثماني حتى أن بعض المؤرخين أطلقوا على اليمن مقبرة الأنضول نسبة الى العدد الكبير من الجنود العثمانيين الذين ذهبوا إلى اليمن ولم يعودوا (47)، واضافة الى تاثير ظروف ولاية اليمن على الجيش العثماني أثرت عليه أيضاً الظروف التي عاشتها الدولة العثمانية في تلك الفترة، والمتمثلة بالصراع بين السلطان عبدالحميد والمعارضة التي كان يتزعمها حزب الاتحاد والترقي(48)، والمشاكل التي كانت تواجه الدولة العثمانية في مختلف المناطق، والولايات التي تخضع لسيطرتها(49) . وقد تسببت تلك الظروف بتأخير الرواتب، وتأخر وصول المستلزمات الخاصة بالجيش (سلاح، ذخائر، مهمات، مواد غذائية) كما كانت تتسبب أحياناً في تأخير استبدال الجنود بأخرين في الوقت المحدد لذلك(50)، كل ذلك اثر على نفسية الجنود الموجودين في اليمن وساهم في الحد من قدرتهم على القيام بواجباتهم.

وكما ذكرنا سابقاً كان معظم الضباط والجنود الذين يرسلون إلى اليمن يشعرون بأنه تم نفيهم إلى هذه المنطقة البعيدة، مما كان يؤثر على أدائهم لوظائفهم، وكان الهم الأول للضابط هو الحصول على المال بأي طريقة كانت، ودون الالتفات إلى متطلبات، واحتياجات الجنود (51)، مما أدى في بعض الأحيان إلى تمرد أولئك الجنود على القيادة وكان أكبر تمرد قاموا به في عام 1907م عندما أعلن بعضهم التمرد على المشير/ احمد فيضي باشا، بسبب تأخير عودتهم إلى بلدانهم(52).

وكان للعمليات التي يقوم بها اليمنيون ضدالقوات العثمانية دور أكبر في مضايقة افراد تلك القوات، وخاصة عندما كان يتم قطع خطوط التلغراف، ونهب البريد، لأن التلغراف والبريد كانا القناة الوحيدة لإتصال الجنود بأهلهم، وأسرهم، وخاصة في أثناء الحرب العالمية الأولى(53).

وخلال الحرب العالمية الأولى تعرض الجيش العثماني في اليمن لظروف قاسية، نتيجة لسيطرة دول الحلفاء على معظم الطرق البحرية بما في ذلك البحر الاحمر وفي الحجاز أعلن الشريف حسين الحرب على الدولة العثمانية، وبذلك أغلقت الطرق البرية والبحرية، مما تسبب في عدم قدرة الضباط والأفراد على الدخول والخروج من اليمن، وتأخر وصول الأموال والاحتياجات الضرورية للجيش، فقام الإمام يحيى بتقديم المساعدات العينية والمواد الغذائية للجيش استجابة لطلب الوالي العثماني وقائد الجيش(54).

وعندما خرجت الدولة العثمانية من اليمن اضطر بعض أفراد الجيش الراغبين في العودة إلى بلدانهم تسليم انفسهم إلى الجيش البريطاني في عدن الذي تعامل معهم كأسرى حرب(55) واما من تبقى منهم في اليمن فقد عملوا مع الأمام يحيى لمساعدته في بناء حكمه(56).

ميدالية اليمن:

أنشأ العثمانيون ميدالية خاصة باليمن تم تسميتها ميدالية اليمن، وكانت نوعين النوع الأول ميدالية اليمن الذهبية، والنوع الثاني ميدالية اليمن الفضية، وكانت الميدالية الذهبية تمنح بموجب فرمان صادر عن السلطان لقادة الجيش السابع المرابطين في اليمن ابتداء من قائد الجيش السابع، وانتهائاً بقادة البلوكات في الطوابير والالوية(57).

والميدالية الفضية كانت تمنح لأفراد الجيش

الذين يبلون بلاءً حسناً في الاعمال التي كان يتم تكليفهم بتنفيذها في ولاية اليمن، وكانت تمنح بشكل جماعي للبلوك، أو الطابور، أو الالاي (اللواء) (58).

وقد انشأت الدولة العثمانية ميدالية اليمن حتى تقدمها كمكافئة لافراد وضباط الجيش العثماني العاملين في اليمن تقديراً لإنجاز المهام التي يتم تكليفهم بها، وإشعاراً لهم بأن الدولة تقدر لهم الذهاب إلى اليمن بإعتباره واجب وطني، وهذا ينطبق ايضاً على الموظفين المدنيين.

العساكر الحميدية (الجندرمه)

تم تشكيل العساكر الحميدية عام 1878م، من قبل الوالي اسماعيل حقي باشا من اليمنيين، وقد وصل عدد الطوابير التي تم تشكيلها إلى أربعة طوابير، وكانت مهمتها الاشراف على الأمن، والمساعدة في القضاء على بعض التمردات إلى جانب الجيش(59).

وقد اهتم اسماعيل حقي باشا بتدريب وتعليم تلك المجموعة، لجعلها نواة لقوات أمنية يتم تشكيلها من اليمنيين، وكانت سُمعت تلك المجموعة طيبة لدى الأهالي، واستطاعت ان تقوم بالمهمات التي أوكلت اليها بنجاح، وذلك لتعاملها الجيد والمقبول مع الأهالي(60) بعكس القوى الأمنية الأخرى التي تأتي من خارج اليمن، وقد وصل عدد افراد العساكر الحميدية الى (2024) فرد، وقد تم توزيع الأربعة الطوابير على الأربعة الألوية على النحو التالي:

- مركز الولاية ولواء صنعاء كان يتواجد فيها الطابور الأول وكان توزيعه على النحو التالي:

مدينة صنعاء (238) فرد- قضاء حراز (70) فرد- قضاء حجة (70) فرد- قضاء يريم (49) فرد- قضاء كوكبان (49) فرد- قضاء ذمار (49) فرد- قضاء رداع (40) فرد- قضاء آنس (40) فرد- قضاء عمران (40) فرد- الإجمالي (645) فرد.

- كان الطابور الثاني موجود في لواء تعز وموزع على النحو التالي:

مدينة تعز(157) فرد- قضاء الحجرية(49) فرد- قضاء إب(49) فرد- قضاء قعطبة(49) فرد- قضاء العدين(49) فرد- قضاء المخاء(49) فرد- قضاء جبلة والشعيب(49) فرد- الإجمالي (451) فرد.

- أما الطابور الثالث فكان موجود في لواء الحديدة وموزع على النحو التالي:

مدينة الحديدة (100) فرد- قضاء بيت الفقيه(40) فرد- قضاء زبيد(55) فرد- قضاء أبو عريش(55) فرد- قضاء الزيدية (55) فرد- قضاء باجل(55) فرد- قضاء اللحية (55) فرد- قضاء حجور(55) فرد- قضاء جبل ريمة(55) فرد- الإجالي (525) فرد.

- والطابور الرابع كان موجود في لواء عسير وموزع على النحو التالي:

مدينة أبها (109)فرد- قضاء محايل(49) فرد- قضاء رجال المع(49) فرد- قضاء القنفذة (49) فرد- قضاء غامد (49) فرد- قضاء بني شهر(49) فرد- قضاء جبار(49) فرد- الإجمالي (403) فرد.

وكان البدل المالي الذي يحصل عليه الضباط والافراد يصل الى (197800) قرش(61).

وكانت تسمى هذه الطوابير بالعساكر الحميدية نسبة إلى السلطان عبدالحميد، وكان الوالي اسماعيل حقي باشا قد استأذن السلطان بإطلاق هذا الاسم على القوة الجديدة التي شكلها في ولاية اليمن فوافق على ذلك (62).

وكانت تجربة تشكيل طوابير الجندرمه من الأهالي المحليين في ولاية اليمن تجربة ناجحة ساهمت في المحافظة على الأمن وحماية

المواطنين بالرغم من زمنها القصير الذي استمر نحو ثلاث سنوات أو أقل، وقد أثار هذا النجاح الخوف لدى المسئولين العثمانيين في الولاية من ان تؤثر هذا القوة الجديدة على مصالحهم، ودفعهم ذلك الى تحريض الدولة ضدها، وقد نجحو في ذلك عندما قام الوالي عزت باشا عام 1880 بحل هذه القوة وتسريحها من الخدمة(63) تنفيذاً للأوامر الصادرة من الباب العالي.

التشكيلات البحرية:

اهتمت الدولة العثمانية اهتماماً كبيراً بالقوات البحرية لإعتمادها على هذه القوة في تأمين الطرق البحرية التي كانت تعتبر الطرق الرئيسية للتواصل مع عدد كبير من ولاياتها التي تقع في مناطق بعيدة عن عاصمة الدولة اسطنبول، وبالتالي فقد شكل البحر الأحمر وسواحله أهمية كبيرة للدولة العثمانية وخاصة في الفترة المتأخرة عندما أصبحت السفن والمراكب الأوربية تجوب البحار الدافئة ومنها البحر الاحمر الذي كانت معظم سواحلة آنذاك تخضع للسيطرة العثمانية (64).

وقد كانت مدينة الحديدة مركز لقيادة القوات البحرية في البحر الاحمر وقد قسمت الدولة العثمانية سواحل ولاية اليمن المطلة على البحر الأحمر الى ثلاثة مناطق حتى يسهل حمايتها وذلك على النحو التالي:

- **المنطقة الأولى:**

تمتد من باب المندب الى الصليف وتضم عدد من الموانئ والجزر وكان مركز الاسناد لهذه المنطقة ميناء المخا وكانت تتواجد في هذه المنطقة سفينة ومركبين ويتكون افراد طاقم القطعة الواحدة من ستة إلى خمسة عشر فرد.

- **المنطقة الثانية:**

تمتد هذه المنطقة من الصليف الى ميناء الوسيم وتضم عدد من الموانئ والجزر وكانت جيزان هي مركز الإسناد لهذه المنطقة وتوجد فيها سفينة وثلاثة مراكب.

- **المنطقة الثالثة:**

تمتد هذه المنطقة من ميناء الوسيم الى الرأس الأصفر وتضم عدد من الموانئ وعدد من الجزر ومركز الإسناد لهذه المنطقة ميناء القنفذة وتتواجد في هذه المنطقة سفينة ومركبين(65).

إضافة إلى ذلك كان يوجد مركب احتياط مرابط في جزيرة كمران، وكانت تخضع هذه القوة لإشراف الإدارة المحلية في ولاية اليمن(66).

ومن المهام التي كُلفت بها التشكيلات البحرية المرابطة في البحر الأحمر مايلي:

- حماية الأماكن المقدسة التي كانت تخضع لسيطرة الدولة العثمانية في ولاية الحجاز (مكة والمدينة).
- حماية الممتلكات العثمانية المطلة على البحر الأحمر من التدخلات الأجنبية.
- منع تهريب البضائع والأسلحة من وإلى المناطق الخاضعة للسيطرة العثمانية(67).

كان من الواضح اهتمام الدولة العثمانية بحماية سواحل ولاية اليمن وطرق الملاحة في البحر الأحمر بإعتبارها الطرق الرئيسية التي تسلكها القوات العثمانية عندما تذهب إلى اليمن أو تعود منه، وقد عملت الدولة على تقسيم سواحل الولاية إلى عدة مناطق حتى يسهل عليها

مراقبة تلك السواحل وحمايتها.

المنشآت العسكرية:

قامت السلطة العثمانية في ولاية اليمن ببناء وترميم عدد من المنشآت العسكرية، وكان الهدف من بناء وترميم معظم المنشآت المدنية في اليمن التي تركها العثمانيون هو خدمة الناحية العسكرية مثل المستشفيات والمدارس والطرق وغيرها، فمثلاً السكة الحديدية كان الهدف من انشائها هو تسهيل تحرك القوات العثمانية بين ميناء الولاية الذي يصل اليه الجنود والعاصمة صنعاء، وكان من المتوقع أن يربط الخط بين مدن عمران ، صنعاء ، الحديدة ثم يمر من طريق الساحل الى الحجاز(68) وتم تحويل مساره إلى وسط الولاية مروراً بالحديدة – صنعاء – عمران ثم الى الحجاز(69)، وذلك حتى تستطيع القوات العسكرية التحرك بين ولاية اليمن والولايات الأخرى والابتعاد عن الساحل لأن السفن الأوربية بدأت تسيطر على طرق الملاحة في البحار، ويمكن لتلك السفن ان تضرب أي قوات تتحرك على الطرق البرية أو على السكة الحديدية المقابلة للسواحل(70).

وكان الوالي أحمد مختار باشا والولي أحمد فيضي باشا أكثر الولاة اهتماماً ببناء المنشآت المختلفة وخاصة العسكرية منها، ومن المنشآت العسكرية التي تم بناءها أو ترميمها اثناء الحكم العثماني الثاني لليمن هي:

- ترميم القلعة الرئيسية في مدينة صنعاء (قصر السلاح) وبناء مستشفى عسكرية بداخلها(71).
- ترميم وبناء عدد من القلاع والحصون لحماية السواحل اليمنية(72).
- بناء وترميم عدد من القلاع والحصون المشرفة على الطرق الرئيسية(73).
- بناء عدد من القلاع في جبل نقم وجبل عصر وفي عدد ن المناطق حول مدينة صنعاء(74).
- كانت اهم منشأة عسكرية بناها العثمانيون في اليمن هي المقر الرئيسي لقيادة الجيش السابع في مدينة صنعاء (العرضي) وقد تم بناءه على مراحل وأكثر الولاة اهتماماً باستكمال هذا المباني وملحقاتها هو الوالي أحمد فيض باشا(75).
- كما بنى العثمانيون عدد من المستشفيات العسكرية في صنعاء والحديدة وعسير(76).
- بناء عدد من المدارس العسكرية(77).
- تمهيد وتعبيد عدد من الطرق التي يستخدمها الجيش اثناء تنقلاته(78).

اضافة الى عدد آخر من المنشآت والمباني التي كانت تستخدم من قبل العسكريين والمدنيين في مختلف مناطق ولاية اليمن.

الخاتمة

ان موضوع التنظيمات العسكرية في ولاية اليمن مازال في حاجة الى دراسة وبحث لتوضيح العلاقة بينها وبين الادارة المدنية ، وهذا البحث جزء من تلك الجهود التي قدمت معلومات عن الجيش العثماني السابع الذي كان مرابطاً في ولاية اليمن وتشكيلاته الادارية والميدانية ، والتي لم تخرج عن الاطار الشكلي للقوانين والانظمة التي تنظم الجيش العثماني ، واما من الناحية العملية فقد كان هناك بعض الاختلافات تتعلق بالصلاحيات التي كان يمتلكها الجيش السابع للتدخل في شئون ادارة الولاية ، كما ساهمت الظروف الغير مستقرة في ولاية اليمن برفع عدد افراد الجيش بشكل مضطرد حتى فاق في ذلك الجيوش العثمانية في الولايات الاخرى ، مما دفع الدولة لتخصيص معظم بنود ميزانية الولاية للجيش لكي يستطيع مواجهة التمردات المستمرة بقيادة الائمة وقد اثر ذلك على الخطط والبرامج التي كانت الدوله

العثمانية ترغب في تنفيذها في الولاية ، وكان لضباط ومسئولي الجيش دوراً في الاهمال الذي تعرض له افراده في الفترة الأخيرة بسبب إهتمامهم بجمع الاموال بشتى الوسائل الممكنه دون الالتفات الى الاعمال الموكلة اليهم .

وقد قدم أهل اليمن الدعم والمساعدة للجيش العثماني اثناء الحرب العالمية الاولى مما ساهم في تخفيف الظروف الصعبة التي واجهته في تلك الفترة .

وبالرغم مما سبق فقد قدم الجيش السابع خدمات كبيرة للأهالي من خلال انشاء المستشفيات والمدارس والطرق التي استفاد منها الجميع ، وكانت الادارة العثمانية قد حاولت استيعاب عدد من أهل الولاية في تشكيلات الجيش وذلك عندما شكل اسماعيل حقي باشا الطوابير الحميدية (الجندرمه) ولكن لم يكتب لهذه التجربة النجاح ، وتم الاكتفاء بضم عدد محدود من هذه الطوابير في ادارات الجيش المختلفة .

كما بذلت الدوله العثمانية جهود واضحة في سبيل حماية سواحل وموانئ الولاية وتوفير السفن والمراكب اللازمة لذلك .

وفي الأخير: ارجو ان اكون قد قدمت معلومات مفيدة يستفيد منها الباحثين والمهتمين بهذا المجال .

والله ولي التوفيق " " "

الهوامش:

1. المركز الوطني للوثائق، صنعاء، وثائق عثمانية م2 – 1/3.
2. مصطفى، احمد عبدالرحيم، في أصول التاريخ العثماني، ط3، 2003، دار الشروق، ص106.
3. الأرشيف العثماني، اسطنبول، .Y.PRK 15 KOM/ 76.
4. احسان، اكمل الدين واخرون، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، مركز الابحاث الاسلامي للتاريخ والفنون، اسطنبول، 1999، ج1، ص412.
5. مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص273.
6. سالم، سيد مصطفى، تكوين اليمن الحديث، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، 1993م، ص41.
7. اكمل الدين، الدولة العثمانية، جـ1، ص349.
8. المركز الوطني للوثائق، وثائق عثمانية، م1 – 1/125.
9. العزيز، عبدالكريم، التشكيلات المركزية العثمانية والإدارة المحلية في اليمن (1850-1918م)، صنعاء، 2003م، ص272.
10. الشامي، فؤاد عبدالوهاب، تاريخ المخلاف السليماني، وزارة الثقافة، صنعاء – اليمن، 2004م، ص114.
11. الأرشيف العثماني، .A.DVN 6 NMH/ 6.
12. المركز الوكني للوثائق، م3 – 33/3، م3 – 34/17
13. راشد، احمد، تاريخ اليمن وصنعاء، ترجمة مديرية التطوير القتالي، بغداد، جـ2 / ص38
14.
15. MUHTAR. AHMED. ANILAR. SERUZEST.I HAYATIM IN. TRAIH VAKE. YRKT. 64.
16. راشد، تاريخ اليمن وصنعاء، ص 60.
17. MUHTAR, ANILAR, 67
18. نفسه، ص69.
19. المركز الوطني للوثائق، م2 – 42/5.
20. المركز الوطني للوثائق، م2 – 12/1.
21. HTAR, ANILAR, 61
22. اكمل الدين، الدولة العثمانية، جـ1، ص411.
23. العزيز، التشكيلات المركزية العثمانية، ص 272 / 273.
24. نفسه 273
25. المركز الوطني للوثائق، م2 – 5/2.
26. العزيز، التشكيلات المركزية العثمانية، ص273.
27. الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1960، ص252
28. العزين، التشكيلات المركزية العثمانية، ص273.
29. الارشيف العثماني، .Y.PRK 15KOM/ 76.
30. العزين، التشكيلات المركزية العثمانية، ص272.
31. EHILGLU. ZEKI. YEMENDE

TURKLER, KITABEVI, ISTANBUL, 2001، 270.

32. MUHTAR, ANILAR, 77

33. يمن سلنامه سي، 1314، ص 379 – 382.

34. الواسعي، عبدالواسع بن يحيى، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، 1991م، ط2، ص302.

35. سالم، تكوين اليمن الحديث، ص87.

36. EHILOGLU, YEMENDE TURKLER, 270.

37. سالم، تكوين اليمن الحديث، ص309.

38. يمن سلنامه سي، 1314، 186-190.

39. نفسه، ص194 – 219.

40. نفسه، 220-247.

41. الارشيف العثماني، I . D H 45341، يمن سلنامه سي، 1314، ص190-193.

42. الارشيف العثماني، I.DH 39331.

43. اكمل الدين، الدولة العثمانية، ص409.

44. العزيز، التشكيلات المركزية العثمانية 276، 277

45. المركز الوطني للوثائق، م1 – 8/28، م1 – 8/9.

46. المركز الوطني للوثائق، م2 – 34/5، م2 – 21/6، م1 – 85/4.

47. المركز الوطني للوثائق، م-2- 42/8، اكمل الدين، الدولة العثمانية، ص126.

48. اكمل الدين، الدولة العثمانية، ص122.

49. مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، ص265-269.

50. اكمل الدين، الدولة العثمانية، ص123.

51. المركز الوطني للوثائق، م2 – 10/2، م2 – 8/39.

52. المركز الوطني للوثائق، م1 – 145/2.

53. الواسعي، تاريخ اليمن، ص302.

54. المركز الوطني للوثائق، م2 – 7/26.

55. EHILOGLU, YEMENDE TURKLER, 186.

56. نفسه، ص203.

57. الارشيف العثماني، HR.SYS. 2470/60 – مصطفى، تكوين اليمن الحديث، ص236

58. المركز الوطني للوثائق، م2 – 7/15.

59. المركز الوطني للوثائق، م2 – 32/38.

60. المركز الوطني للوثائق، م2 – 28/9.

61. شوقي، احمد وآخرون، يمن محاريلرى، اسطنبول، 1911م – ص5-6.

62. العزيز، التشكيلات المركزية العثمانية، ص267-268.

63. الارشيف العثماني، Y.A.HUS. 105/16.

64. الواسعي، تاريخ اليمن / 265

65. المركز الوطني للوثائق، م2 –

6/38 ، م2 – 20/37.

66. المركز الوطني للوثائق ، م2 – 10/40.

67. المركز الوطني للوثائق ، م1 – 11/40.

68. المركز الوطني للوثائق ، م2 – 9/43.

69. المركز الوطني للوثائق ، م2 – 33/7.

70. المركز الوطني للوثائق ، م2 – 28/23.

71. المركز الوطني للوثائق ، م2 – 11/42 ، م2 – 6/38.

72. راشد ، تاريخ اليمن وصنعاء ، جـ2 ، ص 164.

73. المركز الوطني للوثائق ، م1 – 12/110.

74. المركز الوطني للوثائق ، م1 – 7/110.

75. الارشيف العثماني ، I.DH 45341.

76. يمن سلنامه سي ، 1314 ، ص399.

77. الارشيف العثماني ، I.DH. 45228.

78. الارشيف العثماني ، I.HUS 1312.Z.17.

79. المركز الوطني للوثائق ، م1 – 14/143.

المصادر والمراجع

1 – وثائق الارشيف العثماني ـ اسطنبول

I.DH39331 – I.DH.45341 – Y.PRK.KOM – 6/A.DVN.NMH 6 I.DH.45228 - I.DH.45341 - 76/15 I.HR.SYS - 16/- Y.A.HUS 105 I.HUS1312Z17 - 60/2470

2 – وثائق المركز الوطني للوثائق . صنعاء

م1 – 1/125 ، م1 – 8/28 ، م1 – 9/8 ، م1 – 4/85 ، م1 – 2/145 ، م1 – 11/40 ، م1 – 12/110 ، م1 – 7/110 ، م1 – 14/143 ، م2 – 3/1 ، م2 – 5/42 ، م2 – 1/12 ، م2 – 2/5 ، م2 – 34/5 ، م2 – 21/6 ، م2 – 42/8 ، م2 – 10/2 ، م2 – 39/8 ، م2 – 26/7 ، م2 – 15/7 ، م2 – 38/32 ، م2 – 9/43 ، م2 – 33/7 ، م2 – 38/23 ، م2 – 11/42 ، م2 – 6/28 ، م2 – 9/28 ، م2 – 6/38 ، م2 – 20/37 ، م2 – 10/40 ، م3 – 3/33 ، م3 – 117/34.

3 – المراجع العربية

1. احسان ، اكمل الدين واخرون ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوي ، مركز الابحاث الاسلامي للتاريخ والفنون ، اسطنبول ، 1999.
2. الحصري،ساطع،البلاد العربية والدولة العثمانية،دار العلم للملايين ، بيروت ،1960.
3. راشد ، احمد ، تاريخ اليمن وصنعاء ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، بغداد.
4. سالم ، سيد مصطفى ، تكوين اليمن الحديث ، دار الأمين للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط4 ، 1993م.
5. الشامي ، فؤاد عبدالوهاب ، تاريخ المخلاف السليماني ، وزارة الثقافة ، صنعاء – اليمن ، 2004م.
6. العزيز ، عبدالكريم ، التشكيلات

المركزية العثمانية والإدارة المحلية في اليمن (1850-1918م) ، صنعاء ، 2003م.

7. مصطفى احمد عبدالرحيم ، في اصول التاريخ العثماني ، دار الشروق ، 2003.

8. الواسعي ، عبدالواسع بن يحيى ، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، مكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء ، 1991م ، ط2 ، ص302

4 - المراجع العثمانية والتركية

1. شوقي ، احمد وآخرون ، يمن محاريلرى ، اسطنبول ، 1911م.

2. يمن سلنامه سي ، 1314.

3. EHILGLU, ZEKI, YEMENDE TURKLER, KITABEVI, ISTANBUL, 2001, 270.

4. MUHTAR, AHMED, ANILAR, SERUZEST.I HAYATIM IN, TRAIH VAKE, YRKT.

يهود اليمن
في ظل الحكم العثماني الثاني
(1872-1918م)
بحث تاريخي

إعداد : رياض محمد الصفواني

تمهيد

يعد اليهود اليمنيون جزءًا لا يتجزأ من نسيج المجتمع اليمني ، وعنصراً من عناصر تكوينه منذ حقب تاريخية بعيدة .

وعلى مرّ العصور شكل اليهود مع غيرهم من الفئات الاجتماعية وحدة شبه متجانسة ، إذا ما استثنينا خصوصيتهم الدينية .

لقد عاش يهود اليمن في أغلب أحوالهم حياة آمنة ومستقرة في ظل أحكام الشريعة الإسلامية ، التي كفلت لهم الحرية في ممارسة شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وأوجبت على أولي الأمر من المسلمين حمايتهم وصيانة أعراضهم وممتلكاتهم بوصفهم أهل ذمة ، نظير ما يدفعه الذكور البالغون منهم من جزية في العام ، لم تكن تشكل لهم عبئاً مالياً مقارنة بما كان يدفعه المسلمون من مكوس مختلفة للدولة ، وفي ظل الوضعية المالية الجيدة التي كان يحظى بها قسم كبير منهم .

ووفقاً لقانون الملل والطوائف العثماني تمتع اليهود بحق المساواة في الحقوق والواجبات مع غيرهم من السكان المسلمين ، ومنحهم الولاة العثمانيون صلاحيات واسعة في إدارة حياتهم الداخلية وتنظيم علاقتهم مع السلطة . كما ارتبطت بعض الزعامات اليهودية بعلاقات حسنة مع بعض الولاة ، الذين تعاقبوا على حكم اليمن خلال تبعية الأخيرة للدولة العثمانية . بناءًا على ما سبق ، يتوخى البحث معالجة المحورين التاليين :

أ- معرفة أوضاع اليهود وعلاقتهم بالعثمانيين في شمال اليمن .

ب- تتبع هجرة بعض اليهود إلى فلسطين ومعرفة موقف السلطات العثمانية منها .

علاقة اليهود بالعثمانيين في شمال اليمن

أدت نتائج الأوضاع الداخلية غير المستقرة في اليمن إلى إنهيار الدولة القاسمية في عام1289هـ/1872م وعودة الأتراك العثمانيين الذين استمر حكمهم لليمن زهاء أربعة عقود من

الزمن حتى عام1337هـ/1918م ، وقد أبدى يهود اليمن – في تلك الأثناء – ترحيبهم بعودة الأتراك العثمانيين. وقد يرجع ترحيبهم للأسباب التالية:

معرفتهم بالتنظيمات العثمانية التي أصدرتها الدولة في منتصف القرن19م والمتمثلة بـ خط شريف كلخانة (نسبة إلى القصر الذي صدرت فيه) في عام1839م، والخط الهمايوني (السلطاني) عام1856م. والتي نصت بصورة واضحة على مساواة الطوائف الدينية في الحقوق والواجبات مع جميع فئات السكان في الإمبراطورية أمام القانون، مع منحهم الحرية في ممارسة شئونهم الاجتماعية الخاصة بهم في ظل احترام الخصوصيات الدينية لكل طائفة في أرجاء الإمبراطورية العثمانية.[1] ولعل معرفة يهود اليمن بهذه التنظيمات يرجع إلى ما سمعوه من الرحالة الأجانب الذين زاروا اليمن في منتصف القرن19م.[2] لذلك أمِل اليهود- على ما يبدو- من خلال هذه التنظيمات مزيداً من تحسن أوضاعهم في ظل هذه الحكومة الجديدة التي سيضفي حكمها على البلاد نوعاً من الاستقرار بعد مرحلة طويلة من الفوضى والاضطرابات السياسية..

رغبة يهود اليمن في التقرب إلى هذه القوة الجديدة-أي العثمانية- واستمالتها في محاولة لنيل الحظوة لدى الأتراك[3]، وقد جاء في رسالة بعثها حاخام يهود حراز وصعفان-الواقعتين إلى الغرب من صنعاء- إلى الوالي العثماني أحمد مختار باشا في عام،1872م ما يمكن أن نستدل منه على محاولة اليهود إظهار ولائهم للحكومة الجديدة ، فقد جاء في الرسالة، أن أحوال اليهود في اليمن باتت مستقرة تحت الحكم العثماني وأنه ليس من اليسير تصور ما كانت عليه أحوالهم قبل مجيء العثمانيين.[4] مع أن أوضاعهم وإن كان قد شابها بعض التدهور إلا أنها كانت جزءًا من حالة المجتمع ككل

وإذا ما أضفنا إلى هذين السببين سبباً آخر وإن كان يبدو أقل أهمية فقد يرجع ترحيب اليهود إلى تطلعهم كغيرهم من السكان في اليمن إلى محاولة إنقاذ الأوضاع في الداخل وإعادة الاستقرار والأمن إليه. ومن الملاحظ أن موقفهم من عودة العثمانيين لم يكن من جانبهم شيئاً

جديداً ، فقد سبق لهم وأن رحبوا بقدوم العثمانيين في عام1849م، حينما حاولوا إعادة سيطرتهم على اليمن مستفيدين من سوء الأوضاع السائدة حينها.[5]

وأياً كان الأمر فإن موقف اليهود من العثمانيين سواء عند دخولهم الأول إلى اليمن عام1538م أو في محاولتهم عام1849م إلى تهامة، أو عند عودتهم للمرة الثانية إلى صنعاء في عام1872م، وكذلك موقفهم من احتلال بريطانيا لعدن في عام1839م ، في كل ذلك يعد موقفهم مناقضاً للموقف اليمني عامة، إذ قاوم اليمنيون القوات الأجنبية على مدى سنوات بقائها في اليمن.وأوقعوا بها خسائر جسيمة ،حتى عُرف شمال اليمن بمقبرة الأتراك[6] .

عندما باشر الوالي العثماني أحمد مختار باشا صلاحيات حكمه في اليمن، منح اليهود بعض الحقوق التي من شأنها أن تنظم علاقتهم بالسلطة، وتمنحهم بعض الصلاحيات الداخلية فيما بينهم، حيث أعاد تعيين المعلم«سليمان القارح» حاخاماً للطائفة اليهودية في صنعاء، وأضاف إليه رئاسة المحكمة الشرعية اليهودية»[7]، وهو المنصب الذي شغله قبل مجيء العثمانيين. كما جعل أحد الزعامات اليهودية مسؤولا أمام الحكومة عن جباية الجزية من اليهود وإرسالها إلى خزانة الولاية في صنعاء.[8]

وكانت الغالبية من اليهود عقب عودة العثمانيين قد امتنعت عن دفع الجزية لشيوخ القبائل، الذين كانوا يأخذونها مقابل حمايتهم. وهو الأمر الذي ترتب عليه توتر العلاقات بين اليهود وبعض شيوخ القبائل ، وكاد أن يصل في

بعض الأحيان إلى وقوع مواجهات بين الطرفين ويروي لنا حبشوش حكاية تبين موقف اليهود من دفع الجزية لبعض زعماء القبائل؛ فيذكر أن شيخ قبيلة بني معصار[9] طلب من اليهود الذين في حمايته دفع الجزية التي اعتادوا دفعها له قبل مجيء العثمانيين. لكن اليهود أبوا دفعها، بحجة أنهم أصبحوا في حماية الحكام

العثمانيين وأن الواجب دفعها للحكومة العثمانية. وعندما أيقن ابن معصار عدم جدوى طلبه؛ عاد مرة ثانية وطالبهم بدفع دية أربعة قتلى، قتلوا بسببهم في عهد أبيه وجده من قبل. لكنهم أبو للمرة الثانية، فما كان منه إلا أن طلب الاحتكام وإياهم إلى الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين، الذي كان حينها يناصب العثمانيين العداء الشديد. ويبدو أن ابن معصار كان يعلم حقيقة موقف الإمام من العثمانيين، إلى جانب معرفته بأن الإمام لا يرى ضرورة تسليم الجزية للإدارة العثمانية.[10] حينها أدرك اليهود حرج موقفهم، فتشاوروا فيما بينهم لوضع حل يجنبهم مشقة المواجهة مع الإمام المنصور وابن معصار. وفي نفس الوقت يحفظ لهم وضعهم بين القبائل. إضافة إلى الكف عن مطالبتهم بالجزية والدية معاً؛ فاستقر رأيهم على أن يأخذوا رأساً من البقر ويعقروه (يذبحوه) أمام دار ابن معصار، كما هي عادة القبائل في اليمن عندما يرغب طرف في المصالحة مع الطرف الآخر، وبعد مداولات وتوسط من قبل بعض وجهاء القبائل، تراجع ابن معصار عن مطالبه، وأزيل الخلاف الذي كان بينه وبين اليهود.[11]

ومما ينبغي الإشارة إليه بخصوص نظام الجزية،[12]، أن الإدارة العثمانية في اليمن طبقت نفس الشروط المتبعة في النظام الإسلامي، منذ شروط الخليفة عمر بن الخطاب(13-23هـ) .فكانت تفرض الجزية على الذكور البالغين، الذين لديهم حرف يتكسبون أرزاقهم منها. وأعفي من الجزية كلٌ من: الأطفال والنساء والشيوخ، علاوة على الفقراء ممن ثبت

فقرهم[13].

وبسبب سوء نظام الإدارة العثمانية في اليمن المتمثل في تفشي ظاهرة الرشوة والفساد الإداري، والعسف في ابتزاز الأموال، مع زيادة مقادير الضرائب التي أرهقت كواهل الناس[14]. لم ينج اليهود من تلك الأفعال، بل كان عليهم تحمل شيء من آثارها جنباً إلى جنب مع السكان المسلمين، فعندما قررت الحكومة العثمانية في الأستانة في عام1313هـ/1895م

زيادة نسبة البدل العسكري على اليهود في اليمن؛ تذمر اليهود ، ورفعوا تظلمهم إلى السلطة العثمانية في صنعاء ، يرجونها التوسط لدى الدولة لعثمانية لإعادة النظر في الزيادة التي قررتها عليهم، مع أن أعدادهم في تناقص ، بسبب هجرة البعض منهم إلى فلسطين ، إضافة إلى ضعف حالة الكثير منهم المادية .[15]

وعندئذ وافقت الدولة على استثناء يهود اليمن من الزيادة الجديدة للبدل العسكري نظراً لقلة عددهم، وضعف الحالة المادية لكثير منهم.[16]

والملاحظ من خلال الوثيقتين اللتين أوردتا هذه المسألة، أن الوضع المالي للحكومة العثمانية في اليمن-كما هو بالنسبة للدولة العثمانية عموماً- كان في خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في حالة حرجة . ويرجع ذلك إلى الحروب الكثيرة التي خاضتها الحكومة مع القبائل، التي رفعت لواء المقاومة للحكم العثماني منذ بداية عهده، بالإضافة إلى فساد العديد من الولاة الذين تعاقبوا على حكم اليمن في تلك الفترة، مع تعسف الموظفين العثمانيين في ابتزاز أموال الناس باسم الضريبة والالتزام[17]. الأمر الذي أدخل الحكومة في ضائقة مالية، وجعلها تلجأ إلى زيادة نسبة الضرائب على جميع السكان. ولعل ما يؤكد هذا القول ماذكره عكاشة أن الإدارة العثمانية في صنعاء لجأت إلى بعض الأثرياء من اليهود، لاقتراض مبلغ من المال،

لتسديد رواتب جندها الذين دب في صفوفهم التمرد والانقسام، بسبب عجز الحكومة عن دفع رواتبهم، نظراً لحرج موقفها المالي[18].

والحقيقة أن استثناء اليهود من الزيادة المالية التي كانت قد فُرضت عليهم، يدل على حسن معاملة الدولة لرعاياها من غير المسلمين، رغم أن الأوضاع المالية سواء في عاصمة الدولة (الأستانة) أو في الولايات التابعة لها كانت حتى ذلك الوقت قد بلغت مرحلة صعبة، لأسباب كثيرة، منها: سلسلة الحروب التي خاضتها مع روسيا حول مناطق النفوذ في البلقان وشبه جزيرة القرم[19]، إضافة إلى معاركها لمحاولة إخماد الحركات الاستقلالية المتنامية في ولاياتها الأوروبية[20]، فضلاً عن خسارتها الكبيرة بفقدان ولاياتها العربية في شمال إفريقيا ومنها: مصر وتونس والجزائر، ووقوع تلك الولايات تحت الاحتلال البريطاني_الفرنسي.

إن ما يجب التأكيد عليه هو أن الحكومة العثمانية قد وجهت جزءاً من اهتمامها نحو الجماعات اليهودية في اليمن، فتركت لهم حق تنظيم شؤونهم وفقاً لمقتضيات معتقداتهم وعاداتهم الخاصة، بل الأكثر من ذلك أن بعض الولاة قد سعى لدى المسؤولين في الأستانة لإعادة النظر في بعض المسائل لصالح الطائفة اليهودية، ومن ذلك على سبيل المثال: الطلب الذي تقدم به والي اليمن»مصطفى عاصم باشا« إلى وزير الداخلية العثماني في ربيع الأول 1296هـ/1878م يتضمن السماح بدخول المسكرات إلى اليهود داخل الولاية لاستخدامهم الشخصي، وذلك بعد ما لاحظ أن عدداً من اليهود كانوا يحاولون البحث عن وسيلة لتهريب المسكرات إلى الولاية، وأوضح في مذكرته أن السماح بدخول تلك المواد من شأنه أن تستفيد منها الدولة كرسوم إضافية[21]. غير أن من الواضح أن هذا الطلب لم يلق استجابة من قبل المسؤولين في الدولة، إذ لم ترد فيما بعد أية إشارة تخص هذا الشأن، وهذا إن صح يعد أمراً طبيعياً في دولة تتبنى أحكام التشريع الإسلامي في سياستها العامة، كدولة خلافة إسلامية.

وعلى أية حال، فإن العلاقة الجيدة التي ربطت بين الزعماء اليهود في اليمن وبين المسؤولين العثمانيين قد أتاحت لهم الفرصة للمطالبة ببعض الحقوق السياسية، على أساس من معرفتهم بما نصت عليه القوانين العثمانية حول الحقوق المدنية للملل والطوائف الدينية في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، فقبل حل البرلمان من قبل السلطان عبد الحميد في بداية توليه سدة الحكم، طالب يهود اليمن بإشراك مندوبين عنهم في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني)، بَيْد أن طلبهم قوبل بالرفض، بحجة أن عددهم الضئيل – آنذاك - لا يتيح لهم حق الانضمام[22].

ويُذكر أنه بعد مرور بضع سنوات من حكم العثمانيين في اليمن، أوفد التجمع اليهودي بصنعاء اليهودي»موسى حشاش« مبعوثاً لهم إلى اسطنبول يطلبون من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876-1909م) تعيين حاخام لهم من خارج اليمن، على إثر خلاف وقع بين أعضاء الطائفة اليهودية في صنعاء[23].

والواقع أننا لو تتبعنا تاريخياً أوضاع اليهود في الدولة العثمانية وعلاقتهم بالسلاطين العثمانيين، لوجدنا أن أفراداً من اليهود في الأناضول (تركيا حالياً) التحقوا بالجهاز الإداري للدولة، وبلغ من نفوذهم أن عين السلطان محمد الفاتح[24] (1451-1481م) أحد اليهود ويُدعى «يعقوب» وزيراً للمالية، وعين السلطان بايزيد الثاني[25] (1481-1512م) اليهودي «موسى هارون» طبيباً للبلاط، كما امتد نفوذ البعض من اليهود إلى داخل القصور السلطانية[26].

وعلى الرغم من تحسن أحوال اليهود في اليمن في ظل نظام الحكم العثماني؛ إلا أن هناك من اليهود من انتقد سياسة الحكومة العثمانية واتهم حكامها بالفساد؛ فقد ذكر

صاحب مخطوط الدُر المنثور أن يهودياً ذات يوم سُئل عن رأيه في حكم الأتراك،

فأجاب«لاكانوا منكم وعملوا بالقرآن والتنزيل ولا من غيركم وعملوا بالتوراة والإنجيل، يأكلون كل ذبيحة ويرتكبون كل قبيحة»[27].

وكان بعض الأتراك _كما عُرف عنهم_ لايتورعون عن ممارسة بعض التصرفات المخلة بالآداب العامة، منها على سبيل المثال: شراء الخمر من اليهود وشربه علناً، وأكلهم لحوم اليهود[28]، المذبوحة على الطريقة اليهودية، إذ كان اليهود يتوجهون بذبائحهم صوب بيت المقدس[29] كتقليد ديني.

هجرة يهود اليمن إلى فلسطين :

شهد العقدان الأخيران من القرن 19م بداية أولى الهجرات اليهودية من اليمن متخذة شكلاً فردياً محدوداً يتناسب مع حجم النشاط الصهيوني وطبيعته في تلك الفترة ، وقد مرت عملية هجرة اليهود إلى فلسطين بمراحل وأطوار ابتدأت في عام 1881م وانتهت في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين ، غير أننا هنا سيقتصر حديثنا على هجرة اليهود من اليمن في إطار الفترة الزمنية التي نحن بصددها .

ففي بداية المرحلة الزمنية بين عامي 1881 – 1914م لم تكن الحركة الصهيونية آنذاك قد أعلنت عن نفسها بصورة رسمية إلا في عام 1897م ، ومع ذلك فإن تواجد بعض الرحالة اليهود الغربيين في اليمن (منهم جوزيف هاليفي و إدوارد غلازر) خلال الثلث الأخير من القرن 19م ،ولقائهم باليهود واطلاعهم على ما يجري من نشاط صهيوني في أوروبا من أجل استيطان فلسطين ، قد استطاع التأثير على بعض اليهود، من خلال تلمس الجانب الروحي لديهم . فكانت المزاعم الدينية القائلة بقرب ظهور المسيح المنتظر في فلسطين وربط ذلك بالعودة اليهودية إلى أرض الميعاد، ذات تأثير كبير لدى اليهود اليمنيين. وقد لجأ الصهيونيون إلى

هذه المزاعم لإدراكهم المسبق بمدى تقيد يهود اليمن بتعاليم الكتاب المقدس القائلة بأن عودة اليهود إلى أرض الميعاد لن تتم إلا بإرادة الهية ، أي عندما يأذن الله بإظهار المسيح [30].

وكان المسيح الذي حاول الصهيونيون إيهام يهود اليمن به هو: البارون روتشيلد، أحد كبار أثرياء اليهود في أوروبا والممول الرئيسي للحركة الاستيطانية في فلسطين، فخلال عامي(1882_1884)، تلقت جمعية محبيّ صهيون الروسية[31] دعماً مالياً سخياً من روتشيلد. كانت حصيلة بناء أربع مستوطنات يهودية في فلسطين[32]. ولا شك أن لهذا أثرا في انتشار شائعة بين اليهود في اليمن مفادها أن البارون روتشيلد اشترى أرضا واسعة في فلسطين ليهبها لليهود اليمنيين[33]، ويبدو أن مصدر هذه الشائعة جاء من طرف الرحالة الذين زاروا اليمن في تلك الفترة.

ومع ما عُرف عن يهود اليمن من إيمان عميق بفكرة المسيح المخلص ، مع شائعة الأرض المجانية ، إلى جانب القوانين العثمانية التي نصت على حرية رعايا الإمبراطورية في التنقل في أرجاء الولايات العثمانية ، كل هذه العوامل شجعت بعض اليهود على الهجرة إلى فلسطين ، فبدأت أول هجرة يهودية من اليمن في عام (1881م) بلغت ستة وعشرين فرداً من اليهود القاطنين في بعض المناطق الشمالية مثل : صنعاء والنواحي التابعة لها[34] . ثم توالت عمليات الهجرة خلال نفس العام حتى بلغ عدد المهاجرين حوالي 200 شخص ، غادروا البلاد عن طريق ميناء الحديدة [35] .

وكان اليهود الذين هاجروا قد باعوا ممتلكاتهم قبل أن يهاجروا ، مما ترتب عليه انخفاض في دخل خزينة الولاية من الضرائب والبدل العسكري المفروض عليهم ، ونتيجة

لذلك بعثت الحكومة برسالة إلى وزارة الداخلية العثمانية تشرح فيها الأمر، مشيرة إلى بروز ظاهرة الهجرة بين اليهود في اليمن، بتشجيع من أحد حاخامات القدس[36]. غير أن من الواضح أن الحكومة في الأستانة لم تول هذه المسألة ما ينبغي من الاهتمام، فقد كان لديها من الأمور الأخرى الهامة الداخلية منها والخارجية ما يشغل تفكيرها في تسويتها، على أن تنظر في شأن هجرة قلة من اليهود اليمنيين في تلك اللحظة. وعلى هذا الأساس استمرت الهجرة اليهودية من اليمن. وإن كانت ذات نطاق محدود. جنباً إلى جنب مع هجرة اليهود من الولايات العربية، وبعض الدول الأوربية. وعندما ازداد عدد المهاجرين في فلسطين، وخاصة من اليهود الأوروبيين، وما رافق ذلك من توسع في شراء الأراضي وبناء المستوطنات وإنشاء المدارس والمحاكم اليهودية، خشيت الحكومة أن يؤدي ذلك إلى نشوء مشكلة قومية جديدة، تضاف إلى مشاكل مماثلة في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية العثمانية، وبالتالي زيادة تدخل الدول الأوروبية في شؤون الإمبراطورية الداخلية والخارجية، وعندئذ أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمانين: الأول في عام 1888م والآخر عام 1892م نصا على منع هجرة اليهود الجماعية إلى فلسطين، وتحديد مدة إقامة الحُجاج اليهود بنحو ثلاثة أشهر فقط[37].

وقد حاولت المنظمة الصهيونية في أغسطس عام (1908م) (إثر انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن) إقامة علاقات مع الحكومة التركية الجديدة، التي استلمت الحكم بعد الانقلاب الذي قام به أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في يوليو من نفس العام، لحملها على تغيير موقف الحكومة السابقة، لكنها لم تفلح.

وفي سنة 1913 تقدمت بطلب مماثل، لكن هذا الطلب رفض أيضا[38]، وبرغم هذا الموقف من الهجرة اليهودية والاستيطان، إلا أن الهجرة استمرت بشكل أو بآخر.

ولما كان الباعث الديني هو السبب الرئيسي في هجرة اليهود من اليمن، فقد عبر أحد المهاجرين عن شعوره عندما شرع في الهجرة قائلا:

«في طريقي إلى إسرائيل أشعر بأن روحي قد تركت جسدي وأنا الآن في الخلد»[39]، وذكر آخر «إن كان يوصلني الله إليها وأهلك يوم ثانٍ فذاك مرادي»[40]. ولا شك أن مبعث هذا الشعور يعود إلى تعاليم التوراة المحرفة، التي زعمت في أحد أسفارها أن الله كلم موسى (عليه السلام) قائلا: «أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان [فلسطين] التي أنا معطيها لبني إسرائيل»[41].

وفي سفر آخر ذكرت أن الله أمر موسى بأن يسكن فلسطين قائلا له:

«أسكن في الأرض التي أقول لك... فأكون معك وأباركك، لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد[42]».

عندما وصل المهاجرون الأوائل إلى فلسطين، عمد أفراد منهم إلى الكتابة إلى أقاربهم وذويهم في اليمن لحثهم على الهجرة بإيعاز من بعض القوى الصهيونية. فعلى سبيل المثال كتب اليهودي «يوسف المشير» فور وصوله إلى فلسطين في عام 1891م رسالة إلى بعض اليهود محاولا إقناعهم بالهجرة مبيناً الفوائد الجمة التي ستعود عليهم. لكن دعوة يوسف المشير وما تلاها من وسائل الترغيب بقيت محدودة التأثير على يهود اليمن[43]. حتى العقد الأول من القرن العشرين.

لم يتوقف نشاط الحركة الصهيونية منذ تأسيسها عن إرسال ممثليها إلى اليمن لتنشيط حركة الهجرة اليهودية. وقد ازداد نشاطها بصورة لافته عقب صدور وعد بلفور في 2 نوفمبر 1917م[44]، والذي استندت إليه الصهيونية لإكساب نشاطاتها طابعاً شرعياً

، كونه يتضمن اعترافاً رسمياً من الحكومة البريطانية بحق اليهود في العيش في فلسطين ومساندتهم

بشتى الوسائل لإنشاء وطنهم القومي[45]

، وقبل ذلك كانت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية قد قررت في 31 / 3 / 1903م تعيين كل من غروشون أغرونسكي Agronesky Groschone و إبراهام طبيب Ibraham Tabib على رأس بعثة إلى اليمن لتنفيذ جملة من المهام تتلخص في الآتي :

1. دراسة أوضاع اليهود اليمنيين والعمل على زيادة هجرتهم اعتماداً على الدور البريطاني في عدن للتنسيق مع الحكومة العثمانية في شمال اليمن .
2. البحث عن أفضل الوسائل لتأمين وصول اليهود من أنحاء اليمن إلى عدن ، ومن ثم ترحيلهم من خلالها .
3. دراسة تكاليف سفر اليهود ومحاولة إيجاد الدعم المالي لهذا الغرض من بعض اليهود الأثرياء .

وفور وصول البعثة إلى عدن باشرت عقد لقاءاتها مع المسئولين البريطانيين وكبار اليهود ، لمساعدتهم في تنفيذ مهامها ، وفي تلك الأثناء يُذكر أن التاجر اليهودي "حاييم شرعبي" أبدى استعداده للتعاون مع البعثة من خلال تقديم بعض الأموال لتغطية نفقات السفر[46] .

وبعد تأسيس مكتب الوكالة اليهودية في مدينة يافا الفلسطينية عام 1908م أوفد آرثر روبين Arther rubin مدير المكتب أحد الشخصيات اليهودية ويُدعى "صموئيل اليعازر يافينلي Yaphinli في عام 1911م - إلى اليمن . بعد أن تم تأهيله لهذه المهمة ، خاصة وأنه يجيد اللغة العربية مما مكنه من التحدث إلى اليهود دون وسيط .

وصل يافينلي إلى عدن عبر مصر بعد أن تنكر في زي عربي ، و من عدن دخل شمال اليمن وتجول في البلاد لمدة أربعة أشهر زار خلالها أربعين قرية ومدينة يسكن فيها اليهود[47]

وكانت خطته قد اعتمدت على إخبار اليهود بوصول الصهيونيين إلى فلسطين ، وإقامة مستوطنات جديدة ، وإقناعهم بأن الواجب يقضي بأن يهاجروا[48]. وعند ما لاحظ يافينلي اهتمام يهود اليمن بالحياة الدينية في فلسطين والأماكن المقدسة فيها[49]، أخذ يلقي عليهم بعض الخطابات التي تستنهض هممهم وتدفعهم نحو الهجرة ، مركزاً على تهجير الشباب منهم ، اعتماداً على الخطة الصهيونية التي تركز على الشباب اليهود لبناء الدولة اليهودية المنتظرة، ومما قاله لهم: « كفاكم سلبية عليكم المشاركة في بناء فلسطين فمنذ مئات السنين وأنتم على هذه الأرض تأخذون دون عطاء. إن عليكم أن تبعثوا بأقويائكم أفضل أولادكم إلى فلسطين»[50].

« ويعترف يافينلي بأن السؤال التقليدي الذي واجهه في كافة المناطق التي زارها هو: هل هناك دلائل على قدوم المخلص المنتظر؟»[51]

وهو نفس السؤال الذي واجهه جوزيف هاليفي عند زيارته التبشيرية ليهود الفلاشا في الحبشة بعد قدومه من اليمن[52]. وهذا يعكس المفهوم الديني عند اليهود المتدينين بأن العودة إلى أرض الميعاد لن تتم إلا بإرادة إلهية.

وعند ما لم يستطع يافينلي الإقرار بوجود المخلص المنتظر، تراجع كثير من اليهود عن الهجرة. لكن الذين أرادوا السفر اشترطوا عليه توفير وسائل النقل لأنهم لا يستطيعون تمويل الرحلة بأنفسهم.وعندئذٍ حث يافينلي الدكتور « روبين » مدير مكتب فلسطين على العمل لتخفيض أجرة السفن وبعد شهرين جاء الجواب بتخفيض أجرة نقل اليهود اليمنيين القادمين على متن السفن التابعة لشركة «لويد» الأسترالية على فلسطين ، بمقدار النصف[53]. عند ذلك

عاد يافينلي إلى عدن وأقام فيها خمسة أشهر تمكن خلالها من أن ينشر أخبار تخفيض

أجور السفن للراغبين من يهود اليمن بالهجرة بمساعدة أحد كبار يهود عدن المدعو « يحيى سلام» وآخرين. واستطاع يافينلي بمساعدة حكومة عدن الإنجليزية أن يوسع دائرة نشاطه لتهجير يهود اليمن بحيث تحولت عدن إلى محطة أساسية بعد الحديدة والمخا لهجرة اليهود اليمنيين.

وفي سبتمبر1911م غادرت الميناء مجموعة يهودية لم يعرف عددها بالتحديد، لكن بعد زيارة يافينلي الثانية إلى المناطق الشمالية والشرقية من اليمن، لحث اليهود على الهجرة بأعداد أكبر، هاجر عدد من اليهود قدر بنحو 1500 يهودي يمني، من مجموع يهود اليمن البالغ عددهم آنذاك حسب التقديرات 57 ألفاً[54].بعد ذلك تتالت عمليات الهجرة اليهودية من اليمن فبلغت حتى عام 1914م(عند بداية الحرب العالمية الأولى) ما يقرب من 3300 يهودي مهاجر[55].

وهكذا تمتع اليهود اليمنيون في ظل نظام الحكم العثماني بالكثير من المزايا والحقوق ، بما فيها حرية تنقلاتهم وهجرتهم إلى خارج اليمن . وقد بلغ عدد من هاجر من اليهود اليمنيين إلى فلسطين خلال الفترة من 1881-1914م حوالي (5026) يهودياً ، على وجه التقدير .

هوامش البحث

(1) إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. الرياض. مكتبة العبيكان،ط1. 1998م.

(2) من أبرز أولئك الرحالة: جوزيف هاليفي(الفرنسي) ويعقوب سافير..

(3) محمد عكاشة: يهود اليمن والهجرة إلى فلسطين. ص102.

(4) Nini. Y: The Jews of The Yemen. P:57

(5) محمد عكاشة: يهود اليمن والهجرة إلى فلسطين. . ص102-103.

(6) المرجع نفسه والصفحة

(7) Nini. Y: The Jews of The Yemen. P:60

(8) 63_Ibid. P:62

(9) من قبائل نهم ومشائخهم.(محمد أحمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها. تحقيق إسماعيل الأكوع. المجلد الثاني. صنعاء . وزارة الإعلام، 1984م ص:713)

(10) حاييم حبشوش: رؤية اليمن .تحقيق/ سامية صنبر. ص 39.

(11) المصدر نفسه: ص39-40

(12) لم تورد المصادر التي بين أيدينا بياناً بنسب الجزية الواجبة على اليهود في هذه الفترة

(13) Nini. Y: The Jews of The Yemen.p:60

(14) عبد الله بن محسن العزب: تاريخ اليمن الحديث (فترة خروج العثمانيين الأخير) تحقيق/ عبد الله الحبشي. بيروت . شركة دار التنوير للطباعة. ط1986.1. ص28-34.

(15) الوثيقة رقم (15). بحوزة الباحث .

(16) الوثيقة رقم (16) بحوزة الباحث .

(17) أحمد محمد بن بريك : اليمن والتنافس الدولي في البحر الأحمر 1869-1914م . دمشق دار الثقافة العربية. ط1. 2001م، ص195

(18) محمد عكاشة، يهود اليمن والهجرة إلى فلسطين، ص104

(19) انظر علي حسون : العثمانيون والروس ، بيروت ، المكتب الإسلامي، ط1، 1982م، ص67-184

(20) بلغاريا، البوسنة، الهرسك، مقدونيا، اليونان، ...الخ خسرت الدولة العثمانية في معاركها ضد تلك الولايات حوالي 83% من السكان(علي حسون، المرجع نفسه ، ص162-163)

(21) الوثيقة رقم (14) بحوزة الباحث .

(22) ميخال أفيطبول، اليهود في البلدان الإسلامية ، ترجمة/ جمال الرفاعي، ص49-50

(23) Klorman,B,E : The Jews of Yemen . P: 126

(24) هو محمد الثاني ابن مراد الثاني، من أهم إنجازاته فتح القسطنطينية في عام 1453م، وبذلك سمي محمد الفاتح. كما أحرز انتصارات كبيرة في أوروبا وآسيا الصغرى، عرفت الدولة العثمانية أكثر ما عرفت في عهدة، فقد كان من أقوى السلاطين العثمانيين وأبرزهم(علي حسون، العثمانيون والروس، ص24-59)

(25) با يزيد بن محمد الثاني بن مراد الثاني، تولى الحكم بعد أبيه وكان رجل علم وأدب أكثر منه رجل حرب وسياسة، إذ أحب الفلسفة والفنون وعشق السفر وحياة السلم(انظر علي حسون، المرجع نفسه،ص59)

(26) مصطفى السعدني : الفكر الصهيوني، القاهرة ، مطابع الأهرام ، 1971م ،ص191

(27) على بن عبد الله الإرياني : سيرة الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين المسماة (الدر المنثور) تحقيق/ أحمد محمد عيسى صالحية . جـ1 ، عمان ، دار البشير، ط1، 1996م . ص449

(28) مجهول المؤلف : حوليات يمانية . تحقيق/ عبد الله الحبشي، ص168

(29) لقاء مع الوالد أحمد عبده علي الصفواني في مدينة صنعاء بتاريخ 13/3/2004م

(30) علي الفقيه : الحركة الصهيونية ويهود اليمن ، مجلة الحكمة ، ص35

(31) نشأت الجمعية في أوائل الثمانينات من القرن (19م) ، أسسها مجموعة من الشباب اليهود الروس ، كرد فعل على اضطهاد الحكومة القيصرية لهم ، وتدعو في برامجها إلى العودة إلى أرض الميعاد (عبد الوهاب المسيري : موسوعة المفاهيم الصهيونية ، ص 95)

(32) صبري جريس : تاريخ الصهيونية، جـ1 ، ص101-119 .

(33) عباس الشامي : يهود اليمن قبل الصهينه وبعدها ، ص80-81 .

(34) الوثيقة رقم (17) بحوزة الباحث .

(35) عباس الشامي : يهود اليمن قبل الصهينه وبعدها، ص108 .

(36) الوثيقة (17)

(37) عبد السميع الهراوي : الصهيونية بين الدين والسياسة ، ص 15 .

(38) صبري جريس : تاريخ الصهيونية ، جـ1 ، ص 211 .

(39) ناطوري كارتا : يهود اليمن

في كتاب الإبادة الجماعية ترجمة / بلقيس الحضراني ، مجلة دراسات يمنية . ص160.

(40) حاييم حبشوش : رؤية اليمن ، تحقيق / سامية صنبر ، ص90 .

(41) الكتاب المقدس : سفر العدد ، الإصحاح 13 ، ص222 .

(42) الكتاب المقدس : سفر التكوين / الإصحاح 26 ، ص40

(43) على الفقيه : الحركة الصهيونية ويهود اليمن . مجلة الحكمة . ص37

(44) ينسب الوعد إلى اللورد آرثر جيمس بلفور وزير الخارجية البريطاني ،وهو خطاب وجهه إلى المليونير اليهودي والتر روتشلد ونص على الآتي : « عزيزي اللورد روتشلد : يسرني أن أبعث إليكم التصريح التالي الذي ينم عن روح العطف على الأماني اليهودية ، والذي رفع إلى مجلس الوزراء ووافق عليه ، وهو أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ،وستبذل أفضل جهودها لتسهيل هذه الغاية ، مع العلم بأن لا يعمل شيءً يجحف بما للمجتمعات غير اليهودية في فلسطين من حقوق مدنية أو دينية أو بما يتمتع به اليهود في أي بلاد غيرها « (عبد السميع الهراوي : الصهيونية بين الدين والسياسة . ص 331-332).

(45) عبد السميع الهراوي : الصهيونية بين الدين والسياسة .ص330-333

(46) على الفقيه : الحركة الصهيونية ويهود اليمن . مجلة الحكمة ص38

(47) المرجع نفسه ، ص36

(48) إريك ماكرو : اليمن والغرب . تعريب د/ حسين العمري ، ص171

(49) على الفقيه : المرجع السابق، ص36

(50) عباس الشامي : يهود اليمن قبل الصهينة وبعدها. ص80

(51) كاميليا أبو جبل : يهود اليمن منذ نهاية القرن 19م وحتى منتصف القرن العشرين ص167

(52) ديفيد كسلر : الفلاشا يهود أثيوبيا . عمّان . منشورات دار الكرمل . ط1. 1985م . ص91

(53) على الفقيه : الحركة الصهيونية ويهود اليمن . مجلة الحكمة . ص36-37

(54) المرجع نفسه . ص37

(55) علي الفقيه : الحركة الصهيونية ويهود اليمن .مجلة الحكمة ، ص 37.

خارطة طريق لحل مشكلة المياه والقات في اليمن

أ. د. محمد فارع محمد الدبعي
بروفيسور الموارد المائية - جامعة صنعاء

الملخص

لليمن تاريخ طويل في إدارة الموارد المائية والحفاظ عليها، وما بناء سد مأرب التاريخي قبل ثلاثة ألف سنة، وكذلك بناء السدود الصغيرة في المنحدرات الجبلية، إلا شاهداً على ذلك. لقد اختفى الكثير من هذه السدود الصغيرة وأصبحت في ذمة التاريخ، وما تبقى منها لا يعمل، لقد عملت هذه السدود على حفظ الماء من أجل الري الزراعي والشرب والاستخدامات المنزلية المختلفة، وساعدت في تغذية الخزان الجوفي. إنه يجب الإشارة إلى أن الخزان الجوفي قديماً لم يجري استنزافه كما هو عليه الحال اليوم، وذلك لأن الاستخراج كان عبر آبار سطحية وبطرق بدائية.

حديثاً تواجه اليمن تحديات حقيقية في مواردها المائية. إن النسبة المرتفعة في النمو السكاني (3.2%)، مع الزيادة الكبيرة في الزراعة المروية، وخاصة زراعة المحاصيل التي تحتاج إلى كمية كبيرة من المياه، وما يمثله محصول القات من توسع كبير على حساب المحاصيل الأخرى (9%) يزيد من الحاجة للمياه. كذلك فأن الهجرة من الريف إلى مراكز المدن يزيد من الضغط عل محدودية التموين من المياه لهذه المدن. كل هذه المتغيرات أدت إلى هبوط مناسيب المياه الجوفية في معظم الأحواض المائية بمعدلات تتراوح من 2 – 6 متر في السنة، علاوة على تواتر حالات تداخل المياه المالحة في المناطق الساحلية. ويقدر العجز السنوي حالياً بحوالي بليون متر3/سنة، حيث نستهلك نحو 3.5 بليون متر3 / سنة، في حين نحصل على تغذية سنوية جوفية وسيول تقدر بحوالي 2.5 بليون متر3 / سنة. كما يبدو كذلك أن الري من الينابيع والغيول قد تدنى كثيراً نتيجة هبوط مناسيب المياه الجوفية بسبب الضخ الجائر.

إن الهدف الرئيس، يجب أن يتجه نحو الحفاظ على المياه المتاحة، والبحث عن مصادر بديلة محتملة من المياه. في الجانب الآخر، ومع النمو المتزايد في الحاجة إلى المياه، فأن أية مصادر جديدة بديلة كمعالجة مياه الصرف الصحي، تحلية مياه البحر، مرحب بها جداً، وذلك من أجل مضاعفة كمية المياه المتاحة، وخاصة في القطاع الزراعي، ولتلبية الحاجة المتزايدة للمياه مستقبلاً. وشهادة للتاريخ فأنه ليصعب في الحقيقة التوفيق بين انتشار الإقبال على القات من جهة والحديث عن التحديث والتنمية الاقتصادية المستدامة من جهة أخرى.

المقدمة

إن مشكلة المياه في اليمن في غاية الأهمية والخطورة بالنسبة لنا ولأجيالنا القادمة وعلى الجهات المسئولة إيجاد الحلول والمعالجات بدلاً من عقد المؤتمرات والندوات وورش العمل المغلقة التي تستهلك معونات وهبات المنظمات الدولية ويستفيد منها منظموها فقط وبدون مردود على الصعيد الوطني. إن ما يتم القيام به لحل مشكلة المياه والحد من التوسع في زراعة القات لا يلامس حل المشكلة ولا يعطي الاطمئنان لتنمية مستدامة تبشر بمستقبل واعد.

لليمن تاريخ طويل في إدارة الموارد المائية والحفاظ عليها. وما بناء سد مأرب التاريخي قبل ثلاثة ألف سنة، وصهاريج عدن التاريخية، وكذلك بناء السدود الصغيرة في المنحدرات الجبلية، إلا شاهداً على ذلك، لقد اختفى الكثير من هذه السدود الصغيرة وأصبحت في ذمة التاريخ، وما تبقى منها لا يعمل. لقد عملت هذه السدود على حفظ الماء من أجل الري الزراعي والشرب والاستخدامات المنزلية المختلفة، وساعدت في تغذية الخزان الجوفي.

مع بداية السبعينات من القرن الماضي بدأ التخطيط التنموي للموارد المائية في اليمن، وذلك عبر دراسات موجهة بصورة رئيسية نحو تنمية موارد المياه السطحية والجوفية في دلتا الوديان الساحلية والمرتفعات والسهول الداخلية المحاذية للصحراء. ومع بدء استنزاف المياه الجوفية في بداية التسعينات وزيادة عدد السكان الغير مسبوق، بدء العمل بإعداد دراسات التخطيط الاستراتيجي لإدارة الموارد المائية وتنميتها وربطها بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية. لقد كان ذلك طبيعياً وملحاً، فلقد وصل النقص في إمدادات المياه في بعض المناطق والقطاعات الهامة مرحلة الحرج، كما تزايدت الخلافات بين المستخدمين نتيجة تنافسهم على الكميات المتضائلة من المياه، حتى بلغت هذه الخلافات حد انقسام بعض المجتمعات المحلية على نفسها بسبب حقوق المياه. وفي نفس الوقت تتعرض إمدادات المياه للمناطق الحضرية لقيود جادة ناجمة عن الضخ المفرط من الخزانات الجوفية لأغراض الري، كما أن استمرار التسابق بين المزارعين لضخ أخر قطرة مياه جوفية في أحواض صنعاء، وعمران، وصعده، وتعز، يجعل تكلفة الماء تتزايد باستمرار ويعرض هذه المدن الرتيسية وتحديداً العاصمة صنعاء لمستقبل بائس، وما لم تتمكن الدولة من السيطرة على مواردها المائية من خلال خطوات جادة وحقيقية وعاجلة فإن إمكانية نموها الاقتصادي والاجتماعي و....الخ. سوف يكون مجهول العواقب. إن اتساع الفجوة بين الطلب على المياه وبين ما هو متاح منها يشكل تهديداً للتنمية الاقتصادية الاجتماعية المستدامة في اليمن. فاليمن تواجه تحديات بيئية خطرة، وأصبحت ندرة المياه والتلوث مشكلة خطيرة.

إنه وفقاً للتقارير الرسمية فإن القات يحتل المرتبة الثانية بعد الغذاء في إنفاق الأسرة اليمنية الذي يتراوح ما بين 26 – 30 % من دخلها. وقدرت الخطة الخمسية الثالثة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية 2006 - 2010 حجم الإنفاق الشعبي على تعاطي القات بنحو 250 مليار ريال سنويا، مما يشكل عبئا على ميزانية الأسرة خصوصا ذات الدخل المحدود، وبالإضافة إلى استنزاف شجرة القات أكثر من 30- 40 % من المياه المستخدمة في الزراعة، هذا المحصول الذي تزداد زراعته بنسبة تتراوح بين 9 - 10% سنويا على حساب المحاصيل الأخرى، فإن الأمر لا يتوقف عند إهدار الوقت والمال بل امتد إلى الصحة. إذ تعد المبيدات الحشرية والمواد الكيماوية الخطرة التي ترش على نبته القات بالذات سبب رئيس لانتشار الأورام السرطانية الخبيثة، ووفقا لتقرير

حديث لمنظمة الصحة العالمية فإن عدد من يصيبهم السرطان في اليمن يصل إلى نحو 20 الف شخص سنوياً. ومعلوم أن أمراض خطيرة (كسرطان الرئة واللثة والفم والقولون، الفشل الكلوي وتليف الكبد) بدأت تظهر في اليمن خلال الأعوام الأخيرة نتيجة استخدام مزارعي «القات» للمبيدات والمواد الكيماوية السامة بهدف زيادة المحصول ورفع دخلهم منه، حيث تساعد هذه المستحضرات على نمو أغصان القات في أيام قليلة ويقوم المزارعون اليمنيون بقطفه وتحضيره للبيع بينما لا تزال العناصر السمية في أوراق القات فعاله، وتشير الدراسات إلى أن 70 % من إجمالي المبيدات والمستحضرات الكيماوية المستخدمة للزراعة التي تدخل اليمن تستخدم في مزارع القات. وعلى الرغم من أضرار القات هذه، فإنه يعد نشاطا اقتصاديا هاما لنسبة كبيرة من السكان تتراوح ما بين 20-30 %، وبفعل عائداته الكبيرة فقد ارتفعت نسبة العاملين في زراعته إلى أكثر من 24 بالمائة من إجمالي قوة العمل في قطاع الزراعة.

لا يمكنك لوم المزارعين، كما يقول أحدهم، فزراعة القات تدر عليهم مكاسب تتجاوز الـ 10 أضعاف مقارنة مع الأرباح التي يجنونها من زراعة البطاطس مثلا، كما أنه من غير المحتمل أن تلقي باللائمة على من يمضغون القات أيضا، ففي بلاد يعيش حوالي نصف سكانها على مبلغ دولارين للفرد الواحد يوميا، لا بد أنك ستبحث عن الترويح عن النفس والتحليق فوق الواقع أنى وجدت إلى ذلك سبيلا، حيث بعد ظهر كل يوم يمكن للزائر أن يرى عددا كبيراً من الرجال وهم يمضغون القات وقد انتفخت إحدى وجنتيهم بحجم كرة التنس سواء كانوا جالسين أو سائرين أو يقودون سياراتهم ويبدو له للوهلة الأولى أنهم يحتاجون لطبيب أسنان.

الأزمة وأسبابها

إن الأسباب والعوامل التي أدت إلى الوصول إلى هذه النتيجة متعددة، ويمكن إيجاز أهمها بالآتي:

أ) الإدارة:

محدودية المياه مع تدني مستوى إدارتها (خصوصا المستخدم في الزراعة):-

يعتبر من أهم التحديات الأساسية التي تقف أمام اليمن بشكل عام والقطاع الزراعي بشكل خاص، مما يحول دون تحقيق أهداف الرؤى للزراعة 2025م، وان لهذا التحدي شقين لا يمكن فصل أحداهما عن الآخر، لذا يجب أن تكون المعالجة لكليهما، فمحدودية المياه تتطلب كفاءة وفاعلية الاستغلال أي كان نوعه كنشاط واحتياج، ولن يتأتى ذلك إلا بإزالة محددات توفر خاصية الكفاءة والفاعلية للاستغلال، وهذا يتطلب خلق أشكال إدارية ومؤسسية تتكامل فيها الأدوار محققة المشاركة الفاعلة والكفاءة، ويتوافق معها في التطور تقنيات وتكنولوجيا استخدام هذا الكم المحدود من المياه في إدارة النشاط وخصوصا المستخدم في الزراعة. وعلاوة على ذلك، هناك المخاطر أو التهديدات التي تواجه النظام الهيدرولوجي بشكله العام والناجمة عن تدهور إدارة الأحواض المائية، فالمدرجات الزراعية تتدهور، وبعضها خرج من الإنتاج، في حين أصبحت عمليات التعرية التي تتعرض لها أعالي الوديان وترسبات الطمي في السهول الساحلية تشكل مشكلات ملموسة.

ب) المتغيرات الاقتصادية:-

لقد تطورت الزراعة ونمت سريعاً وخاصة بعد العام 1984م مع نمو فرص السوق، وارتفع مستوى المعيشة بصورة ملحوظة. كما تم تبني المحاصيل النقدية المربحة– خصوصاً العنب

الخضروات بالإضافة إلى المشكلة الأكبر والأكثر تعقيداً، القات.... الذي شهد خلال العقدين الماضيين انفجار كظاهرة اجتماعية زراعية، وكل هذا على حساب الخزان المائي الجوفي. إن الاستدامة واستمرارية التنمية الاقتصادية يتطلبان أيضاً أن يكون النمو السكاني مرآة عاكسة لمحدودية الموارد - أي متناسباً مع هذه الموارد. وعاماً بعد عام يزداد وضوحاً الشذوذ المتمثل في نقص المياه عن المدن في حين تنمو حولها مزارع القات التي تنال كل ما تحتاجه من الماء. وتعتبر حالة العاصمة صنعاء من الأمثلة الجلية، حيث ما يزال ثلثا سكانها غير مرتبطين بالشبكة العامة للمياه... ومع ذلك، فأنها محاطة بمزارع القات الفاخر، علماً بأنها تستهلك حوالي 250 مليون م^3 من المياه، يستهلك القات المزروع حواليها حوالي 40 % منها. وتتعاظم هذه المشكلات نتيجة ضعف القدرة على تنفيذ أي إجراء، مما يقلص من جدوى الضوابط والإجراءات الإدارية التي يمكن توجيهها من القمة إلى القاعدة.

ج) التغيرات التكنولوجية:-

مع دخول الحراثات والمدخلات الكيميائية، وأهم من هذا وذاك دخول تكنولوجيا حفر الآبار إلى البلاد بداء التحول بعيداً عن الممارسات الزراعية العريقة والمعتمدة على المهارة الزراعية والعمالة الأسرية. فمنذ السبعينات بدأ انتشار الآبار الأنبوبية المحفورة آلياً كنمط جديد لاستغلال المياه الجوفية، حتى أصبح هنالك نحو أكثر من 65000 بئر، منها حوالي 14 ألف بئر في حوض صنعاء، تزداد أعدادها باطراد، وأكثر من 200 آلة حفر تمارس نشاطها بدون ضابط.

د) التغيرات الديموغرافية:-

تضاعف عدد السكان خلال العقدين الماضيين بمعدل نمو يتجاوز أل 3 %. ورغم أن التنمية الزراعية كان لها أثرها المفيد والمتمثل في تمكين الاقتصاد الريفي من إعالة أعداد متزايدة من السكان. إلا أنها أدت إلى زيادة الضغط على الموارد الطبيعية وتحديداً المياه الجوفية. حيث يستهلك القطاع الزراعي ما نسبته 90% من إجمالي المياه المستخرجة. كما يبدو أن الري من الينابيع والغيول قد تدنى كثيراً نتيجة هبوط مناسيب المياه الجوفية بسبب الضخ.

هـ) التغيرات الاجتماعية:-

لقد استطاع اليمنيون عبر التاريخ التكيف مع بيئتهم التي اتسمت بتنوع التضاريس والمناخ والموارد الطبيعية، وتمكنوا من الاستفادة منها وتسخيرها لمصلحتهم وبما يؤمن لهم حياة متوازنة ومستقره. ومن أجل ذلك فقد عملوا على بناء المدرجات والسدود وقنوات الري التي أمدتهم بأسباب التمدن والازدهار، جعلتهم ومنذ آلاف السنيين يعيشون في حالة اكتفاء وتوازن مع بيئتهم الطبيعية مقارنة بمن حولهم من العرب في الجزيرة العربية، لكن انفتاح الأسواق وانتشار التعليم والهجرة الخارجية للبحث عن عمل يلبي متطلبات الحياة والعيش الكريم نتيجة لازدياد عدد السكان وتزايد الأفواه المفتوحة في الأسرة الواحدة، لعبت دوراً في تغيير النمط الاجتماعي وأسلوب الحياة. لقد تركزت الثروة في الكثير من المناطق في أيدي الأسر الشهيرة التي سيطرت أيضاً على الموارد الطبيعية بما فيها المياه... مما أدى إلى تزايد اللامساواة في الثروة والموارد والمواطنة. وفي نفس الوقت لم تقم الحكومة بالتدخل لكي تستبدل الضوابط وأدوات السيطرة التقليدية بأنظمة وقوانين حديثة تفرض نفسها على الواقع الاجتماعي، فعادة مضغ القات مع ما تشكله من أضرار على المجتمع اجتماعيا وصحياً ترعرعت ونمت وتشهد زراعته توسعاً يتجاوز أل 9 % سنوياً على حساب المحاصيل الأخرى حتى تحولت إلى ظاهرة اجتماعية ذات تأثير عميق

على استخدام المياه الجوفية، حيث يستهلك حوالي 30 – 40 % من إجمالي المياه الجوفية المستخرجة، إنه ليصعب في الحقيقة التوفيق بين انتشار الإقبال عل القات من جهة والحديث عن التحديث والتنمية الاقتصادية المستدامة من جهة أخرى.

خارطة طريق لحل المشكلة

هناك إمكانية متاحة لترشيد المياه في اليمن، ومكافحة الفقر، واستبدال القات، وزيادة الإنتاج، وذلك من خلال خارطة طريق لحل مشكلة المياه والقات في اليمن يمكن أن توجه وتنظم وتسخر وفقا للآتي:-

1. إعداد خطة وطنية تعززها إرادة سياسة وتشريعية وإجماع وطني بخطورة الوضع وأهمية معالجته.
2. العمل من خلال خطة خمسيه أو عشرية لنقل الوزارات الغير سيادية إلى مدينة أو مدن أخرى لتقليل الضغط على العاصمة صنعاء فمواردها الطبيعية والبيئية لا تحتمل أكثر من 800,000 نسمة.
3. تعزيز اللامركزية الإدارية الواسعة الصلاحيات فعلياً من خلال إجراءات عملية، للحد الطوعي من الهجرة إلى العاصمة صنعاء، و تشجيع الهجرة الاختيارية إلى عواصم المحافظات الأخرى من خلال توفير فرص للعمل وتشجيع الاستثمار فيها.
4. إقامة المشاريع التي تستوعب كثافة عمالية وتحديداً في المناطق الساحلية، وإيجاد مصادر للرزق والحياة الكريمة للمواطنين في مواقع سكناهم.
5. إيجاد بيئة استثمارية حقيقية تشجع على الاستثمار وتحد من هروب رؤوس الأموال، من خلال تنفيذ القوانين ومحاربة الفساد وتفعيل مستوى الأداء للقضاء والاختيار الجيد للكادر، سعياً نحو خلق فرص عمل تستوعب مخرجات الجامعات وتحد من البطالة.
6. رفع كفاءة محطات المعالجة لمياه المجاري في المحافظات بحيث تكون مخرجاتها صالحة للري بشكل أمن للعديد من المحاصيل الزراعية وتساهم في التقليل من استخدام المياه الجوفية.
7. إيقاف كافة مشاريع المياه ذات الطابع الاستثماري في حوض صنعاء، ونقلها إلى أماكن أخرى خارجه، ويحبذ أن تكون في المناطق الساحلية حيث يمكن استخدام تكنولوجيا التحلية لذلك. حيث من غير المعقول أن نشتكي من أزمة مياه في العاصمة صنعاء، ومشاريع المياه المختلفة فيها تغذي الجمهورية بكاملها من هذا الحوض، بل ودول الجوار كذلك.
8. العمل على أن تكون عبوة قنينة الماء المعبأة نصف لتر فقط، حفاظاً على كثير من الماء المهدور.
9. توطين تكنولوجيا تحلية المياه في المناطق الساحلية باعتبارها الحل الذي لا بديل عنه لمجابهة الحاجة المتزايدة لهذا المورد على الدوام.
10. إيجاد البدائل لمُزارعي القات وتشجيعهم على ذلك من خلال زراعة محاصيل أقل شراهة للمياه ومفيدة للاقتصاد الوطني وغير مضرة بالإنسان والبيئة وفق خطة مدروسة يتم تنفيذها تدريجياً وعلى مراحل من خلال وزارة الزراعة ابتداءً من حوض صنعاء.

لنأخذ تجربة الأردن الشقيق حيث دفعت الحكومة (120) دولاراً أمريكياً للمزارعين عن الهكتار الواحد للكف عن زراعة الخضار والمحاصيل السنوية في عام 1991م عملاً بأسلوب استيراد «مياه افتراضية» عبر شراء الأغذية والمنتجات من حيث هو الأكفأ. ومن خلال المفاوضات مع منتجي الحبوب يتم الاكتفاء الذاتي الغذائي مقابل تحقيق الأمن المائي. وإذا كان ذلك أسلوب الآخرين في التعامل المنتجات

الغذائية الحيوية، ألا يجدر بنان وأليس من المعقول، أن نعمل بالمثل مع إنتاج شجرة القات الضارة.

11. منع ري شجرة القات بالمياه الجوفية فالوضع لا يحتمل، واقتصار زراعتها في المناطق التي تروى بمياه الأمطار فقط كما كان ذلك قديماً.

12. اجتماعات مجلس الوزراء والاجتماعات الموسعة في الوزارات ومرافق العمل والندوات والنشاطات في المراكز الثقافية يتم عقدها عصراً وبدون قات، توفيراً للوقت، وخدمة للمواطن من حيث تواجد المسئولين الدائم في مكاتبهم، والحد من تناول هذه الشجرة الخبيثة من خلال تعود الناس في فترة مضغها الانشغال بما هو أهم.

13. تفعيل قرار رئيس الجمهورية القاضي بمنع تعاطي القات في المعسكرات والمرافق الحكومية.

14. منع استخدام المبيدات في زراعة القات لما تشكله من أضرار على صحة المواطنين وعلى البيئة بشكل عام.

15. حصر أسواق القات خارج المدن ومنع بيعه في شوارعها وأزقتها حفاظاً على النظافة العامة وجمال هذه المدن، والمنظر العام للمواطن اليمني.

16. منع تعاطي القات في الشوارع العامة وأثناء قيادة السيارة أو في المتاجر، والسماح بتعاطيه في المنازل والأماكن المغلقة فقط بعيداً عن أنظار الأطفال والأجانب.

17. النظر في إمكانية الاستفادة من التجربة السابقة التي تسمح بتعاطي القات في عواصم المحافظات في يومي الخميس والجمعة والعطل الرسمية فقط، وكآلية للتخلص التدريجي منه.

18. التوسع في عمل المسطحات الخضراء والحدائق العامة والمتنزهات والنوادي الرياضية والمراكز الثقافية وملاعب كرة القدم ليقضي الناس أوقات فراغهم فيما يفيدهم وينمي مهاراتهم وقدراتهم العلمية والعملية.

19. التفكير جدياً في إمكانية استيراد القات من دول الجوار على مراحل، كأن نبدأ بطائرة واحدة للعاصمة صنعاء يومياً، الأمر الذي يقلص مساحة الأراضي المزروعة بالقات في حوض صنعاء، ويوفر كمية كبيرة من المياه، وباتجاه استبداله بمزروعات أخرى مفيدة وأقل شراهة للمياه. ورفد الميزانية بمبالغ أكثر جراء الانضباط في تحصيل الضريبة المستحقة. ويمكن أن يكون ذلك من خلال شركة مساهمه يشارك فيها مزارعي القات والعاملون فيه كتشجيع لهم للتخلي عن زراعته، وإذا نجحت التجربة يمكن التوسع فيها، المهم يجب البدء بشيء ما للقضاء على هذه الشجرة واجتثاثها من بلادنا في المدى المنظور، ولا أدري لماذا كل شيء يمكن استيراده في بلادنا (كل شيء) ما عدا القات؟؟

20. الحفاظ على المياه وترشيد استخدامها على مستوى الحقل من خلال إدخال التقنيات الحديثة.

21. العمل على تطبيق قانون المياه على الجميع للحد من عمليات الحفر العشوائي للآبار، وكذا العمل على إيجاد بنية لرصد مناسيب المياه في الأحواض وتحديد الكميات المسموح باستخراجها.

22. بناء منشئات مساعدة لنظم تغذية الخزان الجوفي للأحواض وتنميتها من سدود وحواجز.

23. تهذيب الوديان وحمايتها والاستفادة من كميات مياه السيول التي تهدر وتفقد معظمها حاليا.

24. تشجيع الزراعة المطرية وتطوير تقنيات

تحسين استغلال مياه الأمطار، والتوسع في استخدام أسلوب حصاد مياه الأمطار على اكبر مساحة ممكنة لأنها تشكل رافدا لا يستهان به في تنمية موارد المياه وتخفف من استنزاف المياه الجوفية والسطحية.

25. إدخال طرق الري الحديثة وتحسين الري التقليدي كتقنيات وتكنولوجيا تنمي المورد وترفع كفاءة استخدامه، وقد أثبتت التجارب التي قامت بها وزارة الزراعة والري بان إدخال طرق الري الحديثة تحقق كفاءة استخدام مابين 30 - 50 %.

الخلاصة

لقد تنامت الاستخدامات المائية سنوياً من 2.2 مليار متر3 عام 1990 إلى حوالي 3.4 مليار متر3 عام 2000 ويتوقع أن يصل إلى 4.6 مليار متر3 عام 2025 وهو ما يفاقم العجز المائي. إن التحديات التي يواجهها قطاع المياه في اليمن كبيرة، وعملية المعالجة لها ليست هينة، وتتطلب توفر الإرادة والكثير من الجهد والتمويل اللازم لإصلاحه، وجميع المعالجات الآنية وغير الإستراتيجية لن تقود إلى نتيجة مرضيه، وربما تقود إلى إهدار الوقت والجهد معاً. إنه ليصعب في الحقيقة التوفيق بين الاستنزاف الحاد للمياه الجوفية، وانتشار الإقبال على القات، والاستخدام العشوائي والغير مسئول للمبيدات من جهة والحديث عن التحديث والنمو الاقتصادي والتنمية المستدامة من جهة أخرى، كما أن المعرفة بالمشكلة وما تمثله من خطورة على الحاضر والمستقبل وعدم معالجتها معالجة جدية، تعتبر مسئولية من الصعب التغاضي عنها ولا تسقط بالتقادم. إن حل مشكلة المياه والإزالة التدريجية لشجرة القات والحد من الاستخدام العشوائي للمبيدات «هي الأمن القومي» وإن أي تنمية اقتصادية أو اجتماعية لا تتم إلا بإعطاء الأولوية لذلك.

في الأخير كم يحدوني الأمل أن أرى يوماً الجماهير اليمنية تخرج مدعومة بمنظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان إلى الشارع وفي تظاهرة سلمية ووفقاً للقانون مطالبة الحكومة بحل مشكلة المياه والقات والمبيدات والتلوث في اليمن أسوة بشعوب الأرض التي لاتكل في مطالبة أنظمتها وحكوماتها في أن تضع حداً لتلوث البيئة. حينها سأشعر بأن الإنسان في وطني بدأ يهتم بمستقبله ومستقبل الأجيال من بعده وأنه يمكن عمل شيء في هذا الاتجاه.

المراجع

1 - الإستراتيجية الوطنية للمياه والبرنامج الاستثماري لقطاع المياه (2005 - 2009م)، وزارة المياه والبيئة، الجمهورية اليمنية.

2 - الهيئة العامة للموارد المائية، 2000م، ورشة عمل: سياسة الموارد المائية، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

3 - البنك الدولي، 1997م، اليمن: نحو إستراتيجية للمياه، اجندة الإجراءات، قطاع التنمية الريفية والمياه والبيئة.

4 - محمد لطف الإرياني، محمد محمد الصبري، 1999، الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في إدارة الموارد المائية، صنعاء - اليمن.

5 - محمد لطف الإرياني، 1998م، دراسة تحليلية للحلول المطروحة في الإستراتيجية المقترحة للمياه، ندوة البيئة بالمجلس الاستشاري، صنعاء، الجمهورية اليمنية.

6- Mohamed Fara and J.W.Lloyd, 2002. Yemen: An Example of the Dilemma of Water Resources in an Arid Zone Developing Country, Yemeni Journal of Science, 3(2) 2002, Sana'a, Republic of Yemen.

7- Mohamed Fara, 1999, Groundwater Exploitation and its Relation to the Environmental Deterioration Conditions of Aquifers in Yemen, XXIX Congress of IAH, Bratislava, Slovakia.

8- TNO (Institute of Applied Geosciences, Netherlands). 1995, The water resources of Yemen Republic, Min. Oil and Mineral Resources, Sana'a, Yemen.

الحياة العلمية في حضرموت في القرنين السابع والثامن للهجرة*

تعد الحياة العلمية في الحضارة الإسلامية من أهم جوانبها، وهي في أمس الحاجة إلى دراسة عميقة بناءة ذات مدلولات عملية، لأن العلم يمثل على مر العصور أهمية في حياة الشعوب كونه علامة من علامات رقيها وازدهارها، ويعكس مستوى تطورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي.

فلماذا إذاً الحياة العلمية؟، ثم لماذا اختيار حضرموت مكاناً للدراسة؟ وأخيراً لماذا القرنان السابع والثامن للهجرة زماناً للدراسة؟

للإجابة على هذه التساؤلات الثلاث أتت هذه الرسالة، والتي جاءت في مقدمة أبان فيها الباحث أسباب اختيار الموضوع، وأهميته وهدفه، والصعوبات والمعوقات، والدراسات السابقة، والمنهج والخطوات المتعبة في الرسالة، ودراسة وتحليل المصادر الرسالة ومراجعها، وهيكل الرسالة.

د. محمد يسلم عبدالنور

وتمهيد أوضح فيه جغرافية حضرموت وذلك من حيث التسمية والموقع والحدود، والأقسام الجغرافية، والبناء الاجتماعي، وستة فصول هي:

الفصل الأول: الأوضاع السياسية وأثرها على الحياة العلمية، وأوضح فيه:

قيام الإمارات والسلطنات القبلية المحلية: وهي في تريم: إمارة بنو قحطان (آل راشد) وإمارة آل يماني، وفي شبام إمارة آل الدغار، وإمارة بنو الأعلم، وإمارة بنو سعد، وفي الشحر إمارة آل فارس بن إقبال.

تبعية حضرموت والتي تمثلت في: أ- الدولة الأيوبية. ب- الدولية الرسولية. ج- الإستيلاء الحبوظي.

الفصل الثاني: المراكز والمؤسسات العلمية، وتحدث عن:

المراكز العلمية والتي تنوعت بين المدن والقرى الحضرمية.

المؤسسات العلمية وهي: أ- المساجد. ب- بيوت ومنازل العلماء.

ج- الكتاتيب (المعلامات) د- الأربطة والزوايا ح- الأماكن الأخرى.

الإنفاق على التعليم.

الفصل الثالث: النظام التعليمي: وفيه:

1- نظام التعليم في المرحلة الأولى.

2- نظام التعليم في المرحلة العليا، وأوضح فيهما:

أ- الأهداف. ب- المواد المقررة. ج- البرنامج اليومي والزمني للدرس د- الطرق والوسائل

* أطروحة نال بها الباحث درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي وحضارته بتقدير ممتاز مع التوصية بطبع الرسالة من قسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة صنعاء 2008م، تحت إشراف أ.د عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع.

المستخدمة. هـ- حق الختمة (الأجرة). و- طرق التعليم. ز- طرق التلقي والسماع. ح- طرق الاستذكار والمراجعة.

3- تعليم الكبار.

4- تعليم المرأة.

5- الرحلة العلمية، وتحدث عن: أ- المرتحلين. ب- الوافدين. ج- النتائج.

الفصل الرابع: حملة العلم (الطلاب والعلماء) وأوضح فيه:

1. الطلاب، وهم: أ- طلاب المرحلة الأولى (الصبيان). ب- طلاب المرحلة العليا. ج- العلاقة المتبادلة بين الطلاب ومعلميهم. د- الحالة الاقتصادية لطلبة العلم. هـ- سكن الطلاب.

2. المعلمين (العلماء) وهم: أ- المؤدبون. ب- معلموا الصبيان (المرحلة الثانية). ج- معلموا المرحلة العليا. د- الشروط والمؤهلات الواجب توفرها في المعلم. هـ- الألقاب العلمية. و- الأحوال المالية للعلماء. ز- الأحوال الاجتماعية للعلماء. ح- أحوال وأخلاق العلماء. ط- علاقات العلماء بطلابهم. ي- علاقات العلماء بعضهم ببعض. ك- أثر العلماء في المجتمع. ل- دور العلماء في المجتمع.

3. النقابة العلوية.

الفصل الخامس: المذاهب والفرق الإسلامية وهي:

1.مذاهب أهل السنة والجماعة وهي: أ- المذهب الحنفي، ب- المذهب الشافعي، ج- المذهبان المالكي والحنبلي.

2.الفرق الإسلامية وهي: أ- الأباضية، ب- الشيعة، ج- المعتزلة.

3.التصوف، وتطرق فيه إلى: اشتقاق التصوف ونشأته، التصوف في اليمن، التصوف في حضرموت (التصوف المغربي وملامحه، وصول التصوف إلى حضرموت، موقف العلماء من التصوف، أعلام التصوف، أدبيات ومصطلحات التصوف، العلاقة بين صوفية حضرموت واليمن وبلاد الإسلام، ميزات التصوف الحضرمي، الخلاف بين الفقهاء والصوفية).

الفصل السادس: النتاج العلمي للعلماء، والذي تمثل في:

1- العلوم الشرعية. 2- العلوم العربية. 3- التصوف. 4- علم التاريخ. 5- العلوم التطبيقية، ذاكراً هذا النتاج وما طبع منه وما هو مخطوط وأماكن تواجده وما فقد منه.

وتتدرج تحت هذه الفصول كذلك موضوعات وعناوين أخرى تتعلق بها احتوتها دفتي الرسالة والتي بلغت عدد صفحاتها (400) صفحة.

الخاتمة وأوضح فيها بعض النتائج والتوصيات.

الملاحق وهي ملحقاً لخرائط حضرموت، وأخر للمشجرات (الأسر الحاكمة والعلمية) وثالثاً قواعد بيانات (العلماء المرتحلين، الوافدين، القضاة، إسهام العلماء في النتاج العلمي) ورابعاً لنصوص تعد نموذجاً لنتاج النثر الأدبي.

المصادروالمراجع،والفهارس (الكشافات) والتي بلغت (12) فهرساً.

وخلاصة القول أن هذه الدراسة للحياة العلمية تعد كشفاً جديداً لحقبة تاريخية يكتنفها الغموض، لأن هذه المدة على الرغم من أن لها أهمية واضحة في تاريخ اليمن لم تحظ بأي عناية من الباحثين، ولم يتصد أحد منهم لدراستها بصورة شاملة، لذلك كانت هذه الدراسة محاولة لكشف هذا الغموض لتنبيه الباحثين لما أثارته من أسئلة لم تستطع الإجابة عليها، وقد توفرت لهذه الدراسة مصادر خطية كثيرة أظهرت ولأول مرة نتائج تاريخية هامة، وكشفت عن وجود حياة علمية نبغ فيها عدد غير قليل من العلماء أسهموا في النشاط العلمي بالنتاج والطلاب.

المنشآت الدينية الإسلامية بمدينة ظفير حجة
دراسة أثرية معمارية

من المعروف أن اليمن تزخر بالكثير من الآثار الإسلامية المعمارية الدينية والمدنية والحربية والتي لا تخلو أي مدينة منها ومن ذلك مدينة ظَفِيرحَجَّة إحدى هذه المدن التي احتفظت لنا بعدد من هذه الآثار ومن أهمها العمائر الدينية التي هي موضوع دراستنا بعنوان " العمائر الدينية الإسلامية بمدينة ظفير حجة" دراسة أثرية معمارية

الباحث/ يحيى لطف العبالي
ماجستير آثار إسلامية جامعة صنعاء

الموقع:

تقع مدينة ظَفِير حَجَّة إلى الشمال من مدينة حجة عاصمة المحافظة، على بعد 15 كم، حيث تتربع المدينة على رأس جبل الظفير العالي ما جعلها محصنه طبيعياً من جميع الإتجاهات، وتتبع إدارياً عزلة الظفير، مديرية مبين، محافظة حجة.

تهدف هذه الدراسة إلى

- توثيق المنشآت المعمارية الدينية في مدينة ظفير حجة.
- دراسة عناصرها المعمارية ومعالمها الثقافية.
- إبراز موقع ظفير حجة وعلاقته بالبيئة المحيطة به، بحيث تعطي تصوراً عن نماذج العمارة الإسلامية في المناطق الجبلية الشمالية الغربية من اليمن.

أما فيما يتعلق بمنهج الدراسة فقد أعتمد الباحث على الدراسة الميدانية التي قام بها خلال زيارات ميدانية عديدة لمنطقة الدراسة، حيث قام بإجراء المسوحات العلمية بما فيها الوصف الدقيق للمنشآت والرفع المعماري والتصوير الفوتوغرافي وجمع الوثائق المحلية والمادة التراثية المتعلقة بالموضوع .

كما اعتمد على الدراسة المكتبية من خلال قراءة المصادر وتصنيف المادة العلمية وتحليلها، استناداً إلى مصادر الآثار الإسلامية والمراجع المتعلقة بالموضوع.

وتنبغي الإشارة هنا إلى عدداً من الصعوبات التي واجهت الباحث مثل:

1. الخراب الذي طال أغلب المساجد، الأمر الذي جعل من الصعب وصفها وصفا كاملا .قلة النصوص التأسيسية التي تؤرخ للمنشآت.
2. قلة الكتابات التاريخية المتوفرة عن مدينة ظَفِير حَجَّة.
3. صعوبة الحصول على الوثائق من الأهالي لحرصهم عليها.

محتوى الرسالة

تشتمل الرسالة على مقدمة وتمهيد، وثلاثة فصول وخاتمة ثم قوائم المصادر والمراجع، والخرائط والأشكال، والمخططات، واللوحات وأخيراً الملاحق. وتفصيل ذلك ما

يلي

المقدمة

يجري فيها الحديث عن موضوع الدراسة وأهميتها، وأهدافها، والمنهج المتبع، والمعوقات التي واجهت الطالب، ومختصر لمحتوياتها.

التمهيد

يتناول الباحث فيه تاريخ المدينة بصورة موجزة، موضحاً فيه الموقع، والاسم، مع عرض تاريخي للمدينة، تبين من خلاله فترات الازدهار والضعف ما انعكس على العمارة بشكل عام.

الفصل الأول
جامع المهدي

وتم فيه دراسة (جامع المهدي) دراسة وصفية تحليلية، وقد أفرد لهذا الجامع فصل خاص كونه المسجد الجامع، والأكبر حجماً وتعدداً للملحقات، وقد قسم هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام.

أولاً: المسجد الجامع وتناول الباحث فيه تحديد الموقع وناقش إسم المنشئ وتاريخ الانشاء وعدد مواد البناء التقليدية الداخلة في البناء، مع وصف واجهات الجامع وبنية الصلاة.

ثانياً: القباب الضريحية الملحقة: وشمل هذا القسم دراسة كلٍ من:(قبة ضريح الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، وحفيده الإمام شرف الدين يحيى، وحفيد حفيده حفظ الدين بن المُطهّر)

ثالثاً: ملحقات الجامع: وتناول الباحث في هذا القسم دراسة الملحقات المختلفة التابعة للجامع وهي ملحقات المدرسة مثل: مساكن الطلبة (منازل)، المَكْتب بركة الشرب، وملحقات الطهارة مثل: المُتَّخَذَات، المَطَاهِيْر، برك الوضوء، واختتم الفصل بذكر مراحل الإنشاء للجامع التي توصل لها الباحث وهي أربع مراحل.

الفصل الثاني
مساجد الفروض القائمة

وتناول الباحث فيه دراسة المساجد القائمة في مدينة ظفير حجة من حيث الموقع والتسمية ومناقشة اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء والوصف المعماري مع التحليل والمقارنة، وهي ستة مساجد:

1- مسجد الحُوَيْت
2- مسجد أبو طير (السَّرْو)
3- مسجد الغَزِيْـة
4- مسجد الخاطبي
5- مسجد القَفْلَة (البَالُوْعَة)
6- مسجد الرَّكب (المَنْظَر)

الفصل الثالث
مساجد الفروض الدَّارِسَة

وتم فيه دراسة سبعة مساجد دَارِسَة وتناول الباحث تحديد مواقعها وناقش أسباب الاندثار لها، وعمل مخططاتها، مع الوصف المعماري والتحليل. هي:

1- مسجد الدّار البَيْضَاء
2- مسجد الجِـذْمي
3- مسجد القُـدّي
4- مسجد الشّتوي
5- مسجد بُخَيْتَة
6- مسجد دَهْمَاء
7- مسجد عَامِر

أهم نتائج البحث....

إثبات أن إنشاء جامع المهدي مر بأربع مراحل:

المرحلة الأولى (فترة الانشاء): وتم فيها إنشاء كل من (بَنيّة الصلاة، قبة ضريح المهدي، بركة الوضوء، والمطاهير، المتخذات الجنوبية) من قبل شمس الدين بن الإمام المهدي للفترة (840- 878هـ/ 1436- 1471م). وصحح الباحث تاريخ إنشاء قبة ضريح المهدي أحمد بن يحيى.

المرحلة الثانية: وتم فيها إضافة كل من (قبة ضريح شرف الدين، غرف السكن (المنازل)، المَكتب، المئذنة، بركة الوضوء والمَطاهير الشمالية). واثبت الباحث أن هذه الإضافات الملحقة بجامع الإمام المهدي من قبل حفيده شرف الدين.

المرحلة الثالثة: وتم فيها إضافة قبة ضريح حفظ الدين بن المُطهّر بن شرف الدين مع الأفنية المحيطة بها. وتأكيد إنشاء القبة من قبل المُطهّر بن شرف الدين، و ترجيح تاريخ الإنشاء لها بالعشر الوسطى من شهر صفر سنة (964هـ/ 1557م).

المرحلة الرابعة: هي المرحلة التي تم فيها الزيادة الحديثة على بَنِيَّة الصلاة، وتغيير الأعمدة والسقف سنة (1404هـ/ 1984م).

- ترجيح تفرد جامع الإمام المهدي بوقوع عنصر خزانة الزيت من ناحية إنشائية في سمك الجدار الشمالي لبَنِيّة الصلاة.
- مدرسة شرف الدين في ظفير حجة تعتبر أول مدارسه السبع في اليمن وتمت في الفترة (912هـ إلى 923هـ/ 1506م إلى 1517م).
- أثبت أن القبة الضريحية للإمام شرف الدين بنيت قبل وفاته في الفترة (937هـ - 965هـ/ 1530- 1558م).
- عمل إعادة تصور لتخطيط كل من (بنيَة الصلاة بجامع المهدي قبل التوسعة الأخيرة، وكذلك المساكن الجنوبية (المنازل) المهدمة حالياً، المكتب، الذي غير تخطيطه حالياً أيضاً.
- خلص البحث إلى وجود خمسة أشكال للمحاريب في المساجد موضوع الدراسة هي: (محاريب مسقطها نصف دائري، محاريب مسقطها مستطيل، محاريب غير بارزة إلى الخارج، محراب رمزي، محراب بارز بكتلة بنائية تعلوه قبة).
- ترجيح تميز العماتر بمدينة ظفير حجّة بكتابة نص التأسيس على كتل حجرية تسد فتحة العقود التي تعلو المداخل الرتيسة لبعض المنشآت المعمارية.
- تبين أن أسماء المساجد موضوع الدراسة تعود إلى أسماء أشخاص أو أماكن أو صفات وأن بعضها يحمل مسميين.
- إثبات تسمية "مدرسة" لما يسمى مسجد الحُوَيْت والذي يعود للفقيه مسعود بن محمد الحُوَيْت من نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري/ الثاني عشر والثالث عشر الميلادي.
- إثبات أن بناء مسجد الحُوَيْت مر بمرحلتين:

المرحلة الأولى (مرحلة الإنشاء): وشملت (بَنِيْة الصلاة، قبة ضريح الحُوَيْت، بركة الوضوء، والمَطاهير الشمالية، بركة الشرب)، وتعود إلى الفقيه مسعود بن محمد الحُوَيْت

من نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري / الثاني والثالث عشر الميلادي.

المرحلة الثانية: وشملت إضافة (قبة ضريح الغرباني و المَطاهِير الغربية)، وافتراض إنشائها إلى ما قبل سنة (1194هـ/ 1780م).

- إثبات وجود ثلاث مراحل لبناء مسجد أبو طير(السِّرو):

المرحلة الأولى (فترة الإنشاء): وتم فيها إنشاء (بَنِيّة الصلاة، بركة الوضوء، والمَطاهِير الشمالية، بركة الشرب) وافتراض عودتها إلى القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

المرحلة الثانية: وتم فيها إضافة القبة الضريحية، والتي تأكد للباحث أنها تعود لجعفر بن تاج الدين الظفيري المتوفي سنة (1107هـ/1695م) كما صححه الباحث. وتصحيح الاعتقاد السائد لدى الناس أن القبة تعود للإمام أحمد بن الحسين الملقب أبو طير المتوفى سنة (656هـ / 1258م) والذي تأكد انه مدفون في ظفار ذيبين. كما تم ترجيح إنشاء القبة من قبل القاضي يحيى بن جعفر من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وأثبت الباحث أن جعفر بن تاج الدين دفن في قبته الضريحية بمسجد أبو طير(السِّرو) وليس في ساحة جامع الإمام المهدي كما ورد لدى احد الباحثين.

المرحلة الثالثة: وتم فيها إضافة المَطاهِير الشرقية، وترجيح أنها تمت سنة (1365هـ/ 1946م) من قبل محمد بن محمد نصار.

- تأكيد نسبة اسم مسجد البَالُوعَة إلى العلامة محمد بن علي بن صلاح البَالُوعَة من خلال وثيقة وقفيته.
- التوصل إلى وجود أربع طرز لبَنِيّات الصلاة - بالمساجد موضوع الدراسة - هي:

1. بَنِيّة الصلاة يحمل سقفها أعمدة.
2. بَنِيّة الصلاة بوائكها عمودية على جدار القبلة.
3. بَنِيّة الصلاة بوائكها موازية لجدار القبلة.
4. بَنِيّة الصلاة يستند سقفها على المداميك مباشرة.

وإلى طريقتين لتغطية السقف تمثلتا في السقف المسطح، والسقف ذي القبة.

- إثبات وجود مرحلتي بناء لمسجد القـَفـْلَة (البَالُوعَة):

المرحلة الأولى (فترة الانشاء): وشملت إنشاء الجزء الجنوبي من بَنِيّة الصلاة الحالية، والذي كانت فيه الأعمدة عمودية على جدار المحراب، بالإضافة إلى غرف السكن الغربية وبركة الوضوء، ويعود إنشاؤها إلى قبل ربيع الأول سنة (1052هـ/1642م)، وقد أعاد الباحث تصور مخطط بَنِيّة الصلاة لهذه المرحلة.

المرحلة الثانية: شملت إضافة الجزء الأمامي من بَنِيّة الصلاة الحالية، وإضافة مدماكين أعلى بَنِيّة الصلاة بشكل عام، وتغيير الأعمدة والسقف بالإضافة إلى عمل المَطاهِير وغرفة السكن الشمالية الشرقية، وكتلة المدخل الشمالي. و تم تأكيد عمل هذه الزيادة سنة(1365هـ / 1946م) من قبل محمد بن محمد نصار وكيل مسؤول الأوقاف علي إسماعيل المسعودي. - كما بين نص التأسيس-.

- تأكيد وجود اسم آخر لمسجد الرِّكـَـب هو مسجد المَنْظر، والذي يعود تاريخه إلى قبل سنة (1150هـ/1737م).
- ترجيح وجود مساجد للنساء بالمنطقة منها مسجد الرِّكـَـب (المَنْظَر)، إضافة إلى مسجد دَهْمَاء، ومسجد

الشْتوِي، ومسجد بُخَيْتَه.

- التوصل إلى أن أهم أسباب خراب المساجد الدّارِسَة التي شملها البحث، هو قلة الأوقاف الخاصة بها، والحروب.
- إثبات أن الكتلة البنائية الملتصقة بالمنزل المجاور لمسجد الحُوَيْت هي بَنِيّة الصلاة لمسجد الشْتوِي وترجيح كونه مصلى نساء.
- تحديد مكان بَنِيّة الصلاة لمسجد عَامِر، من خلال وثيقة حصر احتياجات المساجد، والذي لم يتبق منه حالياً غير أجزاء من بركة الوضوء.
- لقد تم دراسة أربع عشرة منشاة دينية مزودة بسبعة عشر مخططاً، ومائة وثلاثة وخمسين لوحة، بالإضافة إلى اثنتي عشرة لوحة للوثائق، وعدد من الخرائط والأشكال التوضيحية، ما يعد سجلاً توثيقياً للمنشآت الدينية الإسلامية بمدينة ظفيرحجة.

موقع مصنع ماريه

دراسات أثرية جديدة من محافظة ذمار

آخر النتائج البحثية للموسمين 2006م و 2008م



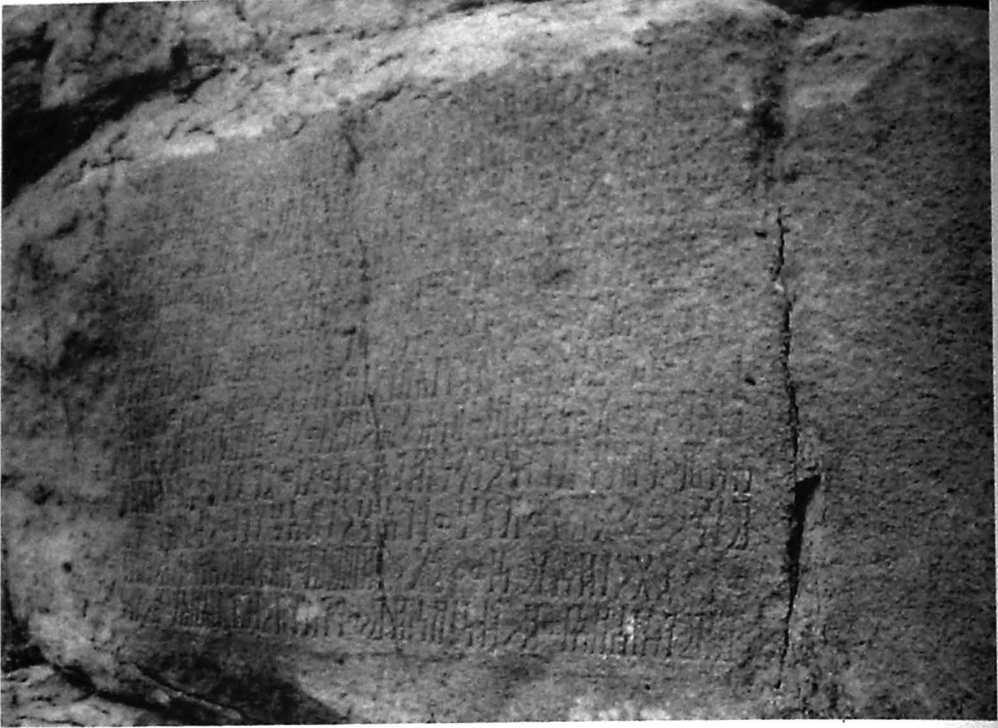
د/ كريستالويس
د/ لمياء خالدي
أ/ علي ضيف الله السنباني

المقدمة

مصنعة ماريه من أهم وأكبر المواقع الأثرية التي تقع ضمن النطاق الجغرافي للحضارة الحميرية بمساحة تعتبر عملاقة مقارنة بالمدن الحميرية الأخرى المجاورة أو التي تقع في نفس النطاق .

كانت تمثل ثقل سياسي واقتصادي للفترة الحميرية (115 ق م إلى نهاية القرن 6 بعد الميلاد) الموقع معروف للباحثين والدارسين خاصة وهنالك نقش على أحد البوابات من 14 سطر يعود للملك ثاران يهنعم بن ذمار علي يهبر والمؤرخ بـ (339م).

وللأسف لم يدرس الموقع بشكل دقيق إلا في السنوات الأخيرة فقط بداية كجزء من المسح الأثري الأمريكي بداية 1994م (Dhamar survey project - DSP)



نقش الملك ثارن يهنعم بن علي يهبر والمؤخ بـ 339 ميلادية

وتم فيه التركيز على دراسة الموقع والمواقع الأخرى المحيطة بداية 2006م وذلك بمسح سطح الموقع بشكل دقيق وعمل خارطة كنتوريه للموقع على اعتباره جزء من كل وموضحاً شكل العلاقة بين المواقع بعضها البعض زمنياً ومكانياً .

إضافة إلى التوصل إلى أن الموقع وجدت به بعض المخلفات التي تعود للعصور الحجرية الحديثة والعصور التالية .

إلا أن الموقع اشتهر أكثر بمخلفات العصر الحميري .

والتقرير الحالي يقدم آخر النتائج البحثية للموسمين 2006م و 2008م :-

خارطة مصنعة ماريه :-

الخارطة والتوثيق لموقع مثل مصنعة ماريه يعتبر هدف أساسي لأي باحث يهتم بدراسة الحياة القديمة من خلال المخلفات الأثرية ففي الموسم 2008م

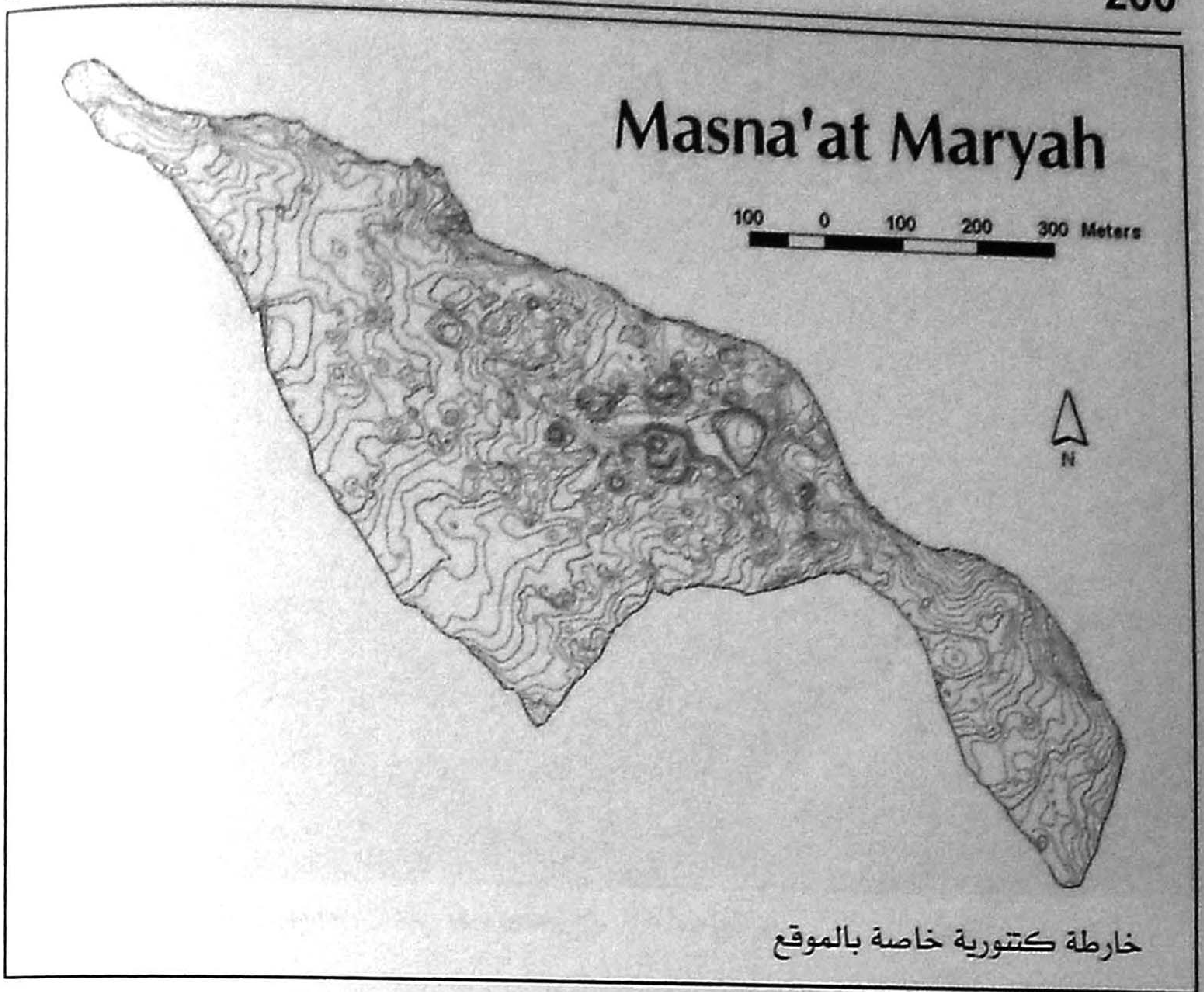
- نفذت خارطة ثلاثية الأبعاد بواسطة جهاز (الدفرنشل GPS)[1] ذو القراءات الدقيقة لأقل من 1سم .

- لذلك استطعنا من خلال هذا الجهاز تثبيت خطوط الطول والعرض خاصة بالموقع (الخارطة الشبكية) .

- كذلك وضحنا أهم ملامح الموقع من

---

(1) جهاز الدفرنشلGPS مكون من قطعتين واحده مرسل والأخرى مستقبل وموصول بالبث عبر الأقمار الاصطناعية (Odyssey – E ktk GPS) ويغطي مساحة 4 – 6 ميل من جهاز البث الثابت .



خارطة كنتورية خاصة بالموقع

خرائب وبرك وطرق وأبواب بواسطة الخطوط الكنتوريه بنسبة دقة تصل إلى 20سم .اسقاطها ضمن مجموعة خرائط أخرى بأشكال وألوان ومعلومات مختلفة تصل إلى إمكانية تحريكها بواسطة برامج هندسية وجغرافية كبرنامج (GIS) والبرنامج الهندسي الاتوكات وهذه الأنظمة يمكن تطويرها في كل موسم .

مدينة مصنعة ماريه

أغلب المستوطنات الحميرية أقيمت على مرتفعات على اعتبارها مواقع إستراتيجية تمكنهم من السيطرة على الموارد الطبيعية والاقتصادية وتضمن الاستقرار الأمني .

فجاءت مصنعة ماريه على ربوة مرتفعة ومنبسطة كحد فاصل بين نطاقين جغرافيين منطقة المرتفعات الوسطى في الشرق والمناطق الجبلية الوعرة إلى الغرب .

مصنعة ماريه تعتبر مستوطنة حميرية بمساحة كبيرة تصل إلى حدود (40.4 هكتار) لأصل المدينة فقط وبحاله جيدة جداً فيمكن تمييز أغلب المعالم الإنشائية فيها .

تحصنت المدينة بواسطة الاستفادة من القطع الجبلي العميق من جميع الجهات عدا الجزء الصغير من الجانب الشمالي الغربي الذي تدخل الإنسان فيه بالتسوير بواسطة الأحجار الكبيرة المهدمة .

أوصلت المصنعة بشبكة طرق عاليه التقنية ومرصوفه بالأحجار المسطحة وبشكل متدرج وموصولة بمجموعة الأبواب الرئيسية والثانوية المحصور منها حتى الآن عدد (4) أبواب رئيسية و(5) ثانوية .

قسم موقع مصنعة ماريه إلى ثلاثة أجزاء هي –

A – ويمثل الجزء الوسطي والاكبر.

B – يمثل الجزء الشمالي الغربي من المصنعة والجزء.

C – ويقع في الجهات الجنوبية الشرقية.



صورة خاصة بالقطع الجبلي الخاص بالمستوطنة

أولا الجزء - A – ويمثل الجزء الأكبر وبه آثار الخرائب من المنشآت المعمارية المدنية والدينية والتجارية وبها تلال لخرائب ارتفاع بعضها حدود (10) أمتار وتشغل مساحة (18) هكتار تقريباً.

-بعض المباني ربما أكثر من طابق لارتفاع بعض التلال وبعضها يحوي درج هابط.

– من الجزء A وجدت نسبة كبيرة من الملتقطات الأثرية الحميرية المختلفة.

– استغل سكان الموقع الانحدار القائم على السطح والمائل من الغرب ناحية الشرق لحجز المياه في البرك لتأمين أهم مصدر للبقاء بالموقع ولأطول فترة زمنية فسنجد هندسة ري عالية الدقة بتوجيه المياه نحو البرك عبر السواقي التي مثلت الطرقات والشوارع أهمها أيضاً استغلال المياه الهاطله على مستوى المباني عبر سوايق مقضضة تضمن عدم اهدارها.

– من الممكن التمييز بسهولة بين المباني المدنية والمباني الدينية والعسكرية.

ثانيا الجزء - B - وفيه نسبة المنشآت المعمارية أقل وبارتفاعات أقل وبمخططات ابسط.

تطغى السمة المدنية في هذا الجزى أكثر حيث توجد مساحات كبيرة غير مشغولة ومساحات بها أنصاب حجرية مسطحة ومائلة بعضها مغروس رأسياً ومائل وهذه أغلبها ترجع إلى فترات ما قبل الحضارة الحميرية.

ثالثا الجزء - C - ويمثل الجزء الأصغر ويرتبط بالجزء - A – من شماله وبمساحة ضيقة بشكل مضيق أو رقبة.

وهذا الجز يختلف عن الجزأين الآخرين (A و B) إذ تظهر به أساسات لمباني عملاقة وموضوعه رأسياً تشبه المواقع الأثرية بالقرب من مصنعة ماريه ويعود تاريخها إلى نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي.

يتوسط هذا الجزء - C - شكل بنائي قيد الدراسة مكون من جدارين متوازيين بطول (145 متر) تقريباً يمتد من الشمال إلى الجنوب والفاصل بين الجدارين مسافة بحدود 20 متر تقريباً هذا واصل الجدار مبنى بواسطة الأحجار المغروسة رأسياً حجر من الداخل وأخرى من الخارج وما بينهما رديم من الدبش.

وبالقرب من الشكل البنائي هذا وفي الجهة الجنوبية الغربية وعلى بعد (25) متر تقريباً وجد شكل بنائي آخر عبارة عن صفين

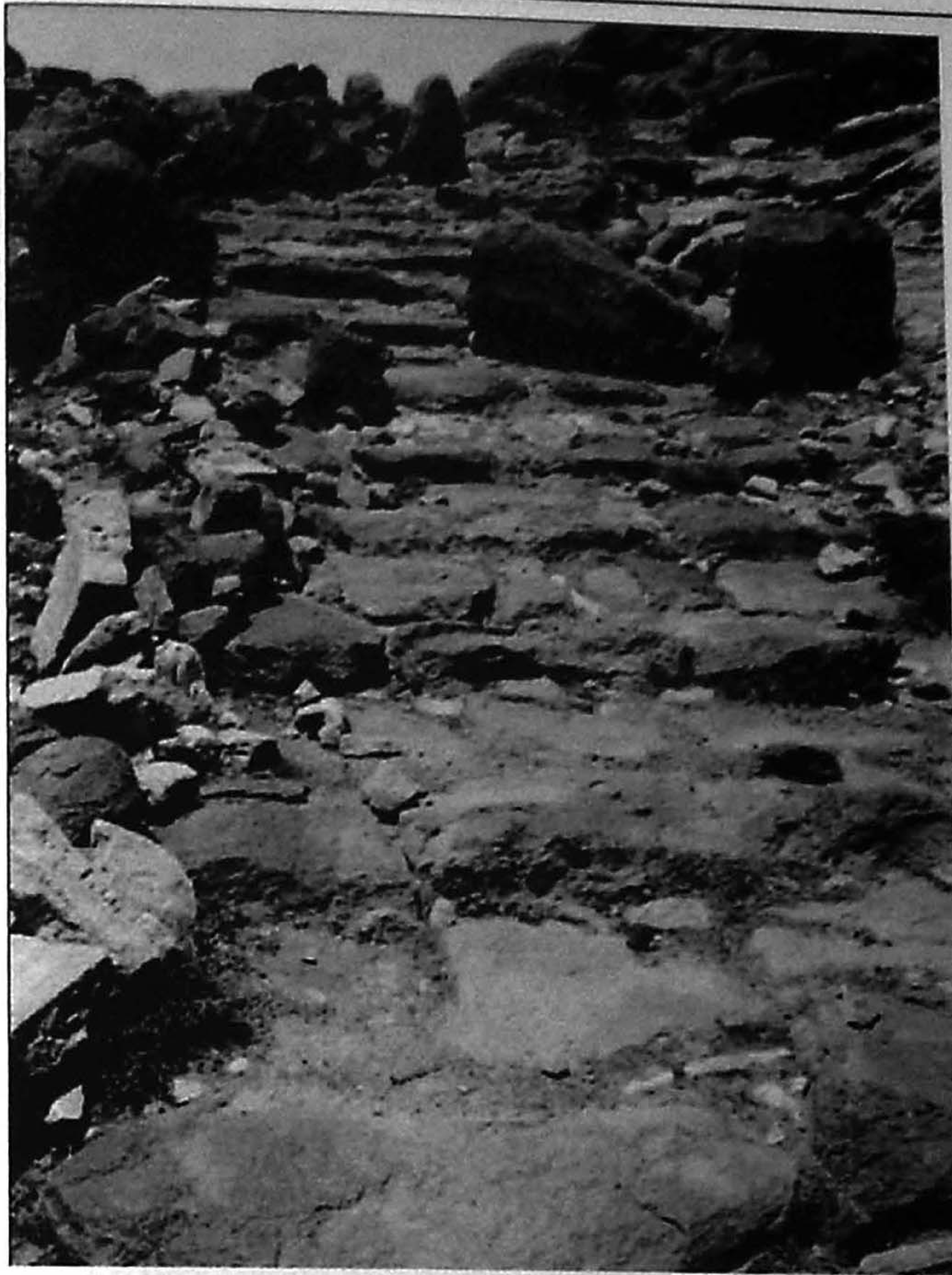
من الأحجار المتوازية بطول حدود (10) أمتار وعرض (2) متر ومسقفة بوساطة أحجار مسطحة .

توزيع الملتقطات على سطح المواقع

كان ذلك بتباع منهج محدد تقتضي توثيق كل الملتقطات الأثرية في مساحة دائرة قطرها (2) متر كل (50) متر والمستهدف بدرجة أساسية هو الفخار والابسدين والصوان وخبث الحديد والأحجار المزخرفة ومدقات مرهاء إضافة إلى العظام والخرز وأي مشغولات يدوية ... الخ

وفي هذه الدائرة تم توثيق الصنف والعدد والمقاس والوزن وأعيدت كل الملتقطات مكانها ما عداء المشغولات اليدوية أخذت إلى مخازن المتحف الإقليمي بالمحافظة ذمار وأخذت بعض العينات من خبث الحديد والأبسدين للدراسة .

كل هذه البيانات سجلت ضمن برنامج بالكمبيوتر ومنه نزل على نظام (GIS) لإسقاط كل هذه البيانات على الخارطة .



جانب من الطريق المرصوف

حالياً بإمكاننا قراءة كل تلك البيانات على الخارطة وبشكل مبسط لأي باحث أو دارس كما أنه يساعدنا على استجلاء شكل الموقع والوظائف التي كانت قائمة عليه .

مثل وجود كميات كبيرة من الفخار في جانب معين من الموقع كذلك الحال مع وجود كميات من خبث الحديد في جانب آخر.

نتائج المسح لمنطقة مصنعة ماريه:

- تمكنا من تقريب شكل الثقافات السائدة في تلك العصور السياسية والزراعية والإجتماعية برسم صورة مقربه لوضع المنطقة بشكل عام .

- وثقنا مواقع أثرية جديده وفي نطاق (18كم2) حول موقع مصنعة ماريه .

- استطعنا التوصل الى مواقع أثرية تعود إلى جميع العصور والحقب التاريخية ابتداءً من العصر الحجري الحديث حتى العصور الإسلامية وذلك لاتباعنا منهج بحث عالي الدقة



صورة جوية للموقع توضح التقسيم إلى ثلاثة أجزاء

إذا كانت الدراسة تسير بشكل مثالي وسيراً على الأقدام.

- فتوصلنا الى تسجيل عدد (32) موقع كبير الحجم وعدد (100) موقع متفاوته الأحجام من المتوسطة حتى الصغيرة وأغلبها لم يشملها المسوحات الأثرية السابقة بالمنطقة (Lewis and kholidi 2008).

عصور ما قبل التاريخ في منطقة مصنعة ماريه

ومخلفات هذا العصر من الصعب الحصول عليها والقليل منها وثق بمنطقة ذمار كاملاً بسبب تغطيتها بمخلفات العصور اللاحقة خاصة الحميرية التي استغلت وإعادة توظيف مخلفات العصور السابقة لها خاصة و أن الكثافة السكانية عالية ودائماً ما يسعون نحو التوسع على حساب المواقع الأثرية الأقدم.

وبالرغم من ذلك توصلنا إلى العديد من المواقع التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

حصلنا على أدوات حجري مشغولة من الجهتين وبشكل نظامي مثل (السهام) والتي أغلبها من مادة الأبسدني من موقع مصنعة ماريه وموقع آخر عبارة عن كولة تقع شرق المصنعة وموقع أشارف (DS15).

أخيراً :- توصلنا إلى توضيح الشكل الاستيطاني ولفترة زمنية أطول.

أيضاً وثقنا مصادر مادة الأبسدين المختلفة التي استخدمت في تلك العصور.

ومن الشواهد المثيرة والمشوقة وجود مجموعة المناصيب الكبيرة وبأشكال وأحجام مختلفة والتي غالباً ما توضع على أماكن مرتفعه وعلى الأطراف لكي تكون منظورة من



صورة البركة التي تمثل أكبر مخزن مائي بالمستوطنة

مسافات بعيدة .

العصر الحديد والحميري في منطقة مصنعة ماريه

غير موقع مصنعة ماريه يوجد (12) موقع أثري حميري مهم منهم (3) مواقع مهمة سياسياً واقتصادياً وعلى اتصال وثيق بمصنعة ماريه .

ووجود شبكة طرق رئيسية وأخرى فرعية غالباً ما تكون مرصوفة منها ما يعود إلى فتره زمنية أقدم ومنها مرتبط بالمصنعة نفسها ومن المهم التركيز على دراسة شبكة الطرق بالمنطقة خاصة والنقش الخاص بالملك ثاران بهنعم بن ذمار على يهبر والذي يعود إلى القرن الرابع يذكر قيام الملك بإقامة عدد من المناقل بالمنطقة وأوردت كلاً باسمها حيث تمتد من الموقع هجر سمعان (مصنعة ماريه) الى العاصمة ظفار راجع (muller 1978).

كما شملت الدراسة عدد من البرك والمواجل والسدود والقنوات بالمنطقة وأكبرها بركة صعدان بشكلها الشبه مدور وبقطر (155 متر) تقريباً مشيدة بالأحجار المشذبة وبالأسلوب الحميري .

كما توجد أشكال قبورية مختلفة ترجع إلى العصر الحديدي والحميري منها ما يأخذ الشكل الدائري .

الاعتداء على المواقع في منطقة ماريه

أثناء أعمال المسح والتوثيق للموسمين توصلنا للعوامل التي تسهم في تخريب الموقع أهمها .



1 - العوامل الطبيعية مثل الزلازل وعوامل النحت والتعرية من الرياح والامطار إضافة إلى الحركات الباطنية للأرض .

2 - الحفرالعشوائي المنظم وغير المنظم من قبل الأهالي .

3 - التوسع الزراعي على حساب المواقع الأثرية .

4 - ا لمشا ر يع الخدمية التي تقدمها الدولة على حساب المواقع الأثرية أيضاً

أن هذه العوامل مجتمعة أو أحداها تؤثر على بعضها البعض كما أنها ليست قاصرة على منطقة مصنعة ماريه إنما تشمل الكثير من المناطق الأثرية بالجمهورية اليمنية بل وعلى مستوى العالم .



دراساتنا التوثيقية هامة جداً لأنها تعطينا معلومات قيمة وبشكل سريع بدون الشروع على أعمال حفائر .

يمكننا في هذه الدراسة من تحديد الأولويات في المعالجات بالبداء بصيانة المناطق الأكثر تضرر .

لكي نستطيع التقدم بشكل ملحوظ في حماية المواقع لابد من التواصل بين الأثاريين وبين المسئولين والأهالي والأعيان بالمنطقة وضرورة المحافظة عليه كقيمه حضارية واجب حمايتها والحفاظ عليها ومنها موقع مصنعة ماريه .

شكر وتقدير

نتقدم بالشكر الجزيل لكل الفريق



صورة للشكل البنائي المكون من جدارين متوازيين

العامل بالدراسة التي كانت ستصبح مستحيلة بدونهم ومنهم مصلح القباطي عن الهيئة العامة صنعاء ، صالح الفقيه عن فرع الهيئة ذمار .

للعام 2006م وليام ايفرنبرقر (الخارطة الرقمية والجرافيز)

أيضاً الأستاذ / عبدالباسط نعمان من ديوان الهيئة والأخصائيين / صلاح الكوماني وأحمد العصار من فرع الهيئة بذمار واليزبت اسندرز موسم 2008م بالإضافة إلى دانيال مهوني (جامعة شيكاغو) وباسل خليل هذ ولا ننسى جهود الاستاذ / صالح بفاشة مدير إدارة الآثار مديرية عنس .

كما يتقدم الفريق بالشكر لكل المسئولين بالهيئة العامة للآثار لتسهيلهم مهام الفريق ونخص بالذكر الدكتور / عبدالله باوزير رئيس الهيئة والأستاذ / محمد الأصبحي مدير عام الآثار بالهيئة العامة للآثار هذا ويسجل الفريق جزيل الامتنان لكل المرافقين لهم من الطباخين والسائقين .

نود التقدم إلى عائلة بفاشه بجزيل امتنانا وشكرنا للرعاية الكريم التي لقيناها منهم .

أخيراً : لا بد من الإشارة إلى الدعم الكريم المقدم من المركز الأمريكي للدراسات بصنعاء للعام 2006م

وجامعة أركنسا في لتل روك مشروع دراسات الشرق أوسطية.

شرح المنظومة في الطب

تأليف:محمد بن عمربن مبارك الحميري بحرق

تقديم/ محمد لطف غالب

عودت الإكليل قراءها في اختيار مخطوط ونشره ضمن محتوياتها. وفي هذا العدد تنشر الإكليل المنظومة وشرحها بصورة المخطوط الأصلية دون تحقيق أو تعليق مع نبذة عن المؤلف وعن المخطوط كما يلي:

1 - المؤلف هو:

جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بن عبدالله بن علي الحميري الشهير ب : بحرق عالم فقيه له مشاركة في الحديث والعلوم، والفلك والحساب ، والطب ،أديب ،شاعر متصوف.

ولد بحضرموت عام 869هـ 1465م ونشأ بها وأخذ العلم عن كبار الشيوخ في مسقط رأسه وفي زبيد ومكة المكرمة وبلغ مرتبة في العلم وبرع في أكثر من فن من فنون العلم ودرس وأفتى وتولى القضاء في الشحر مدة فصدع بالحق وحمدت سيرته ثم عزل نفسه عن القضاء ورحل إلى عدن ومكث بها مدة صحب خلالها أبا بكر بن عبدالله العيدروس العدني وبعد وفاته رحل إلى الهند واقام في مدينة أحمد أباد لدى السلطان مظفر بن محمود شاه سلطان كجراة (ت 932) فأكرمه وقربه وعظمه ولما عرف فضله وعلمه زاد في تعظيمه وتبجيله وانزله المكانة اللائقة به إلى أن توفي بأحمد أباد بالهند سنة 930هـ. 1524م.

أسهم المؤلف في نشر العلم تدريساً وافتاءً وتاليفا فقد ترك عدداً من المؤلفات طبع بعضها وما زال الكثير منها مخطوطا نوردها في هذا التقديم.

- إيضاح المستفيد لمعاني مقدمة التجويد شرح الجزرية في القراءات
خط أمبرد زيانا أخرى مكتبة الجامع الكبير صنعاء 33 قرآن
- البهجة في تقويم اللجهة شرح منظومة في العروض.
- تبصرة الحضرة الشاهية الأحمدية بسيرة الحضرة النبوية.
- تجريد المقاصد عن الأسانيد والشواهد، (وكتاب المقاصد الحسنة فيما يدور من الحديث على الألسنة) تأليف شمس الدين محمد بن أحمد السخاوي ت 902هـ.
- تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب شرح ملحة الإعراب للحريري طبع في مصر عام 1296ه ثم تكررت طبعاته.
- تفسير آية الكرسي-خ.

- الحسام المسلول على منتقصي أصحاب الرسول خ مكتبة آل يحيى تريم.
ونشره الشيخ محمد حسين مخلوف .
- حلية البنات والبنين فيما يحتاج إليه من أمر الدين ط في القاهرة.
- الحواشي المفيدة على ابيات اليافعي في العقيدة.
- ذخيرة الإخوان المختصرة من كتاب الاسغناء بالقرآن للسهيلي خ مكتبة آل يحيى تريم.
- رسالة في علم الفلك
- أرجوزة في الحساب وشرحها
- شرح لامية الأفعال لابن مالك في الصرف طبع في مصر.
- العقد الثمين في ابطال القول بالتحسين والتقبيح .
- عقد الدرر في الإيمان بالقضاء والقدر خ مكتبة ال يحيى بتريم
- العقيدة الشافيه في شرح القصيدة اليافعية .
- فتح الرؤوف شرح معاني الحروف.خ مكتبة الجامع صنعاء 131 نحو
- مختصر اذكار النووي.
- مختصر الترغيب والترهيب .
- مختصر الخلاصة في عدة أهل بدر وشرحه.
- مختصر الهداية في علم القراءة للناشري .
- منظومة في أصول علم الطب وشرحها، وهي موضوع هذا التقديم
- منظومة في الفرائض خ مكتبة الجامع/ صنعاء 88 فرايض
- مواهب القدوس في مناقب الشيخ ابي بكر بن عبدالله العيدروس خ مكتبة الحبشي.
- النبذة المختصرة في معرفة الخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة .
-نشر العلم في شرح لامية العجم اختصره من شرح لامية العجم للصفدي طبع في مصر عام 1283 ه..

ثانياً: المخطوطة:

موضوع المنظومة وشرحها علم الطب وجعلها في مقدمة وخاتمة وثلاثة أبواب أشار في المقدمة إلى تركيب جسد ابن آدم من أربعة أمزجة أو طبائع وهي الصفراء والسوداء والبلغم والدم ،والعلاقة بين هذه الطبائع وبين الفصول الأربعة على مدار العالم وهي الصيف والخريف والشتاء والربيع.

وضرورة علم الطب للإنسان لحفظ الصحة الموجودة بالتدبير وذلك باختيار الغذاء والحمية من أسباب المرض، وجلب الصحة المفقودة عند حدوث المرض بالعلاج ومعرفة سبب المرض. حيث يشير إلى أن ((علم الطب قسمان: احدهما حفظ الصحة الموجودة بالتدبير،

والثاني جلب الصحة المفقودة بالعلاج، والأول أهم لأن الاحتماء في حال الصحة خير من شرب الدواء في المرض والعاقل طبيب نفسه. وقد بسط الشرح في أبوب ثلاثة: باب في تدبير الصحة وذلك بتدبير الأشياء الضرورية التي لابد للجسم من ملاقاتها وذلك باستعمال القدر الصالح على الاقتصاد ويتجنب الافراط والتفريط في الحركة والسكون والأكل والشرب.

الباب الثاني في العلل الحادثة بزيادة الطبايع وأسبابها وعلاماتها وعلاجها. وذكر العلل السوداوية والعلل الدموية والعلل البلغمية.

الباب الثالث في خصائص بعض الأغذية والأدوية وقد فصل في طبائع الأغذية الحارة الرطبة والحارة والباردة اليابسة.

وختم كتابه بقوله:::: هذا آخر ما يسره الله تعالى من ذكر ما يضر جهله من أصول علم الطب في هذه الثلاثة الأبواب السابقة ومن أراد بسط ذلك ففي كل باب كتب مدونة.

ويشير إلى أن كثيرا من العلل تكون خارجة غير حادثة بزيادة أحد الطبائع الأربع بل إما لهواء أو عارض آخر: كالضرس واللقوة والزكام ووجع الأذن ، وطرفة العين، وفك الصدر

والكسر والجراحات ونحو ذلك .

والغرض من هذه المنظومة الإشراف على أصول الفن ليخرج الإنسان عن حيز الجاهلين به فالمرء عدو ما يجهل، ويقبح بالعاقل عداوة العلوم النافعة، ومع ذلك فاعلم واعتقد أن الشفاء أمره موقوف على مشيئة الله تعالى: ((وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلاهو و إن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير)) فالطبيب الماهر ليس يشترط عليه أن يبرئ العليل فضلا عن أن يزيد في عمره، ولكن عليه أن ينظر في العلة وحال المريض وأن يصف له العلاج إن رآه يحتمله، وإلا أمسك. وعلى العليل مساعدة الطبيب فيما يأمره به من الغذاء والاحتماء والدواء، فالله سبحانه خالق العلة والشفاء.

وصورة هذه المخطوطة حصلت عليها الإكليل من دار المخطوطات بصنعاء وهي ضمن مجموع برقم 1345 وتنشر هنا للإسهام في إحياء التراث المخطوط لتكون في متناول القارئ للاستفادة من ذلك.

والله ولي الهداية والتوفيق.

المراجع :

- النور السافر عن أخبار القرن تأليف : محيي الدين عبد القادر بن عبد الله العيدروس دار الكتب العملية بيروت 1405هـ 1985م ص 140/133
- الإعلام خيرالدين الزركلي المجلد السادس بيروت دار العلم للملايين ط6 تشرين الثاني نوفمبر 1984م
- مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن عبد الله الحبشي -مركز الدراسات والبحوث صنعاء ، ص25، 53 ، 84 ، 130، 205، 295، -330 381 ، 427، 784 ، 493،496

كتاب شرح المنظومة في الطب
لمصنفها الفقير النحرير المتقن الأديب النحوي
التصريفي اللغوي جمال الدين محمد بن عمر
بحرق رحمه الله تعالى رحمة
الأبرار وحشره
في زمرة نبينا
محمد المختار
آمين
آمين
تم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد فهذا تعليق لطيف على نبذة في المنظومة في أصول علم الطب تبصرة للمبتدي وتذكرة للمنتهي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الحمد لله الحكيم القادر ... النافع الضار العزيز القاهر
مدبر العالم بالتدبير ... أفلاكه بالأمر والتقدير
سبحانه من خالق قد أتقنا ... من كل شيء خلقه وأحسنا
وصور الإنسان للتكريم ... أحدله في أحسن التقويم
مركبا من أربع أصول ... ممدة كالأربع الفصول
صفراؤه كالصيف والسوداء ... خريفه والبلغم الشتاء
والدم كالربيع أي الطبع ... بقدرة الله البديع المبدع

قال الحكماء إن الله تعالى خلق الدنيا وما فيها من أربعة وتسمى العناصر وهي الريح والنار والماء والتراب فالريح باردة والنار حارة والماء رطب والتراب يابس وركب جسد ابن آدم من أربعة أمزجة وتسمى الطبائع الأربع وهي الصفراء والسوداء والبلغم والدم وجعل فيها بمثابة الأربعة الفصول التي عليها مدار الفلك فخلط الصفراء حار يابس متولد من عنصر النار ومسكنه المرارة ونظيره فصل الصيف عند الحكماء وهو الذي تسميه أهل حضرموت الخريف فإنه حار يابس وخلط السوداء بارد يابس متولد من عنصر الأرض ومسكنه الطحال ونظيره فصل الخريف عند الحكماء وهو الذي تسميه أهل حضرموت الشتاء وخلط البلغم بارد رطب متولد من عنصر الماء ومسكنه الرئة ونظيره فصل الشتاء عند الحكماء وهو الذي تسميه أهل حضرموت الربيع وخلط الدم حار رطب متولد من عنصر الهواء ومسكنه الكبد ونظيره فصل الربيع عند الحكماء وهو الذي تسميه أهل حضرموت الصيف ومن هذه الأربعة الأمزجة مدد جسم الإنسان وبها قوامه ومنها صلاحه وفساده بقدرة الله تعالى كما أن قوام العالم بالأربعة الفصول التي هي الصيف والخريف والشتاء والربيع أما فصل الصيف فهو حار يابس كالصفراء كذلك ولهذا تهيج فيه غالبا وأما فصل الخريف فهو بارد يابس

كالسوداء

كالسوداء ولهذا يهيج فيه غالبا، وأما فصل الشتاء فهو بارد رطب كالبلغم ولهذا يهيج فيه
البلغم، وأما فصل الربيع فهو حار رطب كالدم ولهذا يهيج فيه غالبا، ولهذا ينبغي
أن يستعمل في كل فصل ما يضاد طبعه من الغذاء كما سيأتي إن شاء الله تعالى

ثم ذا في بحره والبر ، ما شاء من نفع لنا أو ضر
منه غذاء وشفاء نافع ، بإذنه ومنه سم ناقع
فمن هنا يلزمنا التقدير ، في ذا وعن ذا يلزم التحذير

اعلم أن الله سبحانه خلق الدنيا وما فيها لعباده لينتفعوا بما فيها وجعل ما فيها أنواعا
من حيوان ونبات وجماد، وأودع في كل شيء من ذلك أسرارا لا يحيط بها إلا علمه سبحانه
وهدى عباده إلى ما لا بد لهم منه في المعاش من النفع والضر ليتناولوا ما ينفعهم ويجتنبوا
ما يضرهم، قال تعالى ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وقال تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا
إنه لا يحب المسرفين، فيلزم الإنسان أن يتناول الغذاء والدواء بقدر ولا يسرف فيه
فيهلك، وأن يحذر مما يضره من الداء ليسلم، ولكن معرفة هذا متوقفة على معرفة ما لا بد
منه من علم أصول الطب ولهذا قلت

وحاجة الناس لعلم الطب ، لا يمتري في أمرها ذو لب
لكنه قد عز من يباشر ، أحكامه إذ الطبيب ماهر
فلا غنى عن علم ما لا بد ، من أصله إذ الفروع جد
وهو حفظ الصحة الموجودة ، فينا وجلب الصحة المفقودة
والعلم بالغذا أو الدواء ، أصل عليه أس ذا البناء
فخذ إذا ثلاثة أبوابا ، في هذه تقصد بها الصوابا

وقد وردت نصوص السنة وشهادة علماء الأمة بشرف علم الطب وشدة حاجة الناس إليه
فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال صنفان لا غنى للناس عنهما العلماء لأديانهم والأطباء
لأبدانهم، وصح أنه صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر بالتداوي ولم تزل الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم على
ذلك، وقد كان للإمام [illegible] رضي الله عنه اليد الطولى فيه، وحاجة الناس إليه داعية وتعلقهم به
شديد، فهو من فروض الكفايات المهمات باتفاق العلماء، ثم علم الطب قسمان أحدهما
حفظ الصحة الموجودة بالتدبير والثاني جلب الصحة المفقودة بالعلاج والأول أهم

لأن الاحتما في حال الصحة خير من شرب الدواء في المرض والعاقل طبيب نفسه يدبر الاشيا
قبل وقوعها ليفوز بسلامة العاقبة ومعرفة الاول متوقفة على معرفة اسرار الاغذية
ليعلم ما يوافق المزاج وكذلك معرفة الثاني متوقفة على معرفة الامراض واسبابها وعلاماتها
ومعرفة خواص الاغذية والادوية ليعالج الداء بضاده ويحمي المريض عما يزيد في علته
فلهذا اجعلت هذه المنظومة في ثلاثة ابواب باب في تدبير الصحة وباب في
الحلل الحادثة بزيادة الطبايع واسبابها وعلاماتها وعلاجها وباب في طبايع بعض
الاغذية والادوية

الباب الاول في تدبير الصحة

- فدبر الجسم بالاقتصاد ، في الوطي والتحريك والرقاد
- والاكل والشرب وفي الهواء ، ونحوها تغن عن الدواء

أي الاصل في حفظ الصحة الموجودة هو تدبير الاشياء الضرورية التي لا بد للجسم منها فانها
فيستعمل القدر الصالح منها على الاقتصاد بتجنب الافراط والتفريط فقد ذكرت منها عشرة
اشياء لانها المهمة من ذلك وهي تدبير الوطي والحركة والسكون بالرقاد وغيره والاكل والشرب
والهوا وساير الاعطا والعوارض النفسية وتدبير البول والغايط وحفظ صحة المعدة
واشرت الى ما سوى ذلك بقولي ونحوها

- فالوطي غير صالح الا اذا ، تهيج شهوة فاخرج الاذى
- وغير ذا مولد للدا ، لاسيما ذا اليبس كالسوداء
- ولتكن الانثى كالارض والذكر ، سماها وما سوى هذا افدر
- واستعمل السنة فيه بادبا ، وحاذا تكن حكيما هاديا
- تقدم الانس وشم والنجه ، وعنه ما يلك فادع حينئذ
- وينبغي المكث اذا قليلا ، ثم الى الايمن ان تميلا

أي اما تدبير الوطي فاعلم ان الجماع لا يصلح الا عند هيجان الشهوة مع استعداد المني
كالاكل لا ينبغي الا عند شهوة الطعام وحينئذ فينبغي ان تخرج المني في الحال كما تخرج الفضلة
الطعام بالبول والغايط عند مدافعة الحدث لان في حبس المني حينئذ ضررا عظيما كما يضر
حبس البول والغايط وليس للجماع في الحقيقة وقت الا هذا [illegible] في شهر او اسبوع او مرة
ونحو ذلك فجماعه بغير شهوة اضر بالجسم ضررا عظيما لاسيما صاحب المزاج اليابس كالسوداء والصفراء لان
المني من خالص الغذا الذي هو مادة الروح فان الانسان اذا اعتاد الجماع خصوصا اذا اجمع

ر

في يوم دون ليلته بين مرتين او ثلاثا استفرغ المني أولا ثم ضار باخذ مع الغذاء ومن الرطوبة الأصلية فيكون سبب الأمراض المخطرة المؤدية الى الهلاك التي لا يرجى برؤها والحاصل وعلى الجملة فالمكثر من الجماع لا يخفى هرمه سريعا وضعف قوته وظهور الشيب فيه قبل وقته ثم وافضل كيفيات الجماع ان تكون المرأة ارضا ويكون لها سماء والخير فيما عدا ذلك من الهيئات ومن الحكمة النعمانية السنية بالافعال الحكيم الحكماء وإمام العلماء محمد صلى الله عليه وسلم فمن السنة ان يستحب للرجل ان لا يهجم على الوطء الا بعد الانس بملاعبة امرأته ومحاسنته لها باللطف وان يقول عند الانزال اللهم اجعلها نطفة مباركة ميمونة غير مشاركة وصورتها الحسن صورة قال الحكماء ويكث بعد الانزال قبل النزع ساعة قليلة ثم يميل عن جانبه الأيمن واحمد الجماع ما يعقبه نشاط وطيب نفس وبقية شهوة للجماع والله أعلم

وحرك الجسم ارتياحا قدر ما ، يرى به قدر الغذا منهضما
وقت خلو معدة وليجتنب ، مع امتلاء والمؤدي للتعب

أي واما تدبير الحركة فاعلم ان الانسان لابد ان يبقى على معدته من كل طعام فضلة ردية فاذا لم يتحرك في وقت من الاوقات بقدر ما يهضمها لجتمع من ذلك ضرر عظيم فينبغي ان يتحرك كل يوم حركة معتدلة والأصلح ان تكون في وقت خلو المعدة من الطعام وتسمى الرياضة وذلك في كل شخص بحسب حال البدن اما بركوب دابة او مشي او علاج بعض الأشغال او صلاة او تلاوة او نحو ذلك ولا يفرط في ذلك فللرياضة قدر معلوم وهو قدر ما يحمر البشرة ويبدو اول العرق والخير في الحركة العنيفة خصوصا مع الشبع والمؤدية الى التعب

والنوم فيه راحة وهضم ، لكن مع الافراط فيه هرم
فلا يجاوز فوق ثلثي ليله ، وفي النهار ساعة القيلولة
كذا السكون لا تطيلن حالا ، منه الى ان يورث الملالا
ونم على الايمن ثم الايسر ، مستقبلا وللوفاة فاذكر
لكي تنام تائبا مما لا زما ، للخير واذكر فاتحا وخاتما

أي واما تدبير النوم فاعلم ان النوم عند الحكماء هو رجوع الحواس عن الحركة وسكون النفس الحساسة وانقباضها مع الحرارة الغريزية الى داخل الجوف ببخارات محدثة له تصعد من الجوف الى الدماغ فهذا سبب النوم الطبيعي باذن الله تعالى وفيه فائدتان استراحة الجسم والنفس مما يلاقيه الجسم من تعب الحركات في اليقظة وتلاقيه النفس من الهموم والانكار

والثانية في النفسية [redacted]
العوارض [redacted] لدخول وقت النوم الى داخل الجوف فيقوم الانسان
لاعانة على هضم الطعام لان الحرارة الغريزية تدخل وقت النوم الى داخل الجوف فيقوم الانسان
من النوم وقد استمرأ ولكن الافراط فيه ومجاوزة القدر الصالح هدم للجسم لان النوم اخو الموت
فالافراط فيه تتعطل مصالح الدين والدنيا واكثر ما ينبغي من النوم قدر ثمان ساعات في الليل
وساعة القيلولة في النهار ولو لحظة وكذلك السكون وان كان فيه راحة البدن فلا ينبغي
للانسان ان يستديم منه حالة من قيام او قعود او اضطجاع الى ان يحصل الملل والسآمة فان
ذلك مضر بالروح مضرة عظيمة بل يستعمل ما يجد النشاط فمتى بدا الملل انتقل الى حالة
اخرى ويستحب ان ينام على جنبه الايمن قالت الحكماء ثم يتحول الى الايسر ويكون مستقبلا
فيهما وليعلم ان النوم نوع من الوفاة فيجب على العاقل ان يفتش عن قلبه عند نومه فان راى فيه خيرا
شكر الله والا تاب واستغفر لئلا يختم له بسوء وليعلم انه يموت على ما هو الغالب عليه ويبعث
على ما يموت عليه فلا ينام الا طاهر الظاهر والباطن اما الظاهر فبالوضوء [redacted] في الحديث النبوي
ان من بات على طهارة ذاكر الله تعالى كتب مصليا حتى يستيقظ واما طهارة الباطن فهي اولا بالمراعات
وهي ان ينام تائبا من كل ذنب سليم القلب من كل غش لاحد من المسلمين فعن النبي صلى الله عليه وسلم
ان من بات وفي قلبه غش لاحد من المسلمين لم يرح رائحة الجنة وينبغي ان يعد عند راسه
سواكه وطهوره وينوي قيام الليل ولو لحظة قبل الفجر وان لا ينام الا ووصيته مكتوبة ان كان
ممن يحتاج الى ايصاء خوفا من موت الفجاءة وليجتهد ان يكون آخر ما يجري على قلبه ذكر الله تعالى
واول ما يفتتح به عند انتباهه ذكر الله تعالى فهو علامة السعادة والموت على الشهادة وحسن
الخاتمة ان شاء الله تعالى والسنة ان يقول اذا اوى الى فراشه قبل ان يضع جنبه باسمك
اللهم احيا واموت ويكبر الله ثلاثا وثلاثين ويحمده ثلاثا وثلاثين ويسبحه ثلاثا وثلاثين ويقول
تمام المائة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ويقول الحمد لله
الذي اطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي ويقرا قل هو الله احد
والمعوذتين وينفث في كفيه ويمسح بهما راسه ووجهه وما استطاع من جسده يفعل ذلك ثلاث
مرات ثم يضع جنبه ويقول باسمك اللهم [redacted] ربي وضعت جنبي وباسمك
ارفعه فاغفر لي ذنبي ان امسكت نفسي فارحمها وان ارسلتها [redacted] فاحفظها بما تحفظ به عبادك
الصالحين ويضطجع على شقه الايمن ويضع يده تحت خده الايمن ويقول اللهم قني عذابك
يوم تبعث عبادك اللهم اسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك وفوضت امري اليك والجات

ظهري

ظهري اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك آمنت بكتابك الذي انزلت وبنبيك الذي ارسلت
ويقول استغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم واتوب اليه ثلاث مرات وليحرص أن يكون ملازما
لذكر الله حتى يغلبه النوم فاذا استيقظ فليحرص ان يكون اول ما يجري على لسانه ذكر الله تعالى والسنة
أن يقول حينئذ لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله
ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم سبحانك اللهم وبحمدك اللهم استغفرك
لذنبي واسألك رحمتك اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد اذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة انك انت
الوهاب الحمد لله الذي احيانا بعد ما اماتنا واليه النشور اصبحنا واصبح الملك لله والحمد لله
والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين اصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص
وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة ابينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين رضينا بالله
ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين
ويقرأ ان في خلق السموات والارض الى آخر سورة آل عمران

- وكل من المطاعم المعتدلا … والبطن لا تملأ طعاما اثقلا
- واكلة واحدة أولا ولا … بأس بما اعتيد دون الامتلا
- وجود المضغ وبالملح ابتدى … واختم وما لا تشتهي هو الردى
- فاحذر ولا تدخل على طعام … طعاما الا بعد الانهضام
- والجمع بين مفرطين كاللبن … والسمك احذر فهو داء للبدن
- وما يليك باليمين فكل … وسم واجمع وادع واشكر واغسل

أي واما تدبير الاكل فالاصلح من الغذاء هو المعتدل من المطاعم اثباتا ولا حنيفة لكن اهل الكد
لا تضرهم المطاعم الثقيلة وتضر بالمترفهين وليحذر من امتلاء البطن بل يأكل دون الشبع لقوله
صلى الله عليه وسلم ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن وقوله صلى الله عليه وسلم البطنة اصل الداء
والحمية رأس الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد والعدد الصالح من الاكل اكلة واحدة في
اليوم والليلة والاولى ان تكون وقت افطار الصائم ولا بأس ايضا بما اعتاده الناس من الغداء
والعشاء مع ترك الشبع فيهما وليجود المضغ ليسهل على المعدة هضمه ويبدأ بالملح ويختم به
وليحذر من اكل طعام تعافه نفسه فقد قالت الحكماء لا تأكل طعاما وانت تشتهيه
فمتى اكلت ما لا تشتهيه الهلكة وليحذر أيضا من اكل الاشياء الردية كأكل الطعام التي

والقلب الغليظ على الاضراس فانه يكون على المعدة أغلظ وليحذر من ادخال طعام على طعام قبل هضمه فهو مما يسرع بالأسقام وانتقاض الأجسام ومن الجمع بين طعامين حارين جدا كالبيض واللحم أو باردين كالسمك واللبن أو رطبين كاللبن والفواكه أو يابسين كالسمك المالح والدخن ونحو ذلك ومن السنة في الاكل سبعة آداب أحدها أن يأكل عما يليه ثانيها أن يأكل بيمينه ثالثها أن يسمي الله تعالى أوله والاكمل ان يقول بسم الله الرحمن الرحيم وينبغي ان يسمي كل واحد من الآكلين فان سمى واحد منهم اجزأ عن الباقين الحاضرين دون من جاء بعد التسمية فان نسي التسمية في أوله سمى في اثنائه ويقول بسم الله أوله وآخره ويجهر بالتسمية ليسمعه غيره رابعها ان يجمع أهله على الطعام لاسيما اذا كانوا ايتاما كانوا لا يشبعون فليجتمعوا على الطعام ويذكروا اسم الله تعالى عليه يبارك لهم فيه خامسها الدعاء فيدعو في أوله فيقول اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار بسم الله ويأكل ويدعو آخره فيقول اللهم أطعمت وسقيت واغنيت واقنيت وهديت واحييت فلك الحمد على ما أعطيت وان كان ضيفا قال لأهل الطعام اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم افطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة اللهم أطعم من أطعمنا واسق من أسقانا سادسها الشكر فيقول اذا فرغ من الطعام الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفي ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين والحمد لله الذي اطعمنا هذا الطعام وبعده نفي الحديث انه أمان من الفقر

والبارد العذب مع الصفا من ○ بير غزيرة ونهر من أمن
حيلولة الشمس بدون الري ○ فاشرب فليس الخير بالمبرك
والنفس اجعل خارج الاناء في ○ ثلاثة وبسم واحمد تقتفي

أي وأما تدبير الشرب فافضل المياه الماء البارد والعذب الصافي الماخوذ من بير غزيرة الماء ونهر شرقي لا يحول بينه وبين طلوع الشمس حايل من جبل ونحوه وان لا يشرب الا دون الري وما سوى ذلك وهو الماء الحار او الماء المالح او الماء الركد او الشرب من بير قليلة الماء او نهر غير شرقي او الشرب مع الري المفرط فهو مضر لا ينبغي أن يستعمل الا لضرورة والسنة أن يتنفس ثلاث انفاس من خارج الاناء ويبدأ بسم الله ويختم بحمد الله تعالى

والروح لابد من الهواء ○ لها انتشاقا فهو كالغذاء

ولين

ولين الريح الصبا الشرقية ⊙ فيها لها منفعة قوية ⊙
والعاصفات والدخان المنعكر ⊙ ومنتن الريح على الروح مضر ⊙

أي واما تدبير الهوآء فاعلم ان الروح لابد لها من ملاقاة الاهوية اذ لا قيام لها الا بانتشاقها الهوآء الذي قدر الله به حياتها وجعله لها كالغذآء كالطعام والشراب غذآء الاجسام والاصلح من الهوآء ما كان لينا مشرقيا وهو الصبا خصوصا مع الروايح الطيبة ففيه راحة عظيمة ومنفعة قوية للروح واما الدبور وهي الغربية والجنوب وهي اليمانية والشمال وهي الشامية فلا باس بما كان معتدلا منها والخير في الريح العظيمة والعواصف والدخان المنعكر والروايح المنتنة وما خرج عن حد الاعتدال حرا او بردا فذلك كله مضر بالروح وينبغي التوقي عنه بالكلية وشم الروايح الطيبة جيدا في تدبير الجسم على الجملة ⊙

وسائر الاعضا بالتعهد ⊙ بالدهن والغسل ونحو الاثمد ⊙
كالنتف والقص وقلم الظفر ⊙ والحلق والسواك ومشط الشعر ⊙
مراعيا آدابها السنية ⊙ قاصد اتباعها في النية ⊙

اي ودبر سائر الاعضاء بتعهدها بالاداب التي ندب الشرع اليها كتعهد الراس بالدهن والبدن كله بالغسل والعين بالكحل الاثمد ونتف الابط وقص الشارب وقلم الظفر وحلق العانة وسواك الاسنان ومشط شعر اللحية والراس وذلك سنن مؤكدة ولها اداب مبينة في مواضعها فينبغي ان تقصد بذلك اتباع السنة لا مجرد التزين بتهوع النفس

وعارض النفس كهم وغضب ⊙ وجزع فادفعه كي تكفى العطب ⊙

اي واما العوارض النفسانية كالهم والغم والغضب والجزع ونحوها فهي امور عظيمة الضرر على الروح وضررها بالدين ايضا اعظم اذا كانت في غير رضى الله تعالى ومع ذلك فلا فائدة فيها اذ لا ترد ماضيا ولا تجلب مستقبلا ولها شرح طويل مستوفا لاسيما في كتب الامام حجة الاسلام الغزالي قدس الله روحه فلينظر لها فيها ليعرف افاتها ويستفاد اضدادها المحمودة من الحلم والصبر وغيرها ⊙

والبول والغائط مهما حضرا ⊙ فالحذر الامساك بعد الحذرا ⊙

اي واما تدبير البول والغائط فالمبادرة الى طرحهما مهما حضر والحذر من امساكهما ومدافعتهما بعد الحضور فضرره عظيم

والقي في شهر فكن محتمدا ⊙ كذا السفوف نوة للمعدا ⊙
أي تجيلا فلفلا قرنفلا ⊙ ومصطكى وكالجميع عسلا ⊙

وخذ على الريق وبعد الطعم ، كذا هم تحتش صحاح الجسم

أي وأما تدبير المعدة فذلك نتعهدها بما يحفظ صحتها ويزيد في قوتها ويعينها على الهضم بأن تنقيها في الشهر مرة بماء سخن قد طبخ فيه قليل ملح او خل ويستعمل هذا السفوف وهو مصطكي وقرنفل وزنجبيل وفلفل اجزاء سواء ومثل الجميع عسل او سكر احمر ويجعل منه سفوف او حبوب صغار ويؤخذ منه على الريق كل يوم قبله وبعد الطعام كذلك

الباب الثاني في خواص الاغذيه والادويه

وعدل المزاج بالأقوات ، مما يرد في سائر الاوقات

وحاذر الافراط فالمزاج ، لما شاكله هياج

من وقت او قوت فكن بالضد ، معدلا تنح سبيل الرشد

أي ومما ينبغي الاعتناء به أيضا في تدبير الصحة تعديل المزاج بالأقوات والاوقات لأنه المزاج يهيج باخذ هذين اعني القوت الموافق لطبعه او الوقت الموافق له أيضا وانما يصلح ان يعتمد في كل فصل ولكل مزاج عكس طبعه فان الغذا اذا كان معتدلا موافقا للمزاج وكذا الفصل كان منه صحة الجسم بقدرة الله تعالى كما سياتي التنبيه عليه في اول الباب الثالث ان شاء الله تعالى وقد ذكرت في النظم ما يكثر استعماله في جهتي من قوت والشجر واستطردت بذكر بعض خواص الادويه لتكمل الفائدة وافردت كل نوع من الاغذية والادوية بفصل فصارت اربعة فصول

فصل في الحارة الرطبة

فيصلح السودا سخن رطب ، بر وما اللوبيا لا الحث

والزبد والسمن كذا الالبان ، في الحال وهي بز او ضان

ولحم ضان والفراريج كذا ، ما اصفر من بيض ومو اخذا

في التصيف والزبيب ثم العنب ، والقند والحلوى ثم الرطب

والعسل المنزوع منه الرغوه ، واللوز والكراث ثم الحلبه

أي لما كان كل طبيعة يعتمد في مقاومتها ما يضادها من الأغذية فكانت طبيعة السودا باردة يابسة فمن ذلك البر ويسمى الحنطة والقمح ايضا وهو حار رطب معتدل الطبيعة وخبزها جيد الغذا معتدل وفطيرها ثقيل لا يكاد ينضج ودقيقها مع الحلبه يحلل الأورام الصلبه اذا طلي عليها وسويقها مع السكر يلين الصدر ويزيد في جوهر الدماغ ومن ذلك اللوبيا اي مرقته واللوبيا

هو

هو الدجر الابيض، ومن نيها حار رطب اذا شرب مع السمن والسكر او السمن وحده لين البيوسات التى
فى الصدر والجوف والاعضا وفى ساير الجسد، واما جت اللوبا فبارد يابس كما سياتى

ومن ذلك الزبد من البقر والغنم وهو حار رطب ملين اذا جمع مع السكر وحلب عليه من البقر وشرب
من تحت الضرع زاد فى جوهر الدماغ والبصر ولين الطبيعة واذهب الجرب والزبد اذا دلكت به لثات
الاطفال اعان على سرعة نبات الاسنان، ومن ذلك السمن من البقر والغنم ايضا وهو حار رطب
قالت الحكما هو اصح ما دخل الجوف وابلغ من جميع الادوية وقال علي كرم الله وجهه لن تداوى العرب بشى
كالسمن ومن ادمن اكله نزع منه وجع الظهر وصداع الراس وهو ادسم من جميع الاشيا الدسمة وانفع
شى فى العلل السوداوية واذا دخل فى المراهم اذهب اللحم الفاسد وانبت اللحم الصالح وما اتى من منه
وطال مكثه زاد طبعه حرارة وهو احر من الزبد والزبد ارطب منه فاذا نقص السمن من اليبسه وصار
انفع من الزبد، وصفة التنقيص ان يضاف اليه مثله ما ويجعل على النار حتى يذهب جميع الما
فيه ويستعمل، ومن ذلك الالبان من الانعام وهى الابل والبقر والغنم كلها حارة رطبة الا لبن البقر
والضان فقط بشرط ان يشرب فى الحال فاذا نقص صار باردة رطبة كما سياتى، واما لبن الابل فحار
يابس ولبن المخيض بارد رطب كما سياتى، وحليب البقر اذا شرب من تحت الضرع مع السكر اخصب البدن
وصفا اللون وزاد فى الباه ولين الطبيعة وقوى الاعضاء الضعيفة، واذا شرب اللبن ينبغى
ان لا يتحرك عقيبه حركة عنيفة بل يسكن عليه لئلا يفسد فى بطنه بالمخض ولا ينبغى ايضا النيام
عقب شرب اللبن بل يتجلد يقظان، ولا الباه كلها تزيد فى الدماغ وتنفع من الوسواس والنسيان،
ولبن الرواع اجود من المعلوفة واجوداه فان لبن البهيمة اذا مضى لها بعد الولادة اربعون يوما
واللبن بجميع ضرر الجماع لكنه مضر بالمحمومين واصحاب الصداع وهو لاصحاب اليبس كالسوداوى والصفراوى
اوفق من غيرهما بشرط ان لا يكون فى المعدة صفرا وذلك عند هيجانها فانه اذا صادف فى المعدة شيئا
استحال الوقته صفرا فيضر حينيذ، وعلامة هيج الصفرا فى المعدة ما يخرج فى البول والغائط من الصفرة
الفاقعة او الحمرة، واما اذا كان الطبع صفراويا والمعدة سالمة من الصفرا فاللبن موافق لمزاجه
ولبن الضان حار رطب ملين الطبيعة حينيذ، ومن ذلك لحم الضان وهو حار رطب واجوده لحم
الكبش الحولى والذكر افضل من الانثى والجنب الايمن اجود من الايسر وكذا ما مال الى الظهر اجود مما
مال الى البطن والخصى افضل وادسم من الفحل واذا شرب مرقه مع السمن ثم اكل لحمه لين العروق
والمفاصل والاعضا وزاد فى القوة وانبت اللحم الجيد وكثرة اكل لحم الضان يزيد فى القوة والبصر

ويورث الحفظ ومن ذلك الفراريج وهي حارة رطبة خفيفة معتدلة وكذلك سائر الطيور
المأكولة الا ان الفراريج اجودها ومن ذلك صفرة البيض اي بيض الدجاج وهي
حارة رطبة اذا طبخ بالسمن والسكر زاد في المني وفي جوهر الدماغ والبصر واما الزلال
فبارد رطب ردي ومن ذلك الموز اذا اخذ في الصيف فهو حار رطب يلين الصدر والطبيعة
ويولد غذا جيدا لكن الاكثار منه يزيد في الصفراء ان كان المزاج صفراويا وفي البلغم ان كان
بلغميا ويهيج الرياح واما في الشتاء فهو بارد رطب كما سياتي ومن ذلك الزبيب وهو حار
رطب دسم خفيف يلين الطبيعة ويشد العصب ويذهب العثرة ويطيب النكهة ويقوي المعدة
واما نواه فبارد يابس قابض ومن ذلك التين وهو حار رطب دسم خفيف يلين الطبيعة ويقوي
الاعضاء ويشد البدن ويقوي الباءة وينبت اللحم ويولد غذا جيدا ويقوي المعدة واجوده ما كان
يانعا حلوا اكثر الشحم ومنها القند وهو السكر الاحمر وهو حار رطب يفتح السدد ويلين الطبيعة
ويدر البول ومنها الحلوى بجميع انواعها وهي حارة رطبة خفيفة واجودها الفالوذج وهي التي تسمى
الحلوى المضروب وهي تزيد في العقل وفي جوهر الدماغ والبصر وفي الباءة وتلين الطبيعة وتقوي
المفاصل والاعضاء والمتخذة من العسل تصلح للكهول والشيوخ والمتخذة من السكر تصلح للشباب
ولا يصلح شي من الحلوى للصبيان الا قدر ما يسابك في الاسبوع مرة والفانيذ اجود لهم وهو السكر
الخالص المغسول على النار وهو ينقي قصبة الرية ويصلح الصوت ويلين الصدر وينفع من السعال
اليابس واذا قشر قصب السكر وغسل بما حار واعتصر ماؤه وشرب فعل مثل الفانيذ وابلغ
ولا ينبغي ان يوكل الحلوى الا بعد الطعام او معه فانها اذا اكلت مع الجوع وجدها جوفا نهما الى
الهضم فسرع عن قبل النضاج لشدة شهوة الكبد اليها فيتولد منها سدد في مجاري الغذا فيحدث منه
تزيد السدد المنعقدة في الجوف ومنها الرطب وهو حار رطب خفيف يقوي الاعضاء ويشد البدن
ويقوي الباءة ويستحب ان يطعم النفسا لقصة مريم عليها السلام وهو دوي انه من كان طعامها في
نفاسها التمر خرج ولدها حليما ومنها العسل المنزوع منه الرغوة فانه حار رطب وهو يتبع
للادوية لنص القرآن فيه شفا للناس يقطع البلغم ويذهب الرطوبات الرديئة عن الجسد وينقي
الجروح الفاسدة ويقطع العلل واذا اجمع مع الملح وحك بها تحت اللسان الصبي تكلم سريعا
وازداد فصاحة ومنها اللوز وهو حار رطب دسم واذا اكل بالسكر زاد في جوهر الدماغ وقوى البصر
والباءة وزاد في المني ومنها الكراث وهو حار رطب وقيل يابس اذا اكل ثلاثة ايام قطع البواسير

ولا

ولا ينبغي الاكثار منه لانه يغير النكهة والاسنان ويظلم البصر ومنها الحلبة وهي حارة رطبة اذا طبخت بالسمن وشربت لينت العروق والمفاصل اليابسة واطلقت حصر البول وفتت الحصا وتولد عنها غذا جيدا وصفة ذلك ان تغلي اولا وجدها بالماء على النار خمس مرات كل مرة نصفا من الماء الاول ويضاف اليها ماء جديد ثم تسحق بعد ذلك سحقا ناعما وتضرب بالسمن ضربا جيدا ثم تطبخ على نار لينة ويطرح فيها شيء من حب الرشاد والسكر وتحرك قليلا ثم تترك قليلا ثم تنزل وتستعمل وهذا اخر ما تيسر ذكره في الحارة الرطبة

فصل في الاطعمة اليابسة

ويصلح البلغم وقت الفقر ... ما كان سخنا يابسا كالتمر

والدخن والرز ودر الابل ... وسمسم واقط والبصل

والثوم والسليط والجراد ... والحبة السودا والرشاد

والزنجبيل والسنا والفلفل ... والمر والحليتيت والقرنفل

والسمك المملح وباذنجان ... والمصطكى والملح واللبان

اي ولما كان خلط البلغم باردا رطبا كان الاصلح لصاحبه لا سيما في وقت الفقر اي في فصل الشتاء كل حار يابس فمن ذلك التمر وهو حار يابس حنيف يقطع الرطوبات البلغمية ويقوي المعدة ويقتل الدود المتولد من العفونة في البطن وهو انواع كثيرة متفاوتة في الجودة ومنها الدخن والمراد به الاصغر الذي تسميه اهل حضرموت المسيبلي فهو حار يابس وهو ثقيل على المعدة بطيء الهضم يهيج العلل السوداوية والصفراوية ولا يصلح اكله الا لاهل الكد واذا اكل حبه مقلوا قبض اطلاق البطن وكذلك خابزه ومنها الرز بلغة اهل حضرموت وهو الارز وهو حار يابس معتدل مليّن حنيف لطيف يولد غذاء جيدا لا سيما اذا طبخ باللبن الحليب او بلحم الفراريج او غيرها من اللحم السمين او اكل بالعسل او السكر واذا طبخ باللبن الحامض المنزوع قبض اطلاق البطن واذا طحن وعصد باللبن والسكر واعتيد عليه ثلاثة ايام نفع من الشقيقة ومنها در الابل اي لبنها فهو حار يابس واذا شرب من تحت الضرع مع بولها قطع الدود المتولد في البطن ومنها السمسم ويسمى عند اهل حضرموت الجلجلان فهو حار يابس دسم واكل المقشور منه يسمن خصوصا اصحاب السوداء وقد جرب اكله بالعسل فنفع في ذلك لكن الاكثار منه يغثي النفس ويرخي المعدة ويقل شهوة الطعام ودفع ضرره ان يوكل بالسكر ومنها الاقط ويسمى الماش والمج بنون وجيم وتسميه اهل حضرموت الدجر الاسود فهو حار يابس حنيف واذا طبخ باللبن والسكر والسمن صار حارا رطبا يلين الصدر والعروق والمفاصل والاعضاء وينفع من السعال اليابس

المخدّر

لكن الاكثار منه يولد السودا الحمى ويضعف الاسنان ويولد الرياح وهو بطي الانحدار على
ومنها البصل فهو حار يابس وقيل حار رطب يقطع البلغم ويدفع ضرر المياه الموبية ويفتق
الشهوة ويهيج الباءة ويزيد في المني ويحسن اللون والاكتحال بمائه ينفع من الغشا لكن الاكثار منه
يصدع الرأس ويورث النسيان ويفسد العقل ويظلم البصر ويولد رياحا ومنها الثوم فهو
حار يابس حريف اي يحرق الفم وهو شفاء من السموم نافع من تغير المياه في الأسفار واذا اكل
نيا او مطبوخا صفا الحلق وسكن السعال المزمن واذا اكل مع العسل على الريق قطع البلغم والرطوبات
الفاسدة وقوى المعدة ولم يضر صاحبه السم في ذلك اليوم لكن الاكثار منه يثير الصداع والحكة
ويكثر الحمى الورد خصوصا في الصيف ومنها السليط فهو حار معتدل خفيف اذا دهن به الشعر
حسنه واذا دهن به البدن لينه وطرد الريح اليابسة عنه ومنها الجراد فهو حار يابس قليل
الغذاء والاكثار منه يهزل البدن ومنها الحبة السودا فهي حارة يابسة وقيل رطبة خفيفة
إذا لعقت بالعسل الممزوج الزعفران على الريق قطعت البلغم والرطوبات الفاسدة واذهبت
الريح المنعقدة في الجوف وسكنت وجع الظهر والمفاصل ولينت اليبوسة المزمنة وطردت الدا
عن الجسد ومنعته ان يتولد فيه ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يلعق الحبة السودا بالعسل
على الريق وانه صلى الله عليه وسلم قال عليكم بالحبة السوداء فان فيها شفاء من كل داء الا السام
وهو الموت ومنها حب الرشاد ويسمى الحلف والحبة الحمرا فهو حار يابس وقيل رطب خفيف
يطرد الريح ويقطع البلغم ويقوي المعدة ويفتق شهوة الطعام واذا سحق ولعق مع العسل
لين الطبيعة واسهلها واخرج الدود من البطن والقدر المستعمل قدر ثلاث نقال لكن الاكثار
منه يهيج الصداع ويسقط الجنين وهو حمل المراة ومنها الزنجبيل وهو حار يابس حريف
يحلل الرياح المنعقدة في الجوف ويلين الصدر والمربا منه بالعسل يقطع البلغم وينفع
من السعال ويلين الصدر وينقي قصبة الرية ويحسن الصوت ويزيد في الباءة والمني
ويقوي المعدة ويهضم الطعام ومنها السنا محمود فهو حار يابس معتدل ملين يسهل
الصفراء والبلغم اسهالا محكما والشربة منه خمس مثاقيل او ثلاث للضعيف بعد ان يدق
ناعما ويلعق مع العسل على الريق ويقابل الشمس بظهره حتى يجي ساعة ثم يدخل الظل ويحذر
النوم بعد شرب الدوا فانه يضعفه ويضعف قوته وربما تولد له رياح رديئة ولا ينبغي
لمن يشرب الدوا ان يتحرك من ساعته الا اذا ابطا عليه عمل الدواء فلا باس بان يمشي خطوات
معتدله واذا عمل فيه الدوا فلا ياكل شيئا ما دام يجد طعم الدوا في الجشا وعلامة فراغ

المحدر

المعدة من الدواء وبعد الإسهال شدة العطش فإذا اشتد عطشه فليشرب شيئاً من المرق الحار
ويمكث ساعة ثم يغتسل بماء فاتر ويسكن أيضاً ساعة ثم يأكل ما شاء من الأغذية الخفيفة
كخبز الحنطة ولحم الفراريج والأرز وإذا شربت المرضع الدواء فلا ترضع ولدها اللبن حتى
يزول أثره من المعدة فحينئذ ينبغي أن تحلب ما في ثديها إلى الأرض ثم تغسل ثديها بماء حار مرات
ثم ترضعه بعد ذلك واعلم أن المسهلات لا تكاد تلبث في المعدة مع حرارة المزاج وإنما يبطئ عملها
مع صاحب المزاج البارد في البلد البارد في الوقت البارد فإنه إذا أبطأ إسهاله إلى وقت الضحى فليشرب
ماء مسخناً طبخ فيه ملح وليكن وقت شرب المسهل معتدلاً فقالت الحكماء شرب المسهل في شدة
الحر مخاطرة ويستحبون من الأسبوع الأربعاء والأحد والله أعلم ومنها الفلفل بضم الفاء الكرة
وبكسرها أيضاً فهو حار يابس يقطع البلغم ويطرد الريح ويذهب الرطوبات الفاسدة وينفع لسدد
التزحج وإذا أكثر منه في الطعام أذهب الصفار من الوجه والعينين وأذهب النفخة من البطن وهضم
الطعام ومنها المرحار يابس وإذا شرب منه قدر حبة الباقلا وهو الفول بالفاء نفع من السعال
المزمن ومن ضيق النفس ووجع الجنب والصدر وصفى الصوت وأبرى خشونة قصبة الرئة وطيب
النكهة وقتل الدود الذي في البطن وإذا وضع على الجراحات الحادثة في الرأس وجميع الجسد أبرأها
ونقى خبثها ومنها الحلتيت فهو حار يابس يفتح السدد ويطرد الرياح وينفع من حمى النافض وحمى
الثلث المتولدة من السوداء ومن السعال ومن ضيق النفس وإذا شرب مع فلفل وخل أنزل الحيضة
المحتبسة وإذا طلي به على لسعة العقرب وجده نفع بإذن الله تعالى ومنها القرنفل فهو
حار يابس حريف يطرد الرياح ويقطع البلغم ويقوي المعدة ويفتق الشهوة للطعام ويطيب النكهة
ويذهب غثيان النفس وينفع من القيء ويقتل الدود ويهضم الطعام ويشجع القلب وأجوده
الشبيه بالنوى ومنها السمك المالح فهو حار يابس ردي يولد البلغم المائي ويرخي العصب حتى
قالت الحكماء أضر شيء يدخل المعدة من الأطعمة السمك المالح ومنها الباذنجان فهو حار يابس
خلطه ردي يستحيل مرة سوداء ويفسد اللون ويكلف الوجه ويورث البهق والسدد والبواسير
فينبغي أن لا يؤكل إلا مع الدسم والخل الحامض الحريف ليدفع ضرره وينبغي أن ينقع قبل الطبخ بالماء والملح
ومنها المصطكى وهو العلك بلغة أهل حضرموت فهو حار يابس قابض يقوي المعدة الضعيفة
ويفتق شهوة الطعام ويقطع البلغم ويطيب النكهة وينقي الأمعاء من الرطوبات الفاسدة ويطرد
الرياح ويقوي الكبد وينفع من النمش والكلف في الوجه ويزيل الطحال ودورم الكبد ومنها الملح

فهو حار يابس ومنافعه كثيرة ولولا ان الله سبحانه مَنّ به على عباده لصلاح اجسامهم ونح
رطوبتها الفاسدة لفسدت وقلت صحتهم لانه يصلح الاطعمة ويصلح لاجساد الناس ويغسلها
من الادناس ويذيب الرطوبات الغليظة بل ويصلح كل شي خالطه حتى الذهب والفضة فانه يزيد
في صفاء جوهرها واذا دخل في السفوفات الحارة القابضة قوى المعدة ودبغها وقطع البلغم
ونشف الرطوبات الفاسدة وحلل الرياح المنعقدة واذا طبخ في الماء حتى ينحل وشرب على الريق
اسهل الصفراء والسوداء والبلغم والقدر المستعمل منه خمس مثاقيل وهو نصف وقيه في قدر
ثلاث اواق ماء وليحذر من الاكثار منه فان كثرته تضر بالامعاء ضررا عظيما ومنها اللبان
الذكر وهو الكندر فهو حار يابس يقطع البلغم وينفع من السعال ويشجع القلب ويزيد في
الفهم واجوده الحصى بالحاء المهملة والصاد المعجمة وتشديد الياء أي الابيض السالم من
القشور ومضغه يجذب الرطوبات من الراس والبلغم ويزيد في العقل ويصفي الذهن
ويذهب النسيان واذا سحق وجعل على الجراحات الرطبة ابراها وقطع نزف الدم من أي
عضو كان

فصل في الباردة اليابسة

وصالح للدم في الربيع . البارد اليابس كالمنزوع
من رائب وذرة وحمر . والخل والجبن أي من بقر
وابل ولحم صيده البر . ورائب النبق وحب المدحر
والكشد والليمون والاهليلج . على اختلاف نوعه كالاملج

أي ولما كان خلط الدم حارا رطبا كان الاصلح لصاحبه لاسيما في فصل الربيع كل بارد
يابس فمن ذلك اللبن الرائب المنزوع الزبد الخالص سوا كان من الابل او البقر او
الغنم فهو بارد يابس قابض اطلاق البطن فان جعل على لحوح الذرة وطلع على النار كان
ابلغ وكثرة شربه على الريق يسمن اهل المزاج الحار وهو صالح للنساء الكثر واذا ضعفت
قوة الباءة من شدة حرارة المزاج قواها لاسيما اذا اكل مع لحوح الذرة وخميرها ومنها
ومنها الذرة فهي باردة يابسة معتدلة خفيفة على المعدة سريعة الانهضام
جيدة الغذاء وفطيرها مع حليب البقر والسكر يقوي نحو دقيق حنطة أي واما
الاورام الصلبة وسببها مادة الخلط الصفراوي فعلاجها بما ذكرناه في الحنطة أنه
دقيقها مع الحلبة يحلل الاورام الصلبة ○

وحمرة العينين مع اليبس احجلا ، مرودش تمر الهندي فيه بالطلا ،
ايضا على الوجه مع الاجفان ، ليلا مرارا انشف بالادمان ،

اي واما حمرة العينين مع اليبس فيهما وفي الوجه والدماغ ايضا وسببها زيادة الخلط الصفراوي فعلاجها بترييق التمر الهندي في قليل ماء ويقطر منه في العينين ويطلى منه ايضا على الوجه والاجفان ويكون ذلك ليلا ويتركه الى الصبح ثم بعد ذلك ليالي متوالية مع الادمان على ذلك فينقطع الحمرة واليبس ويحصل الشفاء ان شاء الله تعالى .

اما نزول الماء وهو الاصفر ، في العين فالدمعة فيها كثر ،
فمره بالمسهل واجتناب ما ، يزيد في العلة من مطاعما ،

اي واما نزول الماء الاصفر الى العين وذلك اذا استحكمت الحمرة السابقة واليبس وعلامة نزوله كثرة دمعة العين من غير سبب وترى كانت بعوضة تتحرك بين عينيه فعلاجه ان يامره ان يشرب مسهل الصفراء والسوداء وقد ذكرنا ان كلا من شربة السناء والملح والهليلج مسهله لكل من الصفراء والسوداء والبلغم ويؤمر ايضا باجتناب المطاعم التي تزيد في علته وهي الحارة اليابسة الحريفة والمالحة والحامضة لما فيهما من اليبس ايضا

فصل في العلل السوداوية

واول السوداء فترة البدن ، وشدة الظما وقلة الوسن ،
واليبس فاستعمل شرابا عسلا ، منزوع رغوة لكي يعتدلا ،
والزبد بالسكر مع در البقر ، من تحت ضرع فاعتمد تكفى الضرر ،
من قبل داء الثعلب او قوب ، او كلف او بهق او جرب ،
او الثناء ليلا وحمى الربع ، او سكتة او خفقة او صرع ،
او الغشا او بابس السعال ، او الجذام فاستعذ وقال ،

اي دلول مبادي طبيعة السوداء اذا هاجت باكل الاغذية السوداوية كلحم البقر والباذنجان ونحوهما لاسيما في فصل الخريف مع كون المزاج سوداويا او خرجت الطبيعة بالبحار السوداوي غير المعتدل انه يحدث فترة البدن وشدة الظما وقلة النوم مع اليبس في الوجه والراس فحينئذ ينبغي المبادرة الى تعديل المزاج بشرب العسل المنزوع الرغوة وقد سبق ايضا ان الزبد مع السكر ولبن البقر من تحت الضرع شربه يقطع جميع العلل السوداوية لبعض الاعتدال فان تساهل ادى ذلك الى حدوث الامراض السوداوية كداء الثعلب والقوب والكلف والبهق والجرب ،

والتآليل وحمى الربع والسكتة والخفقة والصرع والغشا في العينين والسعال اليابس والجذام
والعياذ بالله تعالى منه ومن قولنا فاستنجد وقال فاستنجد بالله من شر الجذام وغيره من الأسقام
وقال أهلا بالا أي لا تخالطهم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فر من المجذوم
كما تفر من الأسد وكذلك ينبغي للإنسان اجتناب مخالطة أصحاب الأمراض المعدية كالجرب
والجدري والرمد والسل لقوله صلى الله عليه وسلم لا يورد ممرض على مصح أي لا يورد صاحب الإبل
المراض على صاحب الإبل الصحاح قال العلماء خشية الإعداء لأن الله سبحانه وتعالى أجرى
العادة بخلق الداء عند ملاقاة الجسم الذي به الداء كما أجرى الإحراق عند ملاقاة النار لمحله
وأجابوا عما في الصحيحين أيضا من حديث ابن عمر وأنس رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا عدوى
ولا طيرة بكسر الطاء وفتح الياء بأن المراد إبطال ما كانت العرب تعتقده من أن الأشياء مؤثرة في
ذلك بطبعها لا بفعل الله تعالى

فالشعر مهما يتناثر بالمحط ... حتى يصير جلده كالبط
فهو الذي سمي بداء الثعلب ... فمسهل السوداء له فليشرب
فدلكه بعد الحلق دلكا واجعل ... عليه ثوما محرقا وذا افعل
سبعا وجود في الغذا واحتم ... من يابس والأخذ عني فاحتم

أي وأما الثعلب فعلامته أن يتناثر شعر الرأس ويتمعط حتى يصير جلده كالبطة وسببه
خلط سوداوي فعلاجه أن يبدأ بشرب مسهل السوداء وقد سبق أن الملح والسناء والهليلج
الأسود وكل منها مسهل السوداء والصفراء والبلغم ثم يحلق الرأس ويدلكه بخرقة خشنة دلكا جيدا حتى
يحمر جلد الرأس ثم يطليه برماد الثوم المحرق فإن عجنه بماء البصل كان أبلغ ويتركه يوما وليلة
ثم يجيد إمرار الموسى على الرأس والدلك والطلاء المذكور حتى يفعل ذلك سبع ليال ويعتمد الأغذية
الجيدة وهي الحارة الرطبة ويحتمي عن أضدادها الأغذية اليابسة ويجتهد في الأخذ عني

والقوب الجراز أيضا فاطل ... عليه بعد الحك خرط الرجل

أي وأما القوب وهو بضم القاف وفتح الواو جمع قوبا بضم القاف وفتح الواو أيضا يمد ويقصر منصرف وغير
وهو أيضا الجراز بجيم مهملة وزاي مكررة وسببه زيادة خلط سوداوي فعلاجه بأن يطلي عليه
بعد حكه بشيء خشن كقطعة ملح أو درهم خرط رجل الإنسان وهو ما يخرج منها بسكين بعد
الإنسان وقد سبق أن شرب لبن البقر مع الزبد والسكر يقطع القوب والجرب وسائر العلل السوداوية

والكلف

والكلف اطله بما يوافق فان * بالحبة السودا خلطه يزن

أي واما الكلف وهو تغير لون الوجه وكثيرا ما يعرض لاصحاب حمى الربع وهي الثالث اذا طال مكثها بهم ولاصحاب الصرع ولا سيما الحوامل لاجتماع فضول الطمث بهن فعلاجه ان يطلى على الوجه الصابون فان خلط بدقيق حبة السودا كان احسن ه

والبهق اجعل ما يسيل من كلا * معز شونيز كبريت طلا

أي واما البهق وهو نوع من البرص الا انه اخف منه وسببه البلغم برودة مع يبس فعلاجه ان يطلى عليه ما يسيل من كلا المعز اذا شوي وذر عليها الكبريت مسحوقا ه

والجرب احم واعتمد وبطلا * عليه كبريت ودهن يخلا

أي واما الجرب فسببه زيادة خلط سوداوي وهو عند العرب شديد الاعداء فعلاجه بان يحمى عن الاغذية اليابسة وحمله الحارة الرطبة وقد ثبت ان ابلغ الاغذية لقطع الجرب وسائر العلل السوداوية شرب لبن المعز مع ترك السكر ويطلى عليه الكبريت المغلي في زيت او سليط مرات ه

وللثاليل اطلي صفح البقر * او دهن بان نافع اذا استمر ه

أي واما الثاليل وهي لحم ينبت في البدن كالمسامير وسببها زيادة خلط سوداوي فاسهل علاجها ان يطلى عليها صفح البقر وهو اخثاؤها او بدهن البان ويداوم على ذلك فيقلعها باذن الله تعالى ه

والربع وهي الثلث ايضا تجلب * حدوثها عن حميات تنشب

ما النوم مع اللوبيا وتحسين * غذاوه فتلك داء مزمن

أي واما حمى الربع وتسمى الخامسة الثلث لانها تنوب في اليوم الرابع لنوبتها ولانها تخلي يومين وتنوب في اليوم الثالث وسببها زيادة خلط سوداوي كامن في الجوف والغالب حدوثها بعد حميات مختلفة وتبتدئ ببرد شديد تصطك منه الاسنان وتكون بوله ابيض فعلاجها ان تجتنب شرب ما اللوبيا وهو الدجر الابيض اي مرقه المطبوخ فيه النوم وتحسن غذاءه بالاغذية الحارة الرطبة فانها علة مزمنة أي بطول مكثها لا سيما اذا حدثت في الشتاء وان حدثت في الصيف فامرها اخف ه

والشخص اذ يصير كالميت لما * زاد من الخلط الثقيل استحكما

فذلك السكتة فادهن واعركا * جميعه بالدهن عم المسلكا

والثوم فيه ثم تحت الظفر * فانخسه بالابرة كيما يدري

حياته فاغسله بالسخن * والغذا ان يخش فليخشن

أي واما السكتة فهي ان يصير الشخص كالميت من غير حركة ولا كلام وسببها زيادة خلط سوداوي غليظ مستحكم

وللأجحا بدهن جميع بدنه بالزيت أو السليط المغلي فيه المصطكي والنوم ويحرك بدنه تحريكا جيدا ثم يمسح الدهن فإن تحرك ولا يحس تحت ظفره بإبرة لتعلم حياته من موته فإن لم يتحرك فذلك من أمارات الموت وإن تحرك فليغتسل بالماء المسخن فإذا أفاق فليحسن الغذا باعتماد الأغذية الحارة الرطبة ☉

وخدر الراس بأن يحسا … فيه وفي العينين أيضا يبسا

وقلة نوم ثم ربما هذى … وغاب العقل إذا ما استحوذا

فداوها بزبدة والأشهر … سمن وسكر وبيض أصفر

أي وأما خدر الراس فهو أن يحس الإنسان في راسه وعينيه يبسا مع قلة نوم وربما هذى صاحبها وخلط في الكلام من غير شعور وإذا استحكم واستولى على العقل وهو أشرف ما في الإنسان وسبب ذلك زيادة خلط سوداوي ويبس في الدماغ وعلاجه بأكل المرطبات عند النوم وهي أنواع كثيرة من الحلوى والأشهر عند الناس أن يؤخذ السمن والسكر وصفرة البيض أجزاء متساوية ويطبخ على نار لينة ويحرك تحريكا جيدا حتى ينعقد الجميع ويصير كالحلوى ويستعمل فإنه يرطب الدماغ ويزيد في جوهر العقل والبصر

وداو مصروعا بحسن الطعم … وصن عن الهوا وادهن وأجم

عن يابس وأكل تمر مستمر … وليحذر الصبحة والجوع المضر

أي وأما المصروع وسببه زيادة خلط سوداوي ردي وأكثر ما يهيج في أوقات الرياح والغيوم والأمطار فيدب من القدم إلى الراس فإذا وصل الدماغ صرع الإنسان فعلاجه باستعمال الأطعمة الحارة الرطبة الدسمة وصيانته عن الهوى في أكثر أحواله ولا بأس له بالبيت المظلم ويجاود دهن دماغه وسائر بدنه بالسليط والزيت ويحتمي عن المطاعم اليابسة والحامضة والمالحة وكذلك يحتمي عن الاستمرار على كثرة أكل التمر وليحذر من الصبحة وهي الجلوس على الريق وعن الجوع المفرط فهو يضره ☉

ثم العشى وذاك إظلام البصر … ليلا ومنا من يسميه الجهر

بنابل كبد معز يكحل … قد شوي وذر فيها الفلفل

وادهن دماغه بزبد البقر … وأدسمن غذاءه وكرر

أي وأما العشا وهو بفتح العين مقصورا فهو أن لا يبصر ليلا والجهر أن لا يبصر بالنهار وأهل جهتنا يسمون من لا يبصر بالليل جهرا وقل أن لا يوجد عندنا من يبصر ليلا ولا يبصر نهارا ☉

وسبب

وسبب الحفا زيادة خلط سوداوي وعلاجه ان يكتحل بالبسيل من كبد العنز المشوية بعد ان يذر عليه قليل فلفل مسحوق سحقا ناعما ويدهن دماغه بدهن البنفسج ويجتنب المطاعم الدسمة وكثرة الجماع

وبابس السعالا فيه يجدي ﴿﴾ شراب اللوبيا بالقند

اي واما السعال فسببه زيادة خلط سوداوي في الصدر والرئة وعلامته ان يخرج عند السعال نفث بلغم وعلاجه بالملينات واحسنها مرق اللوبيا وهو الدجر الابيض مع القند وهو السكر الاحمر ومعنى يجدي اي ينفع

وللجذام قبل ان يستحكما ﴿﴾ اعاذنا من شره رب السما

نقاعة الحنا شرابا وليجد ﴿﴾ غذاءه وليحم اقصى ما يجد

اي واما الجذام والعياذ بالله منه فسببه استحكام علة السوداء وانتشارها في جميع البدن وعلاجه انما يكون قبل استحكامه وعلامة استحكامه تجرد الصوت وتاكل الاطراف فاذا ظهرت مباديه وهي تغير اللون باحمراره او لاه اسوداده وتتابع الرواحم وكثرة الخيالات الردية وربما كان على هيئة الفلوس الكبار الى ان يصير يرى في الجسم وتعتريه سوء الخلق وضعف البصر وكثرة الاحلام الردية فمن ادويته المشهورة النافعة المجربة السهلة شرب نقاعة الحنا وذلك ان يوخذ من ورق الحنا وزن عشر مثاقيل دعوقيه وينقعه في الليل في نحو رطل ماء ويشربه على الريق يفعل ذلك سبع ليال مع ايجاد الغذاء والاحتماء اقصى ما يمكنه ولحسن الاغذية لمثله شرب لبن البقر مع الزبد والسكر ولحمي عن كل بارد يابس يحصل الشفا باذن الله تعالى

فصل في العلل الدموية

والدم منه فترة الحواس ﴿﴾ تمدد وبطئ وصداع راس

فاستعمل الخل وحامض اللبن ﴿﴾ على خمار دره من شرات

يحمد عين ثم يتلوها الرمد ﴿﴾ والجدري والدماميل عدد

وافزع الى الفصد مع الحجامة ﴿﴾ حينئذ تستدرك السلامة

اي واول مبادي العلل الدموية اذا هاجت طبيعة الدم بكثرة الاغذيه الدموية الحارة الرطبة كالطبائخ الدسمة والحلوى والتمر والعسل لاسيما اذا كان المزاج دمويا وكان الوقت فصل الربيع فحينئذ تتحرك طبيعته من الجوف الى القلب والدماغ ثم الى ساير البدن بحاله غير معتدل فيحدث منه فترة الحواس وصداع شديد وانتفاخ الجسم وينبغي حينئذ

لحومها

المبادرة الى تعديل المزاج باستعمال شرب الخل واكل الحوامض كاللبن الحامض على خبز الذرة او
ان تساهل ادى الى حدوث العلل الدموية كحمرة العينين ثم يعقبها الرمد وكالجدري والدماميل
بسبب ما به هاهنا زيادة الدم فيحتاج حينئذ الى العلاج جملة بالفصد والحجامة وتفصيلا لما يذكره
بكل علة بخصوصها

فالعين صنها عن يد وليلزم ، في الرمد المكث ببيت مظلم
وذر فيها بعد نضجه التنشم ، وبزلال البيض سكن الالم

أي وأما الرمد وعلامته ان يسبقه حمرة العينين ثم يعقبها عظم عروقها وكثرة الرطوبة
ويحس كان فيها حصاة تذود وسببه زيادة خلط دموي فعلاجه ان يصون العين اذ لا عن
الحك باليد فانه اضر شيء على الرمد وان يلزم الشاكي في بيت مظلم فاذا نضج الرمد فليذر
في العين التنشم بالنون والشين المعجمة وهو حبة العين يسحق فدرين ويذر عليها يحصل الشفا
ان شاء الله تعالى واذا اشتد الالم فليسكنه بزلال البيض في قليل قطن ويوضع على العينين

وفي مبادي الجدري بادر ، بالحجم واشرب حامضا وحاذر
من ضده واللحم ايضا واللبن ، وامنع من الغسل ومن دهن البدن
وخضب الرجل بحنا يتقى ، وقوعه في العين والخضيب واسبق
واطل جميع الجسم حتى يظهر ، بالصندل والقرم به يبخر

أي وأما الجدري ويسمى ايضا القطيب وسببه زيادة دم غليظ وقل ان يسلم منه احد من الناس
وعلامة ظهوره ان يتقدمه وجع الظهر وحمرة الوجه والعين وكثرة التثاوب والتمطط
وبحة الصوت مع حمى مطبقة وسعال يابس وصداع فينبغي لمن احس بمباديه ان يبادر بالحجامة
قدر ما تحتمله قوته ويعتمد على شرب الحوامض واكلها ويحتمي من اضدادها وهي الحلاوات كلها
ومن اللحوم ايضا ومن الالبان وليمتنع ايضا من الاغتسال ومن دهن البدن فكل ذلك مضر به
واذا خضب باطن القدمين بالحنا وقاه من خروج الجدري في العينين فينبغي له ان يبادر الى ذلك
قبل خروج الجدري فاذا ظهر الجدري فعلاجه ان يطلى جميع البدن بالصندل بالصاد
لهما وهو ما اللبن الحامض ويبخر بالقرم بالقاف وهو شجر الطرفا فانه ينتفع به نفعا عجيبا

واطل دهن حلبة وبر ، تظفر بحرد دمل بالعجر

أي وأما الدميل وسببها زيادة دم فاسد محتقن تحت الجلد يجتمع في الموضع الذي يخرج منه
الدم ويصير لحم فعلاجه ان يطلى على الدماميل ليلا دهن الحلبة مع دقيق البر وهو
الحنطة بحيث ان يتسلط فانه يصبح الدم ويصير قيحا فاسدا فحينئذ يسهل خروجه

والجراح

واستخراج ما فيه اذا أصبح

فصل في العلل البلغمية

ودٌ في مبادي البلغم ارتخاء ❊ مفاصل وثقل الاعضاء
فبادر المزاج بالتعديل ❊ بعسل ونحو زنجبيل
خشيه حمي مطبق او بخر ❊ أو عسر طلق أو بياض البصر
أو برص وقبئه او فالج ❊ أو غيرها ومالى مخارج
كالضرس والفوق والزكام ❊ ونحوها من سائر الاسقام
فخذه من مذفات الكتب ❊ واستشف بالله العظيم الرب
فما الضرر منه سواه كشف ❊ وانما على الطبيب الوصف

أي داء لمبادي العلل البلغمية اذا هاجت الطبيعة بكثرة اكل الاغذية البلغمية وهي البارده الرطبه كاللبن النافع والسمك الطري والفواكه لاسيما اذا كان المزاج بلغميا أو كان ذلك في فصل الشتاء ان بنحر الطبيعة ببخار ردي رطب غير معتدل فيصعد الى القلب والدماغ ثم ينعكس الى ساير البدن فيحصل بسبب ذلك استرخا في المفاصل وثقل في الاعضاء فحينئذ ينبغي المبادرة الى تعديل المزاج بالاغذية الحارة اليابسه كالعسل والزنجبيل والفلفل والدارصيني الشاهل اذى الى حدوث الامراض البلغمية كالحمى المطبقه والبخر وعسر الطلق عند الولادة وبياض العينين والبرص والفالج وغيرها من الامراض السوداوية كالجرب والسكتة والسعال الرطب لاشتراكها في طبع البروده كما يحدث من زيادة الصفراء عند لحيا فيها كثير من العلل السوداوية ايضا لاشتراكها في اليبس

فمره في ابتدا حمى مطبق ❊ بالخل واشهد وامافليق
والسويق والخفيف اعتمد ❊ ونشرب السخن ودع ما برد

اي واما الحمى المطبقه بفتح البا وكسرها ايضا وهي اعظم الاسقام خطرا وسببه زيادة خلط بلغمي كامن في الجوف فعلاجها في ابتدايها ان ينقيا بالخل والعسل كل يوم وبعد اكل السويق غداء فان احتاج زيادة في الغداء فليعتمد الخفيف من الاغذية كماء الحنطة ومرق الفراريج ولبن المعز المطلع على النار ولا يشرب الماء الا مسخنا ويدع البارد من الماء شربا وغسلا ومن الاطعمه ايضا

والطلق فاسقها بما ❊ ثلاث من قرفة دراهما

اي واما عسر الطلق فاذا اشربت المحسوره وزن ثلاث دراهم من القرفة وتسمى ايضا الدارصيني بالماء سهل الولادة في الحال ان شاء الله تعالى

ولبياض العين زبد البحر ، كحلا وتقطير اللبان الشحري ،
من بعد حكه بما والعسل ، بالزبد امجي ثم بالصبح اكتحل ،
وان يقدم انكباب في الما ، مسخنا ليلا يكن اتماما ،

أي واما بياض العين واصله ماء ابيض ينزل من الدماغ بسبب زيادة الخلط البلغمي فيغشي الناظر بغشاوة بيضاء فكحلا جراما بالوتح ويحتاج الحكيم ماهر واما بالكحالات ومن المجربات لذلك ان يسحق زبد البحر ناعما ويعجن بالعسل الصافي ويكتحل به بعد الصبح أي يكحل اللبان الشحري بالماء ويقطر في العين بقطنة فان يقدم على ذلك الانكباب في الماء الساخن ليلا كان اتم نفعا في جميع الكحالات وصفته ان يسخن الماء في قدر ويلف على راسه ثوبا ويشرف العليل فيه ليرجع البخار الى عينيه ثم ينام ويصبح فيستعمل ما شاء من الكحالات يكون ابلغ في التاثير

والبرص ابدا في سوا المستحكم ، بسهل البلغم ثم ليحتمي ،
واغتذ الخبز بسمن وعسل ، والثوم والشبهه على الريق كل ،
وليطل بعد الدلك بماء البصل ، من بعد ان يشوى وبزر الفجل ،

واما البرص وهو بياض معروف يسري في البدن وهو علة مزمنة وسببه زيادة خلط بلغمي واذا استحكم عسر علاجه وعلامة استحكامه انه اذا نخس بالابرة يخرج منه ماء ابيض وغير المستحكم يخرج منه دم احمر فعلاجه ان يبدأ بسهل البلغم وقد سبق ان شربة السناء والملح والاهليلج يسهل البلغم والصفراء والسوداء ثم يحتمي مما يزيد في علته من الاغذية الباردة الرطبة ويعتمد خبز الحنطة على السمن والعسل وياكل كل يوم على الريق العسل بالثوم ويطلي على موضع البرص كل يوم بزر الفجل المسحوق وهو البقل المعجون بماء البصل المشوي بعد ان يدلكه بشملة ونحوها حتى يحمر ويترك يوما وليلة ثم يجا ودا الطلا

والفالج اعركه بدهن قد غلي ، بالفلفل المسحوق وليستعمل ،
سحق الغذا مخثما واكلا ، بالصبح حلتيتا معا وعسلا ،
والعضو فليدهنه وليحتجم ، ان خصه من غير اخراج الدم ،

أي واما الفالج فهو ان يبطل جميع بدن الانسان او بعضه من الحركة والاحساس وسببه غلبة الرطوبة والبرودة وهو مخوف عند هيجانه لانه ربما اطفأ الحرارة الغريزية واهلك واذا استمر فليس بمخوف سواء كان معه رعشة ام لا وعلاجه ان عم جميع البدن او احد شقيه ان يسحق الفلفل الاسود ويغلي في زيت او سليط حتى يستخرج خاصيته

ثم

ثم يدهن به المفلوج ويحرك عن كانسه بذا دالبر البكون ذلك بكرة وعشية ويجتنب الأغذية
الحارة كلحم الغرانيج ويحتمي من الأغذية الباردة وليكثر من اكل الحلتيت بالعسل على الريق وان
خص الفالج عضواً من الاعضاء فليحجمه بمحاجم منو البة من غير شرط واستخراج دم ثم يدهنه
بعد ذلك والله اعلم ⊙ **فهذا آخر ما يسره الله تعالى من ذكر ما يحصل**
جمله من أصول علم الطب في هذه الثلاثة الابواب التابعة ولو اراد بسط ذلك ففي كل باب
منها كتب مدونة بل كل باب منها مفرد بالتصنيف كالمفردات لابن البيطار وخواص الاغذية
والادوية وانفق من لا بد له لانحزاره في العلل وعلاماتها واسبابها وعلاجاتها
وكثير من العلل يكون خارجة غير حادثة بزيادة احد الطبائع الاربع بل اما هو آلام وعاهات
كالضرس واللقوة والزكام ووجع الاذن وطرفة العين ودبة الصدر والكسر
والجراحات ونحو ذلك ومحل ذلك الكتب المبسوطة إذ الغرض من هذه المنظومة الاقتصار
على اصول الفن ليخرج الانسان عن حيز الجاهلين به فالمرء عدو ما جهله وينبغي ان لا يكون
عداوة العلوم النافعة ومع ذلك كله فاعلم واعتقد ان الشفاء امره موقوف
على مشيئة الله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير
فهو على كل شيء قدير ⊙ فالطبيب الماهر ليس يشترط عليه ان يبرئ العليل فضلا
عن ان يزيد في عمره ولكن عليه ان ينظر في العلة وحال المريض ويصف له العلاج ان
رآه يحتمله ولا افسد وعلى العليل مساعدة الطبيب فيما يأمره به من الغذاء
والاحتماء والدواء والله سبحانه خالق العلة والشفاء ⊙ علم

وهذه كافية ذوي النهى ⁕ والمقتصد [illegible]
فاعن بها فحافظ الأصول ⁕ لا بد أن يرقى إلى الوصول
والحمد لله على التمام ⁕ وأفضل الصلاة والسلام
على النبي المصطفى مع علي ⁕ أتباعه في آخر وأول

فاعتن بالحاء المهملة من العناية وهي الاهتمام بالشيء فمن حفظ الاصول حري كل الحري بأن يرقى
الى الوصول الى فروعها ومن ضيع الاصول حرم الوصول ⊙ وختم الناظم كما شيخنا
محمد البرتلي وان دفتاه بالصلاة والسلام على النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم مع
اتباعه من الآل والصحب ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ⊙ وهذا آخر ما كنت نقول في

ونعم
سبحانه

آخره أولا ما فاتني من الصلاة في أول النظم لارتباط الكلام هناك بالثناء على الله
وذكر عجائب مصنوعاته والحمد لله رب العالمين
قال المؤلف رضي الله عنه وأعاد من بركاته وفرغت من تعليقها نظما وشرحا ضحى يوم الجمعة
المبارك التاسع والعشرين من شهر الله المحرم الحرام شهر عاشوراء أول شهور
سنة عشر بعد تسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام
والحمد لله كما يحب ويرضى لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه فله الحمد حتى يرضى

فرغ من زبره وقت صلوة ظهر يوم الاربعاء ١٣ من شهر المحرم الحرام غاية سنة ١٠٩٧

يوم من مقابلته بعد عصر يوم الجمعة غاية شهر المحرم الحرام غاية السنة المذكورة على الأم ودونها نسخه

كتاب فتح الخالق في أنت تالق
بالتاء للشيخ الإمام العالم العامل المحقق
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
نفع الله به آمين

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الثقة وعليه التوكل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى
وقع السؤال عمن قال لزوجته أنت تالق بالتاء بدل الطاء هل يقع به طلاق فأجبت
الذي عندي أنه إن نوى به الطلاق وقع سواء كان عاميا أو فقيها ولا يقال أنه بمنزلة ما لو قال
أنت نالق أو ناتق فإنه لا يقع به شيء لأن حرف التاء قريب من مخرج الطاء ويبدل كل منهما من الآخر
في كثير من الألفاظ فأبدلت الطاء تاء في قولهم طرحت يده وترحت يده أي سقطت وطرب يده بالسيف
قطعها وترها أي قطعها وأندرها والتقطر التهيؤ للقتال والتقتر لغة فيه ويقال في
القنطرة تنترة بإبدال القاف كافا والطاء تاء وفي القسط كست كذلك ويقال في ذأطه أي
خنقه أشد الخنق حتى دلع لسانه ذأته بالتاء ويقال غلط وغلت لغتان ويقال في
القسط قست فتتبع في ألفاظ أخر مذكورة في كتب اللغة والكتب المؤلفة في الإبدال وأبدلت
التاء طاء في نحو مصطفى ومضطر ومطعن ومطلطلم وأكثر ما الحصا لا يخفى فثبت بذلك
أن التاء والطاء حرفان متعاوران وينضم إلى هذا الوضع العربي مع النية العرف فإنه
مشهور ذلك في ألسنة العوام كثيرا ولشهرة اللفظ في الألسنة مدخل كبير في الطلاق
اعتبره الفقهاء في عدة مسائل فهذه ثلاثة أمور مقوية لوقوع الطلاق في هذا
ثم إن كان اللافظ بذلك عاميا اجتمع أمر رابع في التقوية فإن قال قائل هذا اللفظ

لثبوت

لبس من الفراغ ومن الكنايات فلا يقع به شيء قلنا اقل مراتبه ان يكون من الكنايات فان
اصل اللفظ بالطلاق صريح وصرح الحجر الكناية بابدال ... فالطلاق وبؤيد ذلك من المنقول
عام وخاص فالعام قال في الروضة فرع اذا اشتهر في الطلاق لفظ سوى الالفاظ
الثلاثة الصريحة كحلال الله علي حرام او انت علي حرام او الحلال علي حرام ففي التحاقه
بالصريح اوجه اصحها نعم لحصول التفاهم وغلبة الاستعمال وهذا قطع البغوي وعليه
بنطبق فتاوي القفال والقاضي حسين والمتاخرين والثاني لا ورجحه المتولي والثالث
حكاه الامام عن القفال ان نوى شيئا اخر من طعام وغيره فلا طلاق واذا ادعاه صدق
وان لم ينو شيئا فان كان فقيها يعلم ان الكناية لا تعمل الا بالنية لم يقع وان كان عاميا
سالناه عما يفهم منه اذا سمعه من غيره فان قال يسبق الى فهمي منه الطلاق حمل على
ما يفهمه والذي حكاه المتولي عن القفال انه ان نوى غير الزوجة فذاك والا فيقع
الطلاق للعرف قلت الارجح الذي قطع به العراقيون والمتقدمون انه كناية مطلقا
والله اعلم واما البلاد الذي لم يشتهر فيها هذا اللفظ للطلاق فهو كناية في حق اهلها بلا
خلاف انتهى فانظر كيف ضبط الفرع بضابط وهو ان يشتهر في الطلاق لفظ ولم يخصه
بلفظ دون لفظ ولا بطرف احد اختصاصه بلفظ الحلال علي حرام ونحوه فانما ذكره على
سبيل التمثيل فالضابط لفظ يشتهر في بلد وفي استعماله في الطلاق وهذا اللفظ
اشتهر في السنة العوام استعماله فيه فهو كناية في حقهم عند النووي وصريح عند الرافعي
واما في حق غيرهم من الفقهاء وعوام بلد لم يشتهر ذلك في لسانهم فكناية ولا يا بي انه
صريح فان نظر ناظر الى ان الفقهاء لم ينبهوا على ذلك في كتبهم قلنا الفقهاء لم يستوفوا كل الكنايات
بل عددوا منها جملا ثم اشاروا الى ما لم يذكروه بضابط وقد استنبط البيهقي
من حديث قول ابو جهم لامراة ابنة اسمعيل عليهما السلام قولي له يغير عتبة بابه ان
هذه اللفظة من كنايات الطلاق ولم ينص على هذه اللفظة احد قبله ولعل الفقهاء انما سكتوا
عن التعرض للفظة ثالق لكونها لم تقع في زمنهم وانما حدث ذلك في السنة العامة من
المتاخرين واما من قال ان القاف من التلاق وهو معنى غير الطلاق فكلامه اشد سقوطا
من ان يتعرض لرده فان التلاق لا يبنى منه وصف على فاعل واما الخاص
ففي الروضة واصلها في مسائل منثورة عن زيادات العبادي ولو قال انت طالق
وترك القاف طلقت حملا على الترخيم وقال البوشنجي ينبغي ان لا يقع وان نوى فان
قال يا طال ونوى وقع لان الترخيم انما يقع في النداء فاما في غير النداء فلا يقع

لانادرا في الشعر انتهى وابدال الحرف اقرب الى الوقوع من حذفه بالكلية ه قال الاسنوى
في الكوكب ولم يبين الرافعي المراد بهذه النية فيحتمل ان يكون المراد بها نية الطلاق
وان يكون المراد نيه الحذف من طالق قلت فان اريد الاول كان كناية
والثاني كان صريحا فان قلت الحذف معهود لغة وفقها ففي اي فرع اعتبر الفقهاء
الابدال قلت في فروع قال الاسنوى في الكوكب ابدال الهاء من الحاء لغة
قليلة وكذلك ابدال الكاف من القاف فمن فروع الاول اذا قرا في الفاتحة
الحمد لله بالهاء عوضا عن الحاء فان الصلاة تصح كما قاله القاضي حسين في باب صفة
الصلوة من تعليقه ونقله عنه ابن الرفعة في الكفاية واما الثاني فمن فروعه اذا
قرا المستقيم بالقاف المعقودة المشبهة للكاف فانها تصح كما ذكره الشيخ نصر المقدسي
في كتابه المقصود والروياني في الحلية ونقله عنه النووي في شرح المهذب
وجزم به ابن الرفعة في الكفاية قال الاسنوى فالصحيح في امثال هذه
الامور لاجل وجود ذلك في اللغة وبقاء الكلمة على مدلولها اظهر بخلاف الاتيان
بالدال المهملة في الذين عوضا عن المعجمة فان اطلاق الرافعي وغيره يقتضي
البطلان وانه لا يأتي فيه الخلاف في ابدال الضاد ظاء وشبهه عند التمييز
في المخرج انتهى فصل فان لم ينو به الطلاق فلا صريحا لان احدهما
ان ينوي به الفرق عن الطلاق ولا شك انه لا يقع شيء في الحالة هذه ولو قيل
بان ذلك يقبل من الفقيه ويدين فيه العامي فيؤاخذ به ظاهرا ولا يقع باطنا
لم يكن ببعيد وهذا لا يأتي على القول بانه كناية لان الكناية لا تتعين فيها
وانما يأتي ان جعلناه صريحا وهو قوي جدا اما على راي الرافعي في اللفظ
الذي اشتهر فواضح واما على ما صححه النووي فهذا لمن تامل اقوى من لفظ
حلال على حرام فان ذلك لفظ اخر غير لفظ الطلاق يحتمل معاني
واما لفظ تالق فلا يحتمل معنى اخر وانما هو لفظ الطلاق ابدل منه حرف
بحرف يقاربه في المخرج ويؤيد جعله صريحا ما اشار اليه الاسنوى
في نسبة العلو ارادة بنية الحذف او الطلاق ويؤيده تصحيح الصلاة
بالهمزية فانه صرح بان الحرف المبدل قام مقام الحرف المبدل منه
من كل جهة فيستمر اللفظ على صراحته كما استمر ذلك اللفظ معتدا به في
القراءة بل ولا ابطال الصلوة وابطالها بسقوط حرف من الفاتحة

أضيق وباب المؤاخذة أشد ضيقا فإن المرأة لا تحرم بالمعنى ولا بالمراد فقط ولا بالفساد
الذي تقرى به في الجملة ولم يقل أحد قط أنها تحرم بإرادتها فقولهم بالصيغة والحالة هذه لمجرد
الإبدال بالحرف المقارب أدل دليل على أن الإبدال ما دام لا يخرج اللفظ عن معنى
الموضوع له فانشرح الصدر بذلك إلى القول بصراحة هذا اللفظ والله أعلم ولا يلزم من
طرد ذلك الفقيه لأن هذه الإبدال ليس من لغته ولا من عادته فقيل قوله في عدم
إرادته وكان في حقه كالكناية لا تعمل إلا بالنية الحال الثاني أن لا ينوي شيئا
بل يطلق فالوقوع في هذه الحالة في حق العامي ظاهر له وجه مأخذه الصراحة
أو الشبه بالصراحة وأما ظاهرا فأقوى بل ينبغي أن يجزم به وفي حق الفقيه محل توقف
فرع أما لو قال علي التلاق بالتاء فهو كناية قطعا في حق كل أحد العامي والفقيه
فإن نوى فطلاق وإلا فلا والفرق بينه وبين تالق أن تالق لا معنى له يحتمله والتلاق له معنى
محتمل فرع ولو قال أنت دالق بالدال فيحتمل أن يأتي فيه ما في تالق بالتاء لأن الدال
والطاء أيضا متقاربان إلا أن هذا اللفظ لم يشتهر في الألسنة كاشتهار تالق
فلا يمكن أن يأتي فيه القول بالوقوع مع فقد النية أصلا مع أن الدالق بمعنى غير الطلاق ويقال
سيف دالق إذا كان سلس الخروج من غمده ورجل دالق كثير الغارات فرع ولو
قال أنت طالق بالقاف المعقودة قريبة من الكاف كما يلفظ بها العرب فلا شك في الوقوع
فلو أبدلها كافا محضة فقال طالك فيحتمل أن يكون كالوجه في تالق بالتاء لما أنه يحقه
عنه بعدم الشهرة على الألسنة فالظاهر أنه كدالق بالدال إلا أنه لا معنى له يحتمله وقلب
القاف كافا كثير في اللغة وقد قرئ وإذا السماء كشطت وقشطت وتقدم أنه يقال في
قسط كشط وفي قحطه كحطه فرع فلو أبدل الحرفين فقال تالك بالتاء
والكاف فيحتمل أن يكون كناية إلا أنه أضعف من جميع الألفاظ السابقة ثم إنه
لا معنى له ولو قال دالك بالدال والكاف فهو أضعف من تالك مع أن له معاني
محتملة منها المماطلة للغريم ومنها المساحقة يقال تدالكت المرأتان إذا تساحقتا
فيكون كناية قذف بالمساحقة والحاصل أن هذه الألفاظ بعضها أقوى من
بعض فأقواها تالق ثم تالك ثم دالق وفي رتبتها طالك ثم تالك ثم دالك وهي أبعدها
والظاهر القطع بأنها لا تكون كناية طلاق أصلا ثم رأيت المسألة منقولة في كتب
الحنفية في خلاصة الفتاوى رجل قال لامرأته أنت تالق أو تالاق أو
طالغ أو تالك عن الشيخ الإمام الجليل أبي بكر محمد بن الفضل أنه يقع وإن تعمد وقصد

ان لا يقع ولا يصدق قضاء ويصدق ديانة الا اذا اشهد قبل ان يتلفظ ... ان امرأتي
تطلب مني الطلاق ولا ينبغي لي ان اطلقها فاتلفظ بها قطعا لعنتها وتلفظ
ويشهدوا بذلك عند الحاكم لا يحكم بالطلاق وكان في الابتداء يفرق بين الجاهل
والعالم كما هو جواب شمس الائمة الحلواني ثم رجع الى ما قلنا وعليه الفتوى

تم وكمل والحمد لله على كل حال وصلى الله
على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

ام ام
ا

وللحافظ الذهبي في ضبط العشرة الذين اتفق اصحاب الكتب الستة على الرواية عنهم

بُنْدَارُ ابنُ المثنى الجهضمي ابو حفص عمرو وقتيبة وحسان
يعقوب والعنبري لعذرهم مناخ الثقة اعرضهم بإحسان